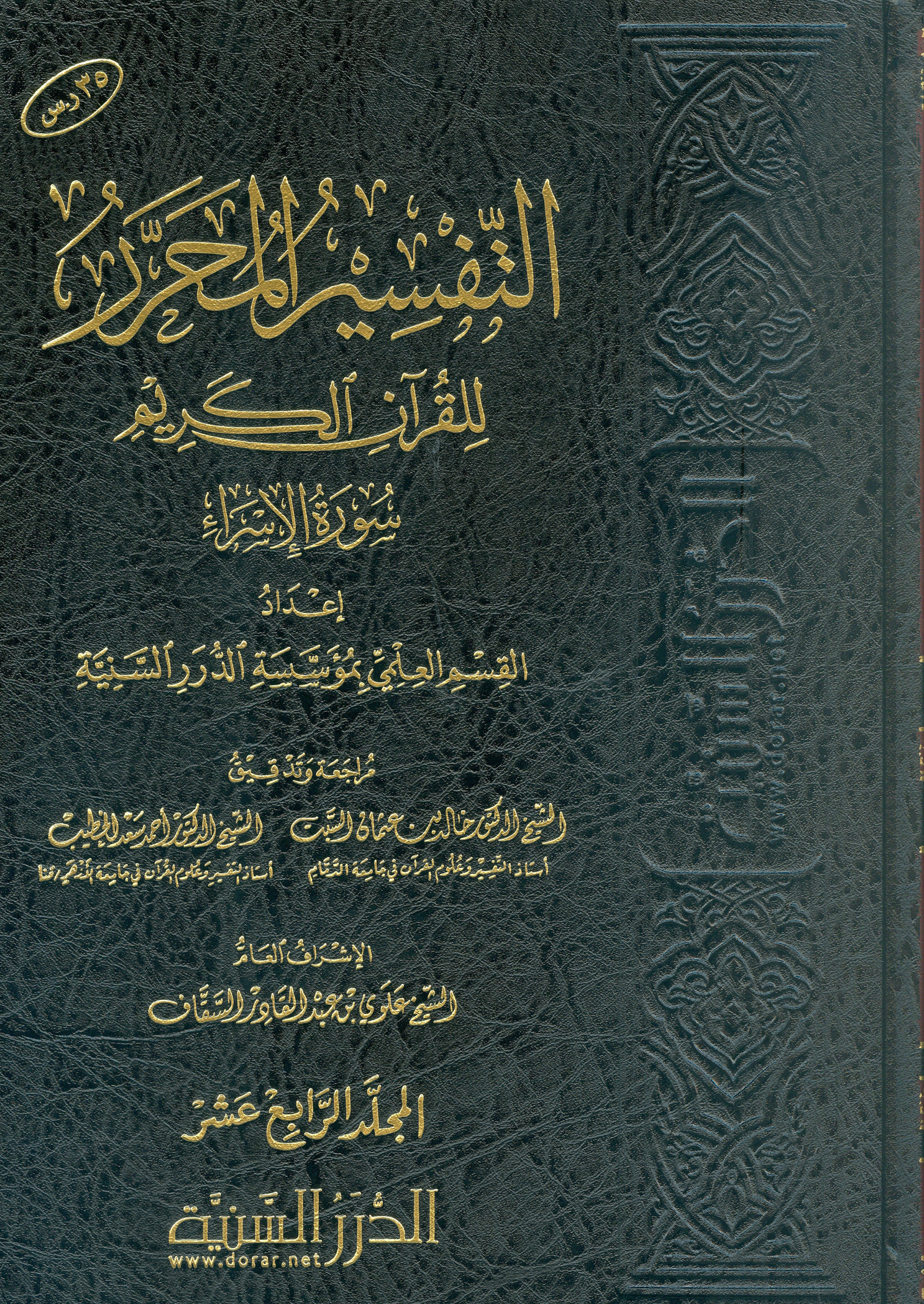
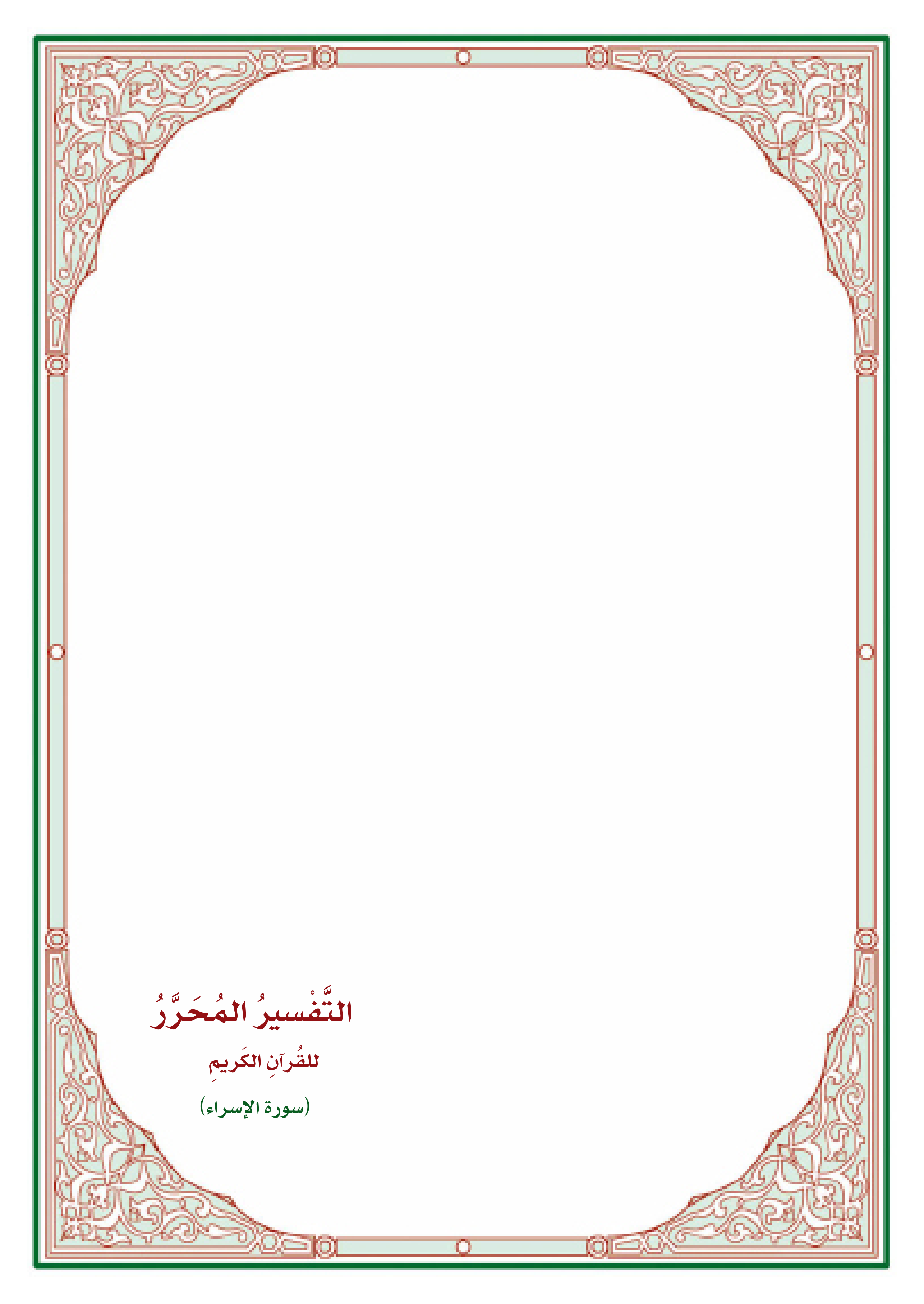


٢٥ درس
التفسير المحرر
للقرآن الكريم
سورة الإسراء
إعداد
القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية
مراجعة وتدقيق
الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (مصر)
الإشراف العام
الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف
المجلد الرابع عشر
الدرر السنية
www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الإسراء)



ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر: المجلد الرابع عشر: سورة الإسراء/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٣٩هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٦٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير　　أ- العنوان

ديوي ٢٧٢,٣　　١٤٣٩/٥٣٥٦

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٥٣٥٦

ردمك: ٥-٦٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

الدرر السنية
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية

ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨-بريدإلكتروني nashr@dorar.net



للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الإسراء)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

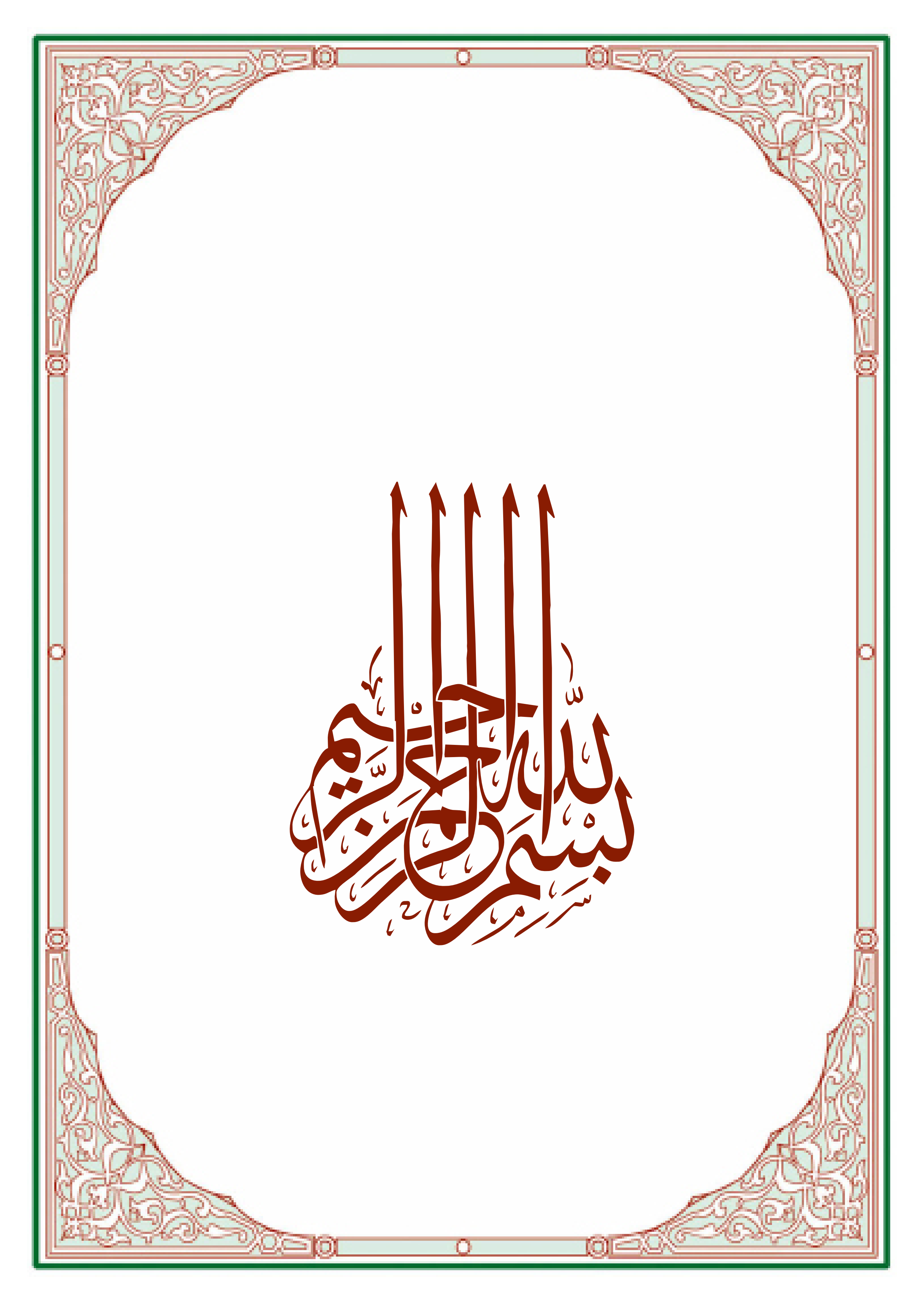
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر – قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الرابع عشر




بسم الله الرحمن الرحيم



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الإسراءِ







سورةُ الإسراءِ

أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ سُورةَ (بني إسرائيلَ)[١]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَ كُلَّ لَيلةٍ بـ «بني إسرائيلَ» و«الزُّمَر»))[٢].

٢- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: (سُورةُ «بني إسرائيلَ» و«الكَهفِ» و«مَريمَ» و«طه» و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[٣]، وهُنَّ مِن تِلادي[٤])[٥].

وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الإسراء) كما في كثيرٍ مِن المصاحِفِ[٦].

---

(١) وجهُ تَسميتِها بذلك أنَّه ذُكِرَ فيها مِن أحوالِ بني إسرائيلَ ما لم يُذكَرْ في غَيرِها، ولِقَولِه فيها: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٠) واللفظ له، وأحمد (٢٤٤٣٣)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٤). قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٧٥)، وحسَّنه ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٣/ ١٥٧)-، وجوَّد إسنادَه ووثَّق رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٢٠).

(٣) العتاق الأُوَل: أي: السُّور التي أُنزِلَت أوَّلًا بمكَّةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

(٤) تِلادي: أي: مِن أوَّلِ ما أخَذْتُه وتعلَّمْتُه بمكَّةَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧٣٩).

(٦) سُمِّيَت بذلك؛ لِذِكْرِها الإسراءَ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِها، واختُصَّت بِذِكرِه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ (سبحان)؛ لافتتاحِها به. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨).

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

فقد كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنامُ على فِراشِه، حتى يقرأَها كُلَّ لَيلةٍ، كما في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها المتقدِّمِ قريبًا.

٢- أنَّها مِن السُّوَرِ العَتيقةِ، ومِن قَديمِ ما حُفِظَ عند الصَّحابةِ:

كما في أثر عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه المتقدم قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الإسراءِ مَكِّيَّةٌ[1]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[2].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

١- تَرسيخُ أصولِ العَقيدةِ الإسلاميَّةِ، وتَنقيتُها مِن كُلِّ ما يَشوبُها[3].

٢- الحديثُ عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ مَوقِف المُشرِكينَ منه[4].

---

(١) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧)، ومِن آية (٧٣) إلى آية (٨٠) فمَدنيَّةٌ. وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ...﴾ [الإسراء: ١٠٧]. وقيل غيرُ ذلك.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٧).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ: بشيرُ بن حامد أبو النعمان -نسبه إليه أبو حيان-، ومجد الدين الفيروزابادي، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٤).

٣- بيانُ بعضِ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ المتضَمِّنةِ لقواعِدِ السُّلوكِ الفَرديِّ والجَماعيِّ[(١)].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- ذِكرُ الإسراءِ، وبَيانُ حِكمَتِه، والإشارةُ إلى المِعراجِ.

٢- ذكرُ الكتابِ الذي آتاه الله تعالى لموسَى عليه السلامُ؛ ليكونَ هدايةً لقومِه، وإخبارُ بني إسرائيلَ أنَّهم سيُفسدونَ في الأرضِ مَرَّتَينِ.

٣- بيانُ فضلِ القُرآن، وأنه يهدي لِلَّتي هي أقومُ، ويبشِّرُ المؤمنينَ بالأجرِ الكبيرِ.

٤- إثباتُ دلائِلِ تفَرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بآيةِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما فيهما مِنَ المِنَن على إثباتِ الوَحدانيَّةِ، وأنَّ كُلَّ إنسانٍ يكونُ معه كِتابُه قد سُجِّلَت فيه حَسَناتُه وسَيِّئاتُه.

٥- تقرير قاعِدة التَّبِعةِ الفَرديَّةِ في الهُدى والضَّلالِ، وقاعِدةِ التَّبِعةِ الجماعيَّةِ في التصَرُّفاتِ والسُّلوكِ.

٦- بيانُ سُنَّةِ الله سبحانَه في القُرونِ الماضيةِ الذين أهلَكَهم، وأنَّ عاقبةَ الترفِ والفسقِ الدمارُ والهلاكُ.

٧- بيانُ أنَّ سعادةَ الآخرةِ منوطةٌ بإرادتِها، وبأنْ يسعَى الإنسانُ لها وهو مؤمنٌ.

٨- الأمرُ بعِبادةِ الله سُبحانَه، وذِكرُ مُقَوِّماتِ الحَياةِ الاجتِماعيَّةِ مِن الإحسانِ للوالِدَينِ، وذَوي القُربى، والتوسُّطِ في إنفاقِ المالِ، والنَّهيُ عن قَتلِ الأولادِ، والنَّهيُ عن قَتلِ النَّفسِ وعن الزِّنا، والنَّهيُ عن التصَرُّفِ في مالِ اليَتيمِ إلَّا بالتي هي أحسَنُ حتى يَبلُغَ أشُدَّه، والأمرُ بالوَفاءِ بالعَهدِ، والوَفاءِ بالكَيلِ والميزانِ،

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٧٩).

والنهيُ عن أن يَقفُوَ الإنسانُ ما لا عِلْمَ له به.

٩- النهيُ عن اتخاذِ آلهةٍ معَ الله، وبيانُ الدليلِ على بطلانِ ادعائِهم أنَّ مع الله آلِهةً أخرى، والتنديدُ بعاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهِيَتِهم للبَناتِ.

١٠- بيانُ تَصريفِ الله سُبحانَه في القُرآنِ؛ ليتَذَكَّرَ النَّاسُ، إلَّا أنَّه لم يزِدْهم إلَّا نفورًا.

١١- ذِكرُ تَسبيحِ كُلِّ ما في الوجودِ لله سبحانَه.

١٢- ذكرُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ فيما يتعلَّق بالبعثِ، ودحضُها، وأمرُ المؤمنينَ بقولِ الكلمةِ التي هي أحسنُ.

١٣- ذكرُ قِصَّةِ الخَلقِ والتَّكوينِ، وتكريمِ آدَمَ بالأمرِ بالسُّجودِ له، ومَوقِفِ إبليسَ مِن ذلك، وإعلانِه مَوقِفَه مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وبيانُ أنَّ الشَّيطانَ ليس له سُلطانٌ على عِبادِ اللهِ المُؤمِنينَ.

١٤- بَيانُ أنواعٍ مِن نِعَمِ اللهِ في البَرِّ والبَحرِ، وأنه يَكشفُ الضُّر عَمَّن يَستَغيثونَ به، فإذا كشَفَ الضُّرَّ عنهم أعرَضوا.

١٥- ذكرُ تكريمِ الله لبني آدَمَ، وبعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ.

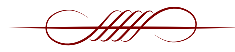
١٦- بيانُ تثبيتِ الله لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأمرُه بالمداومةِ على الصلاةِ، وعلى قراءةِ القرآنِ، وأن يَدعو اللهَ أن يُحسِنَ مُدْخَلَه ومُخْرَجَه، ويُعلِنَ مَجيءَ الحَقِّ وزُهوقَ الباطِلِ.

١٧- الثناءُ على القرآنِ وبيانُ إعجازِه، وذكرُ المطالبِ المتعنتةِ التي طالب بها المشركونَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ورَدُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا بأنَّه خارِجٌ عن وظيفةِ الرَّسولِ وطَبيعةِ الرِّسالةِ.

١٨- حكايةُ جانبٍ مِن قصةِ موسَى -عليه السلامُ- معَ فرعونَ.

١٩- بيانُ أنَّ هذا القرآنَ أنزَله الله تعالى بالحقِّ، وبالحقِّ نزَل، وأنَّه فصَّله وبيَّنه وأحكَمه ليقرأَه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الناسِ على تؤدةٍ وترتيلٍ، وأنَّه نزَّله مفرقًا، وأنَّ أهلَ الكِتابِ والعُلَماءَ الذين عرَفوا الوَحيَ والنبُوَّةَ إذا يُتلَى القُرآنُ عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّدًا خاشِعينَ لله.

٢٠- خَتمُ السُّورةِ بالأمرِ بحمدِ الله الذي لم يتَّخذْ ولدًا، ولم يكنْ له شريكٌ في الملكِ، ولم يكنْ له وليٌّ مِن الذلِّ، والأمرِ بتكبيرِه.



الآيات (١-٣)

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾: أي: جَعَلْنا حولَه البركةَ، والبركةُ هي: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشيءِ، وأصلُ (برك): الزِّيادةُ والنماءُ، والكثرةُ والاتساعُ[1].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرجلِ في مالِه هو الذي كفَلَه له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[2].

﴿ذُرِّيَّةَ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى. قيل: أصلُها مِن ذرَأ، أي: خلَق؛ لأنَّها خلقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها. وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللَّه تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧، ٣٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

قولُه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾: (أنْ) مصدريَّةٌ ناصِبةٌ، و(لا) نافيةٌ. والمصدرُ المؤوَّلُ مَنصوبٌ على نزعِ الخافِضِ، أي: لئلَّا تتَّخذوا، أو بألَّا تتَّخذوا. وقيل: (أنْ) مفسِّرةٌ لِما تضمَّنَه الكتابُ في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن الأمرِ والنَّهيِ، و(لا) ناهيةٌ جازمةٌ، وانصَرف الكلامُ من الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وجملةُ (لا تتَّخِذوا) تفسيريةٌ لا محلَّ لها.

قَولُه: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: منصوبةٌ على النِّداءِ، أي: يا ذريَّةَ مَن حمَلْنا. أو منصوبةٌ على الاختصاصِ. وقيل: منصوبةٌ على المفعولِ الأوَّلِ المؤخَّرِ لـ (تتَّخذوا)، والثاني هو (وَكِيلًا) فقُدِّمَ، والمعنى: لا تتَّخذوا ذريَّةَ مَن حمَلْنا مع نوحٍ مِن دوني وكيلًا. وقيل غيرُ ذلك[١].

المَعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى السورة بتنزيهِ نَفسِه عن كُلِّ ما لا يليقُ به سُبحانَه؛ فقال: سبحانَ الذي سيَّر عَبدَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جزءًا من اللَّيلِ، مِن المَسجِدِ الحرامِ بـ «مكَّةَ» إلى المسجدِ الأقصى بـ «بيتِ المَقدِس» الذي بارك اللهُ حَولَه بالزُّروعِ والثِّمارِ والأنهارِ وغَيرِ ذلك، وجعَلَه موضعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ؛ ثمَّ بيَّن الحكمةَ مِن الإسراءِ به، وهي أنَّه أسرَى به لِيُشاهِدَ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عَجائِبِ قُدرةِ اللهِ، إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو السَّميعُ البَصيرُ.

وبعدَ أن بيَّن الله سبحانَه جانبًا مِن مظاهرِ تكريمِه لنبيِّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أتبَع ذلك بالحديثِ عما أكرَم به نبيَّه موسَى عليه السلام، فأخبر أنه أعطى موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ، وجعَلَها هاديًا لبني إسرائيلَ؛ لئلا يتَّخِذوا غَيرَ

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٥).

اللهِ تعالى وليًّا أو مَعبودًا يفوِّضونَ إليه أمورَهم، ثم قال تعالى: يا سُلالةَ الذين أنجيناهم وحَمَلْناهم مع نوحٍ في السَّفينةِ، لا تُشرِكوا باللهِ في عبادتِه، وكونوا كأبيكم نوحٍ، واشكُروني على نِعَمي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾.

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

أي: تَنزيهًا لله[(١)] عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، الذي سيَّرَ عَبدَه مُحَمَّدًا[(٢)] في جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ[(٣)].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

(١) قال الشوكاني في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾: (هو مصدر سبَّح، يقال: سبَّح يسبِّح تسبيحًا وسُبحانًا... ومعناه: التنزيهُ والبراءةُ لله مِن كلِّ نقصٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٥).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (لا خِلافَ أنَّ المرادَ بعَبدِه هاهنا: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).

وقال الخازن: (أجمَعَ المفَسِّرونَ والعُلَماءُ والمتكَلِّمونَ: أنَّ المرادَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لم يختلِفْ أحَدٌ من الأمَّةِ في ذلك). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧).

قال ابنُ تيميةَ: (التسبيحُ يقتضي التنزيهَ والتَّعظيم، والتعظيمُ يستلزمُ إثباتَ المحامدِ التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهَه وتحميدَه وتكبيرَه وتوحيدَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٢٥).

وقال أيضًا: (﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾. والمرادُ بعبدِه عابدُه، المطيعُ لأمرِه؛ وإلَّا فجميعُ المخلوقين عبادٌ بمعنى أنَّهم معبَّدون مخلوقونَ مدبَّرون). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٠٣).

((أُتيتُ بالبُراقِ -وهو دابَّةٌ أبيضُ طويلٌ، فَوقَ الحِمارِ ودونَ البَغلِ، يَضَعُ حافِرَه عند مُنتهى طَرْفِه[١]- قال: فرَكِبْتُه حتى أتيتُ بيتَ المَقدِس، قال: فرَبَطْتُه بالحَلْقةِ التي يَربِطُ به الأنبياءُ، قال: ثمَّ دخلتُ المَسجِدَ، فصَلَّيتُ فيه ركعتَينِ، ثمَّ خَرَجتُ فجاءني جبريلُ عليه السَّلامُ بإناءٍ مِن خَمرٍ، وإناءٍ مِن لَبَنٍ، فاختَرْتُ اللَّبَنَ، فقال جبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اختَرْتَ الفِطرةَ. ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ، فاستفتَحَ جبريلُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدَمَ، فرَحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الثَّانيةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، فقيل: من أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَي الخالةِ: عيسى ابنِ مَريمَ، ويحيى بنِ زكريَّاءَ، صَلَواتُ اللهِ عليهما، فرحَّبا، ودَعَوَا لي بخير، ثمَّ عَرَجَ بي إلى السَّماءِ الثَّالثةِ، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَن أنت؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسُفَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذا هو قد أُعطِيَ شَطْرَ الحُسنِ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قال: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ الخامسةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، قيل: مَن هذا؟ فقال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بهارونَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ،

(١) عندَ مُنتهَى طَرْفِه: أي: أنَّه يضعُ حافرَه عندَ منتهَى ما يراه بطرفِه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٧/ ٣٥٦).

ثم عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّادسةِ، فاستفتحَ جِبريلُ عليه السَّلامُ، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بموسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرحَّبَ ودعا لي بخيرٍ، ثمَّ عَرَجَ بنا إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فاستفتَحَ جِبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: مُحَمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قيل: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ لا يَعودونَ إليه، ثمَّ ذهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتهى، وإذا ورَقُها كآذانِ الفِيَلَةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، قال: فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غشِيَ تغَيَّرَت، فما أحدٌ مِن خَلقِ الله يستطيعُ أن يَنعَتَها مِن حُسنِها! فأوحى اللهُ إليَّ ما أوحى، ففَرَض عليَّ خمسينَ صلاةً في كُلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزَلْتُ إلى موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما فَرَضَ ربُّك على أمَّتِك؟ قلتُ: خَمسينَ صَلاةً، قال: ارجِعْ إلى ربِّك فاسألْه التَّخفيفَ؛ فإنَّ أُمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فإنِّي قد بلَوتُ بني إسرائيلَ وخَبَرْتُهم، قال: فرَجَعْتُ إلى ربِّي، فقلتُ: يا رَبِّ، خَفِّفْ على أمَّتي، فحَطَّ عني خَمسًا، فرجَعْتُ إلى موسى، فقُلتُ: حَطَّ عني خمسًا، قال: إنَّ أمَّتَك لا يُطيقونَ ذلك، فارجِعْ إلى رَبِّك فاسأَلْه التَّخفيفَ. قال: فلَمْ أزَلْ أرجِعُ بين ربِّي تبارك وتعالى، وبينَ موسى عليه السَّلامُ، حتى قال: يا مُحَمَّدُ، إنهنَّ خَمسُ صَلواتٍ كُلَّ يَومٍ وليلةٍ، لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ، فذلك خمسونَ صَلاةً، ومَن همَّ بحَسَنةٍ فلم يعمَلْها كُتِبَت له حَسَنةً، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت له عَشرًا، ومَن همَّ بسَيِّئةٍ فلم يَعمَلْها لم تُكتَبْ شَيئًا، فإنْ عَمِلَها كُتِبَت سَيِّئةً واحِدةً. قال: فنَزَلْتُ حتى انتهَيتُ إلى موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْتُه، فقال: ارجِعْ إلى رَبِّك فاسألْه التَّخفيفَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فقُلتُ:

قد رَجعْتُ إلى ربِّي حتى استَحْيَيتُ منه))[١].

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

أي: مِن مَسجِدِ مكَّةَ -وهو البَيتُ العَتيقُ-[٢] إلى المسجِدِ الأقصى -وهو

---

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الإسراءَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان من المسجِدِ نفسِه: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٢٠).

قال الشوكاني: (﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال الحسنُ وقتادةُ: يعني: المسجدَ نفسَه. وهو ظاهِرُ القُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٦).

وقال ابنُ كثير: (إنَّ الثَّابتَ في «الصَّحيحينِ» مِنْ روايةِ شريكِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ أبي نَمِرٍ عن أنسٍ أنَّ الإسراءَ كانَ مِنَ المسجدِ مِنْ عندِ الحِجْرِ). ((البداية والنهاية)) (٤/ ٢٧٥).

وقيل: المرادُ بالمسجدِ الحرامِ: الحرمُ كلُّه، والحرمُ كلُّه مسجدٌ؛ وذلك لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أُسرِي به من بيتِ أمِّ هانئٍ، وذلك على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).

قال الشنقيطي: (الصحيحُ أن الإسراءَ وَقَع به مِن بيتِ أُمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالبٍ في مكةَ في الحرمِ لا في نفسِ المسجدِ). ((العذب النمير)) (٥/ ٤٠٥). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٨١).

وقال ابنُ عثيمين في الجمعِ بينَ حديثِ الإسراءِ مِن الحِجْرِ ومِن بيتِ أُمِّ هانئٍ، قال: (وعلى هذا فيكونُ الحديثُ الذي فيه أنَّه أُسرِي به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بيتِ أُمِّ هانئٍ -إن صحَّت الروايةُ- يُرادُ ابتداءُ الإسراءِ، ونهايتُه مِن الحِجرِ، كأنَّه نُبِّه وهو في بيتِ أمِّ هانئٍ، ثمَّ قام فنام في الحِجرِ فأُسري به مِن الحجرِ). ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١٢/ ٣٩٥).

وقال ابنُ حجر في الجمع بين هذين القولينِ وغيرِهما مما ورد في الرِّوايات الأخرى: (والجمعُ بين هذه الأقوالِ: أنَّه نام في بيتِ أمِّ هانئٍ وبيتُها عند شِعبِ أبي طالب ففُرِجَ سَقفُ بيته ... فنزل منه الملَكُ فأخرجه من البيتِ إلى المسجِدِ، فكان به مضطجعًا وبه أثَرُ النُّعاسِ، ثم أخرجه الملَكُ إلى بابِ المسجِدِ فأركبه البُراقَ). ((فتح الباري)) (٧/ ٢٠٤).

بيتُ المَقدِسِ-[1] الذي بارَكْنا حَولَه بالأنهارِ والأشجارِ والثِّمارِ، وجعَلْناه مَوضِعًا لكثيرٍ مِن الأنبياءِ والأصْفياءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ٧١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

---

(١) قال الرازي: (قَولُه: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ اتَّفَقوا على أنَّ المرادَ منه بيتُ المَقدِس). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٢).
وقال الواحدي: (وقيل له: ﴿ٱلْأَقْصَا﴾؛ لبُعدِ المسافةِ بينَه وبينَ المسجدِ الحرام). ((البسيط)) (١٣/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١٤).
وقال ابن جزي: (وسمِّي ﴿ٱلْأَقْصَا﴾؛ لأنَّه لم يكنْ وراءَه حينئذٍ مسجدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٠).
قال ابنُ الجوزي: (معنى ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أنَّ الله أجرى حولَه الأنهارَ، وأنبَتَ الثِّمارَ. وقيل: لأنَّه مَقَرُّ الأنبياءِ، ومَهبِطُ الملائكةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨).
وقال السعدي: (قوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: بكثرةِ الأشجارِ والأنهارِ، والخِصبِ الدَّائم، ومِن بركَتِه تفضيلُه على غيرِه من المساجِدِ سوى المسجِدِ الحرامِ ومسجِدِ المدينة، وأنَّه يُطلَبُ شَدُّ الرِّحالِ إليه للعبادةِ والصَّلاةِ فيه، وأنَّ الله اختَصَّه محَلًّا لكثيرٍ مِن أنبيائِه وأصفيائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).
وقال الشنقيطي: (المرادُ بأنَّه بارَك فيها: أنَّه أكثَر فيها البركةَ والخيرَ بالخصبِ والأشجارِ والثمارِ والمياهِ، كما عليه جمهورُ العلماءِ. وقال بعضُ العلماءِ: المرادُ بأنَّه بارَك فيها أنَّه بعَث الأنبياءَ منها). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٠).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨].

وعن جابرِ بنِ عبد اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَمَّا كَذَّبَني قُرَيشٌ قُمتُ في الحِجرِ، فجلَّى اللهُ لي بيتَ المقدِسِ، فطَفِقْتُ أُخبِرُهم عن آياتِه، وأنا أنظُرُ إليه))(١).

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

أي: أَسْرَينا بعَبْدِنا مُحَمَّدٍ مِن المَسجِدِ الحرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى؛ كي نُريَه(٢) ....

(١) رواه البخاري (٤٧١٠)، ومسلم (١٧٠).

(٢) قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندنا أن يقالَ: إنَّ اللهَ أسرى بعَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من المسجِدِ الحرامِ إلى المسجِدِ الأقصى، كما أخبَرَ الله عبادَه، وكما تظاهَرَت به الأخبارُ عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ الله حمَلَه على البُراقِ حين أتاه به، وصلَّى هنالك بمن صلَّى مِن الأنبياءِ والرُّسُل، فأراه ما أراه من الآياتِ. ولا معنى لِقولِ مَن قال: أَسرى برُوحِه دونَ جَسَدِه؛ لأنَّ ذلك لو كان كذلك لم يكُنْ في ذلك ما يُوجِبُ أن يكون ذلك دليلًا على نبُوَّتِه، ولا حُجَّةَ له على رسالتِه، ولا كان الذين أنكَروا حقيقةَ ذلك من أهلِ الشِّركِ، وكانوا يَدفَعونَ به عن صِدقِه فيه؛ إذ لم يكنْ مُنكَرًا عندهم ولا عند أحدٍ مِن ذوي الفِطرةِ الصَّحيحةِ مِن بني آدمَ أن يرى الرَّائي منهم في المنامِ ما على مسيرةِ سَنةٍ، فكيف ما هو على مَسيرةِ شَهرٍ أو أقَلَّ؟! وبعدُ؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أخبَرَ في كتابِه أنَّه أسرى بعَبدِه، ولم يُخبِرْنا أنَّه أسرى برُوحِ عَبدِه، وليس جائزًا لأحدٍ أن يتعَدَّى ما قال اللهُ إلى غيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٦-٤٤٧).

وقال الشِّنقيطيُّ: (فاعلَمْ أنَّ هذا الإسراءَ به -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المذكورَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، زَعَم بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّه برُوحِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دونَ جَسَدِه، زاعمًا أنَّه في المنامِ لا اليَقَظةِ؛ لأنَّ رؤيا الأنبياءِ وَحيٌ، وزعم بعضُهم: أنَّ الإسراءَ بالجسَدِ، والمعراجَ بالرُّوحِ دون الجسَدِ، ولكِنَّ ظاهِرَ القرآنِ يدُلُّ على أنَّه بروحِه وجَسَدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَقظةً لا مَنامًا؛ لأنَّه قال ﴿بِعَبْدِهِ﴾ والعبدُ: عبارةٌ عن مجموعِ الرُّوحِ والجسَدِ، ولأنَّه قال: ﴿سُبْحَانَ﴾ والتَّسبيحُ إنما يكونُ عند الأمورِ العِظامِ، فلو كان منامًا لم يكُنْ له كبيرُ شأنٍ حتى يُتعَجَّبَ

بعضًا مِن عجائِبِ قُدرتِنا الكُبرى، وأدِلَّتِنا العُظمَى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ - ١٨].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لجَميعِ المَسموعاتِ، البَصيرُ بكُلِّ المَرئيَّاتِ، ومِن ذلك سَمْعُه لأقوالِ عبادِه؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، مُصَدِّقِهم ومُكَذِّبِهم، وهو البَصيرُ بهم، فيُجازي كُلًّا بما يستَحِقُّه في الدُّنيا والآخرةِ[(٢)].

منه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]؛ لأنَّ البَصَرَ مِن آلاتِ الذَّاتِ لا الرُّوحِ، وقَولُه هنا: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣).

وقال القاضي عياض: (الحقُّ، والذى عليه أكثرُ الناسِ ومُعظَمُ السلفِ وعامةُ المتأخرينَ من الفُقَهاء والمحَدِّثين والمتكلِّمين: أنه أسرَى بالجَسَدِ، والآثار تدُلُّ عليه لِمن طالعَها وبحَثَ عنها، ولا يُعدَلُ عن ظاهِرِها إلَّا بدليل، ولا استحالةَ فى حَملِها عليه فيُحتاجَ إلى تأويلٍ). ((إكمال المعلم)) (١/ ٤٩٧).

وقال ابن كثير: (الأكثرونَ مِنَ العلماءِ على أنَّه أُسْري ببدنِه ورُوحِه يَقَظَةً لا منامًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١١).

وقال الشِّنقيطي: (وذلك ما رآه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعَينِه ليلةَ الإسراءِ، مِن الغرائِبِ والعجائِبِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٦).

قال الرازي: (قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: إنَّ الذي أسرى بعَبدِه هو السَّميعُ لأقوالِ محمَّدٍ، البَصيرُ بأفعاله... وقيل: المرادُ: سَميعٌ لِما يقولونَ للرَّسولِ في هذا الأمرِ، بصيرٌ بما

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تشريفَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسراءِ وإراءتِه الآياتِ؛ ذكَرَ تشريفَ موسَى بإيتائِه التَّوراةَ[١].

وأيضًا لَمَّا ثبت بهذه الخارقةِ ما أخبَرَ الله به عن نفسِه المقَدَّسة من عظيمِ القُدرةِ على كُلِّ ما يريدُ، وما حباه صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم به من الآياتِ البيِّناتِ في هذا الوقتِ اليسير؛ أتبَعَه ما مَنَحَ في المسيرِ مِن مصرَ إلى الأرضِ المقدَّسةِ مِن الآياتِ في مُددٍ طِوالٍ جدًّا موسى عليه السَّلامُ الذي كان أعظَمَ الأنبياءِ بركةً على هذه الأمَّةِ ليلةَ الإسراءِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه أسرى بعَبدِه مُحَمَّدٍ صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، عطَفَ بذِكرِ موسى عَبدِه وكَليمِه عليه السَّلامُ؛ فإنَّه تعالى كثيرًا ما يَقرِنُ بين ذِكرِ موسى ومُحَمَّدٍ عليهما السَّلامُ، وبين ذِكرِ التَّوراةِ والقُرآنِ[٣].

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: وآتينا موسى التَّوراةَ[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ

يَعملونَ في هذه الواقعةِ. ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥- ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

ﭐلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: وجَعَلْنا كِتابَ موسى هاديًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [السجدة: ٢٣].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾.

أي: ألَّا[2] تتَّخِذوا -يا بني إسرائيلَ- مِن دوني مَعبودًا تعتَمِدونَ عليه، وتَكِلونَ أمورَكم إليه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ٨١].

وقال سُبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩].

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) قيل: «أن» في ﴿أَلَّا﴾ بمعنى: «أي»، والمعنى: جعلْناه هدًى لبني إسرائيلَ، أي: لا يتَّخِذوا.
وقيل: هو على إضمارِ القولِ، أي: قُلنا لهم: لا تتَّخذوا... فعلى هذا «أن» زائدةٌ.
ويجوزُ أن يكونَ التقديرُ: جعلناه هدًى بأن لا تتَّخِذوا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٨).
وذكر الشنقيطي قراءةَ جمهورِ القرَّاءِ ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ على وجهِ الخطابِ، وقراءةَ ﴿يَتَّخِذُواْ﴾ بالياءِ على الغيبةِ. وتوجيهَ ﴿أَلَّا﴾ على كلا القراءتينِ، ثمَّ قال: (فمرجعُ القراءتينِ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ التوكُّلَ إنما يكونُ على الله وحدَه لا على غيره). ((أضواء البيان)) (٣/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

أي: يا سُلالةَ مَن حملْنا مع نوحٍ في السَّفينةِ، فنجَّيناهم مِن الغَرَقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

أي: إنَّ نوحًا كان عبدًا للهِ شكورًا لِنعَمِه؛ فتشبَّهوا بأبيكم، واشكُروني على نِعَمي عليكم، ولا تُشرِكوا بي شيئًا(٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى تشريفَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسراءِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه تَشريفَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإنزالِ التَّوراةِ عليه، ثمَّ وصَفَ التوراةَ بكَونِها هُدًى، ثمَّ بَيَّنَ أنَّ التوراةَ إنَّما كان هُدًى لاشتمالِه على النَّهيِ عن اتِّخاذِ غيرِ الله وكيلًا -على أحدِ أوجهِ التأويلِ في ﴿أَلَّا﴾- وذلك هو التَّوحيدُ، فرجَعَ حاصِلُ الكلامِ بعد رعايةِ هذه المَراتِبِ إلى أنَّه لا مِعراجَ أعلى، ولا درَجَةَ أشْرَفُ، ولا مَنقَبةَ أعظَمُ مِن التَّوحيدِ، وألَّا يُعوِّلَ المرءُ في أمرٍ مِن الأمورِ إلَّا على اللهِ، فإنْ نطَقَ نطَقَ بذِكرِ الله، وإن تفكَّرَ تفكَّرَ في دلائِلِ تَنزيهِ اللهِ تعالى، وإن طلَبَ طلَبَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٣).
قال القرطبي: (مقصودُ الآيةِ: إنَّكم من ذريَّةِ نُوحٍ، وقد كان عبدًا شَكورًا؛ فأنتم أحَقُّ بالاقتداءِ به دون آبائِكم الجُهَّالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٣).

اللهِ، فيكونُ كُلُّه لله وباللهِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التَّنويهُ بالثَّناءِ على نوحٍ عليه السَّلامُ، بقيامِه بشُكرِ اللهِ، واتِّصافِه بذلك، والحَثُّ لذُرِّيَّتِه أن يَقتَدوا به في شُكرِه، ويُتابِعوه عليه، وأن يتذَكَّروا نِعمةَ اللهِ عليهم؛ إذ أبقاهم واستخلفَهم في الأرضِ، وأغرَقَ غيرَهم(٢)، ففي تَخصيصِ نوحٍ وخِطابِ العبادِ بأنَّهم ذُرِّيَّتُه إشارةٌ إلى الاقتداءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّه أبوهم الثَّاني، فإنَّ اللهَ تعالى لم يجعَلْ للخَلْقِ بعد الغَرَقِ نَسلًا إلَّا مِن ذُرِّيَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾(٣) [الصافات: ٧٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تَنزيهُ اللهِ تعالى بقَولِه: (سُبْحَانَ الله)، يتضَمَّنُ مع نفيِ صِفاتِ النَّقصِ عنه إثباتَ ما يلزَمُ ذلك مِن عَظَمتِه، فكان التَّسبيحُ تعظيمًا له مع تَبرئَتِه تعالى مِن السُّوءِ؛ ولهذا جاء التَّسبيحُ عند العجائِبِ الدَّالَّةِ على عظَمَتِه؛ كقولِه تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وأمثال ذلك(٤).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ التَّعبيرُ بلَفظِ العَبدِ في هذا المقامِ العَظيمِ يدُلُّ دَلالةً واضِحةً على أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ هو أشرَفُ صِفاتِ المخلوقينَ وأعظَمُها وأجَلُّها؛ إذ لو كان هناك وَصفٌ أعظَمُ منه لعبَّرَ به في هذا المقامِ العظيمِ الذي اختَرَق العبدُ فيه السَّبعَ الطِّباقَ، ورأى مِن آياتِ رَبِّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ١٧٧).

الكُبرى[١]، لكنه قال: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ ولم يقُلْ: برَسولِه، ولا نبيِّه؛ إشارةً إلى أنَّه قام هذا المقامَ الأعظَمَ بكَمالِ عُبوديَّتِه لرَبِّه، ولذا ذَكَر الله سُبحانَه نبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِ عُبوديَّتِه في أشرَفِ مَقاماتِه؛ في مقامِ الإسراءِ كما هنا، وفي مَقامِ الدَّعوةِ، ومَقامِ التَّحدِّي، فقال في مقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في مقامِ التَّحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾[٢] [البقرة: ٢٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ صَريحٌ في أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسرِيَ بجَسَدِه يَقَظةً[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ظاهِرُه أنَّ الإسراءَ كان في أوَّلِ اللَّيلِ، وأنَّه مِن نَفسِ المَسجِدِ الحرامِ، لكِنْ على روايةِ أنَّه أُسرِيَ به مِن بَيتِ أمِّ هانئٍ تكونُ الفَضيلةُ في المسجِدِ الحرامِ لِسائِرِ الحَرَمِ؛ فكُلُّه تُضاعَفُ فيه العبادةُ، كتَضاعُفِها في نَفسِ المَسجِدِ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، وأصلُ الحرامِ: الأمرُ الممنوعُ، فوصْفُ الشَّيءِ بالحرامِ يكونُ بمَعنى أنَّه ممنوعٌ استعمالُه استعمالًا يُناسِبُه، نحوُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُ الميتةِ، ويكونُ بمعنى الممنوعِ مِن أنْ يُعْمَلَ فيه عمَلٌ ما، ويُبيَّنُ بذكرِ المُتعلِّقِ الَّذي يتعلَّقُ به، وقد لا يُذْكَرُ مُتعلِّقُه

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

إذا دَلَّ عليه العُرْفُ، ومنه قولُهم: ﴿ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي: الحرامِ فيه القتالُ في عُرْفِهم. وقد يُحْذَفُ المُتعلَّقُ لقصْدِ التَّكثيرِ، فهو من الحذْفِ للتَّعميمِ، فيرجعُ إلى العُمومِ العُرفيِّ، ففي نحوِ ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] يُرادُ الممنوعُ مِنْ عدوانِ المعتدينَ، وغزوِ الملوكِ والفاتحينَ، وعملِ الظُّلمِ والسُّوءِ فِيهِ(١).

٦- دلَّ القُرآنُ العَظيمُ على بَرَكةِ الشَّامِ في خَمسِ آياتٍ: قَولُه تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] واللهُ تعالى إنَّما أورثَ بني إسرائيلَ أرضَ الشَّامِ، وقولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١]، وقولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ﴾ [سبأ: ١٨] الآية. فهذه خمسُ آياتٍ نُصوصٌ، والبَركةُ تتناوَلُ البَركةَ في الدِّينِ، والبَركةَ في الدُّنيا، وكِلاهما معلومٌ لا ريبَ فيه(٢).

٧- إنَّما أُسرِيَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ المَسجِدِ الحرامِ إلى المَسجِدِ الأقصى؛ ليُرِيَه اللهُ مِن آياتِه بالمِعراجِ؛ لهذا كان قَولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ دَليلًا في المِعراجِ الذي كان بعدَ المَسْرَى إلى المسجِدِ الأقصى، فلم يكُنِ المقصودُ مُجَرَّدَ رؤيةِ الأقصى؛ فإنَّه قد رآه المُسلِمُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ، ولكِنَّه سُبحانَه أخبَرَ بذلك؛ ليكونَ هذا آيةً للرَّسولِ، فإنَّهم قد رأوا المسجدَ الأقصى، فإذا أخبَرَهم أنَّه رآه ووصَفَه لهم -كما جاء في الحديثِ الصَّحيحِ(٣)- كان ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢- ١٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤).

(٣) تقدَّم تخريجُه: (ص: ١٩).

حُجَّةً له على أنَّه رآه، ولم يُمكِنْهم تكذيبُه في ذلك، بخلافِ ما لو أخبَرَ بالعُروجِ إلى السَّماءِ ابتداءً، فإنَّهم كانوا إذا كَذَّبوا بذلك لم يكُنْ هناك ما رأَوه حتى يَصِفَه لهم. وهو سُبحانَه قد أخبَرَ بعُروجِه إلى السَّماءِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣- ١٨] وهو سُبحانَه ذكَر هذا بعدَ أن ذكَرَ رُؤيةَ جبريلَ النَّزلةَ الأخرى في الأرضِ؛ فإنَّه رآه على صُورتِه مرَّتينِ، كما جاءت بذلك الأحاديثُ الصَّحيحةُ[(١)]، وقال في سورة (التكوير): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، فهذا جبريلُ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَرَ ربَّه ليلةَ أُسرِيَ به؛ إذ لو كان -سُبحانَه- قد أراه نفسَه بعَيْنِه، لكان ذِكْرُ ذلك أَولى[(٣)].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وَجهُ الاقتصارِ على وَصفِ المَسجِدِ الأقصى في هذه الآيةِ بذِكرِ هذا التَّبريكِ: أنَّ شُهرةَ المَسجِدِ الحَرامِ بالبَرَكةِ، وبِكَونِه مَقامَ إبراهيمَ، مَعلومةٌ للعَرَبِ، وأمَّا المَسجِدُ الأقصى

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠).

قال ابن القيم: (هي مسألةُ خِلافٍ بين السَّلَفِ والخَلَفِ، وإن كان جمهورُ الصَّحابةِ بل كلُّهم مع عائشةَ [يعني: في عَدَمِ الرؤيةِ] كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا للصحابة). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٩).

فقد تناسى النَّاسُ ذلك كُلَّه؛ فالعَرَبُ لا عِلمَ لهم به، والنَّصارى عَفَوا أثَرَه مِن كراهِيَتِهم لليَهودِ، واليهودُ قد ابتَعَدوا عنه وأَيِسوا مِن عَودِه إليهم، فاحْتِيجَ إلى الإعلامِ ببَرَكتِه(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ في هذا الوصْفِ ﴿ٱلْأَقْصَا﴾ بصِيغَةِ التَّفضيلِ -باعتبارِ أصْلِ وضْعِها- مُعجِزةٌ خفيَّةٌ من مُعجِزاتِ القُرآنِ؛ إيماءً إلى أنَّه سيكونُ بين المَسجدَينِ: مَسجدٌ عظيمٌ، هو مسجِدُ طَيْبةَ، الَّذي هو قَصِيٌّ عن المسجِدِ الحرامِ، فيكونُ مسجِدُ بيتِ المقدسِ أقْصَى منه حينئذٍ؛ فتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى جميعِ المساجِدِ الثَّلاثةِ المُفضَّلةِ في الإسلامِ على جميعِ المساجِدِ الإسلاميَّةِ، والَّتي بيَّنَها قولُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: ((لَا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ: المسجِدِ الحرامِ، ومسجِدِ الرَّسُولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومسجِدِ الأقصَى))(٢).

١١- فائدةُ ذِكْرِ مبدأِ الإسراءِ ونِهايتِه بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أمرانِ؛ أحدُهما: التَّنصيصُ على قطْعِ المسافةِ العظيمةِ في جُزءِ ليلةٍ؛ لأنَّ كلًّا من الظَّرفِ -وهو ﴿لَيْلًا﴾- ومن المَجْرورَينِ -﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾- قد تعلَّقَ بفعْلِ ﴿أَسْرَىٰ﴾، فهو تعلُّقٌ يَقْتضي المُقارنةَ؛ ليُعْلَمَ أنَّه من قَبِيلِ المُعجزاتِ. وثانيهما: الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ تَعالى يجعَلُ هذا الإسراءَ رمْزًا إلى أنَّ الإسلامَ جمَعَ ما جاءت به شرائعُ التَّوحيدِ والحنيفيَّةِ من عهْدِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الصَّادر من المسجِدِ الحرامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥).
والحديث أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إلى ما تفرَّعَ عنه من الشَّرائعِ الَّتي كان مَقرُّها بيتَ المقدسِ، ثمَّ إلى خاتمتِها الَّتي ظهَرَتْ من مكَّةَ أيضًا، فقد صدَرَتِ الحنيفيَّةُ من المسجِدِ الحرامِ، وتفرَّعَتْ في المسجِدِ الأقصى، ثمَّ عادت إلى المسجِدِ الحرامِ كما عاد الإسراءُ إلى مكَّةَ؛ لأنَّ كلَّ سُرًى يعقُبُه تَأويبٌ؛ وبذلك حصَلَ رَدُّ العجُزِ على الصَّدرِ. ومن هنا يظهَرُ مُناسبةُ نُزولِ التَّشريعِ الاجتماعيِّ في هذه السُّورةِ في الآياتِ المُفتتَحةِ بقولِه تَعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ففيها: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]؛ إيماءً إلى أنَّ هذا الدِّينَ سيكونُ دِينًا يحكُمُ في النَّاسِ وتُنَفَّذُ أحكامُه(١).

١٢- قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ذكَرَ السَّميعَ هاهنا؛ ليَنبِّهَ على أنَّه المجيبُ لدُعائِه، وذَكَر البصيرَ؛ ليَنبِّهَ على أنَّه كان الحافِظَ له في ظُلمةِ اللَّيلِ(٢).

١٣- قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ...﴾ كَثيرًا ما يَقرِنُ الباري بين نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونُبُوَّةِ مُوسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَينَ كِتابَيهما وشَريعَتَيهما؛ لأنَّ كِتابَيهما أفضَلُ الكُتُبِ، وشَريعَتَيهما أكمَلُ الشَّرائِعِ، ونُبُوَّتَيهما أعلى النُّبُواتِ، وأتباعَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥- ١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢١٤).

أَكثَرُ المُؤمِنِينَ[١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فيه أنَّ ذرِّيَّةَ نُوحٍ كانوا شِقَّينِ: شِقٌّ بارٌّ مُطيعٌ، وهم الذين حمَلَهم معه في السَّفينةِ؛ وشِقٌّ متكَبِّرٌ كافِرٌ، وهو ولَدُه الذي غَرِق، فكان نوحٌ عليه السَّلامُ مثلًا لأبي فريقَينِ، وكان بنو إسرائيلَ مِن ذريَّةِ الفَريقِ البارِّ، فإن اقتَدَوا به نجَوا، وإن حادوا فقد نزَعوا إلى الفريقِ الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يَهلِكوا. وهذا التماثُلُ هو نُكتةُ اختيارِ ذِكرِ نُوحٍ مِن بينِ أجدادِهم الآخَرينَ، مِثل: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ -عليهم السلامُ- لفواتِ هذا المعنى في أولئك[٢].

١٥- لا خِلافَ بينَ أهلِ اللُّغَةِ أنَّ الذُّرِّيَّةَ تُقالُ على الأولادِ الصِّغارِ وعلى الكِبارِ أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۞ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ ما لا يَخْفَى من الدَّلالةِ على التَّنزيهِ البليغِ من حيثُ الاشتقاقُ من السَّبْحِ، الَّذي هو الذَّهابُ والإبعادُ في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٤).

- والافتتاحُ بكلمةِ التَّسبيحِ من دونِ سبْقِ كلامٍ مُتضمِّنٍ ما يجِبُ تَنزيهُ اللهِ عنه؛ يُؤذِنُ بأنَّ خبرًا عجيبًا يستقبِلُه السَّامعونَ، دالًّا على عظيمِ القُدرةِ من المُتكلِّمِ، ورَفيعِ مَنزلةِ المُتحدَّثِ عنه(١).

- والتَّعبيرُ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ (اللَّه)؛ للتَّنبيهِ على ما تُفيدُه صِلَةُ الموصولِ من الإيماءِ إلى وجْهِ هذا التَّعجُّبِ والتَّنويهِ وسبَبِه، ويُفيدُ أنَّ حديثَ الإسراءِ أمْرٌ فَشا بين القومِ؛ فقد آمَنَ به المُسلمونَ، وأكبَرَه المُشركونَ(٢).

- وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ دونَ: (بعَثَ بعبْدِه) و(أرسَلَ به) ما يُفيدُ مُصاحبتَه له في مَسْراهُ؛ فإنَّ الباءَ هنا للمُصاحَبةِ، كالباءِ في قولِه: هاجَرَ بأهْلِه، وسافَرَ بغُلامِه، وليست للتَّعديةِ؛ فإنَّ (أسْرى) يتعدَّى بنفْسِه يُقال: أسْرى به وأسراهُ، وهذا لأنَّ ذلك السُّرى كان أعظَمَ أسفارِه، والسَّفرُ يعتمِدُ الصَّاحِبَ؛ ولهذا كان المُسافِرُ يقولُ: ((اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفرِ))(٣). وفائدةُ الجمعِ بين الهمزةِ والباءِ: أنَّ الثُّلاثيَّ المُتعدِّيَ بالباءِ يُفْهَمُ منه شيئانِ؛ أحدُهما: صُدورُ الفعلِ من فاعِلِه. الثَّاني: مُصاحبتُه لِمَا دخَلَت عليه الباءُ؛ فإذا قلْتَ: سريتُ بزيدٍ وسافرْتُ به، كان قد وُجِدَ منك السُّرى والسَّفرُ مُصاحبًا لزيدٍ فيه، وأمَّا المُتعدِّي بالهمزةِ، فيَقْتضي إيقاعَ الفعلِ بالمفعولِ فقطْ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ [الشعراء: ٥٧] ونظائرِه، فإذا قُرِنَ هذا المُتعدِّي بالهمزةِ أفاد إيقاعَ الفعلِ على المفعولِ مع المُصاحبةِ المفهومةِ من الباءِ، ولو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أتى فيه بالثُّلاثيِّ فُهِمَ منه معنى المُشاركةِ في مَصْدرِه وهو مُمْتنِعٌ[(١)].

- وذُكِرَ هنا الإسراءُ فقطْ، ولم يُذْكَرِ العُروجُ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى السَّماءِ وما كان فيه، ممَّا لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه حسبَما نطَقَتْ به سُورةُ (النَّجمِ)؛ تَقريبًا للإسراءِ إلى قَبولِ السَّامعينَ[(٢)].

- قولُه: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ هذه إضافةُ تَشريفٍ واختصاصٍ[(٣)]، لا إضافةُ تعريفٍ؛ لأنَّ وَصفَ العُبوديَّةِ لله متحقِّقٌ لسائِرِ المَخلوقاتِ، فلا تُفيدُ إضافتُه تَعريفًا[(٤)]، وقال: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ دونَ (نَبيِّه) أو (حبيبِه)؛ لئلَّا تضِلَّ به أُمَّتُه، كما ضَلَّت أُمَّةُ المسيحِ، حيث دعَتْه إلهًا، أو لأنَّ وصْفَه بالعُبوديَّةِ المُضافةِ إلى اللهِ تعالى أشرَفُ المقاماتِ[(٥)].

- وفي قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ ذكَرَ اللَّيلَ مع أنَّ الإسراءَ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ؛ لأنَّه أراد بقولِه: ﴿لَيۡلٗا﴾ بلفظِ التَّنكيرِ تَقليلَ مُدَّةِ الإسراءِ وقِصَرِ زمَنِ الإسراءِ -مع أنَّ بين مكَّةَ وبيتِ المَقدسِ مَسيرةَ أربعينَ ليلةً-؛ وذلك أنَّ التَّنكيرَ فيه قد دَلَّ على معنى البعضيَّةِ؛ فذِكْرُ اللَّيلِ مع أنَّ السُّرى لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ يحتمِلُ أمرينِ؛ أوَّلُهما: أنَّ الإسراءَ لمَّا دَلَّ على أمرينِ -أحدُهما: السَّيرُ، والآخَرُ: كونُه ليلًا-، أُريدَ إفرادُ أحدِهما بالذِّكرِ؛ تَثبيتًا في نفْسِ المُخاطَبِ، وتَنبيهًا على أنَّه مقصودٌ بالذِّكرِ. وثانيهما: الإشارةُ بتَنكيرِ اللَّيلِ إلى تَقليلِ مُدَّتِه؛ لأنَّ التَّنكيرَ فيه قد دَلَّ على معنى البعضيَّةِ، وهذا

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٨).

بخلافِ ما لو قيلَ: (أسْرى بعبْدِه اللَّيلَ)؛ فإنَّ التَّركيبَ مع التَّعريفِ يُفيدُ استغراقَ السَّيرِ لجميعِ أجزاءِ اللَّيلِ[١]؛ فلمَّا كان الإسراءُ هو السَّيرَ في اللَّيلِ، وكان الشَّيءُ قد يُطْلَقُ على جُزءِ معناه بدلالةِ التَّضمُّنِ؛ نَفى هذا بقولِه: ﴿لَيۡلٗا﴾، وليدُلَّ بتنوينِ التَّحقيرِ على أنَّ هذا الأمْرَ الجليلَ كان في جُزءٍ يَسيرٍ من اللَّيلِ، وعلى أنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يحتَجْ في الإسراءِ والعُروجِ إلى سِدْرةِ المُنْتهى وسماعِ الكلامِ من العليِّ الأعلى إلى رياضةٍ؛ بصيامٍ ولا غيرِه، بلْ كان مُهيَّئًا لذلك مُتأهِّلًا له، فأقامه تعالى من الفرشِ إلى العرشِ[٢].

وقيل: إنَّه ذُكِرَ على سبيلِ التَّوكيدِ. وقيل: يعني في جوفِ اللَّيلِ؛ فلم يكُنْ إدْلاجًا ولا ادِّلاجًا[٣]. وقيل: تَنكيرُ ﴿لَيۡلٗا﴾ للتَّعظيمِ، بقرينةِ الاعتناءِ بذِكْرِه مع علْمِه من فِعْلِ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، وبقرينةِ عدَمِ تَعريفِه، أي: هو ليلٌ عظيمٌ باعتبارِ جعْلِه زمنًا لذلك السُّرى العظيمِ، فقام التَّنكيرُ هنا مقامَ ما يدُلُّ على التَّعظيمِ. ألَا تَرى كيف احتيجَ إلى الدِّلالةِ على التَّعظيمِ بصِيغَةٍ خاصَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١، ٢]، إذ وقَعَتْ ليلةُ القدْرِ غيرَ مُنكَّرةٍ[٤]؟!

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، أي: الأبعدِ، والمُرادُ: بُعْدُه عن مكَّةَ، بقرينةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩).

الإدْلاج: السَّير من أوَّلِ اللَّيلِ. والادِّلاج -بتشديد الدال-: السَّيرُ مِن آخِرِ اللَّيلِ. وقيل: الإدْلاجُ: السير مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ. والادِّلاج: السَّير اللَّيْلَ كُلَّه. وقيل بعَكسِ ذلِك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١-١٢).

جعْلِه نِهايةَ الإسراءِ من المسجِدِ الحرامِ، وهو وصْفٌ كاشفٌ اقتضاهُ هنا زِيادةُ التَّنبيهِ على مُعجزةِ هذا الإسراءِ، وكونه خارِقًا للعادةِ؛ لكونِه قطَعَ مسافةً طويلةً في بعضِ ليلةٍ(١).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صِفةٌ للمسجِدِ الأقصى، وجِيءَ في الصِّفةِ بالموصوليَّةِ؛ لقصْدِ تَشهيرِ الموصوفِ بمَضمونِ الصِّلةِ، حتَّى كأنَّ الموصوفَ مُشتهَرٌ بالصِّلةِ عند السَّامعينَ، والمقصودُ: إفادةُ أنَّه مُبارَكٌ حولَه(٢).

- قولُه: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صِيغةُ المُفاعلةِ هنا ﴿بَٰرَكْنَا﴾؛ للمُبالغةِ في تَكثيرِ الفعلِ، وكونُ البركةِ حولَه كِنايةٌ عن حُصولِ البركةِ فيه بالأَولى؛ لأنَّها إذا حصَلَت حولَه فقد تجاوَزَت ما فيه؛ ففيه لَطيفةُ التَّلازُمِ، ولَطيفةُ فَحْوى الخِطابِ(٣)، ولَطيفةُ المُبالغةِ بالتَّكثيرِ. ولكلمةِ ﴿حَوْلَهُۥ﴾ في هذه الآيةِ من حُسْنِ الموقعِ ما ليس لكلمةِ (في)؛ لأنَّ (في) لا تُفيدُ انتشارَها وتجاوُزَها منه إلى ما حولَه(٤).

- قولُه: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ تَعليلُ الإسراءِ بإرادةِ إراءةِ الآياتِ الرَّبَّانيَّةِ، تَعليلٌ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠).

(٣) فحوى الخطاب: هو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعان:
تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] فإنَّه نبَّه بالنهي عن قولِ أفٍّ على النهيِ عن الشتمِ والضربِ وغيرِ ذلك.
وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩-٢٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٩).

ببعضِ الحِكَمِ الَّتي لأجْلِها منَحَ اللهُ نَبِيَّه مِنحةَ الإسراءِ، ولامُ التَّعليلِ في ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ لا تُفيدُ حصْرَ الغرضِ من مُتعلِّقِها في مَدخولِها، وإنَّما اقتُصِرَ في التَّعليلِ على إراءةِ الآياتِ؛ لأنَّ تلك العِلَّةَ أعلَقُ بتكريمِ المُسْرى به، والعنايةِ بشأنِه؛ لأنَّ إراءةَ الآياتِ تَزيدُ يقينَ الرَّائي بوُجودِها الحاصلِ من قبْلِ الرُّؤيةِ[١].

- والالتفاتُ من الغَيبةِ الَّتي في اسمِ الموصولِ وضميرَيْه في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ إلى التَّكلُّمِ في: ﴿بَٰرَكۡنَا﴾ [الإسراء: ١]، و﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾؛ لتعظيمِ ما ذُكِر؛ لأنَّ فعلَ العظيمِ يكونُ عظيمًا، لا سيَّما إذا عبَّر عنه بصيغةِ التعظيمِ، والنكتةُ العامةُ تنشيطُ السامعينَ[٢]. وقيل غير ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ لتربيةِ المَهابةِ[٤]، وهو وعيدٌ من اللهِ للكُفَّارِ على تَكذيبِهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أمْرِ الإسراءِ؛ فهي إشارةٌ لطيفةٌ بليغةٌ إلى ذلك، أي: هو السَّميعُ لِمَا تَقولون، البصيرُ بأفعالِكم[٥].

- ومَوقعُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ التَّوكيدُ والتَّعليلُ، كما يُؤْذِنُ به فصْلُ الجُملةِ عمَّا قبلَها-أي: عدَمُ عطْفِها عليها-، وهذه الجُملةُ مُشتمِلةٌ على صِيغَةِ قَصْرٍ بتعريفِ المُسنَدِ باللَّامِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾، وبضَميرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠-٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١-٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٩٥- ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١).

الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ قصْرًا مُؤكدًا، وهو قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصرًا إضافيًّا للقلْبِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه الإخبارُ عن التَّوراةِ بأنَّه هُدًى مُبالغةً؛ لأنَّ الهُدى بسببِ العملِ بما فيه، فجُعِلَ كأنَّه نفْسُ الهدى، كقولِه تعالى في القُرآنِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] [البقرة: ٢].

- وخصَّ بني إسرائيلَ؛ لأنَّهم المخاطبونَ بشريعةِ التوراةِ دونَ غيرِهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

- قولُه: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ انتصَبَ على الاختصاصِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ لزيادةِ بَيانِ بني إسرائيلَ بيانًا مقصودًا به التَّعريضُ بهم؛ إذ لم يَشْكروا النِّعمةَ. وفي اختيارِ وصْفِهم بأنَّهم ذُرِّيَّةُ مَن حُمِلَ مع نوحٍ عليه السَّلامُ معانٍ عظيمةٌ من التَّذكيرِ والتَّحريضِ والتَّعريضِ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ من ذُرِّيَّةِ سامِ بنِ نوحٍ، وكان سامٌ ممَّن ركِبَ السَّفينةَ، وإنَّما لم يقُلْ: (ذُرِّيَّةَ نوحٍ) مع أنَّهم كذلك؛ قصدًا لإدماجِ التَّذكيرِ بنِعمةِ إنجاءِ أُصولِهم من الغرَقِ[٤].

- في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أُكِّدَ كونُ نوحٍ كان عبدًا شكورًا بحرفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١-٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥-٢٦).

(إنَّ) تَنزيلًا لهم منزلةَ مَن يجهَلُ ذلك؛ إمَّا لتوثيقِ حمْلِهم على الاقتداءِ به إنْ كانتِ الجُملةُ خِطابًا لبني إسرائيلَ مِن تمامِ الجُملةِ التَّفسيريَّةِ، وإمَّا لتَنزيلِهم منزلةَ مَن جهِلَ ذلك حتَّى تورَّطوا في الفسادِ، فاسْتَأْهلوا الاستئصالَ، وذَهابَ مُلكِهم؛ لينتقِلَ منه إلى التَّعريضِ بالمُشركينَ من العربِ بأنَّهم غيرُ مُقتدينَ بنوحٍ؛ لأنَّ مثَلَهم ومثَلَ بني إسرائيلَ في هذا السِّياقِ واحدٌ في جميعِ أحوالِهم، فيكونُ التَّأكيدُ منظورًا فيه إلى المعنى التَّعريضيِّ[(١)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ مُفيدةٌ تَعليلَ النَّهيِ عن أنْ يتَّخِذوا من دونِ اللهِ وكيلًا؛ لأنَّ أجدادَهم حُمِلُوا مع نوحٍ بنعمةٍ من اللهِ عليهم لنجاتِهم من الغرَقِ، وكان نوحٌ عبدًا شكورًا، والَّذين حُمِلُوا معه كانوا شاكرينَ مثْلَه، أي: فاقْتَدوا بهم ولا تَكْفروا نِعَمَ اللهِ[(٢)].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٦).

الآيات (٤-٨)

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥاْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَاۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَقَضَيْنَآ﴾: أي: أخبَرْنا وأعلَمْنا، فهذا قضاءٌ بالإعلامِ والفصلِ في الحكمِ، والقضاءُ: فَصْلُ الأمْرِ؛ قولًا كان ذلِك أو فِعلًا، وأصلُ (قضي): يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجِهتِه[(١)].

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: أي: طافُوا بينَ الدِّيارِ يَطلُبونَكم ويَقتُلونكم ذاهِبينَ وجائِينَ، ومنه: الجَوسُ: وهو التَّردُّد خِلالَ الدُّورِ والبُيوتِ بالفَسادِ في الغارةِ ونحوِها، وأصلُ (جوس): يَدُلُّ على تَخَلُّلِ الشَّيءِ، وأصلُ الخلالِ: مِن الخَلَلِ: وهو الفُرجةُ بينَ الشيئينِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤٦٨) (١٣/ ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٤٩).

﴿ٱلۡكَرَّةَ﴾: الرَّجْعةَ والدَّوْلةَ، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على العَطفِ والرُّجوعِ[(١)].

﴿نَفِيرًا﴾: أي: عَددًا، وأصلُه مَن يَنفِرُ مع الرَّجُلِ مِنْ عَشيرتِه وأهلِ بَيتِه، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على الانزِعاجِ والفَزَعِ إلى الشَّيءِ[(٢)].

﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: أي: ليَجعَلوا آثارَ المَساءةِ مِن غَمٍّ وحُزنٍ باديةً على وجوهِكم، يقال: ساءه يَسوؤُه، أي: غَمَّه وأحزَنَه[(٣)].

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾: أي: لِيُدَمِّروا ويُخَرِّبوا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[(٤)].

﴿مَا عَلَوۡاْ﴾: أي: ما غَلَبوا عليه مِن الأقطارِ، ومَلَكوه مِن البِلادِ، وأصلُ العُلُوِّ هنا: يدُلُّ على الاستِيلاءِ والغَلَبِ[(٥)].

﴿حَصِيرًا﴾: أي: محبِسًا وسِجنًا[(٦)]، مِن حَصَرْتُه، أي: حبسْتُه. أو: بساطًا ومهادًا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩/ ٣٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، إلى ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٦) قال الواحدي: (﴿حَصِيرًا﴾، أي: محبِسًا ومحصِرًا، وهو قولُ جميعِ أهلِ اللغةِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٦٧).

مِن الحصيرِ، أي: البِساطِ الصَّغيرِ، وأصلُ (حصر): يدلُّ على حَبسٍ ومَنعٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وأعْلَمْنا بني إسرائيلَ في التَّوراةِ أنَّهم سيُفسِدون مَرَّتينِ في الأرضِ وسيستكبرونَ بغيرِ حقٍّ استكبارًا شديدًا. فإذا حان وَقتُ عُقوبتِكم على إفسادِكم الأوَّلِ سَلَّطْنا عليكم عِبادًا لنا ذَوي شَجاعةٍ وقُوَّةٍ شَديدةٍ، فطافوا بينَ دِيارِكم يقتُلونَكم ويُشَرِّدونَكم، وكان ذلك وَعدًا لا بدَّ مِن وُقوعِه، ثمَّ رَدَدْنا لكم -يا بني إسرائيلَ- الغَلَبَةَ والظُّهورَ على أعدائِكم الذينَ سُلِّطوا عليكم، وأعطيناكم الأموالَ والأولادَ بكثرةٍ، وقَوَّيناكم وجَعَلْناكم أكثَرَ جُندًا مِن عَدوِّكم. ثم قال تعالى: إنْ أحسَنْتُم -يا بني إسرائيلَ- فقد أحسَنتُم لأنفُسِكم؛ لأنَّ ثَوابَ ذلك عائِدٌ إليكم، وإن أسأْتُم فضرَرُ ذلك عائِدٌ عليكم.

فإذا حان مَوعِدُ العُقوبةِ على إفسادِكم الثَّاني، سَلَّطْنا عليكم أعداءَكم مَرَّةً أخرى؛ لِيُذِلُّوكم ويَقهَروكم، فتبدوَ آثارُ الكآبةِ والإهانةِ والمَذلَّةِ على وُجوهِكم، ولِيَدخُلوا مسجِدَ بيتِ المَقدِسِ، كما دخَلوه أوَّلَ مَرَّةٍ، ولِيُدَمِّروا كُلَّ ما ظهَروا عليه تَدميرًا كامِلًا.

ثم قال تعالى: عسَى رَبُّكم -يا بني إسرائيلَ- أن يَرحَمَكم بعدَ انتِقامِه إنْ تُبتُم وأصلَحْتُم، وإن عُدتُم إلى الإفسادِ والظُّلمِ عُدْنا إلى عِقابِكم ومَذَلَّتِكم. وجعَلْنا جَهنَّمَ للكافرينَ سِجنًا لا يخرجون منها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

هذه الآيةُ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: آتَينا موسى الكِتابَ هُدًى، وبيَّنَّا لبني إسرائيلَ في الكتابِ ما يحُلُّ بهم مِن جَرَّاءِ مُخالفةِ هَديِ التَّوراةِ؛ إعلامًا لهذه الأمَّةِ بأنَّ اللهَ لم يدَّخِرْ أولئك إرشادًا ونُصحًا؛ فالمناسَبةُ ظاهِرةٌ[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه على بني إسرائيلَ بإنزالِ التَّوراةِ عليهم، وبأنَّه جعَلَ التَّوراةَ هُدًى لهم؛ بيَّن أنَّهم ما اهتَدَوا بهُداه، بل وقَعُوا في الفَسادِ؛ فقال تعالى[(٢)]:

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾.

أي: وأعلَمْنا بني إسرائيلَ في التَّوراةِ[(٣)] -بما سبَقَ في عِلْمِنا- أنَّهم سيُفسِدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٩).

(٣) وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لـ ﴿قَضَيْنَا﴾ و﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وممن قال بهذا القولِ في معنى ﴿قَضَيْنَا﴾ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٥).

قال ابن جزي: (وقيل: قَضَينا إليه من القضاءِ والقَدَر، والكتابُ على هذا: اللَّوحُ المحفوظُ

في الأرضِ مَرَّتَينِ؛ بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ أحكامِ التَّوراةِ[1].

الذي كُتِبَت فيه مقاديرُ الأشياءِ، وإلى بمعنى على ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ هذه الجملةُ بيانٌ للمَقضيِّ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤١). وممن اختار هذا القولَ: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤١- ٤٤٢).

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ هذا القولِ في ﴿قَضَيْنَا﴾: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (تلخيصُ المعنى عندي أنَّ هذا الأمرَ هو مِمَّا قضاه اللهُ تعالى في أمِّ الكِتابِ على بني إسرائيلَ، وألزَمَهم إيَّاه، ثمَّ أخبَرَهم به في التَّوراةِ على لسانِ موسى، فلمَّا أراد هنا الإعلامَ لنا بالأمرينِ جميعًا في إيجازٍ، جعَلَ (قَضَيْنا) دالَّةً على النُّفوذِ في أمِّ الكتاب، وقرَنَ بها [إلى] دالَّةً على إنزالِ الخَبرِ بذلك إلى بني إسرائيلَ، والمعنى المقصودُ مَفهومٌ خِلالَ هذه الألفاظِ؛ ولهذا فسَّرَ ابنُ عبَّاسٍ مَرَّةً بأن قال: ﴿قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناه: أعلَمْناهم، وقال مَرَّةً: معناه: قَضَينا عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

وقيل: المرادُ بالأرضِ هنا: أرضُ الشَّامِ، وبيتُ المقدِس. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي، والخازن، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٩).

وقيل: هي أرضُ مِصرَ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والرسعني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢٥).

قال ابنُ تيميةَ: (كانت الأولى بعد سُلَيمانَ، وكانت الثَّانيةُ بعد زكريَّا ويحيى والمسيحِ، لَمَّا قتلوا يحيى بن زكريَّا الذي يسَمِّيه أهلُ الكِتابِ يوحنَّا المَعمداني. وكثيرٌ مِن المذكورين بالعِلمِ يظُنُّ أنَّ بُختنَصَّر هو الذي قَدِمَ الشَّامَ لَمَّا قتل يحيى بن زكريا، وهذا عند أهلِ العِلمِ مِن أهلِ الكتابِ وعندَ مَن له خبرةٌ مِن عُلَماءِ المُسلِمينَ: باطِلٌ. والمتواتِرُ أنَّ بختنَصَّر هو الذي قَدِمَ في المرَّةِ الأولى). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٣٣٨).

﴿ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾.

أي: وأعلمناهم أيضًا أنَّهم سَيَستَكبِرونَ على اللهِ بمُخالفةِ أمرِه، والتَّجَبُّرِ على عبادِه، استكبارًا وطُغيانًا شَديدًا[١].

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾.

أي: فإذا حان وَقتُ عُقوبتِكم -يا بَني إسرائيلَ- على أُولى المَرَّتَينِ اللَّتَينِ تُفسِدونَ فيهما في الأرضِ؛ سَلَّطنا عليكم جُنْدًا مِن خَلْقِنا، أصحابَ بَطشٍ وقُوَّةٍ شَديدةٍ[٢].

وممن قال مِن السلفِ أنَّ أولَ الفسادينِ كان قتلَ زكريَّا: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٦)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٩).

وقال الماوردي: (أمَّا المقتولُ مِن الأنبياءِ في الفَسادِ الثَّاني فيحيى بنُ زكريَّا في قَولِ الجميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٥٤، ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٢٩١).

قال السعدي: (اختلف المُفَسِّرونَ في تَعيينِ هؤلاء المُسَلَّطينَ، إلَّا أنَّهم اتَّفَقوا على أنَّهم قَومٌ كُفَّارٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

وقال ابنُ تيمية: (بيتُ المَقدِس خُرِّبَ مَرَّتين؛ فالخرابُ الأوَّلُ: لَمَّا جاء بُختَنَصَّر وسَباهم إلى بابل وبَقِيَ خرابًا سبعين سنة، والخرابُ الثاني: بعد المسيحِ بنَحوِ سَبعينَ سَنةً... فبعد الخَرابِ الثَّاني تَفَرَّقوا في الأرض ولم يَبقَ لهم مُلكٌ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٩٤، ٩٥).

وقال ابن عاشور: (هذه الآيةُ تُشيرُ إلى حوادثَ عظيمةٍ بينَ بني إسرائيلَ وأعدائِهم مِن أمَّتين عظيمتينِ: حوادث بينَهم وبينَ البابليينَ، وحوادث بينَهم وبينَ الرُّومانيينَ... فالمرةُ الأُولَى هي

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾.

أي: فطاف الجُنودُ الذين سَلَّطَهم اللهُ على بني إسرائيلَ بينَ دُورِهم يتَرَدَّدونَ بينها جَيْئةً وذَهابًا لِقَتلِهم[1].

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

مجموعُ حوادثَ متسلسلةٍ، تُسمَّى في التاريخِ بـ «الأسر البابلي»، وهي غزواتُ بُختَنَصَّر -ملكِ بابلَ وآشورَ- بلادَ أورشليمَ. والغزوُ الأوَّلُ كان سنةَ «٦٠٦» قبلَ المسيحِ، أَسَر جماعاتٍ كثيرةً مِن اليهودِ، ويُسمَّى «الأسر الأول». ثم غزاهم أيضًا غزوًا يُسمَّى «الأسر الثاني»، وهو أعظمُ مِن الأوَّلِ، كان سنة «٥٩٨» قبلَ المسيحِ، وأَسَر ملكَ يهوذا وجمعًا غفيرًا مِن الإسرائيليينَ، وأخَذ الذهبَ الذي في هيكلِ سليمانَ وما فيه مِن الآنيةِ النفيسةِ. والأسرُ الثالثُ المبير سنة «٥٨٨» قبلَ المسيحِ، غزاهم بُختَنَصَّر، وسبى كلَّ شعبِ يهوذا، وأحرَق هيكلَ سليمانَ، وبقِيت أورشليمُ خرابًا يبابًا... وأما المرة الثانيةُ فهي سلسلةُ غزواتِ الرومانيينَ بلادَ أورشليمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩، ٣٠).

وقال ابن كثير: (وقد اختلف المفسِّرون من السَّلَفِ والخلَفِ في هؤلاء المسلَّطين عليهم: مَن هم؟... وقد وردت في هذا آثارٌ كثيرة إسرائيلية... منها ما هو موضوع مِن وضعِ بعضِ زنادقتِهم، ومنها ما قد يحتمِلُ أن يكونَ صحيحًا، ونحن في غنيةٍ عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله تعالى علينا في كتابه غنيةٌ عما سواه من بقية الكتبِ قبله، ولم يحوِجْنا اللهُ ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنَّهم لَمَّا بَغَوا وطغَوا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، فاستباح بيضتَهم، وسلك خلال بيوتِهم وأذلَّهم وقهرهم؛ جزاءً وِفاقًا، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد؛ فإنَّهم كانوا قد تمرَّدوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّه لا يتعَلَّقُ كَثيرُ غَرَضٍ في معرفةِ أولئك الأقوامِ بأعيانهم، بل المقصودُ هو أنَّهم لَمَّا أكثَروا من المعاصي، سَلَّط عليهم أقوامًا قَتَلوهم وأفنَوْهم... والله أعلَمُ بأحوالِهم، ولا يتعَلَّقُ غَرَضٌ مِن أغراضِ تَفسيرِ القُرآنِ بمَعرفةِ أعيانِ هؤلاء الأقوامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٠، ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٠، ٤٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٨).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ يعني: دِيارَ بَيتِ المَقدِسِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٥٧).

أي: وكان تَسليطُ اللهِ أولئك الجُنودَ على بني إسرائيلَ قَضاءً كائِنًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه[١].

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه قادِرٌ على إذلالِ العَزيزِ بعد ضَخامةِ عِزِّه؛ بيَّنَ أنَّه مُقتَدِرٌ على إدالتِه على مَن قَهرَه بعدَ طولِ ذُلِّه إذا نَقَّاه مِن دَرَنِه، وهَذَّبَه مِن ذُنوبِه، فقال الله تعالى[٢]:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾.

أي: ثمَّ أرْجَعْنا لكم -يا بني إسرائيلَ- الغَلَبةَ والنَّصرَ على أعدائِكم الذينَ غَلَبوكم وقَهَروكم، لَمَّا تُبتُم مِن الفسَادِ والطُّغيانِ والاستِكْبارِ، وأطعتُم[٣].

﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾.

أي: وأعْطَيناكم -يا بني إسرائيلَ- الأموالَ والبَنينَ بزِيادةٍ وكَثرةٍ[٤].

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٣).

أي: وصيَّرناكم أكثَرَ جُندًا مِن عَدُوِّكم[(١)].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى حكَى عن بني إسرائيلَ أنَّهم لَمَّا عَصَوا سَلَّطَ عليهم أقوامًا قَصَدوهم بالقَتلِ والنَّهبِ والسَّبْيِ، ولَمَّا تابوا أزال عنهم تلك المِحنةَ، وأعاد عليهم الدَّولةَ، فعند ذلك ظهَرَ أنَّهم إن أطاعوا فقد أحسَنوا إلى أنفُسِهم، وإن أصَرُّوا على المعصيةِ فقد أساؤوا إلى أنفُسِهم[(٢)].

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾.

أي: إنْ أطَعْتُم اللهَ -يا بني إسرائيلَ- فإحسانُكم هذا عائِدٌ إليكم، وبه تَنفَعونَ أنفُسَكم، فيَزيدُكم اللهُ مِن الرِّزقِ والقُوَّةِ، ويُدافِعُ عنكم، ويُدخِلُكم الجَنَّةَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥- ٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

ومِمن قال بالقولِ المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: أكثَرَ عَدَدًا مِمَّا كُنتُم عليه مِن قَبلُ. ومِمَّن قال بهذا: البيضاوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

أي: وإنْ عَصَيتُم اللهَ فعلى أنفُسِكم ضَرَرُ إساءتِكم، فيُسَلِّطُ اللهُ عليكم في الدُّنيا أعداءَكم، ويُعَذِّبُكم في الآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

أي: فإذا حانَ وَقتُ عُقوبتِكم -يا بني إسرائيلَ- جرَّاءَ إفسادِكم في المَرَّةِ الثَّانيةِ، سَلَّطْنا عليكم عبادًا لنا؛ ليَجعَلُوا آثارَ الحُزنِ والكآبةِ باديةً في وُجوهِكم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤).

وذلك بقَتلِكم وسَبْيِكم وقَهْرِكم وإذلالِكم[١].

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: وَلِيَدخُلوا مَسجِدَ بَيتِ المَقدِسِ فيُخَرِّبوه قَهرًا وغَلَبةً وإذلالًا لكم، كما دخَلوه في المَرَّةِ الأولى حينَ عاقَبْناكم على إفسادِكم الأوَّلِ، فدَخَلوا المسجِدَ بالغَلَبةِ وخرَّبوه، وجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ يَقتُلونكم[٢].

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾.

أي: ولِيُدَمِّرُوا كُلَّ ما غَلَبوا وظَهَروا عليه مِن بِلادِكم تَدميرًا، فيُخَرِّبوا بَيتَ المَقدِسِ وبُيوتَكم ومَزارِعَكم[٣].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

أي: لعلَّ اللهَ -يا بني إسرائيلَ- يَرحَمُكم بعدَ انتقامِه منكم، فيُنقِذُكم، ويُعِزُّكم بعدَ ذُلِّكم، ويَجعَلُ لكم قُوَّةً، ويرُدُّ الدولةَ إليكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال ابنُ جرير: (و«عسى» مِن الله: واجِبٌ. وفعَلَ اللهُ ذلك بهم، فكَثَّرَ عَدَدَهم بعدَ ذلك، ورفَعَ

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

أي: وإن رجَعْتُم إلى الإفسادِ في الأرضِ بمَعصيتي بعد رَحمتي لكم، رجَعْتُ إلى انتِقامي منكم، فسلَّطتُ عليكم مرَّةً أخرَى مَن يقتُلُكم ويُذِلُّكم[1].

خَساسَتَهم، وجعل منهم المُلوكَ والأنبياءَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

وقال ابنُ عطية: (و«عسى» تَرَجٍّ في حَقِّهم، وهذه العِدَةُ ليست برُجوعِ دَولةٍ، وإنَّما هي بأنْ يَرحَمَ المُطيعَ منهم، وكان مِن الطاعةِ اتِّباعُهم لعيسى ومُحمَّدٍ، فلم يفعلوا وعادوا إلى الكُفرِ والمَعصيةِ، فعاد عِقابُ اللهِ، فضَرَبَ عليهم الذُّلَّ، وقتَلَهم وأذَلَّهم بيَدِ كُلِّ أمَّةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٠).

قال القاسمي: (قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: إذا أخلصتُم للإنابةِ، وأحسنتُم الأعمالَ، وأقمتُم الكتابَ وما نزَل إليكم؛ لأنَّكم علمتُم مِن سنتِه تعالى أنَّه لا يُنزلُ بلاءً إلا بذنبٍ، ولا يرفعُه إلا بتوبةٍ، ولذا قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ أي: بعدَ هذه التوبةِ والإنابةِ إلى الاستكبارِ ﴿عُدْنَا﴾ أي: إلى تسليطِ الأعداءِ، وسلبِ الأموالِ والأولادِ في الدنيا). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال ابن جُزَيٍّ: (قد عادُوا فبعَثَ الله عليهم محمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه يَقتُلونَهم ويُذِلُّونَهم إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٢).

وممَّن قال بأنَّهم قد عادوا للفسادِ فسلَّط الله تعالى عليهم محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: البيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

قال الشنقيطي: (ولم يبيِّنْ هنا: هل عادوا للإفسادِ المرةَ الثالثة أو لا، ولكنَّه أشار في آياتٍ أخَرَ إلى أنَّهم عادوا للإفساد بتكذيب الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكتْمِ صفاتِه ونقضِ عهودِه، ومظاهرةِ عدوِّه عليه، إلى غير ذلك من أفعالهم القبيحة. فعاد اللهُ جل وعلا للانتقام منهم؛ تصديقًا لقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فسلَّط عليهم نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمين، فجرى على بني قريظةَ والنضيرِ وبني قَينقاعَ وخيبر ما جرى من القَتلِ والسبيِ والإجلاء، وضَرْب الجزية على من بقي منهم، وضَرْب الذِّلَّة والمسكنة. فمن الآيات الدالة على أنهم عادوا للإفسادِ قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ

كما قال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦-٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم

كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠]، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم...﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات. ومن الآياتِ الدالَّةِ على أنه تعالى عاد للانتقامِ منهم قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، ونحو ذلك من الآيات. ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥-١٦).

قال: ((تُقاتِلُكم اليَهودُ، فتُسَلَّطونَ عليهم، حتى يقولَ الحَجَرُ: يا مُسلِمُ، هذا يَهوديٌّ ورائي فاقتُلْه))(١).

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

أي: وجَعَلْنا جَهنَّمَ للكافرينَ سِجنًا ومحبِسًا، لا يَستَطيعونَ الخُروجَ منها أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾

---

(١) رواه البخاري (٣٥٩٣)، ومسلم (٢٩٢١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٩).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ قال ابنُ عباسٍ والمفسرونَ كلُّهم: سِجنًا ومحبِسًا). ((البسيط)) (١٣/ ٢٦٧).

وقال الشنقيطي: (في قَولِه: ﴿حَصِيرًا﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ من التفسيرِ معروفان عند العلماء، كلٌّ منهما يشهد لمعناه قرآن...

الأولُ: أن الحصير: المحبِسُ والسِّجنُ، من الحَصرِ وهو الحبس... وهذا الوجه يدُلُّ له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣]، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى حصيرًا: فراشٌ ومِهادٌ، من الحصيرِ الذي يُفرَشُ؛ لأنَّ العرب تسمِّي البساطَ الصغير حصيرًا. قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن. ويدُلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ونحو ذلك من الآيات. والمهاد: الفراش). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٨٦).

وممن قال بالقولِ الثاني: الحسنُ البصري، واختاره ابنُ جرير، فقال: (والصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: معنى ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ فراشًا ومِهادًا لا يزايلُه، من الحصيرِ الذي بمعنى البِساطِ؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك كان جامعًا معنى الحبسِ والامتهاد، مع أنَّ الحصير بمعنى البساطِ في كلامِ العربِ أشهَرُ منه بمعنى الحبسِ... فلذلك قلتُ: قول الحسن أولى بالصوابِ في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠).

[الفرقان: ١٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٥].

الفَوائِدُ التربويَّة:

قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۞ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ فيه التَّحذيرُ لهذه الأمَّةِ مِن العَمَلِ بالمعاصي؛ لِئَلَّا يُصيبَهم ما أصابَ بني إسرائيلَ؛ فسُنَّةُ اللهِ واحِدةٌ لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ، ومَن نظَرَ إلى تَسليطِ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ على المُسلِمينَ، عَرَف أنَّ ذلك مِن أجْلِ ذُنوبِهم عُقوبةً لهم، وأنَّهم إذا أقاموا كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ رَسولِه، مكَّنَ لهم في الأرضِ ونصَرَهم على أعدائِهم[١]، فلَمَّا كان أهلُ المَشرِقِ قائِمينَ بالإسلامِ، كانوا مَنصورينَ على الكُفَّارِ المُشرِكينَ مِن التُّركِ والهِندِ والصِّينِ وغَيرِهم، فلمَّا ظهَرَ منهم ما ظهَرَ مِن البِدَعِ والإلحادِ والفُجورِ، سَلَّط عليهم الكُفَّارَ، فهذا هولاكو مَلِكُ التُّركِ التَّتار الذي قهَرَ الخَليفةَ بالعِراقِ، وقَتَل ببغدادَ مَقتلةً عَظيمةً جِدًّا، يقال: قتَلَ منهم ألفَ ألفٍ، وكذلك قتَلَ بحَلَب دارِ المُلْك حينئذٍ، كان بعضُ المشايخِ يَقولُ فيه: هو للمُسلِمينَ بمَنزلةِ بُختنَصَّر لبني إسرائيلَ، وكان مِن أسبابِ دُخولِ هؤلاء دِيارَ المُسلِمينَ ظُهورُ الإلحادِ والنِّفاقِ والبِدَعِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٧٩-١٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- البَعثُ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ﴾ هو بعثٌ كَونيٌّ، ويُقابِلُه البَعثُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[1] [الجمعة: ٢].

٢- كُلُّ ما تَراه في الوُجودِ مِن شَرٍّ وألَمٍ، وعُقوبةٍ وجَدْبٍ، ونَقصٍ في نَفسِك وفي غَيرِك؛ فهو مِن قِيامِ الرَّبِّ تبارَكَ تعالى بالقِسطِ، وهو عَدْلُ اللهِ وقِسطُه، وإنْ أجراه على يَدِ ظالِمٍ؛ فالمُسَلِّطُ له أعدَلُ العادلينَ، كما قال تعالى لِمَن أفسَدَ في الأرضِ: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ قُبورَ الصَّالحينَ أو الأنبياءِ التي في المَدائِنِ والقُرى، لا تَدفعُ البلاءَ عن أهْلِها؛ لأنَّه مِن المَعلومِ أنَّ في بيتِ المَقدِسِ وما حولَه مِن قُبورِ الأنبياءِ ما هو أكثرُ مِن غَيرِه مِن هذه القُبورِ، ومع ذلك لَمَّا غَلَوا وأفسَدوا عاقبَهم اللهُ بذُنوبِهم، وسَلَّطَ عليهم العَدُوَّ الذي جاسَ خِلالَ الدِّيارِ، ودخلَ المَسجِدَ وقَتلَ فيهم مَن لا يُحصي عَدَدَه إلَّا اللهُ، فلم يَمنَعْهم أحدٌ مِن قُبورِ الأنبياءِ التي كانت هناك! فاللهُ تعالى هو الذي يَرزُقُهم ويَنصُرُهم، لا رازِقَ غيرُه ولا ناصِرَ إلَّا هو[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ هذه

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ١٨٩- ١٩٣).

الآيةُ تدُلُّ على أنَّ رَحمةَ الله تعالى غالبةٌ على غَضَبِه، بدليلِ أنَّه لَمَّا حكى عنهم الإحسانَ أعاده مرَّتينِ، فقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾، ولَمَّا حكى عنهم الإساءةَ اقتصَرَ على ذِكرِها مرَّةً واحِدةً، فقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، ولولا أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ غالِبٌ لَما كان كذلك[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(الكِتاب) كِتابَ التَّوراةِ، والتَّعريفُ للعهدِ الذِّكري، حيثُ ذُكِرَ قَبْلَه في قولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فيكونُ فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى إظهارِ لفظِ (الكتابِ) لمُجرَّدِ الاهتمامِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (الكتابُ) بعضَ كُتبِهم الدِّينيَّةِ؛ فيكونُ تَعريفُ (الكتابِ) تَعريفَ الجِنسِ، وليس تَعريفَ العهدِ الذِّكريِّ؛ إذ ليس هو الكتابَ المذكورَ آنفًا في قولِه: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّه لمَّا أظهَرَ اسمَ الكتابِ أشعَرَ بأنَّه كتابٌ آخَرُ من كُتبِهم[2].

- وجُملةُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ إلى قولِه: ﴿حَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٨).

قال ابن عاشور: (ضمائرُ الخطابِ في هذه الجملةِ مانعةٌ مِن أنْ يكونَ المرادُ بالكتابِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللَّوحَ المحفوظَ، أو: كتابَ اللَّهِ، أي: علمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩).

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾[١].

- وقولُه: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، إن كان ﴿قَضَيْنَا﴾ بمعنَى (أعْلَمْنا). ويجوزُ أنْ يُجْرى القضاءُ المحتومُ مَجْرى القسَمِ، فيكونُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جوابًا له، كأنَّه قال: وأقْسَمنا لتُفسِدُنَّ، وذلك إذا كان ﴿قَضَيْنَا﴾ مِن القضاءِ والقدرِ[٢].

- وإسنادُ الإفسادِ إلى ضَميرِ بني إسرائيلَ مُفيدٌ أنَّه إفسادٌ من جُمهورِهم، بحيث تُعَدُّ الأُمَّةُ كلُّها مُفسدةً وإنْ كانت لا تَخْلو من صالحِينَ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ ﴾ إضافةُ ﴿وَعْدُ﴾ إلى ﴿ أُولَىٰهُمَا﴾ بَيانيَّةٌ، أي: الموعودُ الَّذي هو أُولى المرَّتَينِ من الإفسادِ والعُلُوِّ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿رَدَدْنَا﴾ جعلَ ﴿رَدَدْنَا﴾ مَوضِعَ (نرُدُّ)؛ إذ وقْتُ إخبارِهم لم يقَعِ الأمْرُ بعدُ، لكنَّه لمَّا كان وعْدُ اللهِ في غايةِ الثِّقةِ أنَّه يقَعُ، عُبِّرَ عن مُستقبلِه بالماضي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ فيه ذِكْرُ الإساءةِ باللَّامِ في قولِه: ﴿فَلَهَا﴾؛ ازْدواجًا، أي: قابَلَ قولَه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ بقولِه: ﴿فَلَهَا﴾؛ فاللامُ على بابِها؛ لأنَّها للاختِصاصِ، والعامِلُ مُختَصٌّ بجَزاءِ عَمَلِه حَسَنِه وسيِّئِه. وقيل: اللَّامُ بمعنى (إلى)، أي: فإليها ترجِعُ الإساءةُ. وقيل: اللَّامُ بمعنى (على)، أي: فعَلَيها[1].

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؛ إذ تَقديرُ الكلامِ: فإذا أسأْتُمْ، وجاء وعْدُ المرَّةِ الآخرةِ. وقد حصَلَ بهذا التَّفريعِ إيجازٌ بَديعٌ قضاءً لحقِّ التَّقسيمِ الأوَّلِ في قولِه: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾، ولحَقِّ إفادةِ تَرتُّبِ مَجيءِ وعْدِ الآخرةِ على الإساءةِ، ولو عُطِفَ بالواوِ -كما هو مُقْتضى ظاهِرِ التَّقسيمِ إلى مَرَّتينِ- فاتت إفادةُ التَّرتُّبِ والتَّفرُّعِ[2].

- قولُه: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أي: بعَثْناهم ليَسُوؤا وُجوهَكم؛ فحُذِفَ (بعَثْناهم)؛ لدلالةِ ذكْرِه أوَّلًا عليه[3]. وخُصَّتِ المَساءةُ بالوُجوهِ -والمُرادُ: أصحابُ الوجوهِ-؛ لِما يَبْدو عليها من أثَرِ الحُزنِ والكآبةِ[4]، فآثارُ الأعراضِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١١).

النَّفسانيَّةِ الحاصِلة في القَلبِ إنَّما تَظهَرُ على الوَجهِ، فإنْ حَصَل الفَرَحُ في القَلبِ، ظَهَرَت النَّضْرةُ والإشراقُ والإسفارُ في الوَجهِ، وإن حصل الحُزنُ والخَوفُ في القَلبِ، ظهَرَ الكُلوحُ والغَبْرةُ والسَّوادُ في الوَجهِ؛ فلهذا السَّبَبِ عُزِيَت الإساءةُ إلى الوُجوهِ في هذه الآيةِ[1].

- وقَولُه تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: هذا تعريضٌ بالتَّهديدِ لقُرَيشٍ بأنَّهم إن لم يَرجِعوا أبدَلَ أمْنَهم في الحَرمِ خَوفًا وعِزَّهم ذلًّا، فأدخَلَ عليهم جنودًا لا قِبَلَ لهم بها، وقد فعَلَ ذلك عامَ الفَتحِ، لكِنَّه فِعلُ إكرامٍ لا إهانةٍ، ببرَكةِ هذا النبيِّ الكريمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (وجعَلْنا جهنَّمَ لكم)؛ تَسجيلًا على كُفْرِهم بالعَودِ، وذَمًّا لهم بذلك، وإشعارًا بعلَّةِ الحُكمِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).

الآيات (٩-١١)

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يُبينُ الله تعالى أنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ إلى أحسَنِ الطُّرُقِ وأعدلِها، وهي مِلَّةُ الإسلامِ، ويُبَشِّرُ المُؤمِنينَ الذين يمتَثِلون الأمرَ ويَجتنِبون النَّهيَ، بأنَّ لهم ثوابًا عَظيمًا، وأنَّ الذينَ لا يُؤمنونَ بالدَّارِ الآخرةِ وما فيها مِنَ الجَزاءِ، أعدَدْنا لهم عَذابًا مُوجِعًا في النَّارِ.

ويدعو الإنسانُ عند غَضَبِه على نَفسِه أو ولَدِه أو مالِه بالشَّرِّ، مِثلَ ما يدعو بالخيرِ، وهذا مِن جَهلِ الإنسانِ وعَجَلتِه، وكان الإنسانُ بطَبعِه عَجولًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذه الآيَةَ جاءت تنفيسًا على المؤمنين مِن أثَرِ القِصَصِ المهولةِ التي قُصَّت عن بني إسرائيلَ وما حَلَّ بهم مِن البلاءِ، مِمَّا يثيرُ في نفوسِ المُسلِمين الخَشيةَ مِن أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب أولئك، فأُخبِروا بأنَّ في القرآنِ ما يَعصِمُهم عن الوقوعِ فيما وقعَ فيه بنو إسرائيل؛ إذ هو يهدي للطَّريقِ التي هي أقومُ؛ ولذلك ذكَرَ مع الهدايةِ بِشارةَ المؤمنينَ الذين يَعمَلون الصَّالحاتِ، ونِذارةَ الذين لا

يُؤمِنون بالآخرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى ما فعَلَه في حَقِّ عِبادِه المُخلَصينَ، وهو: الإسراءُ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإيتاءُ الكِتابِ لِموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فعَلَه في حَقِّ العُصاةِ والمتمَرِّدينَ وهو: تَسليطُ أنواعِ البَلاءِ عليهم؛ كان ذلك تَنبيهًا على أنَّ طاعةَ اللهِ تُوجِبُ كُلَّ خَيرٍ وكَرامةٍ، ومَعصيَتَه تُوجِبُ كُلَّ بَليَّةٍ وغَرامةٍ، لا جرَمَ أثنى هنا على القُرآنِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ المتَّبِعينَ له إلى الطَّريقةِ التي هي أعدَلُ وأفضَلُ وأصوَبُ في كلِّ شأنٍ؛ من العقائِدِ والأعمالِ والأخلاقِ، وهي ملةُ الإسلامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧).

قال ابن جرير (وذلك دينُ الله الذي بعَث به أنبياءَه، وهو الإسلامُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٠).

قال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ أجمل الله جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآنِ من الهدى إلى خيرِ الطُّرُقِ وأعدَلِها وأصوَبِها، فلو تتبَّعْنا تفصيلَها على وجهِ الكمال لأتينا على جميعِ القرآن العظيمِ؛ لشمولها لجميعِ ما فيه من الهدى إلى خيرَيِ الدنيا والآخرة). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧).

قال الألوسي: (و﴿أَقْوَمُ﴾ أفعَلُ تفضيل على ما أشار إليه غيرُ واحد. وقال أبو حيان: الذي يظهَرُ من حيث المعنى أنَّه لا يراد به التفضيلُ؛ إذ لا مشاركة بين الطريقةِ التي يهدي لها القرآنُ وغيرِها من الطرُقِ في مبدأ الاشتقاقِ لتفضُلَ عليه، فالمعنى: للتي هي قيِّمةٌ، أي: مستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣]، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] اهـ. وإلى ذلك ذهب الإمام الرازي). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٣)،

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

أي: ويُبَشِّرُ هذا القرآنُ المُؤمِنينَ -الذين يُصَدِّقونَ إيمانَهم بأنَّهم يَعمَلونَ الأعمالَ الصَّالحةَ- بأنَّ لهم ثوابًا عظيمًا في الآخِرةِ[١].

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ⑩﴾.

أي: ويُبَشِّرُ القُرآنُ المُؤمِنينَ أيضًا بأنَّ الله أعدَّ وهيَّأ لأعدائِهم الكافِرينَ الذين لا يُؤمنونَ بالبَعثِ يومَ القيامةِ، عَذابًا مُوجِعًا في الآخِرةِ[٢].

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ⑪﴾.

((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٢٣، ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨١-٣٨٢).

قال الواحدي: (بُشِّروا بالنَّعيمِ الذي لهم، والعذابِ الذي لأعدائِهم، قال الفراء: فأُوقِعَت البِشارةُ على قَولِه: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾ وعلى قَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ...﴾ الآية. على أن يكونَ المُؤمِنونَ بُشِّروا بهما جَميعًا، كما تقولُ: بَشَّرْتُ عبدَ اللهِ أنَّه سيُعطى وأنَّ عَدُوَّه سيُمنَع؛ وذلك أنَّ المُؤمِنينَ كانوا في أذًى مِن المُشرِكينَ، فجعل اللهُ لهم البُشرى في الدُّنيا بعِقابِ الكافرينَ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١١٧).

وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤١).

وقيل: المعنى: ويبشرُ الَّذين لا يُؤمنونَ بالآخرةِ...، وممن اختار ذلك: السمعاني، وابنُ كثير، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٢٨).

﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾.

أي: ويدعُو الإنسانُ في حالِ غَضَبِه على نَفسِه وأهْلِه ووَلَدِه بالموتِ أو بغَيرِه مِمَّا يَسوءُ، كما يدعو ربَّه بالخَيرِ، فلو استُجِيبَ له في دُعائِه بالشَّرِّ كما يُستَجابُ له في الخَيرِ، لهلَكَ[(١)].

عن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((سِرْنا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غزوةِ بطنِ بُواطٍ، وهو يَطلُبُ المَجْديَّ بنَ عَمرٍو الجُهنيَّ، وكان النَّاضِحُ[(٢)] يَعقُبُه[(٣)] مِنَّا الخَمسةُ والسِّتَّةُ والسَّبعةُ، فدارت عُقبةُ[(٤)] رجُلٍ مِن الأنصارِ على ناضِحٍ له، فأناخه فركِبَه، ثمَّ بعَثَه فتَلَدَّنَ[(٥)] عليه بعضَ التلَدُّنِ، فقال له: شأْ[(٦)]، لعَنَك اللهُ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن هذا اللَّاعِنُ بَعيرَه؟! قال: أنا يا رسولَ اللهِ، قال: انزِلْ عنه، فلا تَصْحَبْنا بمَلعونٍ، لا تدْعُوا على أنفُسِكم، ولا تَدعُوا على أولادِكم، ولا تَدْعوا على أموالِكم، لا تُوافِقوا مِنَ اللهِ ساعةً يُسألُ فيها عَطاءً، فيَستجيبَ لكم))[(٧)].

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾.

أي: إنَّما يَفعَلُ الإنسانُ ذلك فيَدعو عندَ غَضَبِه بما يَكرَهُ أن يُستَجابَ له فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٤).

(٢) النَّاضِحُ: هو البَعيرُ الذي يُستقَى عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٣) يَعقُبُه: أي: يتَعاقَبونَه في الرُّكوبِ واحِدًا بعدَ واحدٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٤٠١).

(٤) العُقْبةُ: رُكوبُ هذا نَوبةً، وهذا نَوبةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٥) فتَلَدَّنَ: أي: تلَكَّأَ وتوَقَّفَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٦) شَأْ: كَلِمةُ زَجرٍ للبَعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٨).

(٧) رواه مسلم (٣٠٠٩).

لأنَّ مِن طَبْعِه العَجلةَ، فيتعَجَّلُ طَلَبَ كُلِّ ما يقَعُ في قَلبِه ويَخطُرُ ببالِه، مِن غيرِ أن يتأنَّى فيه ويتفَكَّرَ، ويتدبَّرَ عواقِبَه[1].

كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ في هذه الآيةِ يُخبِرُ تعالى عن شَرَفِ القُرآنِ وجَلالتِه، وأنَّه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدَلُ وأعلى، مِن العقائِدِ والأعْمالِ والأخلاقِ، فمَن اهتدى بما يدعو إليه القُرآنُ كان أكمَلَ النَّاسِ وأقوَمَهم وأهداهم في جميعِ أمورِه[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه الآيةِ أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على البِشارةِ والنِّذارةِ، وفيها ذِكرُ الأسبابِ التي تُنالُ بها البِشارةُ، وهي الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ، والتي تُستَحَقُّ بها النِّذارةُ، وهي ضِدُّ ذلك[3].

٣- ذَمَّ اللهُ تعالى الإنسانَ بالعَجَلةِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾، وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[4] [الأنبياء: ٣٧]، فالعجَلَةُ مِن مقتضياتِ الشهوةِ؛ فلذلك ذُمَّت في جميعِ القرآنِ حتَّى قِيل:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(العجلةُ مِن الشيطانِ)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، فيه إيماءٌ إلى ضمانِ سلامةِ أُمةِ القرآنِ مِن الحيدةِ عن الطريقِ الأقومِ؛ لأنَّ القرآنَ جاء بأسلوبٍ مِن الإرشادِ قويمٍ، لا يحولُ دونَه ودونَ الولوجِ إلى العقولِ حائلٌ، ولا يغادرُ مسلكًا إلى ناحيةٍ من نواحي الأخلاقِ والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدمُ المتدبرُ في معانيه اجتناءَ ثمارِ أفنانِه، وبتلك الأساليبِ التي لم تبلُغْها الكتبُ السابقةُ كانت الطريقةُ التي يهدي إلى سلوكِها أقومَ مِن الطرائقِ الأُخرَى، وإن كانت الغايةُ المقصودُ الوصول إليها واحدةً[٢]، فما يَهدِي إليه القُرآنُ أقومُ مِمَّا يهدي إليه الكِتابُ الذي قَبلَه، وإن كان ذلك يَهدِي إلى الصِّراطِ المُستقيم، لكِنَّ القُرآنَ يَهدي للتي هي أَقوَمُ؛ ولهذا ذُكِرَ هذا بعدَ قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَليقُ لَفظُ البِشارةِ بالعَذابِ؟

الجَوابُ: أنَّه مَذكورٌ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ. أو يقال: إنه مِن بابِ إطلاقِ اسمِ الضِّدَّينِ على الآخرِ، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤] [الشورى: ٤٠].

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).
(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٥/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٤).

٣- لا بُشرى لِذَوي الهِمَمِ أعلى ولا أسَرُّ مِن الانتِقامِ مِن مُخالِفيهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فمِمَّا بَشَّرَهم به أنَّه أعَدَّ لِمُخالِفيهم عذابًا أليمًا[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، عاد به الكلامُ إلى الغرَضِ الأهمِّ من هذه السُّورةِ، وهو تأييدُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالآياتِ والمُعجزاتِ[٢].

- وتَأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ) مُراعًى فيه حالُ بعضِ المُخاطبينَ، وهم الَّذين لم يُذْعِنوا إليه، وحالُ المُؤمنينَ من الاهتمامِ بهذا الخبرِ؛ فالتَّوكيدُ مُستعملٌ في مَعنيَيْه: دفْعِ الإنكارِ، والاهتمامِ، ولا تعارُضَ بين الاعتبارينِ[٣].

- قولُه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ إشارةٌ إلى الحاضرِ في أذهانِ النَّاسِ من المِقدارِ المُنزَّلِ من القُرآنِ قبْلَ هذه الآيةِ، وبُيِّنَتِ الإشارةُ بالاسمِ الواقعِ بعدها؛ تَنويهًا بشأنِ القُرآنِ[٤].

- قولُه: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صِفةٌ لمحذوفٍ دَلَّ عليه ﴿يَهْدِى﴾، أي: للطَّريقِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّتي هي أقومُ؛ لأنَّ الهِدايةَ من مُلازماتِ السَّيرِ والطَّريقِ، أو للمِلَّةِ الأقومِ، وفي حذْفِ الموصوفِ -من الإيجازِ من جهةٍ، ومن التَّفخيمِ من جهةٍ أُخرى- ما رجَّحَ الحذفَ على الذِّكرِ[١]؛ ففي الحذفِ من ذَوقِ البلاغةِ ما لا يُوجَدُ مع الإثباتِ[٢]. وقيل: ﴿لِلَّتِي﴾ أي: (للطريقةِ التي)، وترْكُ ذِكْرِها ليس لقصدِ التَّعميمِ لها وللحالةِ وللخصلةِ ونحوِها ممَّا يُعَبَّرُ به عن المقصدِ المذكورِ، بلْ للإيذانِ بالغِنَى عن التَّصريحِ بها لغايةِ ظُهورِها، لا سيَّما بعدَ ذكْرِ الهدايةِ الَّتي هي من رَوادفِها[٣].

- قولُه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ الأقومُ: تفضيلُ القويمِ -وذلك على أحدِ القولينِ-؛ ففيه إيماءٌ إلى ضمانِ سلامةِ أُمَّةِ القُرآنِ من الحَيدةِ عن الطَّريقِ الأقومِ[٤].

- قولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال ذلك هنا بلفظِ ﴿كَبِيرًا﴾، وقاله في (الكهفِ) بلفظِ ﴿حَسَنًا﴾ في قولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]؛ مُوافقةً للفواصلِ قبلَهما وبعدهما؛ وهي: ﴿حَصِيرًا﴾، ﴿أَلِيمًا﴾، ﴿عَجُولًا﴾، وجُلُّها وقَعَ قبلَ آخرِها مَدَّةٌ، وكذلك في سُورةِ (الكهفِ) جاء على ما تَقْتضيه الآياتُ قبلَها وبعدَها؛ وهي: ﴿عِوَجًا﴾، ﴿أَبَدًا﴾، ﴿وَلَدًا﴾، وجُلُّها قبلَ آخرِها مُتحرِّكٌ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٠).
(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٣-١٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٩)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٨٥).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- جُملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾، أي: بُشِّروا بفَوزِهم بالجنَّةِ، وبكَينونةِ العذابِ الأليمِ لأعدائِهم الكُفَّارِ؛ فالتَّبشيرُ هنا بمعناه، والمُرادُ تَبشيرُ المُؤمنينَ ببِشارتينِ: بأجرٍ كَبيرٍ، وبتعذيبِ أعدائهم؛ ففي عِلْمِ المُؤمنينَ بذلك وتَبْشيرِهم به مَسرَّةٌ لهم؛ فمُصيبةُ العدوِّ سُرورٌ يُبشَّرُ به. أو تكونُ جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ داخِلةً مع قولِه: ﴿أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَبِيرًا ﴾ تحتَ التَّبشيرِ المُرادِ به مُطلقُ الإخبارِ الشاملِ للإخبارِ بما فيه سرورٌ وللإخبارِ بما ليسَ كذلك؛ فيكونُ ذلك بَيانًا لهدايةِ القُرآنِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿يُبَشِّرُ﴾ أو ﴿يَهۡدِي﴾ بإضمارِ (يُخْبِرُ)؛ فيَكونُ مِن عَطْفِ الجُملَةِ على الجُملةِ[(١)].

- وفي ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ تَخصيصُ الآخرةِ بالذِّكرِ من بين سائرِ ما كَفَروا به؛ لكونِها مُعظَمَ ما أُمِروا بالإيمانِ به، ولمُراعاةِ التَّناسُبِ بين أعمالِهم وجزائِها الَّذي أنبَأَ عنه قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، وهو عذابُ جهنَّمَ، أي: أعتَدْنا لهم فيما كَفَروا به وأنْكَروا وُجودَه من الآخرةِ عذابًا أليمًا، وهو أبلغُ في الزَّجرِ؛ لأنَّ إتيانَ العذابِ مِن حيثُ لا يُحْتَسَبُ أفظَعُ وأفجَعُ[(٢)].

- هذه الآيةُ جاءت عقِبَ ذكْرِ أحوالِ اليهودِ، وانْدَرجوا فيمَن لا يُؤمِنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٨).

بالآخرةِ؛ لأنَّ أكثرَهم لا يقولُ بالثَّوابِ والعقابِ الجُسمانيِّ، وبعضُهم قال: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]؛ فلم يُؤمنوا بالآخرةِ حَقيقةَ الإيمانِ بها[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾

- قولُه: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾، أي: مثْلَ دُعائِه بالخيرِ المذكورِ فَرضًا لا تَحقيقًا؛ فإنَّه بمَعزلٍ من الدُّعاءِ به، وفيهِ رمْزٌ إلى أنَّه اللَّائقُ بحالِه[٢].

وقولُه: ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ مَصدرٌ يفيدُ تَشبيهًا، أي: يستعجِلُ الشَّرَّ كاستعجالِه الخيرَ[٣].

- الباءُ في قولِه: ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ و﴿بِٱلۡخَيۡرِ﴾ لتأكيدِ لُصوقِ العامِلِ بمَعمولِه، كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، أو لتَضمينِ مادَّةِ الدُّعاءِ معنى الاستعجالِ؛ فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾[٤] [الشورى: ١٨].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ تَذييلٌ؛ فالإنسانُ هنا مُرادٌ به الجنسُ؛ لأنَّه المُناسِبُ للتَّذييلِ، و (كان) تدُلُّ على أنَّ اسْمَها مُتَّصِفٌ بخبَرِها اتِّصافًا مُتمكِّنًا[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢-١٥)

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَائِرَهُ﴾: أي: عَمَلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وما قُدِّرَ عليه، تقولُ العربُ: جرَى طائرُه بكذا مِن الخيرِ، وجرَى له الطائرُ بكذا مِن الشَّرِّ، فخُوطبوا بما يَستعمِلونَ، والطائرُ: الحظُّ[1].

﴿مَنْشُورًا﴾: أي: مفتوحًا، والنشرُ: البسطُ، وأصلُ (نشر): يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه[2].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾: أي: ولا تحمِلُ آثِمةٌ إثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقل في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه[3].

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٨)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢)،

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وجعَلْنا اللَّيلَ والنَّهارَ علامَتَينِ دالَّتَينِ على وَحدانيَّتِنا وقُدرتِنا، فطَمَسْنا القَمرَ؛ لِيَكونَ اللَّيلُ مُظلِمًا، وجعَلْنا الشَّمسَ مُضيئةً لكم في النَّهارِ؛ لتطلُبوا -أيُّها النَّاسُ- فيه ما تحتاجونَه مِن أمورِ معاشِكم، ولتَعلَموا -مِن مَحوِ آيةِ اللَّيلِ- عدَدَ السِّنينَ وحِسابَ الأشهُرِ والأيَّامِ، وكُلَّ شَيءٍ بَيَّنَّاه تَبيينًا كافيًا شافيًا.

وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناه عملَه الذي قدَّرناه عليه، وسبَق به قضاؤُنا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، فيُجازَى عليه وحدَه، فلا يُحاسَبُ بعَمَلِ غَيرِه، ولا يُحاسَبُ غَيرُه بعَمَلِه، ونُخرِجُ له يومَ القيامةِ كِتابًا يراه مَفتوحًا جامعًا لِما عمِلَه، يُقالُ له: اقرأْ كِتابَ أعمالِك، تَكفيك نَفسُك اليومَ شاهِدةً عليك.

ثمَّ ذكَر سبحانَه أنَّ كلَّ إنسانٍ يتحمَّلُ نتيجةَ عملِه، فقال: مَن اهتَدى فاتَّبَع طَريقَ الحَقِّ فإنَّما ثوابُ هدايتِه لنَفسِه، ومَن ضلَّ واتَّبَع طريقَ الباطِلِ فضرَرُ ضَلالِه على نفسِه، ولا تَحمِلُ نَفسٌ مُذنِبةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى، ولا نعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليه بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقدِّمةِ ما أوصَلَ إلى الخَلقِ مِن نِعَمِ الدِّينِ -وهو القُرآنُ- أتبَعَه ببَيانِ ما أوصَلَ إليهم مِن نِعَمِ الدُّنيا(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقدِّمةِ أنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للَّتي هي أقوَمُ، وذلك الأقوَمُ ليس إلَّا ذِكرَ الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ؛ لا جَرَمَ أردَفَه بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، وهو عجائِبُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ(٢).

وأيضًا لما ذكَر عجلةَ الإنسانِ وانتقالَه مِن حالٍ إلى حالٍ؛ ذكَر أنَّ كلَّ هذا العالمِ كذلك في الانتقالِ لا يثبتُ على حالٍ، فنورٌ عقِبَ ظلمةٍ، وبالعكسِ، وازديادُ نورٍ وانتقاصٌ(٣).

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِ﴾.

أي: وجعَلْنا بعَظَمتِنا الباهرةِ اللَّيلَ والنَّهارَ علامَتَينِ دالَّتَينِ على وُجودِ اللهِ ووحدانيَّتِه، وكمالِ قُدرتِه ورَحمتِه بعبادِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ * وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٥).
قال القرطبي: (والآيةُ فيهما: إقبالُ كُلٍّ منهما مِن حَيثُ لا يُعلَمُ، وإدبارُه إلى حيثُ لا يُعلَمُ. ونُقصانُ أحدِهما بزيادةِ الآخَرِ وبالعكس آيةٌ أيضًا. وكذلك ضَوءُ النَّهارِ، وظُلمةُ اللَّيلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٧).

ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾.

أي: فطَمَسْنا القَمَرَ؛ لِيَكونَ اللَّيلُ مُظلِمًا، وجعَلْنا الشَّمسَ مُضيئةً لكم في النَّهارِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦، ٥٧).

والمرادُ بآيةِ الليلِ: القمرُ، وبآيةِ النهارِ: الشمسُ. وهو قولُ مقاتلِ بنِ سليمانَ، وظاهرُ قولِ ابنِ جريرٍ، والزجاجِ، والرازي، والقرطبي، وابنِ تيميةَ، وابنِ القيمِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٧).

قال ابن كثير: (ثمَّ إنه تعالى جعل للَّيلِ آيةً، أي: علامةً يُعرَفُ بها، وهي الظلامُ وظهورُ القمَرِ فيه، وللنَّهار علامةً، وهي النورُ وظهورُ الشمس النيِّرة فيه، وفاوَتَ بين ضياء القمر وبرهانِ الشَّمسِ؛ ليُعرَفَ هذا من هذا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠).

واختُلِف في معنى محوِ القمر، فقيل: المراد به: الكَلَف الذي يظهَرُ في وجهه، على اعتبارِ أن الشمس والقمر كانا سواءً في النور ثم طُمِسَ الضوء عن القمر. وممن قال بذلك: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥-٥١٧).

وقيل: المراد: أنه جُعل مظلمًا في نفسِه، مطموسَ النورِ، أي: لم يُجعل في القمرِ -منذُ أولِ خلقِه- شعاعٌ كشعاعِ الشمسِ تُرى به الأشياء رؤيةً بينةً، فنقصُ نورِ القمرِ عن نورِ الشمسِ هو معنَى الطمسِ على هذا القولِ. وهذا ما استظهره ابنُ عطيةَ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٧).

قال ابن عطية: (وقالت فرقة، وهو الظاهر: إنَّ قولَه: ﴿فَمَحَوْنَآ﴾ إنما يريدُ في أصل خلقتِه، وهذا كما تقولُ: بنيت داري فبدأت بالأُسِّ، ثم تابعتُ، فلا تريدُ بالفاء التعقيب). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥].

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرةً؛ لتتَوصَّلوا بضِياءِ النَّهارِ إلى طَلَبِ الرِّزقِ الذي يُيَسِّرُه لكم رَبُّكم مِنْ فَضلِه الواسِع[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

وقيل: المرادُ منه: ما يظهرُ في القمرِ مِن الزيادةِ والنقصانِ في النورِ، فيبدو في أولِ الأمرِ في صورةِ الهلالِ، ثمَّ لا يزالُ يتزايدُ نورُه حتى يصيرَ بدرًا كاملًا، ثم يأخذُ في الانتقاصِ قليلًا قليلًا، وذلك هو المحوُ، إلى أن يعودَ إلى المحاقِ. ومال إليه الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٦).
والوجهُ الثاني في معنى آيةِ الليلِ وآيةِ النهارِ: أنَّ المرادَ بالآيتينِ نفسُ اللَّيلِ والنَّهارِ، لا الشَّمسُ والقمرُ، فتكون إضافة الآيةِ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ مِنْ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللَّفظِ، أي: الآية التي هي الليلُ، والآية التي هي النهارُ، ومحوُ آيةِ الليلِ على هذا كونُه مظلمًا. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).
وممن قال مِن المفسرينَ: إنَّ قولَه تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عائدٌ إلى آيةِ النهارِ المبصرةِ، أي: لتبتغوا في النهارِ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جزي، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).
قال الشوكاني: (ولم يذكُرْ هنا السُّكونَ في اللَّيلِ اكتفاءً بما قاله في موضعٍ آخرَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

أي: ومَحَوْنا آيَةَ اللَّيلِ؛ لِتَعلَموا عدَدَ السَّنَواتِ، وتَعلَموا حِسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دِينِكم ودُنياكم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦، ٥٧).

وممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ عائدٌ إلى محوِ آيةِ الليل لا آيةِ النهارِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

قال ابن عطية: (وجعل الله تعالى النَّهارَ مُبصِرًا ليبتغيَ النَّاسُ الرزقَ وفضلَ اللهِ، وجعلَ القمَرَ مُخالِفًا للشَّمسِ لِيُعلَمَ به العددُ مِن السنينَ والحسابِ للأشهرِ وللأيام، ومعرفةُ ذلك في الشَّرعِ إنَّما هي من جهةِ القمَرِ لا من جهةِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢).

ومن المفسِّرين من جعَلَ قَولَه تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ عائدًا إلى اختلافِ الليلِ والنهارِ وتعاقُبِهما. ومنهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زمنين، وهو ظاهرُ قولِ الرسعني، وهو قولُ ابن جُزي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٦-٥٧).

قال الشوكاني: (﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وهذا متعلِّقٌ بالفعلينِ جميعًا، أعني ﴿مَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ لا بأحدِهما فقطْ كالأوَّلِ؛ إذ لا يكونُ علمُ عددِ السِّنينَ والحسابِ، إلَّا باختلافِ الجديدينِ، ومعرفةِ الأيَّامِ والشُّهورِ والسِّنينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

قال البقاعي: (﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: مِن غيرِ حاجةٍ إلى حسابٍ؛ لأنَّ النيِّرينِ يدلَّانِ على تحوُّلِ الحَولِ بمجَرَّدِ تنقُّلِهما.

ولَمَّا كانا أيضًا يدلَّانِ على حسابِ المطالع والمغارب، والزيادةِ والنقصان، وغير ذلك من الكوائنِ، لِمَن أمعن النظَرَ، وبالغَ في الفِكرِ- قال تعالى: ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٨٥).

وقال ابن عاشور: (ثم ذُكِرَت حكمةٌ أخرى حاصلةٌ مِن كلتا الآيتين، وهي حكمةُ حِسابِ السنينَ، وهي في آيةِ اللَّيلِ أظهَرُ؛ لأنَّ جمهورَ البشَرِ يَضبِطُ الشهورَ والسنينَ بالليالي، أي: حسابِ القمَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٥).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾.

أي: وكلَّ شَيءٍ تَحتاجونَ -أيُّها النَّاسُ- إلى بيانِه مِن مَصالحِ دِينِكم ودُنياكم بيَّنَّاه لكم في القُرآنِ بَيانًا واضِحًا شافيًا لا لَبْسَ فيه ولا نَقْصَ بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢] كان معناه: أنَّ كلَّ ما يُحتاجُ إليه مِن شَرحِ دلائِلِ التوحيدِ والنبُوَّةِ والمعادِ، فقد صار مذكورًا، وكُلَّ ما يُحتاجُ إليه من شرحِ أحوالِ الوَعدِ والوعيدِ والتَّرغيبِ والترهيب، فقد صار مذكورًا، وإذا كان الأمرُ كذلك فقد أزيحت الأعذارُ، وأزيلت العِلَلُ؛ فلا جرم كُلُّ مَن ورد عَرصةَ القيامةِ فقد ألزَمْناه طائِرَه في عنُقِه، ونقولُ له: ﴿ ٱقْرَأْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٣).

كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان سياقُ الكلامِ جاريًا في طريقِ التَّرغيبِ في العَمَلِ الصَّالحِ، والتَّحذيرِ مِن الكُفرِ والسَّيِّئاتِ، ابتداءً مِن قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الإسراء: ٩- ١٠] وما عقَّبه ممَّا يتعلَّقُ بالبِشارةِ والنِّذارة، وما أُدمِجَ في خلالِ ذلك مِن التذكيرِ، ثمَّ بما دلَّ على أنَّ عِلمَ اللهِ مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ تفصيلًا، وكان أهمُّ الأشياءِ في هذا المقامِ إحاطةَ عِلمِه بالأعمالِ كُلِّها- فأعقب ذِكرَ ما فصَّله اللهُ مِن الأشياء بالتَّنبيهِ على تفصيلِ أعمالِ النَّاسِ تَفصيلًا لا يقبَلُ الشَّكَّ ولا الإخفاءَ، وهو التَّفصيلُ المشابِهُ للتَّقييدِ بالكتابةِ، فعطفَ قَولَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ على قَولِه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٢] عَطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ بهذا الخاصِّ[٢].

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾.

أي: وكلَّ إنسانٍ منكم ألزَمْناه عملَه الذي قدَّرْناه عليه؛ وسبَق به قضاؤُنا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، الصادرَ منه باختيارِه، فيُجازَى عليه وَحْدَه، فلا يُحاسَبُ بعَمَلِ غَيرِه، ولا يُحاسَبُ غَيرُه بعَمَلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥١٨، ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠، ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٠).

وممن اختَار أنَّ المعنى: ألزَمْناه ما قدِّر له في الأزلِ مِن عملٍ وشقاوةٍ أو سعادةٍ: ابنُ جرير،

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

والسمعاني، وابنُ عطيةَ، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٣٧).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألزَمْناه عملَه يُجازَى به وحدَه لا غيرُه: الماتريدي، وابنُ جزي، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

وممن جمَع بينَ المعنيين: البقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٣٠).

قال الشنقيطي: (في قولِه جل وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ وجهانِ معروفانِ مِن التفسيرِ:

الأول: أنَّ المرادَ بالطائرِ: العملُ، مِن قولِهم: «طار له سهمٌ»؛ إذا خرَج له، أي: ألزمناه ما طار له مِن عملِه.

الثاني: أنَّ المرادَ بالطائرِ: ما سبَق له في علمِ الله مِن شقاوةٍ أو سعادةٍ، والقولانِ متلازمانِ؛ لأنَّ ما يطيرُ له مِن العملِ هو سببُ ما يَئولُ إليه مِن الشقاوةِ أو السعادةِ... والوجهانِ المذكورانِ في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ كلاهما يشهدُ له قرآنٌ.

أمَّا على القولِ الأولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه عملُه، فالآياتُ الدالةُ على أنَّ عملَ الإنسانِ لازمٌ له كثيرةٌ جدًّا؛ كقولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ١٢٣]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ المرادَ بطائرِه نصيبُه الذي طار له في الأزلِ مِن الشقاوةِ أو السعادةِ، فالآياتُ الدالةُ على ذلك أيضًا كثيرةٌ؛ كقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٦٠).

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾.

أي: ونُظهِرُ لكُلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ كِتابَ أعمالِه، يَجِدُه مَفتوحًا، حاويًا لكلِّ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ * فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: يُقالُ لكلِّ إنسانٍ يومَ القيامةِ: اقرأْ كِتابَ أعمالِك التي كتَبَها الحَفَظةُ فيه، ويَكفي لإحصاءِ أعمالِك نَفسُك؛ فهي الشَّاهِدةُ بأنَّك لم تُظلَمْ، ولم يُكتَبْ عليك سِوى ما عَمِلْتَ(٢).

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال في الآيةِ الأولى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٢).

﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أنَّ كُلَّ أحَدٍ مُختَصٌّ بعَمَلِ نَفسِه، عبَّرَ عن هذا المعنى بعبارةٍ أخرى أقرَبَ إلى الأفهامِ، وأبعَدَ عن الغَلَطِ[١].

فهذه الجُملةُ بَيانٌ أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ مع توابِعِها، وفيه تَبيينُ اختِلافِ الطَّائِرِ بين نافعٍ وضارٍّ؛ فطائِرُ الهدايةِ نَفْعٌ لصاحِبِه، وطائِرُ الضَّلالِ ضُرٌّ لصاحِبِه[٢].

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: مَن اهتَدى فاتَّبَعَ الحقَّ فإنَّما ينفعُ نَفْسَه بالجزاءِ الحَسَنِ، والعاقبةِ الحَميدةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾.

أي: ومَن ضلَّ عن الحَقِّ فإنَّما يجني على نَفسِه، فيَقَعُ ضَرَرُ ذلك عليه في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

الدُّنيا والآخرةِ(١).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفسٍ أُخرى، ولا يَحمِلُ أحدٌ ذَنْبَ غَيرِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

أي: وما كُنَّا مُعَذِّبينَ قَومًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم، فإذا رَدُّوا الحَقَّ عذَّبْناهم بما يَستَحِقُّونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

قال ابنُ جزي: (﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ قيل: إنَّ هذا في حُكمِ الدُّنيا، أي: أنَّ اللهَ لا يُهلِكُ أمَّةً إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ رَسولٍ إليهم. وقيل: هو عامٌّ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ قَومًا في الآخرة إلَّا وقد أرسَلَ إليهم رسولًا فكَفَروا به وعَصَوه، ويدُلُّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨- ٩]. ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣).

وقال الشوكاني: (الظاهِرُ أنَّه لا يُعَذِّبُهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إلَّا بعد الإعذارِ إليهم بإرسالِ

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۞ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

وقال جلَّ جلاله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والابتِغاءُ: هو طلَبُ الشَّيءِ بسَعيٍ إليه ومحبَّةٍ فيه، ويُسمِّي تعالى طلَبَ أسبابِ الحياةِ ابتغاءً؛ تَنبيهًا على هذا السَّعيِ وهذه المحبَّةِ، فهُما الشَّرطانِ اللَّازمانِ للفوزِ بالمطلوبِ، كما يسمِّي

الرُّسُلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤).

تعالى المطلوبَ بالابتغاءِ فَضلًا مِن الرَّبِّ، وفَضلُه من رحمتِه، ورحمتُه واسِعةٌ لا تَضبِطُها حدودٌ، ولا تَحصُرُها الأعدادُ؛ تنبيهًا على سَعةِ هذا الفَضلِ لِيَذهَبَ الخَلقُ في جميعِ نواحيه، ويأخذوا بجَميعِ أسبابِه ممَّا أذِنَ لهم فيه، وليكونوا إذا ضاق بهم مذهَبٌ آخذين بمذهبٍ آخَرَ مِن مَسالكِ هذا الفَضلِ الرَّبَّاني الواسِع غيرِ المحصورِ، وتنبيهًا أيضًا على قوَّةِ الرجاءِ في الحُصولِ على البُغيةِ؛ لأنَّ طلَبَهم طلَبٌ لِفَضلِ رَبٍّ كريمٍ، ويقولُ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ والربُّ: المالِكُ المدَبِّرُ لمملوكِه بالحِكمةِ، فيُعطيه في كلِّ حالٍ مِن أحوالِه ما يليقُ به؛ لِيَكونَ الخَلقُ بعد قيامِهم بالعمَلِ راضين بما ييسِّرُه الله من أسبابٍ، وما يقسِمُه لهم مِن رزقٍ؛ ثِقةً بعَدلِه وحِكمتِه، فلا يبغي أحدٌ على أحدٍ بتعَدٍّ أو حسَدٍ، فجَمَعت هذه الآيةُ جَميعَ أصولِ السَّعادةِ في هذه الحَياةِ:

- بالعَمَلِ مع الجِدِّ فيه، والمحبَّةِ له والرَّجاءِ في ثَمَرتِه، الذي به قِوامُ العُمرانِ.
- وبالرِّضا والتَّسليم للمَولى، الذي به طُمأنينةُ القَلبِ وراحةُ الضَّميرِ.
- وبالكَفِّ للقَلبِ واليَدِ عن النَّاسِ، الذي به الأمنُ والسَّلامُ[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ فكُلُّ ما يحتاجُ إليه العِبادُ لتَحصيلِ السَّعادتينِ من عقائِدِ الحَقِّ، وأخلاقِ الصِّدقِ، وأحكامِ العَدلِ، ووجوهِ الإحسانِ، كُلُّ هذا فُصِّل في القُرآنِ تفصيلًا، وهذا دُعاءٌ وترغيبٌ للخَلقِ أن يَطلُبوا ذلك كُلَّه مِن القرآنِ الذي يهدي للتي هي أقومُ في العِلمِ والعَمَلِ، ويأخُذوا منه ويهتَدوا به؛ فهو الغايةُ التي ما وراءها غايةٌ في الهُدى والبيانِ[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٤٩).

كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ إذا عرف الإنسانُ هذا وعنده مُسكةٌ مِن عَقلٍ، يَجِبُ عليه في دارِ الدُّنيا -وقتَ إمكانِ الفُرصةِ- ألَّا يُخزيَ نَفسَه ويُخجِلَها على رؤوسِ الأشهادِ خِزيًا وخَجَلًا يجُرُّه إلى النَّارِ؛ فالرَّحيلُ قَريبٌ والمحاسَبةُ حَقٌّ، وكُلُّ ما فعله الإنسانُ مُسَجَّلٌ عليه، وسيُقرأُ على رؤوسِ الأشهادِ، وسيَجِدُه في كتابٍ مَنشورٍ؛ فعلينا ألَّا نفضَحَ أنفُسَنا يومَ القيامةِ، ففَضيحةُ الآخرةِ وخِزيُها ليست كفَضيحةِ الدُّنيا؛ وألَّا نُفوِّتَ الفُرصةَ وأن ننتَهِزَها قبل أن يَضيعَ الوَقتُ ويُجرَّ الإنسانُ إلى القبرِ ليس عنده حَسَناتٌ؛ وألَّا نُفرِّطَ لئلَّا نندَمَ حيث لا ينفَعُ النَّدَمُ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أصلٌ في عِلمِ المَواقيتِ والهَيئةِ والتَّاريخِ[٢].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ حجةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إلزامِ الطائرِ، والطائرُ: ما قُضِي عليهم مِن الشقاوةِ والسعادةِ[٣]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ -على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ- مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على أنَّ كُلَّ ما قدَّرَه اللهُ تعالى للإنسانِ وحَكَمَ عليه به في سابِقِ عِلْمِه، فهو واجِبُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٠٨).

الوُقوعِ، مُمتَنِعُ العَدَمِ، وتَقريرُه مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: وكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناه عَمَلَه في عُنُقِه، فبيَّن تعالى أنَّ ذلك العَمَلَ لازِمٌ له، وما كانَ لازِمًا للشَّيءِ كانَ مُمتَنِعَ الزَّوالِ عنه، واجِبَ الحُصولِ له، وهو المقصودُ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه تعالى أضاف ذلك الإلزامَ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ تصريحٌ بأنَّ ذلك الإلزامَ إنَّما صدَرَ منه، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّه لا يَظهَرُ في الأبَدِ إلَّا ما حَكَمَ اللهُ به في الأزَلِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ لا ينافي قولَه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ لأنَّ في يومِ القيامةِ مواقِفَ مُختَلِفةً؛ ففي موقِفٍ يَكِلُ اللهُ حِسابَهم إلى أنفُسِهم، وعِلمُه مُحيطٌ بهم، وفي مَوقِفٍ يُحاسِبُهم هو تعالى. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يُحاسِبُهم لا غيرُ، وقَولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: يكفيك أنَّك شاهِدٌ على نَفسِك بذُنوبِها، فهو توبيخٌ وتَقريعٌ، لا تَفويضُ حِسابِ العَبدِ إلى نَفسِه. وقيل غيرُ ذلك(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ ثوابَ العَمَلِ الصَّالحِ مُختَصٌّ بفاعِلِه، وعِقابَ الذَّنبِ مُختَصٌّ بفاعِلِه، لا يتعَدَّى منه إلى غَيرِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾(٣) [النجم: ٣٩-٤٠].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٢٢٨).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحمِلُ أحَدٌ ذَنْبَ أحدٍ، ولا يَجني جانٍ إلَّا على نَفسِه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨]. ولا مُنافاةَ بين هذا وبينَ قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقَولِه تعالى ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ فإنَّ الدُّعاةَ عليهم إثمُ ضَلالِهم في أنفُسِهم، وإثمٌ آخَرُ بسَبَبِ ما أضَلُّوا مَن أضَلُّوا مِن غَيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِ أولئك، ولا يَحمِلوا عنهم شيئًا، وهذا مِن عَدلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ حكَمَ سُبحانَه لعبادِه بأربعةِ أحكامٍ هي غايةُ العَدلِ والحِكمةِ:

أحدُها: أنَّ هُدى العبدِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ لِنَفسِه لا لِغَيرِه.

الثاني: أنَّ ضَلالَه بفَواتِ ذلك وتخَلُّفِه عنه على نَفسِه لا على غَيرِه.

الثالث: أنَّ أحدًا لا يُؤاخَذُ بجَريرةِ غَيرِه.

الرابع: أنَّه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه برسُلِه. فتأمَّلْ ما في ضِمْنِ هذه الأحكامِ الأربعةِ مِن حِكمَتِه تعالى وعَدْلِه وفَضْلِه[٢].

٨- العُقوبةُ قبلَ الحُجَّةِ ليسَت مَشروعةً؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾؛ ولهذا قال الفُقَهاءُ في البُغاةِ: إنَّ الإمامَ يُراسِلُهم، فإنْ ذَكَروا شُبهةً بيَّنَها، وإن ذَكَروا مَظلِمةً أزالَها، كما أرسَلَ عليٌّ ابنَ عَبَّاسٍ إلى الخوارِجِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

فناظَرَهم حتى رجَعَ منهم أربعةُ آلافٍ، وكما طلَبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ دُعاةَ القَدَريَّةِ والخوارِجِ، فناظَرَهم حتى ظهَرَ لهم الحَقُّ وأقَرُّوا به[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحَدَّ لا يَجِبُ إلَّا على مَن بَلَغَه التَّحريمُ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ فالله تعالى أعدَلُ العادلينَ لا يعَذِّبُ أحدًا حتى تقومَ عليه الحُجَّةُ بالرِّسالةِ ثمَّ يعانِدَ الحُجَّةَ، وأمَّا من انقاد للحُجَّةِ أو لم تبلُغْه حُجَّةُ الله تعالى، فإنَّ اللهَ تعالى لا يعَذِّبُه. واستُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ أهلَ الفَتراتِ وأطفالَ المُشرِكين لا يعَذِّبُهم اللهُ حتى يبعَثَ إليهم رسولًا؛ لأنَّه مُنزَّهٌ عن الظُّلمِ[٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ استدلَّ أهلُ السنةِ به على أنَّ التكليفَ لا يلزمُ العبادَ إلَّا مِن الشرعِ، لا مِن مجردِ العقلِ[٤].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

قال ابن تيمية: (ومَن لم تَقُم عليه الحُجَّةُ في الدنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ والمجانينِ وأهلِ الفتراتِ، فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ: أنَّهم يُمتحَنون يومَ القيامة، فيُبعَثُ إليهم من يأمُرُهم بطاعتِه، فإن أطاعوه استحقُّوا الثوابَ، وإن عصَوه استحقُّوا العذابَ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٣).

مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ﴾

– قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ فيه فَنُّ الجمْعِ مع التَّفريقِ، وهو أنْ يجمَعَ المُتكلِّمُ بين شَيئينِ في حكْمٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقُ بينهما في ذلك الحُكْمِ[١].

– وفيه تَقديمُ اللَّيلِ؛ لمُراعاةِ التَّرتيبِ الوُجوديِّ؛ إذ منه ينسلِخُ النَّهارُ، وفيه تَظهَرُ غُرَرُ الشُّهورِ، ولتَرتيبِ غايةِ آيةِ النَّهارِ عليها بلا واسطةٍ[٢].

– قولُه: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: جعَلْناها لا تُبْصَرُ المرئيَّاتُ فيها، كما لا يُبْصَرُ ما مُحِيَ من الكتابِ، وهذا من البلاغةِ الحَسنةِ جِدًّا[٣].

– قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ نسَبَ الإبصارَ إلى آيةِ النَّهارِ، كما يُقالُ: ليلٌ قائمٌ ونائمٌ، أي: يُقام فيه ويُنامُ فيه؛ فهو من إسنادِ الفعلِ إلى زمانِه. وقيل: معنى ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ مُضيئةٌ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُبصِرُ[٤]. وقيل أيضًا: لما كانت في غايةِ الضياءِ يُبصِرُ بها كلُّ مَن له بصرٌ، أسندَ الإبصارَ إليها مبالغةً، فقال: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾[٥].

– وفي قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٨٥).

حيث ثَنَّى الآيةَ هنا، وأفرَدَها في سُورةِ (الأنبياءِ) في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً﴾ [الأنبياء: ٩١]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لتبايُنِ اللَّيلِ والنَّهارِ من كلِّ وجْهٍ، ولتَكرُّرِهما؛ فناسَبَهما التَّثنيةُ، بخلافِ عيسى مع أُمِّه عليهما السَّلامُ، فإنَّه جُزءٌ منها، ولا تَكرُّرَ فيهما؛ فناسَبَهما الإفرادُ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ جاء التَّعليلُ لحِكمةِ آيةِ النَّهارِ خاصَّةً دون ما يقابِلُها مِن حِكمةِ اللَّيلِ، فلم يذكُرِ السُّكونَ فيه؛ لأنَّ المنَّةَ بها أوضَحُ، ولأنَّ من التنبُّهِ إليها يحصُلُ التنبُّهُ إلى ضِدِّها، وهو حِكمةُ السُّكونِ في اللَّيلِ، فاكتفى بما ذُكِرَ في النَّهارِ[٢].

- قولُه: ﴿عَـدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فيه تَقديمُ العددِ على الحسابِ، مع أنَّ التَّرتيبَ بين مُتعلِّقَيهما وُجودًا وعدمًا على العكسِ؛ للتَّنبيهِ من أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ مُتعلِّقَ الحسابِ ما في تَضاعيفِ السِّنينَ من الأوقاتِ، أو لأنَّ العلْمَ المُتعلِّقَ بعدَدِ السِّنينَ علْمٌ إجماليٌّ بما تعلَّقَ به الحسابُ تَفصيلًا، أو لأنَّ العددَ من حيث إنَّه لم يُعْتَبَرْ فيه تَحصُّلُ شَيءٍ آخرَ منه حسْبما ذُكِرَ نازلٌ من الحسابِ المُعتبَرِ فيه ذلك منزلةَ البسيطِ من المُركَّبِ، أو لأنَّ العلْمَ المُتعلِّقَ بالأوَّلِ أقْصى المراتِبِ، فكان جَديرًا بالتَّقديمِ في مقامِ الامتنانِ[٣].

والحسابُ يشملُ حسابَ الأيامِ والشهورِ والفصولِ، فعطفُه على عددِ السنينَ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ للتعميمِ بعدَ ذكرِ الخاصِّ؛ اهتمامًا به[٤].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٤-٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٥).

- قولُه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ ذُكِرَ المصدَرُ، وهو قَولُه: ﴿تَفْصِيلًا﴾؛ لأجلِ تأكيدِ الكلامِ وتقريرِه، كأنَّه قال: وفصَّلْناه حقًّا، وفصَّلْناه على الوَجهِ الذي لا مَزيدَ عليه[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾

- قولُه: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أخبَرَهم اللهُ تَعالى في أوجَزِ لَفظٍ وأبلَغِ إشارةٍ أنَّ جميعَ ما يَلْقى الإنسانُ من خيرٍ وشَرٍّ، فقد سبَقَ به القضاءُ، وأُلْزِمَ حظُّه وعمَلُه ومكسَبُه في عُنقِه -على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ-، فعُبِّرَ عن الحظِّ والعمَلِ -إذ هما مُتلازِمانِ- بالطَّائرِ. وهو تَعبيرٌ مَسوقٌ على عادةِ العربِ، حيث كانوا لا يُباشِرون عملًا من الأعمالِ الهامَّةِ إلَّا إذا اعْتَبروا أحوالَ الطَّيرِ؛ ليَتبيَّنوا إذا كانت مَغبَّةُ العملِ خيرًا أمْ شَرًّا، فإذا طارتِ الطَّيرُ بنفْسِها أو بإزعاجٍ من أحدٍ مُتيامنةً، تَفاءلوا وأقْدَموا على عمَلِهم، وإذا طارت مُتياسرةً، تَشاءموا وأحْجَموا عن عمَلِهم، ولمَّا كثُرَ منهم ذلك سَمَّوا نفْسَ الخيرِ والشَّرِّ بالطَّائرِ؛ تَسميةً للشَّيءِ باسمِ لازِمه[2].

- قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ العُنقُ هو موضعُ السِّماتِ، وموضعُ القلائِدِ والأطوقَةِ، وغير ذلك مِمَّا يزينُ أو يَشينُ؛ فجرَى كلامُ العربِ بنسبةِ الأشياءِ اللَّازمةِ بني آدَمَ وغَيْرَهم مِنْ ذلك إلى أعناقِهم، وكَثُرَ اسْتِعْمالُهم ذلك حَتَّى أضافُوا الأشياءَ اللَّازمةَ سائرَ الأبدانِ إلى الأعناقِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠١- ٤٠٢).

كما أضافوا جناياتِ أعضاءِ الأبدانِ إلى اليدِ، فقالوا: ذلك بما كسَبتْ يَداه[١].

أو: خُصَّ العُنُقُ مِن بينِ سائرِ الأعضاءِ بهذا المعنى؛ لأنَّ الذي يكونُ عليه إمَّا أن يكونَ خَيرًا يَزينُه أو شَرًّا يَشينُه، وما يَزينُ يكونُ كالطَّوقِ والحَلْيِ، والذي يَشينُ فهو كالغُلِّ، فهاهنا عَمَلُه إن كان مِن الخيراتِ كان زينةً له، وإن كان مِنَ المعاصي كان كالغُلِّ على رَقَبتِه[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ كِنايةً عن المُلازمةِ والقُربِ، أي: عمَلُه لازمٌ له لُزومَ القِلادةِ[٣]، ومنه قولُ العرَبِ: تَقَلَّدَها طوقَ الحمامةِ؛ فلذلك خُصَّت بالعُنقِ؛ لأنَّ القِلادةَ تُوضَعُ في عُنقِ المرأةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تَمثيلًا بالبعيرِ الَّذي يُوسَمُ في عُنقِه بسِمةٍ؛ كيْلَا يختلِطَ بغيرِه، أو الَّذي يُوضَعُ في عُنقِه جُلْجُلٌ[٤]؛ لكيْلا يضِلَّ عن صاحبِه[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾

- جُملةُ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ مقولُ قولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: يُقال له: اقْرَأْ...[٦].

- والأمْرُ في ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مُستعملٌ في التَّسخيرِ، ومُكَنًّى به عن الإعذارِ لهم والاحتجاجِ عليهم، كما دَلَّ عليه قولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١).
(٤) الجُلْجُلُ: الجَرَسُ الصَّغيرُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ٢٢٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٨).

ولذلك كان معرفةُ تلك الأعمالِ من ذلك الكتابِ حاصِلةً للقارِئِ[(١)].

- قولُه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ حَسِيبٌ بمعنى حاسِبٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى الكافي؛ وُضِعَ موضِعَ الشَّهيدِ، فعُدِّيَ بـ (على)؛ لأنَّ الشَّاهدَ يَكْفي المُدَّعِيَ ما أهَمَّه، وذكَرَ ﴿حَسِيبٗا﴾؛ لأنَّه بمنزلةِ الشَّهيدِ والقاضي والأميرِ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ هذه الأمورَ يتولَّاها الرِّجالُ، فكأنَّه قيل: كَفى بنفْسِك رجُلًا حسيبًا، ويجوزُ أنْ يُتأوَّلَ النَّفسُ بالشَّخصِ، كما يُقال: ثلاثةُ أنفُسٍ[(٢)].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِنَفۡسِكَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، داخِلةٌ على فاعلِ (كفى)[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾

- قولُه: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ فَذلكةٌ[(٤)] لِما تقدَّمَ من بَيانِ كونِ القُرآنِ هاديًا لأقومِ الطَّرائقِ ولُزومِ الأعمالِ لأصحابِها، أي: مَن اهْتَدى بهدايتِه، وعمِلَ بما في تَضاعيفِه من الأحكامِ، وانْتَهى عمَّا نَهاه عنه؛ فإنَّما تَعودُ منفعةُ اهتدائِه إلى نفْسِه، لا تَتخطَّاه إلى غيرِه ممَّن لم يَهتدِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).

(٤) الفَذْلكة: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ، من قولهم: (فذَلِك كذا)، ومعناها: ذكرُ مُجمَل ما فُصِّل أولًا وخلاصته. وقد يُراد بالفذلكة النتيجة لِمَا سبَق من الكلام، والتفريع عليه، ومنها فذلكة الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦١- ١٦٢).

- قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ لِما في هذه من عُمومِ الحكمِ؛ فإنَّ عمَلَ أحدٍ لا يلحَقُ نفْعُه ولا ضَرُّه بغيرِه[١]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيدٌ للجُملةِ الثَّانيةِ: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: لا تحمِلُ نفْسٌ حاملةٌ للوِزْرِ وِزْرَ نفْسٍ أُخرى حتَّى يمكِنَ تخلُّصُ النَّفسِ الثَّانيةِ عن وِزْرِها، ويختَلَّ ما بين العامِلِ وعمَلِه من التَّلازُمِ، بل إنَّما تحمِلُ كلٌّ منها وِزْرَها، وهذا تَحقيقٌ لمعنى قولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ...﴾، وإنَّما خَصَّ التَّأكيدَ بالجُملةِ الثَّانيةِ؛ قطعًا للأطماعِ الفارغةِ، حيث كانوا يَزْعمون أنَّهم إنْ لم يَكونوا على الحقِّ، فالتَّبِعةُ على أسلافِهم الَّذين قَلَّدوهم[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوِزْرُ: الإثمُ، شُبِّهَ بالحِمْلِ الثَّقيلِ؛ لِما يجُرُّه من التَّعبِ لصاحبِه في الآخرةِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٤٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥١).

الآيات (١٦-٢١)

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُتۡرَفِيهَا﴾: أي: المُنَعَّمِينَ فيها، الذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[1].

﴿ٱلۡقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّة القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[2].

﴿مَّدۡحُورٗا﴾: أي: مَطرودًا مُبْعَدًا، وأصلُ (دحر): يدلُّ على الطَّردِ والإبعادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦، ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾

قَولُه: ﴿ كُلًّا ﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المقَدَّمةِ بـ ﴿ نُّمِدُّ ﴾، والتَّنوينُ فيه تَنوينُ عِوَضٍ عن المُضافِ إليه، أي: كُلَّ الفَريقَينِ. ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿ كُلًّا ﴾ بدَلُ مُفَصَّلٍ مِن مُجمَلٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وإذا قدَّرْنا إهلاكَ أهلِ قَريةٍ لِظُلمِهم، أمَرْنا المُتنَعِّمينَ فيها بطاعةِ اللهِ وتَوحيدِه، على لسانِ الرسولِ المرسَلِ إليهم، فعَصَوا أمرَ رَبِّهم، وكذَّبوا المُرسَلين، فوجب عليهم عذابُنا، فأهلَكْنا قريتَهم واستأصَلْنا شأفتَهم، وكثيرًا أهلَكْنا مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ رُسُلَها مِن بعدِ نُوحٍ، وحَسبُك ربُّك -يا مُحمَّدُ- إحاطةً وعِلمًا واطِّلاعًا بما يعمَلُه العبادُ.

ثمَّ ذكَر تعالى مصيرَ الذين يُؤثِرونَ الدُّنيا على الآخرةِ، فقال: مَن كان همُّه الدُّنيا وسَعيُه لها وحْدَها، ولم يعمَلْ للآخرةِ؛ عجَّل اللهُ له فيها ما يَشاء تعجيلَه له مِن زينتِها ومُتَعِها؛ لِمن يريدُ اللهُ، ثمَّ يجعَلُ اللهُ له في الآخرةِ جَهنَّمَ يدخُلُها مَذمومًا مطرودًا مِن رَحمة اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومَن قصَدَ بقَولِه وعَمَلِه ثَوابَ الدَّارِ الآخرةِ، وسعَى لها على ما يحِبُّ اللهُ ويرضى، وهو مُؤمِنٌ؛ فأولئك كان عَمَلُهم مَقبولًا، يُضاعِفُ الله لهم ثوابَه، ويُحسِنُ لهم جزاءَه.

ثم قال تعالى: كلًّا من الفَريقينِ المتقدِّمَينِ نَزيدُ مِن فَضلِنا ورِزقِنا، فنَرزُقُ

---

٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

المُؤمِنينَ والكافرينَ في الدُّنيا، وما كان عَطاءُ رَبِّك مَمنوعًا عن المؤمِنِ ولا عن الكافِرِ، انظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف فضَّل اللهُ بَعضَ النَّاسِ على بَعضٍ في الدُّنيا، ولَلآخِرةُ أكبَرُ تفاضُلًا وتفاوتًا في الدَّرَجاتِ والمنازِلِ مِمَّا كانوا عليه في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أشار اللهُ تعالى إلى عذابِ المُخالِفينَ؛ قَرَّرَ أسبابَه، وعرَّفَ أنَّها بقَدَرِه، فقال تعالى[1]:

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿آمَرْنَا﴾ بمَدِّ الهمزةِ، قيل: المعنى: أكثَرْنا مُتْرَفِيها عددًا، أو أكثَرْنا حُروثَهم وأموالَهم، وقيل غير ذلك[2].

٢- قراءةُ ﴿أَمَرْنَا﴾ مِن غَيرِ مَدٍّ، مِنَ الأمرِ الذي هو خِلافُ النَّهيِ، والمعنى: أمَرْناهم بالطَّاعةِ ففَسَقوا بمَعصيتِهم اللهَ، وقيل غيرُ ذلك[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٠).

(٢) قرأ بها يعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٨، ٥٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٩١ - ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦١).

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾.

أي: وإذا أرَدْنا أن نُهلِكَ أهلَ قَريةٍ بعَذابٍ في الدُّنيا، أمَرْنا مُتنَعِّميها وجَبابِرَتَها بطاعتي، على لسانِ الرسولِ المبعوثِ إليهم، فخَرَجوا عن أوامِري وعَصَوني[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٧، ٥٣٢)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٣/ ١٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٤٩)، ((العواصم والقواصم)) لابن الوزير (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٥).

وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ بالأمرِ هنا: الأمرُ الشَّرعيُّ، أي: أمَرهم بطاعتِه، فخالَفوا أمرَه وعَصَوه: ابنُ جرير، وابنُ حزم، والنَّسَفي، وابنُ الوزير، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي، ونسَبَه إلى جمهورِ العُلَماء. يُنظر: المصادر السابقة. و((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وجماعةٌ مِن التَّابِعينَ، منهم ابنُ جريجٍ وغيرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٧).

وقوله: ﴿أَمَرۡنَا﴾ يدلُّ على أنَّه أمَر بالطاعةِ، وإن لم يُذكَرْ؛ كما تقول: أمرتُك فعصيتَني، معناه: أمرتُك بطاعتي. فإن قيل: لِمَ خصَّ المترفين بالأمر بالطاعة، وأمرُه بالطاعة لا يكون مقصورًا على المُترفين، وقد أمر الله بطاعتِه جميعَ خلقِه من مترَفٍ وغيره؟! قيل: لأنَّهم الرؤساءُ الذين مَن عداهم تبَعٌ لهم، كما أن موسى بُعِثَ إلى فرعون ليأمُرَه بطاعة الله، وكان مَن عداه من القبط تبعًا له. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٨٥).

قال الشوكاني: (اختلف المفسِّرون في معنى ﴿أَمَرۡنَا﴾ على قولين: الأولُ: أن المرادَ به الأمرُ الذي هو نقيضُ النهي، وعلى هذا اختلفوا في المأمورِ به، فالأكثَرُ على أنَّه الطاعة والخير... القول الثاني: أنَّ معنى ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ أكثَرْنا فسَّاقَها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٤).

وممن اختار القولَ الثاني؛ أنَّ (أمر) بمعنى (كثَّر): أبو علي الفارسي، والقصاب. يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٥/ ٩٣)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٩٤).

وقيل: الأمرُ هنا: أمرٌ كونيٌّ قَدَريٌّ، لا أمرٌ دينيٌّ شَرعيٌّ، أي: أمَرهم أمرًا قَدَريًّا بأن يفسُقوا. وممَّن اختار ذلك: ابنُ تيميةَ، وابنُ القَيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (١/ ١٥١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٧٢).

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

أي: فوَجَبَ على أهلِ القَريةِ العَذابُ الذي حُذِّروا منه، فخرَّبْنا القَريةَ تخريبًا، وأهلَكْنا أهلَها فاستأصَلْناهم[1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ضَرَب مِثالًا لإهلاكِ القُرى الذي وصَفَ سَبَبَه وكيفيَّتَه في الآيةِ السَّابقةِ، فعَقَّبَ ذلك بتَمثيلِه؛ لأنَّه أشَدُّ في الكَشفِ، وأدخَلُ في التَّحذيرِ المَقصودِ، وفي ذلك تحقيقٌ لِكَونِ حُلولِ العَذابِ بالقُرى مُقَدَّمًا بإرسالِ الرَّسولِ إلى أهلِ القَريةِ، ثمَّ بتَوجيهِ الأوامِرِ إلى المُتْرَفينَ، ثمَّ فِسقِهم عنها[2].

وأيضًا لَمَّا قَرَّرَ أنَّ ما سبَقَ هو شأنُه إذا أراد أن يُهلِكَ؛ أخبَرَ أنَّه فعل ذلك بمَن لا يُحصِيهم العَدُّ مِن القُرونِ، ولا يُحيطُ بهم الحَدُّ مِن الأُمَمِ؛ لأنَّ الاعتبارَ بالمُشاهَدِ أوقَعُ في القَلبِ وأهوَلُ عند النَّفسِ[3].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن أهلِ القُرونِ الماضيةِ عذَّبْناهم في الدُّنيا؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم رُسُلَهم، وذلك مِن بعدِ أوَّلِ الرُّسُلِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأنتم -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- لَستُم أكرَمَ على اللهِ منهم، وقد كذَّبتُم أشرَفَ الرُّسُلِ؛ فعُقوبتُكم أَولى وأحْرَى إن لم تَنتَهوا عن كُفرِكم وتَكذيبِكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

أي: وحسبُك ربُّك -يا محمَّدُ- خبيرًا بصيرًا بذُنوبِ عِبادِه، يَعلَمُ بَواطِنَها وظَواهِرَها، لا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها[1].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَقرَّرَ أنَّ اللهَ سُبحانَه خَبيرٌ بذُنوبِهم بعد تَزهيدِه في الدُّنيا بما ذَكَرَ مِن مَصارعِ الأوَّلينَ؛ أتبَعَه الإخبارَ بأنَّه يُعامِلُهم على حَسَبِ عِلْمِه على وَجهٍ مُعَرِّفٍ بعِلمِه بجميعِ طَويَّاتِهم مِن خَيرٍ وشَرٍّ، مُرَغِّبٍ في الآخرةِ، مُرَهِّبٍ من الدُّنيا؛ لأنَّها المانِعةُ مِن اتِّباعِ الرُّسُلِ والتَّقيُّدِ بطاعتِهم، خوفًا مِن نَقصِ الحَظِّ مِن الدُّنيا بزَوالِ ما هو فيه مِنَ الرِّئاسةِ والمالِ، والانهماكِ في اللَّذَّةِ، جهلًا بأنَّ ما قُدِّرَ لا يكونُ غَيرُه، سواءٌ كان صاحِبُه في طاعةٍ أو مَعصيةٍ[2].

وأيضًا فإنَّ هذا بيانٌ لجُملةِ ﴿مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: ١٥]، وهو راجعٌ أيضًا إلى جُملةِ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:

(ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٣، ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٥).

١٣]؛ تدريجًا في التِّبيانِ للنَّاسِ بأنَّ أعمالَهم مِن كَسبِهم واختيارِهم، فابتُدِئُوا بأنَّ اللهَ قد ألزَمَهم تَبِعةَ أعمالِهم، بقَولِه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ ثمَّ وكَلَ أمرَهم إليهم؛ وأنَّ المسيءَ لا يضُرُّ بإساءتِه غَيرَه ولا يَحمِلُها عنه غيرُه، فقال: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء: ١٥]، ثمَّ أعذرَ إليهم بأنَّه لا يأخُذُهم على غِرَّةٍ، ولا يأخُذُهم إلَّا بسُوءِ أعمالِهم، بقَولِه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٥- ١٧]، ثمَّ كشفَ لهم مقاصِدَهم من أعمالِهم، وأنَّهم قِسمانِ، فقال[1]:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾.

أي: مَن كانت نيَّتُه الدَّارَ العاجِلةَ وهي الدُّنيا، ولها وحدَها يَعملُ، ولا يَعملُ لآخِرتِه؛ عَجَّلْنا له في الدُّنيا ما نَشاءُ مِن مَتاعِها وأرزاقِها، لِمَن نريدُ إعطاءَه مِن ذلك[2].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا له في الآخِرةِ عَذابَ جهنَّمَ، فيَدخُلُها ويَحترِقُ بنارِها مذمومًا مِنَ اللهِ ومِن عِبادِه، على فَسادِ نيَّتِه، وسُوءِ صَنيعِه، مُبعَدًا مِن رَحمةِ رَبِّه، مُقْصًى ذَليلًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٩).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّه ما كُلُّ من طلب الدنيا وما فيها من النَّعيمِ يحصُلُ له، بل إنَّما يحصُلُ لمن أراد الله ما يشاء، وهذه مقيَّدةٌ لإطلاقِ ما سواها من الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٢، ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥).

كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

أي: ومَن نوى ثَوابَ الدَّارِ الآخرةِ، وعَمِلَ للجَنَّةِ الأعمالَ الصَّالِحةَ، بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، ومُصَدِّقٌ بالثَّوابِ والجَزاءِ[١].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

أي: فأولئك الذين فعَلوا ذلك كان عملُهم بطاعةِ اللَّه مَقبولًا غيرَ مردودٍ، يُضاعِفُ الله لهم ثوابَه، ويُحسِنُ لهم جزاءَه، معَ تجاوزِه عن سيئاتِهم[٢].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أخبَرَ عن نَفسِه بما يشيرُ إلى التَّوسعةِ على مَن يُريدُ مِن أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٧).

الباطِلِ؛ أخبَرَ بأنَّه قضَى بذلك في الأزَلِ تفَضُّلًا[١].

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾.

أي: كلَّ واحدٍ مِن الفَريقينِ: الكافرينَ الذين يُريدُونَ الدُّنيا، والمُؤمِنينَ الذين يُريدونَ الآخرةَ، نَزيدُ -يا مُحمَّدُ- مِن فَضلِ رَبِّك ورزقِه[٢].

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾.

أي: وما كان فَضلُ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- مَمنوعًا عن أحدٍ مِن خَلْقِه؛ فلكُلِّ أحدٍ نَصيبٌ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٣).
قال ابن عطية: (قولُه: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ يحتَمِلُ أن يريد: من الطاعاتِ لِمريدي الآخرةِ، والمعاصي لمريدي العاجلةِ، ورويَ هذا التأويلُ عن ابن عباس، ويحتَمِل أن يريد بـ «العطاء» رزقَ الدنيا، وهذا هو تأويلُ الحسن بن أبي الحسن وقتادة، أي: أنَّ الله تعالى يرزقُ في الدنيا مريدي الآخرة المؤمنين ومُريدي العاجلة من الكافرين، ويُمُدُّهم بعطائِه منها، وإنما يقع التفاضُلُ والتباين في الآخرةِ، ويتناسَبُ هذا المعنى مع قَولِه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾، أي: أنَّ رِزقَه في الدنيا لا يضيقُ عن مؤمنٍ ولا كافرٍ، وقلَّما تصلُحُ هذه العبارة لمن يمدُّ بالمعاصي التي توبِقُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).
قال السمعاني: (وأجْمعَ أهل التَّفسيرِ أن معنى ﴿عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ في هذه السُّورة هو الدُّنيا، فإن الآخِرة للمُتقين، وليسَ للكفَّار فيها نصيبٌ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٢٩).
وقال ابن جرير: (ثمَّ تختَلِفُ بهما [أي: مريدي الدنيا ومريدي الأخرةِ] الأحوالُ بعد المماتِ، وتفتَرِقُ بهما بعدَ الورودِ المصادِرُ؛ ففَريقُ مُريدي العاجلةِ إلى جهنَّمَ مَصدَرُهم، وفريقُ مُريدي الآخرةِ إلى الجنَّةِ مآبُهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[العنكبوت: ٦٠].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبلَها:

لَمَّا كان العَطاءُ المبذولُ للفَريقَينِ هو عَطاءَ الدُّنيا، وكان النَّاسُ مُفَضَّلينَ فيه على وجهٍ يُدرِكونَ حِكمَتَه؛ لَفَتَ اللهُ لذلك نظَرَ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَفْتَ اعتبارٍ وتدَبُّرٍ، ثمَّ ذَكَّرَه بأنَّ عطاءَ الآخرةِ أعظَمُ عَطاءٍ، وقد فَضَّلَ اللهُ به المُؤمِنينَ[١].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

أي: انظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف فضَّلْنا بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ في عطاءِ الدُّنيا، كالرِّزقِ، والعِلمِ، والعَقلِ، والجَمالِ، والصحةِ إلى غيرِ ذلك[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

ممن ذهَب إلى أنَّ التفضيلَ المذكورَ في الدنيا بالغنَى والفقرِ، والحسنِ والقبحِ، والعلمِ والجهلِ، والعقلِ والسفهِ، والقوةِ والضعفِ، والصحةِ والمرضِ إلى غيرِ ذلك: ابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر هذا التفضيلَ على الرزقِ، ومنهم: الواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني، والرسعني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٤٤).

ومِن المفسرينَ مَن جعَل التفضيلَ على الرزقِ والعملِ، ومنهم: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي،

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

أي: ولَتفاوتُهم في الدارِ الآخرةِ أكبرُ مِن الدُّنيا، فتفاضلُ درجاتِ العاملين في الآخرةِ أكبرُ، وأهلُ الآخرةِ يتفاضلون فيها أكثرَ ممَّا يتفاضلُ الناسُ في الدُّنيا[(١)].

والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٩٠).

وجعلَ ابنُ جرير مدارَ التَّفضيلِ هنا على الهُدى والرَّشادِ، والضَّلالِ والخِذلانِ، فقال: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: انظُرْ -يا محمَّدُ- بعينِ قَلبك إلى هذينِ الفريقين اللذين همُّ أحدِهما الدارُ العاجلةُ، وإيَّاها يطلُبُ ولها يعمَلُ، والآخَرُ الذي يريد الدَّارَ الآخرةَ ولها يسعى موقِنًا بثوابِ اللهِ على سَعيِه، كيف فضَّلْنا أحدَ الفريقينِ على الآخَرِ، بأنْ بصَّرْنا هذا رُشدَه، وهديناه للسَّبيلِ التي هي أقوَمُ، ويسَّرْناه للذي هو أهدى وأرشَدُ، وخذَلْنا هذا الآخَرَ فأضلَلْناه عن طريقِ الحَقِّ، وأغشينا بصَرَه عن سبيلِ الرُّشدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٣٩-٥٤٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الشوكاني (٣/ ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٤).

قال الواحدي: (﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ يحتملُ معنيينِ:

أحدهما: أنَّ هذا خاصٌّ في المؤمنينَ الذين يدخلونَ الجنَّةَ، فتتفاوتُ درجاتُهم في الآخرةِ أكبرَ مما تتفاوتُ درجاتُ المرزوقينَ في الدنيا في الرِّزقِ، وهذا التفضيلُ بينَ المؤمنينَ خاصةً.

والثاني: أنَّ هذا التفصيلَ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، ويكونُ المعنى: أنَّ المؤمنين يدخلونَ الجنةَ، والكافرينَ يدخلونَ النارَ، فتَبينُ درجاتُهم، ويفضلُ أحدُ الفريقينِ على الآخرِ، وعلى هذا لا تدلُّ الآيةُ على تفاوتِ درجاتِ المؤمنين بينَهم، وإنما تدلُّ على تفضيلِهم على الكفارِ بدرجاتِ الجنةِ. والمفسرونَ على القولِ الأوَّلِ). ((البسيط)) (١٣/ ٢٩٤).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولَتفاوُتُهم في الدَّارِ الآخرةِ أكبرُ

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ * فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧ - ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كلُّ درجتَينِ ما بينهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتُم اللهَ فسَلُوه الفِردَوسَ؛ فإنَّهُ أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجَنَّةِ، وفَوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّةِ))[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- نَبَّه اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ على أنَّ الذُّنوبَ هي أسبابُ الهَلَكةِ لا غَيرُ، وأنَّه عالِمٌ بها ومُعاقِبٌ عليها[(٢)]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا عقَّبَ إهلاكَهم بعِلمِه بالذُّنوبِ عِلمًا أتمَّ، دلَّ على أنَّه جازاهم بها[(٣)].

مِنَ الدُّنيا؛ فإنَّ منهم مَنْ يكونُ في الدَّركاتِ في جهنَّمَ وسلاسِلِها وأغلالِها، ومنهم مَنْ يكونُ في الدَّرَجاتِ العُلَى ونَعيمِها وسُرورِها، ثُمَّ أهلُ الدَّركاتِ يتفاوَتون فيما هم فيه، كما أنَّ أهلَ الدَّرَجاتِ يتفاوَتونَ؛ فإنَّ الجنَّةَ مئةُ درجةٍ ما بينَ كلِّ درجتينِ كما بينَ السَّماءِ والأرضِ. ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٣).

(١) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ فيه أعظَمُ زَجرٍ عن ارتِكابِ ما لا يُرضِي اللهَ تعالى[١].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فمِن الجُهَّالِ مَن إذا ساعَدَتْه الدُّنيا اغترَّ بها وظَنَّ أنَّ ذلك لأجْلِ كَرامتِه على اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ مُساعدةَ الدُّنيا لا ينبغي أن يُستَدَلَّ بها على رِضا اللهِ تعالى؛ لأنَّ الدُّنيا قد تَحصُلُ مع أنَّ عاقِبَتَها هي المصيرُ إلى عذابِ اللهِ وإهانتِه[٢].

٤- الذي ينبغي للإنسانِ العاقِلِ أنَّه كُلَّما رأى مِن نَفسِه طُموحًا إلى الدُّنيا، وانشِغالًا واغتِرارًا بها، تذكَّرَ الموتَ، وتَذَكَّرَ حالَ الآخِرةِ؛ لأنَّ هذا هو المآلُ المُتيقَّنُ؛ وأنَّ ما يُؤَمِّلُه الإنسانُ في الدُّنيا قد يحصُلُ وقد لا يحصُلُ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ لا ما يَشاء هو، بل ما يشاءُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣].

٥- الإنسانُ ينبغي له أن يجعلَ الدُّنيا وسيلةً إلى الآخرةِ؛ ولا يكون كلُّ هَمِّه وقَصْدِه الدُّنيا؛ فالإنسانُ إذا أراد الدُّنيا فقط، فإنَّه قد يُضَيِّعُ الدُّنيا والآخرةَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ فيه وجوبُ الإخلاصِ والنيَّةِ في العباداتِ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: سَعْيَها الذي هو لها، وهو ما كانت جَديرةً به مِن العَمَلِ بما يُرضي اللهَ بما شَرَعَه في كتابِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم، لا أيَّ سَعيٍ كان بما لم يَشهَدْ له ظاهِرُ الكِتابِ والسُّنَّةِ(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شَرَط فيه شُروطًا ثلاثةً:

الشرط الأول: أنْ يُريدَ بعَمَلِه الآخِرةَ، أي: ثوابَ الآخرةِ؛ فإنَّه إن لم تَحصُلْ هذه الإرادةُ، وهذه النِّيَّةُ، لم يَنتَفِعْ بذلك العَمَلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

الشَّرطُ الثاني: قَولُه تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ بأن يكونَ العَمَلُ الذي يُتَوَصَّلُ به إلى الفَوزِ بثَوابِ الآخرةِ، مِن الأعمالِ التي بها يُنالُ ثَوابُ الآخرةِ، ولا يكونُ كذلك إلَّا إذا كان مِن بابِ القُرَبِ والطَّاعاتِ، فكثيرٌ مِن النَّاسِ يتَقَرَّبونَ إلى اللهِ تعالى بأعمالٍ باطلةٍ!

الشَّرطُ الثَّالِثُ: قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا الشَّرطُ مُعتبَرٌ؛ لأنَّ الشَّرطَ في كَونِ أعمالِ البِرِّ مُوجِبةً للثَّوابِ تَقَدُّمُ الإيمانِ، فإذا لم يُوجَدِ الشَّرطُ لم يَحصُلِ المَشروطُ. ثمَّ إنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ عند حُصولِ هذه الشَّرائِطِ يَصيرُ السَّعيُ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٦).

مَشكورًا، والعَمَلُ مَبرورًا، فقال: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾[(١)].

٩- قال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ فإذا كانت الآخرةُ كذلك فإنَّه ينبغي التَّسابُقُ إلى دَرَجاتِها العاليةِ، وحَياتِها الباقيةِ؛ فذلك خَيرٌ وأحسَنُ تأويلًا[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ القُرى إنَّما تَهلِكُ بعد فِسْقِ مُترَفيها[(٣)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ جُعِل زمنُ نوحٍ مَبدأً لقَصصِ الأُممِ؛ لأنَّه أوَّلُ رسولٍ، واعتُبِر القَصصُ مِن بَعدِه؛ لأنَّ زمنَ نوحٍ صار كالمُنقَطِعِ بسَبَبِ تجديدِ عُمرانِ الأرضِ بعدَ الطُّوفانِ، ولأنَّ العَذابَ الذي حَلَّ بقَومِه عذابٌ مَهولٌ، وهو الغَرَقُ الذي أحاط بالعالَمِ[(٤)].

٣- قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ البعثَ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ والأمْرَ في قولِه: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ وما يَتْلوهما من فسْقِهم ليس لتَحصيلِ العِلْمِ بما صدَرَ عنْهم منَ الذُّنوبِ؛ فإنَّ ذلك حاصلٌ قبلَ ذلك، وإنَّما هو لقطعِ الأعذارِ، وإلزامِ الحُجَّةِ من كلِّ وجْهٍ[(٥)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾، إن قيل: إنَّ قضيَّتَه أنَّ مَن لم يترُكِ الدُّنيا يكونُ مِن أهلِ النَّارِ، وليس كذلك؟

فالجواب: أنَّ المرادَ مَن لم يُرِدْ بإسلامِه وعبادتِه إلَّا الدنيا، وهذا لا يكونُ إلَّا كافرًا، أو منافِقًا(١).

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يَحصُلُ الفوزُ بالدُّنيا لكُلِّ أحَدٍ، بل كثيرٌ مِن الكُفَّارِ والضُّلَّالِ يُعرِضونَ عن الدِّينِ في طَلَبِ الدُّنيا، ثمَّ يَبقَونَ مَحرومينَ مِن الدُّنيا ومِن الدِّينِ، وهذا أيضًا فيه زَجرٌ عَظيمٌ لهؤلاءِ الكُفَّارِ الضُّلَّالِ الذين يَترُكونَ الدِّينَ لِطَلَبِ الدُّنيا؛ فإنَّه رُبَّما فاتَتْهم الدُّنيا، فهم الأخسَرونَ أعمالًا؛ الذين ضَلَّ سَعيُهم في الحَياةِ الدُّنيا وهم يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن العاجِلةِ -التي استحَقُّوا بها النَّارَ- أنَّه هو الذي عجَّلَها لهم، بل أخبَرَ مع التَّعجيلِ لهم بأنَّه أرادَه منهم بقَولِه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، بل وأكَّدَه بما بَعدَه؛ حيثُ قال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۞ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فقد أخْبَرَ سُبحانَه عن إمدادِه إيَّاهم بعَطائِه وعن تَفضيلِ بَعضِهم على بعضٍ، وسببُ التَّفضيلِ عَطاؤُه، لا انفرادُهم باكتِسابِ الخَيرِ والشَّرِّ(٣).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٧).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١١٤).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ فمَن لم يُرِدِ الدَّارَ الآخرةَ قولًا وعَمَلًا، وإيثارًا ومَحبَّةً، ورَغبةً وإنابةً؛ فلا خَلاقَ له في الآخِرةِ، ولا فائِدةَ له في الدَّارِ الدُّنيا، بل هو كافِرٌ مَلعونٌ، مُشَتَّتٌ مُعَذَّبٌ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَذْمُومًا﴾ فيه إشارةٌ إلى الإهانةِ، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ فيه إشارةٌ إلى البُعدِ والطَّردِ[٢].

٩- الكافِرُ يُجازى على عَمَلِه الحَسَنِ في الدُّنيا لا في الآخِرةِ، والمُؤمِنُ قد يُؤخَّرُ له الثَّوابُ في الآخرةِ، وقد يُجازَى به في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ إذَنْ، فالتَّوفيةُ تكونُ في الدُّنيا دونَ الآخرةِ للكافِرِ، أمَّا المُؤمِنُ فتَكونُ في الدُّنيا والآخرةِ جَميعًا، أو في الآخرةِ فقط[٣].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ لم يَثْبُتِ المَدحُ إلَّا على إيمانٍ معه العَمَلُ، لا على إيمانٍ خالٍ عن عَمَلٍ[٤]. وفي الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ لا تَنفعُ إلَّا مع

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩).
(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٤٢).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨١).

الإيمانِ باللهِ؛ لأنَّ الكُفرَ سَيِّئةٌ لا تنفَعُ معها حَسَنةٌ؛ لأنَّه شَرطٌ في ذلك[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ إن قيلَ: كيف قال ذلك مع أنَّا نُشاهِدُ الواحِدَ لا يملكُ شيئًا مِن المالِ، وآخَرَ معه الألوفُ؟

فالجوابُ: أنَّ المُرادَ بالعَطاءِ هنا الرِّزقُ، واللهُ سَوَّى في ضَمانِه بين المُطيعِ والعاصي مِنَ العِبادِ، فلا تَفاوُتَ بينهم في أصلِ الرِّزقِ، وإنَّما التَّفاوُتُ بينهم في مَقاديرِ الأملاكِ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ إنَّما لم يمنَعِ الكُفَّارَ الرِّزقَ، كما منَعَهم الهدايةَ؛ لأنَّ في مَنعِه له هلاكَهم وقيامَ الحُجَّةِ لهم بأن يقولوا: لو أمهَلْتَنا ورزَقْتَنا لبَقِينا أحياءً فآمَنَّا، ولأنَّهم لو منَعَهم الرِّزقَ لكان قد عاجلَهم بالعُقوبةِ، ولكان ذلك مِن صِفاتِ البُخلاءِ، واللهُ تعالى منَزَّهٌ عن ذلك؛ لأنَّه حليمٌ كريمٌ، ولأنَّ إعطاءَ الرِّزقِ لجَميعِ العبادِ عَدلٌ، وعَدلُ الله عامٌّ؛ وهِبةَ الهدايةِ فَضلٌ، والفَضلُ بيدِ اللهِ يؤتيه من يشاءُ[٣].

١٣- النَّاسُ في الجنَّةِ على دَرَجاتٍ مُتفاوِتةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾[٤].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ المرادُ التفضيلُ في عطاءِ الدنيا؛ لأنَّه الذي يدركُه التأملُ والنظرُ، وبقرينةِ مقابلتِه بقولِه: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾. والمقصودُ مِن هذا التنظيرِ: التنبيهُ إلى أنَّ عطاءَ الدنيا غيرُ منوطٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢-٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠١).

بصلاحِ الأعمالِ؛ ألا ترَى إلى ما فيه مِن تفاضلٍ بينَ أهلِ العملِ المتَّحِدِ، وقد يفضلُ المسلمُ فيه الكافرَ، ويفضلُ الكافرُ المسلمَ، ويفضلُ بعضُ المسلمينَ بعضًا، وبعضُ الكفرةِ بعضًا، وكفاك بذلك هاديًا إلى أنَّ مناطَ عطاءِ الدنيا أسبابٌ ليست مِن وادي العملِ الصالحِ، ولا ممَّا يُساقُ إلى النفوسِ الخيرةِ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ تَفصيلٌ للحُكمِ المُتقدِّمِ، قُصِدَ به تَهديدُ قادةِ المُشركينَ، وتَحميلُهم تبِعَةَ ضَلالِ الَّذين أضَلُّوهم، وهو تَفريعٌ لتَبيينِ أسبابِ حُلولِ التَّعذيبِ بعدَ بَعثةِ الرَّسولِ، أُدْمِجَ فيه تَهديدُ المُضلِّينَ؛ فكان مُقْتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُعْطَفَ بالفاءِ على قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولكنَّه عُطِفَ بالواوِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ مَقصودٌ لذاتِه باعتبارِ ما يتضمَّنُه من التَّحذيرِ من الوُقوعِ في مثْلِ الحالةِ الموصوفةِ، ويظهَرُ معنى التَّفريعِ من طبيعةِ الكلامِ، فالعطفُ بالواوِ هنا تَخريجٌ على خِلافِ مُقْتَضى الظَّاهِرِ في الفصْلِ والوصْلِ[2].

- قولُه: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ فيه تَخصيصُ المُتْرفينَ بالذِّكرِ مع تَوجُّهِ الأمْرِ إلى الكلِّ؛ لأنَّهم الأصولُ في الخطابِ، والباقي أتباعٌ لهم، ولأنَّ توجُّهَ الأمْرِ إليهم آكَدُ[3]، فقُيِّدُ الأمْرُ بالمُترفينَ، وإنْ كان الأمرُ لا يختَصُّ بهم؛ لأنَّ صلاحَهم أو فسادَهم مُستلزِمٌ لصلاحِ غيرِهم أو فسادِه[4]، ولأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٢- ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٢١).

أحَقُّ النَّاسِ بالشُّكرِ، وأولَى بالانتِقامِ عندَ الكُفرِ[١]، وكذلك لأنَّهم أسرَعُ إلى الحَماقةِ، وأقدَرُ على الفُجورِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ قيل: لم يَقُلْ بماذا أمَرَهم؛ إيجازًا في القَولِ، واعتِمادًا على بَديهةِ السَّامعِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ يدُلُّ عليه[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ في هذا التَّخصيصِ إيجازٌ، كأنَّه قيل: من قومِ نوحٍ فمَن بعدهم[٤].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ فيه تَقديمُ ﴿خَبِيرَۢا﴾؛ لتقدُّمِ مُتعلَّقِه من الاعتقاداتِ والنِّيَّاتِ الَّتي هي مَبادِئُ الأعمالِ الظَّاهرةِ، أو لعُمومِه؛ حيث يتعلَّقُ بغيرِ المُبصَراتِ أيضًا[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾

- قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا * وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٩١).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ بيانٌ لجُملةِ: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾، وهو راجعٌ أيضًا إلى قولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾؛ فمَعْنى ﴿كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ أنَّه لا يريدُ إلَّا العاجلةَ، أي: دونَ الدُّنيا، بقَرينةِ مُقابَلَتِه بقولِه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ لأنَّ هذه المُقابَلَةَ تقومُ مقامَ الحصرِ الإضافيِّ؛ إذ ليس الحصرُ الإضافيُّ سِوى جُملتينِ: إثباتٍ لشَيءٍ، ونَفيٍ لخلافِه[1].

- قولُه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، أي: من غيرِ أنْ يريدَ معها الآخرةَ، كما يُنْبِئُ عنه الاستمرارُ المُستفادُ من زيادةِ (كان) هاهنا، مع الاقتصارِ على مُطلَقِ الإرادةِ في قَسيمِه[2].

- قولُه: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ فيه ذِكْرُ شَريطةِ المشيئةِ مرَّتينِ، وإنَّما عدَلَ إلى هذا الأُسلوبِ الَّذي جاءت به الآيةُ؛ لإدماجِ التَّعريضِ بتَهديدِ أهْلِ مكَّةَ بأنَّهم مُعرَّضونَ لمثْلِ هذا ممَّا حَلَّ بأهْلِ القُرى الَّتي كذَّبَت رُسلَ اللهِ[3]. وقيل: إنَّ تَقييدَ المُعجَّلِ والمُعجَّلِ له بما ذُكِرَ من المشيئةِ والإرادةِ؛ لأنَّ الحِكمةَ الَّتي عليها يدورُ فلَكُ التَّكوينِ لا تَقْتضي وُصولَ كلِّ طالبٍ إلى مَرامِه، ولا استيفاءَ كلِّ واصلٍ لِما يطلُبُه بتَمامِه[4].

- وقولُه: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدَلٌ من قولِه: ﴿لَهُۥ﴾ بدلَ بعضٍ من كُلٍّ؛ بإعادةِ حرفِ الجرِّ العاملِ في المُبْدَلِ منه؛ لتأكيدِ معنى التَّبعيَّةِ، وللاستغناءِ عن الرَّبطِ بضَميرِ المُبْدلِ منهم بأنْ يُقالَ: مَن نُريدُ منهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٥٩).

- وعطْفُ جُملةِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ بحرفِ (ثمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ، و﴿لَهُۥ﴾ ظرفٌ مُستقَرٌّ هو المفعولُ الثَّاني لـ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدِّمَ على المفعولِ الأوَّلِ للاهتمامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

- في قولِه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ...﴾ وقولِه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث خُولِفَ بين الجُملتَينِ بجَعْلِ الفعلِ مُضارعًا في الأُولى، وماضيًا في الثَّانيةِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ إرادةَ النَّاسِ العاجلةَ مُتكرِّرةٌ مُتجدِّدةٌ. وفيه تَنبيهٌ على أنَّ أُمورَ العاجلةِ مُتَقضِّيةٌ زائلةٌ. وجعْلُ فعْلِ إرادةِ الآخرةِ ماضيًا لدلالةِ المُضيِّ على الرُّسوخِ؛ تَنبيهًا على أنَّ خيرَ الآخرةِ أَولى بالإرادةِ؛ ولذلك جُرِّدَتِ الجُملةُ مِن (كان) ومن المُضارعِ، وما شرَطَ في ذلك إلَّا أنْ يَسْعى للآخرةِ سَعْيَها، وأنْ يكونَ مُؤمِنًا[٢].

- في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا﴾ اللَّامُ تفيدُ اعتبارَ النِّيَّةِ والإخلاصِ[٣].

- وفيه إيرادُ الإيمانِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالجُملةِ الحاليَّةِ؛ للدَّلالةِ على اشتراطِ مُقارنتِه لِما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلةِ[٤]، وجِيءَ بها كذلك اسميَّةً؛ لدلالتِها على الثَّباتِ والدَّوامِ، أي: وقد كان راسِخَ الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما سيُخْبَرُ به عنهم؛ لأجْلِ ما وُصِفوا به قبلَ ذِكْرِ اسمِ الإشارةِ(١).

- والتَّعبيرُ بـ(كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الوصفَ تَحقَّقَ فيه مِن قبلُ، أي: من الدُّنيا؛ لأنَّ الطَّاعةَ تَقْتضي ترتُّبَ الشُّكرِ عاجِلًا، والثَّوابِ آجِلًا(٢).

- وفي تَعليقِ المَشكوريَّةِ في قولِه: ﴿كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ بالسَّعْيِ دونَ قرينَيْهِ (إرادةِ الآخرةِ، والإيمانِ): إشعارٌ بأنَّه العُمدةُ فيها(٣).

٥- قَولُه تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾

- قولُه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ تَذييلٌ لآيةِ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ ...﴾(٤).

- قولُه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه لَفٌّ ونشرٌ مُرتَّبٌ؛ فـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأُولى للفريقِ الأوَّلِ، أي: مُريدِ الدُّنيا، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثَّانيةُ للفريقِ الثَّاني، أي: مُريدِ الآخرةِ(٥).

- وقولُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدَلٌ من قولِه: ﴿كُلّٗا﴾ بدلَ مُفصَّلٍ من مُجمَلٍ، والمقصودُ من الإبدالِ التَّعجُّبُ من سَعَةِ رحمةِ اللهِ تَعالى(٦).

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عُطِفَ عليه؛ ففيه تَذكيرٌ لِما به الإمدادُ، وتَعيينٌ للمُضافِ إليه المحذوفِ دَفعًا لتَوهُّمِ كونِه أفرادَ الفريقِ الأخيرِ؛ وتأكيدٌ للقصرِ المُستفادِ من تَقديمِ المفعولِ(١).

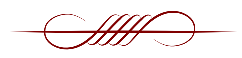
- قولُه: ﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في الموضعَينِ؛ للإشعارِ بمَبدئيَّتِها لِمَا ذُكِرَ من الإمدادِ، وعدَمِ الحظْرِ(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ اعتراضٌ أو تَذييلٌ(٣).

- واعتبارُ عدَمِ المَحظوريَّةِ بالنِّسبةِ إلى الفريقِ الأوَّلِ تَحقيقًا لشُمولِ الإمدادِ له: يَقْتضي كونَ القصرِ لدفْعِ توهُّمِ اختصاصِ الإمدادِ الدُّنيويِّ بالفريقِ الثَّاني، مع أنَّه لم يَسبِقْ في الكلامِ ما يُوهِمُ ثُبوتَه له، فَضلًا عن إيهامِ اختصاصِه(٤).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿كَيۡفَ﴾ اسمُ استفهامٍ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ(٥).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٣).

الآيات (٢٢-٢٥)

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مَّخْذُولًا﴾: أي: غيرَ منصورٍ، والخِذلانُ: تركُ مَن كان يؤمِّلُ منه النَّصرَ نُصرتَه ومعونتَه، وأصلُ (خذل): يدلُّ على تركِ الشَّيءِ، والقعودِ عنه[(١)].

﴿وَقَضَىٰ﴾: أي: أَمَر، والقضاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا[(٢)].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: تَذلَّلْ لهما، وتواضَعْ، وألِنْ جانِبَك، والخفضُ هو التَّواضُع، والجناحُ: الجانبُ، ويُطلقُ على يدِ الإنسانِ وعضُدِه وإبْطِه، وجَناحُ الذلِّ: تركُ الاستعلاءِ، وأصلُ: (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وأصلُ: (ذل): يدُلُّ على الخُضوعِ، والاستكانةِ، واللِّينِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، (٢/ ٣٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠١).

﴿أُفٍّ﴾: اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التضَجُّرِ والاستِثقالِ، وما يكونُ فيه أدنَى تبَرُّمٍ، أو صوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يَدلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[(١)].

﴿تَنْهَرْهُمَا﴾: أي: تَزجُرْهما، وأصلُ (نهر): يدلُّ على زَجرٍ بمُغالَظةٍ[(٢)].

﴿لِلْأَوَّابِينَ﴾: أي: للرَّجَّاعينَ التَّوَّابينَ، وأصلُ (أوب): يَدلُّ على رُجوعٍ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ بالخطابِ غَيرُه، قائِلًا: لا تَجعَلْ -يا مُحمَّدُ- مع اللهِ شَريكًا له في عبادتِه، فتقعُدَ جامِعًا على نفسِك الذَّمَّ والخِذلانَ، وأمَرَ ربُّك وأوجَبَ أن تعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له، وأن تُحسِنوا إلى الوالِدَينِ إحسانًا، وإن يبلُغْ عندك الكِبرَ أحدُ والِدَيك أو كِلاهما، فبَرَّهما، ولا تُسمِعْهما قَولًا سَيِّئًا، حتى ولو كان التَّأَفُّفَ، ولا تَزجُرْهما، وقُلْ لهما قولًا كريمًا حَسَنًا، وكُنْ لهما ذليلًا مُتَواضِعًا؛ رحمةً بهما، وادْعُ اللهَ أن يَرحَمَهما أحياءً وأمواتًا، كما صَبَرَا على تَربيَتِك حالَ صِغَرِك وضَعفِك.

ربُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بما في ضمائِرِكم مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ومِن إرادةِ البِرِّ بالوالِدَينِ أو عُقوقِهما، إن تكونوا قاصِدينَ الصَّلاحَ والبِرَّ بالوالِدَينِ، والرُّجوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

عمَّا فرط منكم في حقِّهما؛ فاللهُ تعالى للرجَّاعين إليه بالتَّوبةِ غفورٌ رَحيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أنَّ النَّاسَ فَريقانِ؛ منهم مَن يريدُ بعَمَلِه الدُّنيا فقط، وهم أهلُ العِقابِ والعَذابِ، ومنهم مَن يريدُ به طاعةَ اللهِ، وهم أهلُ الثَّوابِ، ثمَّ شَرَط ذلك بشَرائِطَ ثلاثةٍ: أوَّلُها: إرادةُ الآخرةِ، وثانيها: أن يعمَلَ عَملًا ويَسعى سعيًا مُوافِقًا لطَلَبِ الآخرةِ، وثالثُها: أن يكونَ مُؤمِنًا- لا جَرَم فصَّلَ في هذه الآيةِ تلك المُجمَلاتِ، فبدأ أوَّلًا بشَرحِ حَقيقةِ الإيمانِ، وأشرَفُ أجزاءِ الإيمانِ هو التَّوحيدُ، ونَفيُ الشُّرَكاءِ والأضدادِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أجْمَلَ سُبْحانَه أعمالَ البِرِّ في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أخذَ في تَفْصيلِ ذلك مُبْتَدِئًا بأشرفِها الَّذي هو التَّوحيدُ[(٢)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقرَّر بما مضى أنَّ لله سُبحانَه الأمرَ كُلَّه، وأنَّه مُتَّصِفٌ بجَميعِ الكَمالِ، مُنَزَّهٌ عن شَوائِبِ النَّقصِ- أنتجَ أنَّه لا إلهَ غَيرُه، فقال تعالى[(٣)]:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: لا تجعَلْ[(٤)] مع اللهِ مَعبودًا غيرَه، فتبقَى -إن أشرَكْتَ باللهِ- مَذمومًا لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٩).

(٤) الخِطابُ هنا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمرادُ به أمَّتُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير))

حامِدَ لك، مخذولًا لا ناصِرَ لك[١].

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى ما هو الرُّكنُ الأعظَمُ في الإيمانِ، أتبعَه بذِكرِ ما هو مِن شعائِرِ الإيمانِ وشَرائِطِه[٢].

وأيضًا لمَّا أجْمَل سبحانَه أعمالَ البرِّ في قولِه: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ أخَذ في تفصيلِ ذلك مُبْتَدِئًا بأشرفِها الَّذي هو التَّوحيدُ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّهيَ المحَتَّمَ لِتَوحيدِه في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أتبَعَه الإخبارَ بالأمرِ بذلك؛ جَمعًا في ذلك بين صَريحَي الأمرِ والنَّهيِ، تصريحًا بعد التَّنزيهِ له عن الشَّريكِ بالإفرادِ له في العِبادةِ، في أُسلوبِ الخبَرِ، إعلامًا بعِظَمِ المقامِ، فقال تعالى[٤]:

(١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٣).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ الخطابَ في هذه الآيةِ الكريمة متوجِّهٌ إلى النبي صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ ليُشرَعَ لأمتِه على لسانِه إخلاصُ التوحيد في العبادة له جلَّ وعلا؛ لأنه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم معلومٌ أنَّه لا يجعَلُ مع الله إلهًا آخرَ، وأنَّه لا يقعُدُ مذمومًا مخذولًا... ومن أساليب اللغة العربية خطابُهم إنسانًا والمرادُ بالخطابِ غيرُه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

أي: وأمَرَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- ووصَّى، وأوجَبَ ألَّا تَعبُدوا -أنت وجميعُ الخَلقِ- إلَّا اللهَ وَحدَه[(١)].

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ بمَعرفةِ الحَقِّ للمُحسِنِ المُطلَقِ مُنبِّهًا على وجوبِ ذلك باسمِ الرَّبِّ؛ أتبَعَه الأمرَ بمَعرفةِ الحَقِّ لأوَّلِ المُرَبِّينَ مِن الخَلقِ، فقال تعالى[(٢)]:

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

أي: وأمَرَكم اللهُ بأن تُحسِنوا إلى الوالِدَينِ بجَميعِ أوجُهِ الإحسانِ مِن الأقوالِ والأفعالِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٦).
قال ابنُ تيميَّةَ: (معناه: أمَرَ ربُّك، باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((الرد على الشاذلي)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).
قال ابنُ عاشور: (شَمِلَ الإحسانُ كُلَّ ما يَصدُقُ فيه هذا الجِنسُ مِن الأقوالِ والأفعالِ، والبَذلِ والمُواساةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وعن نُفَيعِ بنِ الحارِثِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، فقال: ألَا أنبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-: الإشراكُ باللَّهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادَةُ الزُّورِ -أو: قَولُ الزُّورِ-...)) الحديث[١].

وعَن المِقدام بنِ مَعدِيكَرِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يُوصيكم بأمَّهاتِكم -ثلاثًا- إنَّ اللهَ يُوصيكم بآبائِكم، إنَّ اللهَ يُوصيكم بالأقرَبِ فالأقرَبِ))[٢].

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سُبحانَه عليمًا بما في الطِّباعِ مِن مَلالِ الوَلَدِ لهما عند أخْذِهما في السِّنِّ، قال تعالى[٣]:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

أي: إنْ عاشَ والِداك[٤] عِندَك، وقد كَبِرَت سِنُّهما وضَعُفَت قُواهما؛ أحدُهما

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦١) واللفظ له، وأحمد (١٧١٨٧).

حَسَّن إسنادَه ابنُ حَجَر في ((التلخيص الحبير)) (٤/ ١٣٠٤)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٧/ ١٣٦)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠١).

(٤) قال الشنقيطي: (فالله يخاطِبُ النبيَّ ومقصودُه إسماعُ أمَّتِه والتشريعُ لهم، والدَّليلُ القاطع على هذا: أن النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مات أبواه وهو صغير؛ لأنَّ أباه مات وهو حَملٌ في بطن أمه، وأمُّه ماتت وهو صغير، ومعلومٌ أنهما وقتَ نزول سورة بني إسرائيل ماتا منذ سنين كثيرة، والله يقولُ للنبي مخاطبًا له ببِرِّ الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

أو كِلاهما، فلا تتأفَّفْ؛ إظهارًا لضَجَرِك مِمَّا يُؤذيك منهما، ولا تؤْذِهما بأيِّ نَوعٍ مِن الأذى(١).

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

أي: ولا تَزجُرْ والدَيك، وتُغلِظْ لهما القَولَ(٢).

ثم قال مخاطبًا للرسول: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ كلُّ هذا في الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأبواه قد ماتا من زمانٍ؛ فدَلَّ على أنَّ قولَه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي: يبلغْ عندك الكبَرَ أحدُ والديك فبَرَّهما وقُلْ لهما قولًا كريمًا، أي: المرادُ خطابُه ليشَرِّعَ لأمَّتِه، ومن زعم من النَّاسِ أنَّ هذا الخِطابَ -أي: قولَه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾- أنَّه يخاطَبُ به مُطلَقُ الإنسانِ المخاطَبِ وليس النبي، فهذا غلطٌ محضٌ؛ لأنَّ كلَّ هذه الخطاباتِ للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] والدليلُ عليه أنَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩]؛ فدَلَّ أنَّ الخِطابَ للمُوحى إليه لا إلى مُطلَقِ الواحِدِ مِن النَّاسِ. وآيةُ الإسراءِ هذه نصٌّ صريحٌ في أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يخاطَبُ بالخِطابِ ليس هو المرادَ به، بل المرادُ التَّشريعُ لأمَّتِه؛ لأنَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم هو المشَرِّعُ لهم بأقوالِه وأفعالِه). ((العذب النمير)) (٢/ ٤٤٠-٤٤١).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّن فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ بقَرينةِ العَطفِ على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وليس خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ إذ لم يكن له أبوانِ يومَئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٠).

والنَّهيُ عن التَّأفُّفِ هنا: نهيٌ عن أدنى مَراتِبِ القَولِ السَّيِّئِ؛ تَنبيهًا على ما سواه مِمَّا هو أشَدُّ أذًى بطَريقِ الأولى، والمعنى: لا تُؤذِهما أدنى أذِيَّةٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٠٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٦٦، ١٦٧، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير))

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا منعَ الله تعالى الإنسانَ بالآيةِ المتقدِّمَةِ عن ذكرِ القولِ المؤذِي الموحِشِ، والنَّهيُ عن القولِ المُؤْذِي لا يكونُ أمْرًا بالقولِ الطَّيِّبِ؛ لا جرمَ أرْدَفَه بأَنْ أمرَه بالقولِ الحسنِ والكلامِ الطَّيِّبِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا نهاه عن عُقوقِهما تقديمًا لِما تُدرَأُ به المَفسَدةُ، أمَرَه ببِرِّهما جَلْبًا للمَصلحةِ، فقال تعالى[(٢)]:

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

أي: وقُلْ لهما قولًا حَسَنًا لَيِّنًا رَقيقًا جَميلًا يُفرِحُهما، فيه تأدُّبٌ معهما، وتَلَطُّفٌ لهما[(٣)].

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾.

أي: وكنْ لوالِدَيك ذليلًا مُتواضِعًا؛ رَحمةً منك بهما، ولا تُخالِفْهما فيما

(٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٢-٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).
قال السعدي: (﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلَفظٍ يُحِبَّانِه وتأدُّبٍ وتلطُّفٍ بكلامٍ لَيِّنٍ حَسَنٍ يَلَذُّ على قُلوبِهما، وتطمَئِنُّ به نفوسُهما، وذلك يختَلِفُ باختلافِ الأحوالِ والعوائِدِ والأزمانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

يأمُرانِك به ويَنهيانِك عنه مِمَّا ليس فيه مَعصيةٌ لله تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤- ١٥].

وعن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: أوصَاني رسولُ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ((لا تُشرِكْ باللهِ شيئًا وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ... وأطِعْ والِدَيك، وإنْ أمراك أن تَخرُجَ مِن دُنياك فاخرُجْ لهما))[2].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

أي: وقُلْ: رَبِّ ارحَمْ والِديَّ في حَياتِهما وبعدَ مَوتِهما[3]؛ جزاءً لهما على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٤) مختصرًا، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (١٨)، والطبراني كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٤/ ٢١٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٤/ ٢١٩): (فيه شَهرُ بنُ حَوشب، وحديثه حَسَنٌ، وبقيَّةُ رجالِه ثقات)، وحَسَّنَ إسنادَه البُوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٣٠٤)، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٧٥) وقال: (قويٌّ بشَواهده)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (١٤).

(٣) قال ابن جرير: (تحتمِلُ هذه الآيةُ أن تكونَ وإن كان ظاهِرُها عامًّا في كلِّ الآباءِ بغيرِ معنى النَّسخِ، بأن يكونَ تأويلُها على الخصوصِ، فيكونُ معنى الكلامِ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ إذا كانا مؤمنَين، كما ربياني صغيرًا، فتكون مرادًا بها الخصوصُ على ما قلنا غيرَ منسوخٍ منها شيءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٤).

وقال القرطبي: (هذا كلُّه في الأبوين المؤمنينِ، وقد نهى القرآنُ عن الاستغفار للمشركين الأمواتِ ولو كانوا أُولي قربى. وقيل: ليس هذا موضِعَ نَسخٍ، فهو دعاءٌ بالرَّحمةِ الدنيوية للأبوينِ المشركين ما داما حيَّينِ، كما تقدم. ... أو يكونُ عمومُ هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمُ الآخرةِ...

تَربيتِهما لي في صِغَري، وحالِ ضَعفي وعَجزي وافتِقاري[١].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّت الآيةُ السَّابِقةُ على وُجوبِ تَعظيمِ الوالِدَينِ مِن كُلِّ الوُجوهِ، ثمَّ إنَّ الولَدَ قد يَظهَرُ منه نادِرةٌ مُخِلَّةٌ بتَعظيمِهما؛ بيَّن سُبحانَه أنَّه عالمٌ بأحوالِ قُلوبِكم، فإن كانت تلك الهَفوةُ ليست لأجلِ العُقوقِ، بل ظهَرت بمقتضى الجِبلَّةِ البَشريَّةِ، كانت في محَلِّ الغُفرانِ[٢].

وأيضًا فإنَّه تعالى لَمَّا نهى عن عِبادةِ غَيرِه وأمَرَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ، ولا سيَّما عند الكِبَر، وكان الإنسانُ ربَّما تظاهَرَ بعِبادةٍ وإحسانٍ إلى والِدَيه دونَ عَقدِ ضَميرٍ على ذلك، رياءً وسُمعةً؛ أخبَرَ تعالى أنَّه أعلَمُ بما انطَوَت عليه الضَّمائِرُ مِن دُونِ قَصدِ عِبادةِ اللهِ، والبِرِّ بالوالِدَينِ[٣].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾.

وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في الدعاء للأبوينِ المسلمين. والصوابُ: أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكَرْنا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤-٢٤٥).

وقال الشربيني: (هذا إذا كانا مسلمين، فإن كانا كافرينِ فإنَّ الدعاء لهما بالرَّحمةِ مَنسوخٌ بقَولِه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ [التوبة: ١١٣] بل يدعو اللهَ تعالى لهما بالهدايةِ والإرشادِ، فإذا هداهما فقد رَحِمَهما). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩).

أي: ربُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بما في قُلوبِكم مِن تَعظيمِ حَقِّ الوالِدَينِ والرَّحمةِ بهما، أو الاستخفافِ به، ومِن إرادةِ البرِّ بهما، أو الإساءةِ إليهما وعُقوقِهما، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وهو مُجازيكم عليه، فاحذَروا أن تُضمِروا لهما سُوءًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[٢].

﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

قال القرطبي: (﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ﴾ أي: مِن اعتقادِ الرَّحمةِ بهما والحنُوِّ عليهما، أو مِن غَيرِ ذلك من العُقوقِ، أو مِن جَعْلِ ظاهِرِ برِّهما رياءً. وقال ابنُ جُبَيرٍ: يريدُ البادرةَ التي تَبدُر، كالفَلتةِ والزَّلَّة، تكونُ مِن الرجُلِ إلى أبَوَيه أو أحدِهما، لا يريدُ بذلك بأسًا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦).

وقال الشوكاني: (قَوْلُهُ: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡ﴾ أَيْ: بما في ضمائرِكم من الإخلاصِ وعدَمِه في كلِّ الطاعات، ومن التوبةِ مِن الذنبِ الذي فرَطَ منكم أو الإصرارِ عليه، ويندرج تحت هذا العمومِ ما في النَّفسِ مِن البرِّ والعقوق اندراجًا أوليًّا. وقيل: إنَّ الآيةَ خاصةٌ بما يجب للأبوين من البرِّ، ويحرُمُ على الأولاد من العقوقِ، والأوَّلُ أولى اعتبارًا بعموم اللفظ، فلا تخَصِّصُه دَلالةُ السياق ولا تقيِّدُه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

أي: إنْ أنتم أصلَحْتُم نِيَّاتِكم -أيُّها النَّاسُ- فكُنتُم صادِقينَ في نيَّةِ البِرِّ بالوالِدَينِ، مُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ بالإحسانِ إليهما والبرِّ بهما والقيامِ بحُقوقِهما؛ فإنَّ اللهَ للتَّائبينَ إليه مِنَ الزَّلَّاتِ والهَفَواتِ في حَقِّ الوالِدَينِ، الرَّجَّاعِينَ إلى اللهِ وإلى مَرضاتِه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ- غفورٌ، يَغفِرُ إساءاتِهم فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ ابتُدِئ التشريعُ بالنهيِ عن عبادةِ غيرِ الله؛ لأنَّ ذلك هو أصلُ الإصلاحِ[2].

٢- قال تعالى في الآيةِ المُتقدِّمةِ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ثمَّ إنَّه تعالى أردَفَه بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ المُشتَمِلِ على الأعمالِ التي بواسِطتِها يحصُلُ الفَوزُ بسَعادةِ الآخرةِ، فذكَرَ مِن جُملتِها البِرَّ بالوالِدَينِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ هذه الطَّاعةَ مِن أُصولِ الطَّاعاتِ التي تُفيدُ سَعادةَ الآخِرةِ، وكذلك فقد بدأ بذِكرِ الأمرِ بالتَّوحيدِ، وثَنَّى بطاعةِ اللهِ تعالى، وثَلَّث بالبِرِّ بالوالِدَينِ، وهذه دَرَجةٌ عاليةٌ، ومُبالغةٌ عَظيمةٌ في تعظيمِ هذه الطَّاعةِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان إحسانُهما إليك قد بلَغَ الغايةَ العَظيمةَ، وجَبَ أن يكونَ إحسانُك إليهما كذلك عَظيمًا كاملًا، ثمَّ على جميعِ التَّقديراتِ فلا تحصُلُ المكافأةُ؛ لأنَّ إنعامَهما عليك كان على سبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٧، ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٤-٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٧).

الابتداءِ، وفي الأمثالِ المَشهورةِ: أنَّ البادي بالبِرِّ لا يُكافأُ[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾؛ لأنَّهما سببُ وجودِ العبدِ، ولهما مِن المحبةِ للولدِ والإحسانِ إليه والقربِ ما يقتضي تأكُّدَ الحقِّ، ووجوبَ البرِّ؛ لذا أمَر بالإحسانِ إليهما بجميعِ وجوهِ الإحسانِ القوليِّ والفعليِّ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهما إذا بلغَا الكِبَرَ صارا عِبْئًا على ولَدِهما؛ فلا يتضَجَّرْ مِنَ الحالِ، ولا يَنهَرْهما في المَقالِ إذا أساءَا في الفِعلِ أو القَولِ[3]؛ فحالةُ الكِبَرِ يحتاجانِ فيها إلى بِرِّه؛ لتغيُّرِ الحالِ عليهما بالضَّعفِ والكِبَر، فأُلزِمَ في هذه الحالةِ مِن مُراعاةِ أحوالِهما أكثَرَ مِمَّا أُلزِمَه مِن قَبلُ؛ لأنَّهما في هذه الحالةِ قد صارا كَلًّا عليه، فيَحتاجانِ أن يليَ منهما في الكِبَرِ ما كان يَحتاجُ في صِغَرِه أن يَلِيا منه؛ فلذلك خَصَّ هذه الحالةَ بالذِّكرِ، وأيضًا فطُولُ المُكثِ للمَرءِ يُوجِبُ الاستثقالَ للمَرءِ عادةً، ويَحصُلُ المَلَلُ ويَكثُرُ الضَّجَرُ، فيُظهِرُ غَضَبَه على أبَوَيه، وتنتَفِخُ لهما أوداجُه، ويَستطيلُ عليهما بدالَّةِ البُنُوَّةِ وقِلَّةِ الدِّيانةِ، وأقلُّ المَكروهِ ما يُظهِرُه بتنَفُّسِه المُتردِّدِ مِن الضَّجَر، وقد أُمِرَ أن يُقابِلَهما بالقَولِ الموصوفِ بالكرامةِ، وهو السَّالمُ عن كلِّ عَيبٍ[4].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ينبغي بحُكمِ هذه الآيةِ أن يجعَلَ الإنسانُ نَفسَه مع أبويه في خيرِ ذِلَّةٍ، في أقوالِه وسَكَناتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤١).

ونظَرِه، وألَّا يُحِدَّ إليهما بَصَرَه؛ فإنَّ تلك هي نَظرةُ الغاضِبِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه كُلَّما ازدادَت التَّربيةُ ازداد الحَقُّ، وكذلك مَن تولَّى تربيةَ الإنسانِ في دينِه ودُنياه تَربيةً صالِحةً غيرُ الأبوَينِ؛ فإنَّ له على مَن رَبَّاه حَقَّ التَّربيةِ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ... ﴾ بالَغ سُبحانَه في التَّوصيةِ بالوالِدَينِ مُبالغةً تَقشَعِرُّ لها جلودُ أهلِ العُقوقِ، وتَقِفُّ[٣] عندَها شُعورُهم؛ حيثُ افتَتَحَها بالأمرِ بتَوحيدِه وعبادتِه، ثمَّ شَفَعَه بالإحسانِ إليهما، ثمَّ ضَيَّقَ الأمرَ في مُراعاتِهما حتى لم يُرَخِّصْ في أدنى كَلِمةٍ تنفلِتُ مِن التضَجُّرِ، مع مُوجِباتِ الضَّجَرِ، ومع أحوالٍ لا يكادُ يَصبِرُ الإنسانُ معها، وأن يَذِلَّ ويَخضَعَ لهما، ثمَّ خَتَمَها بالأمرِ بالدُّعاءِ لهما والترَحُّمِ عليهما، وهذه خَمسةُ أشياءَ كُلِّفَ الإنسانُ بها في حَقِّ الوالِدَين[٤].

٨- الأوَّابُ هو الذي مِن عادتِه ودَيدنِه الرُّجوعُ إلى أمرِ اللهِ تعالى، والالتِجاءُ إلى فَضلِه، ولا يَلتَجِئُ إلى شَفاعةِ شَفيعٍ، كما يَفعَلُه المُشرِكونَ الذين يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ جَمادًا يَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ لهم، وسُنَّةُ اللهِ وحُكْمه في الأوَّابينَ أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).
(٣) تَقِفُّ، أي: تقومُ مِن الفَزَعِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٨).
(٤) يُنظر: ((فتح البيان)) للقنوجي (٧/ ٣٧٨).

غَفورٌ لهم، يُكَفِّرُ عنهم سَيِّئاتِهم؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ فوعَدَ بالغُفرانِ مع شَرطِ الصَّلاحِ والأَوْبةِ[٢]، والصَّالِحُ عندما تقَعُ منه الذُّنوبُ مُطالَبٌ -كغيرِه- بالأوبةِ لتحصيلِ المَغفرةِ؛ لأنَّ فَرضَ الأوبةِ إلى الله مِن المعاصي عامٌّ على الجميعِ، وقد اشتمَلَت الآيةُ مِن فِعلِ الشَّرطِ، وهو ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾، وجوابِ الشَّرطِ، وهو ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾- على الحالتَينِ اللازمَتينِ للإنسانِ لتكميلِ نَفسِه، وهما الصَّلاحُ المستفادُ مِن الأوَّلِ، والإصلاحُ بالأوبةِ المستفادُ مِن الثَّاني، وما دام الإنسانُ مُجاهِدًا في تزكيةِ نَفسِه بهذينِ الأصلينِ، فإنَّه بالِغٌ أملًا ورجاءً -بإذن الله- درجةَ الكَمالِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ أي: مذمومًا لا حامِدَ لك، مَخذولًا لا ناصِرَ لك؛ إذ قد يكونُ بَعضُ النَّاسِ مَقهورًا مَحمودًا، كالذي قُهِرَ بباطلٍ، وقد يكونُ مَذمومًا مَنصورًا، كالذي قَهَر وتسَلَّط بباطلٍ، وقد يكونُ مَحمودًا مَنصورًا، كالذي تمكَّن وملَكَ بحَقٍّ، والمُشرِكُ المتعَلِّقُ بغيرِ اللهِ قِسمُه أردأُ الأقسامِ الأربعةِ؛ لا مَحمودٌ ولا منصورٌ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ لَمَّا كان الذمُّ قد

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٥٥-٤٥٦).

يحتَمِلُه بَعضُ النَّاسِ مع بلوغِ الأمَلِ، بيَّنَ أنَّه مع الخيبةِ، فقال تعالى: ﴿مَّخْذُولًا﴾ أي: غيرَ منصورٍ فيما أراده من غيرِ أن يُغنيَ عنه أحدٌ بشَفاعةٍ أو غيرِها[(١)].

٣- قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فالمخلوقُ ليس بإلَهٍ في نفْسِه؛ لكنَّ عابدَه اتَّخذَه إلهًا، وجَعلَه إلهًا، وسمَّاه إلهًا، وذلك كلُّه باطلٌ لا ينفعُ صاحبَه؛ بل يَضُرُّه، كما أنَّ الجاهلَ إذا اتُّخِذَ إمامًا ومُفتِيًا وقاضيًا؛ كان ذلك باطلًا، فإنه لا يَصلحُ أنْ يَؤُمَّ ولا يُفْتي ولا يقضي، وغيرُ اللهِ لا يَصْلُحُ أنْ يُتَّخَذَ إلهًا يُعْبَدُ ويُدعَى؛ فإنه لا يَخلُقُ ولا يَرزقُ إلَّا هو سُبحانَه، لا مانعَ لما أعطَى، ولا مُعطيَ لما منَع، ولا ينفعُ ذا الجدِّ منه الجدُّ[(٢)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ رَدٌّ على أصحابِ وَحْدةِ الوُجودِ، الذين يجعَلونَ وُجودَ الخالقِ عينَ وُجودِ المخلوقاتِ؛ وذلك لأنَّ نهيَه سُبحانَه وتعالى أنْ يُجعَلَ معه أو يُدْعَى معه إلهٌ آخرُ، دليلٌ على أنَّ ذلك مُمكِنٌ، كما فعَلَه المُشرِكونَ الذين دَعَوا مع اللهِ آلِهةً أخرى، فلو كانت تلك الآلهةُ هي إيَّاه، ولا شيءَ معه أصْلًا؛ امتنعَ أنْ يُدعَى معه إلَهٌ آخَرُ، فهذا يدلُّ على أنَّ معه أشياءَ ليسَتْ بآلهةٍ؛ ولا يجوزُ أنْ تُجعَلَ آلهةً، ولا تُدْعَى آلهةً[(٣)].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ فإنَّ المُشرِكَ يرجو بشِرْكِه النَّصرَ تارةً، والحمدَ والثَّناءَ تارةً، فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ مَقصودَه ينعَكِسُ عليه، فيحصُلُ له الذَّمُّ والخِذلانُ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٢٤، ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٤٠).

٦- القضاءُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ هو القَضاءُ الدِّينيُّ -بمعنى: أَمَرَ- ويُقابِلُه القَضاءُ الكَونيُّ -بمعنى: خَلَقَ- كما في قَولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[1] [فصلت: ١٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بعدَ قَولِه سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ حقَّ الوالِدَينِ بعدَ حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ.

فإن قيل: فأينَ حَقُّ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؟

أُجيبَ: بأنَّ حَقَّ اللهِ مُتضَمِّنٌ لحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ لا يُعبَدُ إلَّا بما شَرَعَ الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الخِطابُ في الآيةِ للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، لكِنْ قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ ولم يقُلْ: «ألَّا تَعبُد»، ونظيرُ ذلك في القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[الطلاق: ١] فالخِطابُ الأوَّلُ في ﴿رَبُّكَ﴾ للرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، والثَّاني عامٌّ، فما الفائِدةُ مِن تَغييرِ الأسلوبِ؟

أجيبَ: أنَّ الفائِدةَ مِن ذلك ما يأتي:

الأوَّلُ: التَّنبيهُ؛ إذ تَنبيهُ المُخاطَبِ أمرٌ مَطلوبٌ للمُتكَلِّم، وهذا حاصِلٌ هنا بتَغييرِ الأُسلوبِ.

الثَّاني: أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم زَعيمُ أمَّتِه، والخِطابُ المُوجَّهُ إليه مُوجَّهٌ لجَميعِ الأُمَّة.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٣)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤).

الثَّالثُ: الإشارةُ إلى أنَّ ما خُوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم فهو له ولأُمَّتِه، إلَّا ما دلَّ الدَّليلُ على أنَّه مُختَصٌّ به.

الرَّابعُ: الإشارةُ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم مَربوبٌ لا رَبٌّ، عابِدٌ لا معبودٌ؛ فهو داخِلٌ في قَولِه: ﴿تَعْبُدُوٓاْ﴾ وكفى به شَرفًا أن يكونَ عَبدًا للهِ عَزَّ وجَلَّ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ مُناسَبةُ اقترانِ برِّ الوالِدَينِ بإفرادِ اللهِ بالعبادةِ؛ مِن حَيثُ إنَّه تعالى هو المُوجِدُ حَقيقةً، والوالِدانِ وَساطةٌ في إنشائِه، وهو تعالى المُنعِمُ بإيجادِه ورِزقِه، وهما ساعيانِ في مصالِحِه[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ فائِدةُ ذِكرِ ﴿عِندَكَ﴾ أنَّهما يَكبَرانِ في بَيتِه وكَنَفِه، ويكونانِ كَلًّا عليه، لا كافِلَ لهما غيرُه، وربَّما نالَه منهما من المشاقِّ ما كان ينالُهما منه في حالِ الصِّغَرِ[٣].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾، ودُخولُ ما هو أعظمُ مِن التأفيفِ مِن أنواعِ الأذى في النهيِ بِطَريقِ الأَولى، ويُسمَّى ذلك مَفهومَ المُوافَقةِ[٤]؛ لأنَّه إذا كان قد نهَى أن يستقْبِلَهما بهذه اللَّفظةِ الدَّالَّةِ على الضَّجرِ والتَّبرُّمِ بهما، فالنَّهيُ عمَّا هو أشدُّ كالشَّتمِ والضَّربِ هو بجهةِ الأولَى، فالمسكوتُ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٦٤).

عنه -الذي هو الضربُ والشتمُ- أولَى بالحكمِ -الذي هو التحريمُ- مِن هذا المنطوقِ به الذي هو التأفيفُ[1].

١٢- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ استَدَلَّ به مَن لم يُجِزْ تَحليفَ الوالِدِ إذا خاصَمَه وَلَدُه، ولا حَبْسَه في دَينِه، ولا قَتلَه به، ولا حَدَّه بقَذفِه[2].

١٣- قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ جَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، كما أنَّ جَناحَ الطَّيرِ جانِبُه، والولَدُ مأمورٌ بأن يَخفِضَ جانِبَه لأبويه، ويكونَ ذلك على وَجهِ الذُّلِّ لهما لا على وَجهِ الخَفضِ الذي لا ذُلَّ معه، وقد قال للنبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يَقُل: جناحَ الذُّلِّ، فالرَّسولُ أُمرَ بخَفضِ جناحِه، وهو جانِبُه، والولَدُ أُمِرَ بخَفضِ جناحِه ذُلًّا، فلا بُدَّ مع خَفضِ جناحِه أن يَذِلَّ لأبويه، بخِلافِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يُؤمَرْ بالذُّلِّ؛ فاقترانُ ألفاظِ القُرآنِ تدُلُّ على اقترانِ معانيه وإعطاءِ كُلِّ معنًى حَقَّه[3].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تبَعٌ لخِطابِ قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، والمقصودُ إسماعُ الخِطابِ غَيرَه؛ بقَرينةِ تحقُّقِ أنَّ النَّبيَّ قائمٌ بنبْذِ الشِّركِ، ومُنحٍ على الَّذين يَعبدون مع اللهِ إلهًا آخَرَ[4]؛ فالخِطابُ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٦).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٤).

عليه وسلَّمَ، والمُرادُ به أُمَّتُه، وهو من بابِ التَّهييجِ والإلهابِ. وخاطَبَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الرَّأسَ؛ لأنَّ ذلك أوقعُ في أنفُسِ الأتْباعِ، وإشارةً إلى أنَّه لا يُوحِّدُه حَقَّ توحيدِه سِواهُ. ويجوزُ أنْ يَكونَ خِطابًا عامًّا لكلِّ مَن يَصِحُّ أنْ يُخاطَبَ به أو لكُلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ للخِطابِ[١]. وقيل: وُجِّه الخِطابُ إلى المُفرَدِ ليُحِسَّ كلُّ أحدٍ أنَّه أمرٌ خاصٌّ به، صادرٌ إلى شَخصِه؛ فالاعتقادُ مَسألةٌ شَخصيَّةٌ مسؤولٌ عنها كلُّ فَردٍ بذاتِه.

- قولُه: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ تَذييلٌ هو فذلكةٌ لاختلافِ أحوالِ المُسلمينَ والمُشركينَ؛ فإنَّ خُلاصةَ أسبابِ الفوزِ ترْكُ الشِّركِ؛ لأنَّ ذلك هو مبدَأُ الإقبالِ على العملِ الصَّالحِ، فهو أوَّلُ خُطواتِ السَّعيِ لمُريدِ الآخرةِ؛ لأنَّ الشِّركَ قاعدةُ اختلالِ التَّفكيرِ وتَضليلِ العُقولِ، قال اللهُ تَعالى في ذكْرِ آلهةِ المُشركينَ: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾[٢] [هود: ١٠١].

- وقال هنا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ولا تَكرارَ فيها؛ لأنَّ الأُولى في الدُّنيا، والثَّالثةَ في الآخرةِ. والخِطابُ فيهما للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمُرادُ به غيرُه، كما في آيةِ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾. وأمَّا الثَّانيةُ فخطابٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٤).

وهو المُرادُ به[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ عطْفٌ على الكلامِ السَّابقِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ؛ تخلُّصًا إلى أعمدةٍ من شَريعةِ الإسلامِ، بمُناسبةِ الفذلكةِ المُتقدِّمةِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إصلاحَ الأعمالِ مُتفرِّعٌ على نبْذِ الشِّركِ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ جِيءَ بخطابِ الجماعةِ؛ لأنَّ النَّهيَ يتعلَّقُ بجميعِ النَّاسِ، وهو تَعريضٌ بالمُشركينَ[٣].

- وقدَّم ذكرَهما، فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، ولم يقُلْ: (وإحسانًا بالوالِدَينِ) ليدُلَّ على شِدَّةِ الاهتمامِ، والاعتناءِ بهما، فقولُه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِحْسَـٰنًا﴾، لكنه قدَّمه على مُتعلِّقِه[٤].

- قولُه: ﴿إِحْسَـٰنًا﴾ بلَفظِ التَّنكيرِ، والتَّنكيرُ يدُلُّ على التَّعظيمِ، أي: إحسانًا عَظيمًا كاملًا[٥].

- قولُه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ عطْفُ الأمرِ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ على ما هو في معنى الأمرِ بعبادةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، فاستحَقَّ العِبادةَ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٣-٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥ / ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٣).

أوجَدَ النَّاسَ، ولمَّا جعَلَ اللهُ الأبوينِ مظهَرَ إيجادِ النَّاسِ أمَرَ بالإحسانِ إليهما؛ فالخالِقُ مُستحقُّ العبادةِ لغِناهُ عن الإحسانِ، ولأنَّها أعظَمُ الشُّكرِ على أعظَمِ مِنَّةٍ، وسبَبُ الوُجودِ دونَ ذلك، فهو يستحِقُّ الإحسانَ لا العِبادةَ؛ لأنَّه محتاجٌ إلى الإحسانِ دون العِبادةِ، ولأنَّه ليس بمُوجِدٍ حَقيقيٍّ، ولأنَّ اللهَ جبَلَ الوالِدَينِ على الشَّفقةِ على ولَدِهما، فأمَرَ الولدَ بمُجازاةِ ذلك بالإحسانِ إلى أبويْه[1].

- وجُملةُ ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿إِحْسَٰنًا﴾، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ فيعُمُّ كلَّ مُخاطَبٍ، بقرينةِ العطفِ على ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وذلك على أحدِ القولَينِ في المخاطَبِ. وإيثارُ ضميرِ المُفردِ -﴿رَبُّكَ﴾- هنا دونَ ضميرِ الجمْعِ؛ لأنَّه خطابٌ يختَصُّ بمَن له أبوانِ من بين الجماعةِ المُخاطبينَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ فكان الإفرادُ أنسَبَ به، وإنْ كان الإفرادُ والجمْعُ سواءً في المقصودِ؛ لأنَّ خطابَ غيرِ المُعيَّنِ يُساوي خطابَ الجمْعِ، وخَصَّ هذه الحالةَ بالبيانِ؛ لأنَّها مَظِنَّةُ انتفاءِ الإحسانِ بما يَلْقى الولدُ من أبيه وأُمِّه من مَشقَّةِ القيامِ بشُؤونِهما، ومِن سُوءِ الخُلُقِ منهما[2].

- ووجْهُ تَعدُّدِ فاعلِ ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ مُظهَرًا دونَ جعْلِه بضميرِ التَّثنيةِ بأنْ يُقال: إمَّا يَبْلغانِّ عندك الكبرَ: الاهتمامُ بتخصيصِ كلِّ حالةٍ من أحوالِ الوالِدَينِ بالذِّكرِ، ولم يَستغْنِ بإحدى الحالتينِ عن الأُخرى؛ لأنَّ لكلِّ حالةٍ بواعثَ على التَّفريطِ في واجِبِ الإحسانِ إليهما، فقد تكونُ حالةُ اجتماعِهما عند الابنِ تَستوجِبُ الاحتمالَ منهما لأجْلِ مُراعاةِ أحدِهما الَّذي الابنُ أشَدُّ حُبًّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

له، دونَ ما لو كان أحدُهما مُنفرِدًا عندَه بدونِ الآخرِ الَّذي ميْلُه إليه أشدُّ؛ فالاحتياجُ إلى ذكْرِ أحدِهما في هذه الصُّورةِ؛ للتَّنبيهِ على وُجوبِ المُحافظةِ على الإحسانِ له. وقد تكون حالةُ انفرادِ أحدِ الأبوينِ عندَ الابنِ أخَفَّ كُلفةً عليه من حالةِ اجتماعِهما، فالاحتياجُ إلى ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ في هذه الصُّورةِ للتَّحذيرِ من اعتذارِ الابنِ لنفْسِه عن التَّقصيرِ بأنَّ حالةَ اجتماعِ الأبوينِ أحرَجُ عليه، فلأجْلِ ذلك ذُكِرَت الحالتانِ، وأُجْرِيَ الحكمُ عليهما على السَّواءِ، فكانت جُملةُ ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ بتَمامِها جوابًا لـ﴿إِمَّا﴾[1].

- قولُه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ ...﴾ أُكِّدَ فعْلُ الشَّرطِ بنونِ التَّوكيدِ؛ لتَحقيقِ الرَّبطِ بينَ مضمونِ الجوابِ، ومضمونِ الشَّرطِ في الوُجودِ[2].

- قولُه: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ليس المقصودُ مِن النَّهيِ عن أنْ يقولَ لهما: ﴿أُفٍّ﴾ خاصَّةً، وإنَّما المقصودُ النَّهيُ عن الأذَى الَّذي أقلُّه الأذَى باللِّسانِ بأوجزِ كلمةٍ، ثمَّ عطَفَ عليه النَّهيَ عن نَهْرِهما؛ لئلَّا يحسِبَ أنَّ ذلك تأديبٌ لصلاحِهما، وليس بالأذى. ثمَّ ارْتَقى في الوصايةِ بالوالِدَينِ إلى أمْرِ الولدِ بالتَّواضُعِ لهما تواضُعًا يبلُغُ حَدَّ الذُّلِّ لهما؛ لإزالةِ وَحشةِ نُفوسِهما إنْ صارا في حاجةٍ إلى مَعونةِ الولدِ؛ لأنَّ الأبوينِ يَبْغيانِ أنْ يكونا هما النَّافعينِ لولدِهما، والقصدُ مِن ذلك التَّخلُّقُ بشُكرِه على إنعامِهما السَّابقِ عليه[3].

- قولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ...﴾ فيه مُناسبةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٧٠).

حَسنةٌ؛ فهذه الآياتُ أوَّلُ تَفصيلٍ للشَّريعةِ للمُسلمينَ وقَعَ بمكَّةَ، وأنَّ ما ذُكِرَ في هذه الآياتِ مقصودٌ به تَعليمُ المُسلمينَ؛ ولذلك اختَلَفَ أسلوبُه عن أسلوبِ نَظيرِه في سُورةِ (الأنعامِ) -في قولِه: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ...﴾ الآياتِ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]- الَّذي وُجِّهَ فيه الخطابُ إلى المُشركينَ لتوقيفِهم على قواعِدِ ضَلالتِهم؛ فمِن الاختلافِ بين الأسلوبينِ: أنَّ هذه الآيةَ افتُتِحَتْ بفعْلِ القضاءِ المُقْتضي الإلزامَ، وهو مُناسِبٌ لخطابِ أُمَّةٍ تَمتثِلُ أمْرَ ربِّها، وافتُتِحَ خطابُ سُورةِ (الأنعامِ) بـ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾. ومنها: أنَّ هذه الآيةَ جعَلَتِ المَقْضيَّ هو تَوحيدُ اللهِ بالعِبادةِ؛ لأنَّه المُناسبُ لحالِ المُسلمينَ، فحذَّرَهم من عِبادةِ غيرِ اللهِ، وآيةُ (الأنعامِ) جعَلَتِ المُحرَّمَ فيها هو الإشراكَ باللهِ في الإلهيَّةِ المُناسِبَ لِما كانوا عليه من الشِّركِ؛ إذ لا عِبادةَ لهم(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ خفْضُ الجَناحِ كِنايةٌ عن حُسنِ التَّدبيرِ؛ لأنَّ الطَّائرَ إذا ضَمَّ فرْخَه إليه للتَّربيةِ خفَضَ له جَناحَه، وكأنَّه قيل للولدِ: اكفُلْ والديْكَ بأنْ تَضُمَّهما إلى نفْسِك، كما فعَلَا ذلك بك حالَ صِغَرِك. أو يكونُ خفْضُ الجَناحِ كِنايةً عن فعْلِ التَّواضُعِ؛ لأنَّ الطَّائرَ إذا أراد الطَّيرانَ والارتفاعَ نشَرَ جَناحَه، وإذا أراد ترْكَ الطَّيرانِ وترْكَ الارتفاعِ خفَضَ جَناحَه(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٦).

- وبُولِغَ بذكْرِ الذُّلِّ هنا، ولم يُذكَرْ في قولِه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ وذلك بسببِ عِظَمِ حَقِّ الوالِدَينِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه إضافةُ الجَناحِ إلى الذُّلِّ -أو إلى الذِّلِّ- للبيانِ والمُبالغةِ، كما أُضيفَ حاتمٌ إلى الجودِ على معنى: واخفِضْ لهما جَناحَك الذَّليلَ، أو الذَّلولَ، وفيه مُبالغةٌ؛ لأنَّه وُصِفَ بالمصدرِ، فكأنَّه جعَلَ الجَناحَ عينَ الذُّلِّ. أو يجْعَلَ لذُلِّه -أو لذِلِّه- جَناحًا خفيضًا؛ مُبالغةً في التَّذلُّلِ والتَّواضُعِ لهما. وسِرُّ ذكْرِ الجَناحِ وخفْضِه، تَصويرُ الذُّلِّ كأنَّه مُشاهَدٌ مَحسوسٌ(٢).

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلرَّحۡمَةِ﴾ عوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: من رَحمتِك إيَّاهما، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: الذُّلُّ النَّاشِئ عن الرَّحمةِ لا عن الخوفِ أو عن المُداهنةِ، والمُقصودُ: اعتيادُ النَّفسِ على التَّخلُّقِ بالرَّحمةِ باستحضارِ وُجوبِ مُعاملتِه إيَّاهما بها حتَّى يصيرَ له خُلقًا، كما قيل:

إنَّ التَّخلُّقَ يأتي دونَه الخُلقُ(٣)

- قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ الكافُ في قولِه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ للتَّشبيهِ، وهو ما يُعبَّرُ عنه بمعنى التَّعليلِ في الكَافِ، والمقصودُ من التشبيهِ تَمثيلُ حالةٍ خاصَّةٍ فيها الإشارةُ إلى تَربيةٍ مُكيَّفةٍ برَحمةٍ كاملةٍ؛ فإنَّ الأُبوَّةَ تَقْتضي رَحمةَ الولدِ، وصِغَرَ الولدِ يَقْتضي الرَّحمةَ به، ولو لم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧١).

يكُنْ ولدًا؛ فصار قولُه: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ قائمًا مقامَ قولِه: كما ربَّياني ورَحِماني بتربيتِهما؛ فالتربيةُ تكمِلةٌ للوُجودِ، وهي وحْدَها تَقتضِي الشُّكرَ عليها. والرحمةُ حِفظٌ للوجودِ مِن اجتنابِ انتهاكِه، وهو مُقتضَى الشُّكرِ؛ فجَمَع الشُّكرَ على ذلك كلِّه بالدُّعاءِ لهما بالرَّحمةِ[1]. وقيل: «ما» في ﴿كَمَا﴾: مَصدريَّةٌ، والوَقتُ فيه مُقدَّرٌ، أي: ارحَمْهما في وَقتٍ أحوجَ ما يَكونانِ إلى الرَّحمةِ مِن جَميعِ الأوقاتِ، كَوقتِ رَحمتِهما عليَّ وأنا في حالةِ الصِّغرِ. وليسَ ذلك إلَّا في القِيامةِ، والرحمةُ هي الجَنَّةُ. وقيل: إنَّ الكافَ في ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾؛ لتأكيدِ الوُجودِ، أي: لتاكيدِ وُجودِ الرحمةِ، أي: أَوْجِدْ رَحمتَهما إيجادًا مُؤكَّدًا مُحقَّقًا، كما أَوجَدَ الوالدانِ التربيةَ إيجادًا مُحقَّقًا في الزَّمانِ الماضِي[2].

- وخصَّ التربيةَ بالذكرِ؛ ليتذكرَ العبدُ شفقةَ الأبوينِ وتعبَهما في التربيةِ، فيزيدَه ذلك إشفاقًا لهما، وحنانًا عليهما[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ تذييلٌ لآيةِ الأمرِ بالإحسانِ بالوالِدَينِ وما فصلَ به، وما يَقْتضيه الأمْرُ من اختلافِ أحوالِ المأمورينَ بهذا الأمرِ قبْلَ وُرودِه بينَ مُوافقٍ لمُقتضاهُ ومُفرِّطٍ فيه[4].

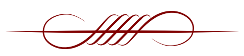
- قولُه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ كأنَّه تَهديدٌ على أنْ يُضْمِرَ لوالديْه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٣).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ٢٧٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٤).

كراهةً واستثقالًا[١].

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ تَذييلٌ بوصفِ الأوَّابينَ المُفيدِ بعُمومِه معنى الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى وإلى ما يُرْضيه -لأنَّ الصَّلاحَ في قولِه: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ شمَلَ الصَّلاحَ الكاملَ والصَّلاحَ المشوبَ بالتَّقصيرِ-؛ ففُهِمَ من الكلامِ معنى احتباكٍ بطريقِ المُقابلةِ، والتَّقديرُ: إنْ تكونوا صالحينَ أوَّابينَ إلى اللهِ، فإنَّه كان للصَّالحينَ مُحْسِنًا، وللأوَّابينَ غفورًا، وهذا يعُمُّ المُخاطبينَ وغيرَهم، وبهذا العُمومِ كان تَذييلًا[٢].

- وقيل: كان مقتضَى الظاهرِ في تركيبِ الآيةِ أن يُقالَ: (إنْ تكونوا صالحينَ فإنَّه كان لكم غفورًا)؛ لأنَّ المقامَ للإضمارِ، لكنَّه عدَل عن الضميرِ إلى الظاهرِ، فقيل: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ لينصَّ على شرطِ المغفرةِ، وهو الأوبةُ والرجوعُ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٨).

الآيات (٢٦-٣١)

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: التَّبذيرُ: الإسرافُ في النفقةِ، وتفريقُها في غيرِ ما أحلَّ الله عزَّ وجلَّ، ويُقالُ لكلِّ مضيِّعٍ مالَه، والتَّبذيرُ: التَّفريقُ، يُقالُ: بَذرتُ الأرض، أي: فرَّقْت البذرَ فيها، أي: الحبَّ، وأصلُ (بذر): هو نَثْرُ الشَّيءِ وتفريقُه[1].

﴿مَغْلُولَةً﴾: أي: مُمْسَكةً مَقبوضةً، كأنَّها بالمنعِ مَشدودةٌ بالغُلِّ: وهو القَيدُ يُجعَلُ في العُنُقِ[2].

﴿مَّحْسُورًا﴾: أي: مُنقطِعًا عن النَّفَقةِ والتصَرُّفِ، لِذَهابِ ما يَقوى به، وانحِسارِه عنه، ومنه البَعيرُ الحَسيرُ: الذي قد حَسَره السَّفَرُ، أي: ذهَبَ بلَحمِه وقُوَّتِه، فلا انبِعاثَ به، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كَشفِ الشَّيءِ وذَهابِه[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[1].

﴿إِمْلَاقٍ﴾: أي: فَقرٍ، وتجَرُّدٍ عن المالِ، وأصلُ (ملق): يدلُّ على تَجَرُّدٍ ومَلاسةٍ، كأنَّه بإنفاقِه لم يَبقَ له إلَّا المَلَقاتُ، وهي الحِجارةُ العِظامُ المُلْسُ التي لا يتعَلَّقُ بها شَيءٌ[2].

﴿خِطْـًٔا﴾: أي: إثمًا وخَطيئةً، يُقالُ: خَطِئَ يَخطَأُ خِطْئًا مِثلُ أَثِمَ يأثَمُ إثمًا: إذا تعَمَّد الخَطأَ، وأخطأَ: إذا لم يتعَمَّدْ، فالخِطْءُ: ما تُعمِّدَ، والخَطَأ: ما لم يُتعَمَّدْ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأحسِنْ إلى أقربائِك، وأعطِهم حُقوقَهم مِن البِرِّ والصِّلةِ والإحسانِ، وأعْطِ المِسكينَ حقَّه مِن الصدقةِ، والمُسافِرَ المُنقَطِعَ عن أهلِه ومالِه حقَّه مِن الضيافةِ، ولا تُفَرِّقْ أموالَك بإنفاقِها في غَيرِ حَقِّها؛ إنَّ المُنفِقينَ أموالَهم في غيرِ ما شرع اللهُ، هم إخوانُ الشَّياطينِ؛ لاتِّباعِهم إيَّاهم، وكان الشَّيطانُ شديدَ

القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ٤٥٣)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٥/ ٢٣١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٢١)، ((تصحيح التصحيف)) للحريري (ص: ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٢).

الجُحودِ لنِعَمِ رَبِّه.

ثم يقولُ تعالى: وإن أعرَضْتَ عن إعطاءِ هؤلاء الذين أُمِرْتَ بإعطائِهم؛ لِعَدَمِ وُجودِ ما تُعطيهم منه، راجيًا الرِّزقَ مِن عندِ رَبِّك- فقُلْ لهم قَولًا حَسَنًا جميلًا، كالوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالغِنى وسَعةِ الرِّزقِ.

ثَمَّ يرشدُ الله عبادَه إلى كيفيةِ إنفاقِ أموالِهم، والتصرفِ فيها، وأفضلِ الطرقِ في ذلك، فيقولُ: ولا تُمسِكْ يَدَك عن الإنفاقِ في سَبيلِ الخَيرِ بُخلًا، ولا تُسرِفْ في الإنفاقِ، فتُعطيَ فوقَ طاقتِك، فتَقعُدَ مَلومًا، مُنقَطِعًا عن النَّفَقةِ؛ بسَبَبِ ضَياعِ مالِك.

ثَمَّ يبيِّنُ سبحانَه أنَّ مرجعَ الأمورِ كلِّها إليه، فهو المعطي، وهو المانعُ، فيقول: إنَّ رَبَّك يُوسِّعُ الرِّزقَ على من يشاءُ، ويُضَيِّقُه على من يشاءُ، وَفْقَ عِلمِه وحِكمَتِه سُبحانَه وتعالى؛ إنَّه خبيرٌ بعبادِه، بصيرٌ بهم.

ثَمَّ يقولُ تعالى: ولا تَقتُلوا -أيُّها الآباءُ- أولادَكم خَوفًا مِن الفَقرِ؛ فإنَّه سُبحانَه يَرزُقُ الأبناءَ كما يَرزُقُ الآباءَ، إنَّ قَتْلَ الأولادِ خَطيئةٌ وذَنبٌ عَظيمٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على الإحسانِ إلى الوالِدَينِ بالخُصوصِ؛ عمَّ بالأمرِ به لكُلِّ ذي رَحِمٍ وغيرِه[1]؛ فإنَّ القَرابةَ كُلَّها لما كانت مُتَشَعِّبةً عن الأبُوَّةِ؛ فلا جَرَم انتَقَل مِنَ الكَلامِ على حُقوقِ الأبَوَينِ إلى الكَلامِ على حُقوقِ القَرابةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦).

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وأعْطِ القَريبَ -يا مُحمَّدُ[١]- حقَّه من الصِّلةِ والعَطفِ والمُواساةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِن الصَّدَقةِ، والمُسافِرَ المُنقَطِعَ المُجتازَ بك حَقَّه مِنَ الضِّيافةِ، والإعانةِ على وُصولِه إلى مَقصِدِه[٢].

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾.

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا رغَّبَ في البَذلِ، وكانت النَّفسُ قَلَّما يكونُ فِعلُها قَوامًا بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ أتبَعَ ذلك قَولَه تعالى[٣]:

﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾.

أي: ولا تُفَرِّقْ أموالَك بإنفاقِها في غَيرِ حَقِّها ومَواضِعِها التي تستَحِقُّ الإنفاقَ فيها، وذلك كالإنفاقِ في مَعصيةِ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) قال ابنُ جرير: (خرج ذلك مَخرجَ الخِطابِ لنبيِّ اللهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، والمرادُ بحُكمِه جَميعُ مَن لَزِمَته فرائِضُ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٣-٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٥-٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (والتَّبذيرُ قد يكونُ في القَدْرِ: بأن يُعطيَ هؤلاء المُستحقِّينَ فوقَ ما يَصلُحُ، بحيث يَصرِفُ الزَّائِدَ على كفايتِهم إليهم، ويَعدِلُ به عمَّن هو أحوَجُ إليه وأحَقُّ به منهم. وقد يكونُ في الأصلِ: بأن يُعطى المالُ في المنافِعِ المُحَرَّمةِ، كمَهرِ البَغيِّ، وحُلوانِ الكُهَّانِ، فهذا مِن الذُّنوبِ، وذاك من الإسرافِ؛ ولهذا قال المؤمنونَ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]). ((العقود)) (ص: ١٨-١٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حرَّمَ عليكم عُقوقَ الأمَّهاتِ، ووأْدَ البَناتِ، ومنعًا وهاتِ، وكَرِهَ لكم ثلاثًا: قيلَ وقال، وكثرةَ السُّؤال، وإضاعةَ المال))[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾.

أي: إنَّ المُفَرِّقينَ أموالَهم في غَيرِ حَقِّها ووجْهِها المَشروعِ كانوا إخوانَ الشَّياطينِ؛

وقال أبو السعود: (التبذيرُ تفريقٌ في غير موضِعِه، مأخوذٌ من تفريق حبَّاتٍ وإلقائِها كيفما كان من غير تعهُّدٍ لمواقِعِه، لا عن الإكثارِ في صَرفِه إليهم، وإلَّا لناسبه الإسرافُ الذي هو تجاوُزُ الحَدِّ في صرفِه). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

وقال ابن عاشور: (التبذيرُ: تفريقُ المالِ في غير وجهِه، وهو مرادِفُ الإسرافِ، فإنفاقُه في الفسادِ تبذيرٌ، ولو كان المقدارُ قليلًا، وإنفاقُه في المباحِ إذا بلغ حَدَّ السَّرَفِ تبذيرٌ، وإنفاقُه في وجوه البِرِّ والصَّلاحِ ليس بتبذير. وقد قال بعضُهم لمن رآه ينفِقُ في وجوه الخير: لا خيرَ في السَّرَفِ، فأجابه المنفِقُ: لا سَرَفَ في الخيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٩).

وقيل: التبذيرُ: الإنفاقُ في معصيةِ الله. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٨).

وقال القصاب: (كُلُّ ما حَرَّمَ اللهُ على العبادِ أكْلَه أو شُرْبَه أو فِعْلَه، فأنفَقَ فيه مُنْفِقٌ نفقةً؛ سُمِّيَ مُبَذِّرًا، صائرًا بها مِن إخوانِ الشَّياطينِ، كَفورًا لِرَبِّه جلَّ وتعالى... والسرفُ وإن كان منهيًّا عنه فليس بتبذيرٍ. إنَّما التبذيرُ: ما يُستعانُ به على المعاصي وحدَها). ((النكت الدالة على البيان)) (٢/ ١٢٣).

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣) واللفظ له.

لاتِّباعِهم إيَّاهم في التَّبذيرِ والسَّفَهِ ومَعصيةِ اللهِ[(١)].

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾.

أي: وكان الشَّيطانُ لرَبِّه جَحودًا لنِعَمِه لا يَشكُرُها، فيَترُكُ طاعةَ اللهِ، ويُقبِلُ على مَعصيتِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّهم مِن أتباعِ الشَّياطينِ وحُلَفائِهم، كما يُتابِعُ الأخُ أخاه... ومعنى ذلك: أنَّ التبذيرَ يدعو إليه الشَّيطانُ؛ لأنَّه إمَّا إنفاقٌ في الفسادِ، وإمَّا إسرافٌ يَستنزِفُ المالَ في السفاسِفِ واللَّذَّاتِ، فيُعطِّلُ الإنفاقَ في الخيرِ، وكُلُّ ذلك يُرضي الشَّيطانَ، فلا جرَمَ أنْ كان المتَّصِفونَ بالتَّبذيرِ مِن جُندِ الشَّيطانِ وإخوانِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠، ٨١).

وقال أبو حيان: (وأُخوَّةُ الشياطين كونُهم قرناءهم في الدنيا وفي النار في الآخرةِ، وتدُلُّ هذه الأُخوَّةُ على أنَّ التبذيرَ هو في معصيةِ الله، أو كونهم يطيعونَهم فيما يأمرونَهم به من الإسرافِ في الدنيا). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠).

وقال القرطبي: (﴿إِخۡوَٰنَ﴾ يعني أنَّهم في حُكمِهم؛ إذ المبَذِّرُ ساعٍ في إفسادٍ كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تسَوِّلُ لهم أنفُسُهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غدًا في النار، ثلاثة أقوال). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٨).

قال الشنقيطي: (وإطلاقُ اسمِ الأخِ على النظير المشابِه معروفٌ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ؛ فمنه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالكفرِ هنا هو جحودُ نِعَمِ الله تعالى: ابن جرير، والواحدي، والبغوي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابن عاشور: (هذا تحذيرٌ شديدٌ مِن أن يفضيَ التبذيرُ بصاحبه إلى الكفرِ تدريجًا؛ بسبَبِ التخَلُّقِ بالطبائع الشيطانية، فيذهبُ يتدهورُ في مهاوي الضلالةِ حتى يبلُغَ به إلى الكفرِ، كما قال

﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾.

أي: وإنْ تُعرِضْ -يا محمَّدُ- عن إعطاءِ الأقارِبِ والمَساكينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم؛ لقِلَّةِ مالِك، وأنتَ تنتَظِرُ رِزقًا مِن عندِ ربِّك؛ تَرْجو أن يُيسِّرَه لك، فلا تُؤيِّسْهم مِن عَطائِك، ولا تُغلِظْ لهم القَولَ، وإنَّما قلْ لهم قولًا ليِّنًا لَطيفًا طيِّبًا تقبَلُه نُفوسُهم، كالاعتِذارِ الحَسَنِ، والوعْدِ الجَميلِ بإعطائِهم، والدُّعاءِ لهم بالرِّزقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ١٠].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بالإنفاقِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ، عَلَّمَه في هذه الآيةِ أدَبَ الإنفاقِ(٢).

وأيضًا فإنَّ هذا عودٌ إلى بَيانِ التَّبذيرِ والشُّحِّ، فالجُملةُ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَا

تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. ويجوز حَملُ الكفرِ هنا على كُفرِ النعمة، فيكونُ أقربَ درَجاتٍ إلى حالِ التخلُّقِ بالتبذير؛ لأنَّ التبذيرَ صَرفُ المالِ في غيرِ ما أمرَ الله به، فهو كفرٌ لنِعمةِ الله بالمال، فالتخَلُّقُ به يُفضي إلى التخَلُّقِ والاعتيادِ لكُفرانِ النِّعَم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٢٩).

تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴾[١] [الإسراء: ٢٦].

وأيضا فإنَّ الله تعالى لَمَّا أمَرَ بالجُودِ الذي هو لازِمُ الكَرَمِ؛ نهى عن البُخلِ الذي هو لازِمُ اللؤمِ، في سياقٍ يُنَفِّرُ منه ومِنَ الإسرافِ، فقال تعالى[٢]:

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾.

أي: ولا تُمسِكْ يَدَك بُخلًا عن النَّفَقةِ في الخَيرِ كُلَّ الإمساكِ وكأنَّها مُقَيَّدةٌ إلى عُنُقِك، فلا تستطيعُ أن تَمُدَّها لتُعطيَ أحدًا شيئًا من الخَيرِ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَثَلُ البَخيلِ والمُنفِقِ كمَثَلِ رَجُلَينِ عليهما جُبَّتانِ[٤] مِن حَديدٍ مِن ثُدِيِّهما إلى تَراقِيهما[٥]؛ فأمَّا المُنفِقُ فلا يُنفِقُ إلاَّ سَبَغَت[٦] أو وَفَرَت[٧] على جِلْدِه، حتى تُخفِيَ بَنانَه وتَعفوَ أثَرَه[٨]، وأمَّا البَخيلُ فلا يُريدُ أن يُنفِقَ شَيئًا إلَّا لَزِقَت كُلُّ حَلْقةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠٠).

قال الواحدي: (قال صاحب النظم [أبو علي الجرجاني]:... قد يمنَعُ الإنسانُ في مواضِعِ المنع ولا يرجِعُ عليه بلوم، فلذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أي: لا تكنْ ممسِكًا عن البَذلِ عادةً، ولم يُرد ألَّا يمسِكَ عند وقتِ الإمساك، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾). ((البسيط)) (١٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٤) جُبَّتانِ: واحِدُه جُبَّةٌ، وهو ثوبٌ سابِغٌ واسِعُ الكُمَّينِ، مَشقوقُ المُقَدَّم، يُلبَسُ فوقَ الثيابِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٢٧٣)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٠٤).

(٥) تَراقِيهما: جمعُ تَرقُوَة: وهما عَظْمانِ مُشرِفان في أعلى الصَّدرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

(٦) سَبَغَت: أي: امتَدَّت وغَطَّت. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٠٦).

(٧) وَفَرَت: أي: كَمَلَت. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

(٨) وتعفوَ أثَرَه: أي: تَمحُوَه وتَطمِسَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٧).

مَكانَها، فهو يُوَسِّعُها ولا تَتَّسِعُ))[١].

وعن أسماءَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((انفَحي أو انضِحي[٢] أو أنْفِقي، ولا تُحصي فيُحصِيَ اللهُ عليك، ولا تُوعِي[٣] فيُوعِيَ اللهُ عليك))[٤].

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾.

أي: ولا تَبسُطْ يدَك بالعَطاءِ والإنفاقِ كُلَّ البَسطِ، فتُنفِقَ فَوقَ طاقتِك، وتبقَى بلا مالٍ لَدَيك[٥].

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

أي: فتَبقى ملومًا عندَ الله تعالى، وعندَ النَّاسِ، وعندَ نَفسِك، مُنقَطِعًا، لا شيءَ لديك لتُنفِقَه، عاجزًا عن إقامةِ شُؤونِك[٦].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٢١).

(٢) النَّفحُ والنَّضحُ: العَطاءُ. ويُطلَقُ النَّضحُ أيضًا على الصبِّ، وهو أبلَغُ مِن النَّفحِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١١٨).

(٣) لا تُوعِي: أي: لا تجمَعي في الوِعاءِ وتَبخلي. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٣٤٧).

(٤) رواه البخاري (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٥).

قال القُرطبيُّ: (نهى اللهُ سُبحانَه وتعالى عن الإفراطِ في الإنفاقِ، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المالِ مَن خِيفَ عليه الحَسرةُ على ما خَرَج مِن يَدِه، فأمَّا من وَثِقَ بموعودِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وجَزيلِ ثوابِه فيما أنفَقَه، فغيرُ مُرادٍ بالآيةِ، والله أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٠). ويُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٣/ ٧٠-٧٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان سَبَبُ البُخلِ خَوفَ الفَقرِ، وسَبَبُ البَسطِ مَحبَّةَ إغناءِ المُعطي؛ قال مُسَلِّيًا لرَسولِه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عَمَّا كان يُرهِقُه من الإضاقةِ عن التَّوسعةِ على مَن يسألُه، بأنَّ ذلك إنَّما هو لِتَربيةِ العِبادِ بما يُصلِحُهم، لا لِهَوانٍ بالمُضَيَّقِ عليه، ولا لإكرامٍ للمُوَسَّعِ عليه[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يُوسِّعُ رِزقَه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على

وذهب ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جزي إلى أنَّ الملومَ والمحسورَ كلاهما يرجعانِ إلى بسطِ اليدِ بالنفقةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٥).

قال الزمخشري: (﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملومًا عندَ الله؛ لأنَّ المسرفَ غيرُ مرضيٍّ عندَه وعندَ الناسِ، يقولُ المحتاجُ: أعطَى فلانًا وحرَمني. ويقولُ المستغني: ما يُحسِنُ تدبيرَ أمرِ المعيشةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الملوم يرجعُ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ وأنَّ المحسورَ يرجعُ إلى قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فالملومُ يرجعُ إلى النهيِ عن الشحِّ، والمحسورُ يرجعُ إلى النهيِ عن التبذيرِ، ممن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٧).

مَن يشاءُ منهم، بحَسَبِ حِكمَتِه سُبحانَه[(١)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: لأنَّه خَبيرٌ ببواطِنِ عِبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، بَصيرٌ بظَواهِرِهم وكيفيَّةِ تَدبيرِهم في أرزاقِهم وغَيرِها؛ فهو أعلَمُ بمصالِحِ عبادِه وما يَليقُ بكُلٍّ منهم، فيَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الغِنى، ويَعلَمُ مَن يَصلُحُ له الفَقرُ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتَمَّ سُبحانَه ما أراد مِن الوَصيَّةِ بالأُصولِ وما تَبِعَ ذلك، وختَمَه بما قَرَّرَ مِن أنَّ قَبضَ الرِّزقِ وبَسْطَه، منه مِن غَيرِ أن يَنفَعَ في ذلك حِيلةٌ؛ أوصاهم بالفُروعِ؛ لِكَونِهم في غايةِ الضَّعفِ[(٣)].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأُولَى أنَّه هو المُتكَفِّلُ بأرزاقِ العِبادِ، حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١).

قال ابن عطية: (المعنى: كُنْ أنت -يا محمَّدُ- على ما رُسِمَ لك من الاقتصادِ وإنفاقِ القَوامِ، ولا يهمَّنَّك فَقرُ من تراه كذلك؛ فإنَّه بمرأًى من اللهِ ومَسمعٍ وبمشيئةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٨).

قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء: ٣٠]؛ أتبَعَه بِقَولِه[١]:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾.

أي: ولا تَقتُلوا -أيُّها الآباءُ- أولادَكم؛ خَوفًا مِن أن يُصيبَكم الفَقرُ بالإنفاقِ عليهم[٢].

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾.

أي: نحن نُعطي أولادَكم -أيُّها الآباءُ- رِزقَهم، ولَستُم الرَّازِقينَ لهم، ونُعطيكم رِزقَكم أيضًا؛ فلا تَخشَوُا الفَقرَ بسَبَبِهم[٣].

﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾.

أي: إنَّ قتلَ الآباءِ لأولادِهم ذَنبٌ عَظيمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢).

قال ابنُ جرير: (إنَّما قال جلَّ ثَناؤه ذلك للعَرَبِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتُلونَ الإناثَ مِن أولادِهم؛ خَوفَ العَيلةِ على أنفُسِهم بالإنفاقِ عليهنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٧).

وقال ابن عاشور: (المراد بالأولاد خصوصُ البناتِ؛ لأنهنَّ اللاتي كانوا يقتلونَهنَّ وأدًا، ولكنْ عبَّرَ عنهن بلفظِ الأولاد في هذه الآية ونظائِرِها؛ لأنَّ البنتَ يُقال لها: ولدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢).

قال القاسمي: (﴿ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ أي: لإفضائِه إلى تخريبِ العالمِ. وأيُّ خِطْءٍ أكبرُ مِن ذلك؟!). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٥٨).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الذَّنبِ أعظَمُ؟ قال: أن تَجعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تَقتُلَ ولَدَك؛ مِن أجْلِ أن يطعَمَ مَعَك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ حَليلةَ[١] جارِك))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فيه الأمرُ بصِلةِ الأرحامِ، وإكرامِ المَساكينِ، والغُرَباءِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ مَنعُ ذي القُربى والمِسكينِ وابنِ السَّبيلِ حَقَّهم، انحرافٌ في جانِبِ الإمساكِ، والتَّبذيرُ انحرافٌ في جانِبِ البَذلِ، ورِضا اللهِ فيما بينهما، وقد اتَّفَق شَرْعُ الرَّبِّ تعالى وقَدَرُه على أنَّ خِيارَ الأُمورِ أوساطُها[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾، والمرادُ بالأخوةِ المماثلةُ التامةُ، وتجنبُ مماثلةِ الشيطانِ ولو في خصلةٍ واحدةٍ مِن خصالِه واجبٌ، فكيف فيما هو أعمُّ مِن ذلك، كما يدلُّ عليه إطلاقُ المماثلةِ، والإسرافُ

وقال السعدي: (أخبر أنَّ قَتلَهم كان خِطأً كبيرًا أي: من أعظَمِ كبائرِ الذنوبِ لزوالِ الرحمةِ مِن القلبِ والعقوقِ العظيمِ والتجرُّؤِ على قتلِ الأطفالِ الذين لم يجرِ منهم ذنبٌ ولا معصيةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وقال الشنقيطي: (الخطايا والخطيئات: جمعُ خطيئة، وهي الذنبُ العظيمُ الذي يستحِقُّ صاحِبُه النكالَ، يقال لها: (خطيئة) و (خِطء)، ومنه قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٦٤).

(١) حَليلةُ جارِك: أي: زَوجَتُه. سُمِّيَت بذلك لكَونِها تحِلُّ له. ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٨١).

(٢) رواه البخاري (٦٨١١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٥٩).

في الإنفاقِ من عملِ الشيطانِ، فإذا فعَله أحدٌ مِن بني آدمَ فقد أطاع الشيطانَ، واقتدَى به[١]، فليحذرِ المرءُ مِن عملٍ هو مِن شأنِ إخوانِ الشياطينِ، وليحذرْ أن ينقلبَ مِن إخوانِ الشياطينِ[٢].

٤- أنَّ الإنسانَ ليس له أنْ يَصْرِفَ المالَ إلَّا فيما ينفَعُه في دينِه أو دُنياه، وما سِوى ذلك سَفَهٌ وتبذيرٌ نهى اللهُ عنه بقَولِه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، وقال بعضُ السلفِ: (لو أنفقتَ درهمًا في معصيةِ الله كنتَ مبذِّرًا، ولو أنفقتَ ملءَ الأرضِ في طاعةِ الله لم تكنْ مبذِّرًا)[٣].

٥- ينبغي على وليِّ الأمرِ إذا سألَه النَّاسُ ما لا يَصلُحُ بَذْلُه مِن الوِلاياتِ والأموالِ، والمَنافعِ والأجورِ، والشَّفاعةِ في الحُدودِ وغيرِ ذلك، أنْ يُعَوِّضَهم مِن جهةٍ أخرى إنْ أمكَنَ، أو يَرُدَّهم بمَيسورٍ مِن القَولِ -ما لم يُحتَجْ إلى الإغلاظِ-؛ فإنَّ ردَّ السائلِ يُؤلِمُه؛ خُصوصًا مَن يحتاجُ إلى تأليفِه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]، وقال أيضًا: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾، إلى قَولِه: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[٤]، أي: لطيفًا، برفقٍ ووعدٍ بالجميلِ عندَ سنوحِ الفرصةِ، واعتذارٍ بعدمِ الإمكانِ في الوقتِ الحاضرِ؛ لينقلبوا مطمئنةً خواطرُهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾[٥] [البقرة: ٢٦٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).
(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ١٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٦٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

مَّيۡسُورٗا﴾ هذا مِن لُطفِ اللهِ تعالى بالعِبادِ؛ أمَرَهم بانتِظارِ الرَّحمةِ والرِّزقِ منه؛ لأنَّ انتظارَ ذلك عِبادةٌ، وكذلك وَعْدُهم بالصَّدقةِ والمَعروفِ عند التيسُّرِ عِبادةٌ حاضِرةٌ؛ لأنَّ الهَمَّ بفِعلِ الحَسَنةِ حَسَنةٌ؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ أن يَفعَلَ ما يَقدِرُ عليه مِن الخَيرِ، ويَنويَ فِعلَ ما لم يَقدِرْ عليه؛ لِيُثابَ على ذلك، ولعَلَّ اللهَ يُيَسِّرُ له بسَبَبِ رَجائِه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ فيه الأمرُ بالقَولِ اللَّيِّنِ عندَ عَدَمِ وُجودِ ما يُعطى منه[٢]، فالآيةُ تأديبٌ مِنَ اللَّهِ سبحانَه لعبادِه إذا سَألَهم سائلٌ ما ليسَ عندَهم كيفَ يقولونَ، وبِمَ يَرُدُّونَ، ولقد أحسنَ مَنْ قال:

إنْ لَا يَكُـنْ وَرِقٌ يَوْمًـا أجودُ بها ... للسَّـائِلينَ فإنِّـي لَيِّـنُ العُودِ
لا يَعْدَمُ السـائلونَ الخيرَ مِن خُلُقي ... إمَّا نَوالي وإمَّا حسـنُ مردودي[٣]

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قد جمعَت هذه الآيةُ ثلاثَ وصايا مِمَّا أوصى اللهُ به، بقَولِه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ...﴾ الآيات:

فأمَّا إيتاءُ ذي القُربى فالمقصِدُ منه مُقارِبٌ للمَقصِدِ مِن الإحسانِ للوالدينِ؛ رَعيًا لاتِّحادِ المنبَتِ القَريبِ، وشَدًّا لآصرةِ العشيرةِ التي تتكوَّنُ منها القبيلةُ، وفي ذلك صلاحٌ عَظيمٌ لِنظامِ القبيلةِ وأمنِها وذبِّها عن حَوزتِها.

وأمَّا إيتاءُ المسكينِ فلِمَقصِدِ انتظامِ المجتمعِ بألَّا يكونَ مِن أفرادِه مَن هو في

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٤).

بؤسٍ وشَقاءٍ، على أنَّ ذلك المسكينَ لا يعدو أن يكونَ مِن القبيلةِ في الغالِبِ أقعَدَه العَجزُ عن العَمَلِ، والفَقرُ عن الكفايةِ.

وأمَّا إيتاءُ ابنِ السَّبيلِ فلإكمالِ نظامِ المجتَمَعِ؛ لأنَّ المارَّ به مِن غيرِ بنيه بحاجةٍ عَظيمةٍ إلى الإيواءِ ليلًا ليقيَه من عوادي الوحوشِ واللُّصوصِ، وإلى الطَّعامِ والدِّفءِ أو التظَلُّلِ؛ وقايةً مِن إضرارِ الجوعِ والقُرِّ أو الحَرِّ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ احتُجَّ بهذه الآيةِ على الحجرِ على المبذرِ، فيجبُ على الإمامِ منعُه منه بالحجرِ والحيلولةِ بينه وبينَ مالِه إلَّا بمقدارِ نفقةِ مثلِه(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ الرَّحمةُ هنا هي الرِّزقُ الذي يتأتَّى منه العَطاءُ بقَرينةِ السِّياقِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ سَبَبٌ للرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا أعطاه مُستَحِقَّه أثيبَ عليه(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فيه إخبارٌ بأنَّ رِزقَ الجَميعِ على اللهِ تعالى، واللهُ سيُسَبِّبُ لهم ما يُنفِقونَ على الأولادِ وعلى أنفُسِهم. وفيه بَيانُ أنَّ اللهَ تعالى سيرزُقُ كُلَّ حيوانٍ خَلَقَه ما دامَت حياتُه باقيةً، وأنَّه إنَّما يَقطَعُ رِزقَه بالمَوتِ، وبَيَّنَ اللهُ تعالى ذلك؛ لئلَّا يتعَدَّى بَعضُهم على بَعضٍ، ولا يَتناوَلَ مالَ غَيرِه؛ إذ كان اللهُ قد سبَّبَ له مِنَ الرِّزقِ ما يُغنيه عن مالِ غَيرِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠).

والحجْرُ على المبذِّرِ والمسرفِ هو مذهبُ الجمهورِ، خلافًا لأبي حنيفةَ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤/ ١٩٤)، (٣١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٢٦٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ دالَّةٌ على أنَّ اللهَ تعالى أرحَمُ بعِبادِه مِنَ الوالِدِ بوَلَدِه؛ لأنَّه ينهى تعالى عن قَتلِ الأولادِ، كما أوصَى بالأولادِ في الميراثِ[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ فيه النَّهيُ عن قَتلِ الأولادِ مَخافةَ الفَقرِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ حُجَّةٌ في وجوبِ نَفَقةِ الآباءِ على الأبناءِ؛ إذ لو كانتِ النَّفَقةُ غيرَ واجِبةٍ لهم عليهم، لكان في النَّاسِ مَن تَسمَحُ نَفسُه بتَركِ الإنفاقِ، وكان مع عَدَمِ الإجبارِ عليه آمنًا مِن الإملاقِ، والآيةُ عامَّةُ المَخرَجِ على جَميعِ الآباءِ، فلا تَدُلُّ إلَّا على الوُجوبِ، بل على الإجبارِ مع المَنعِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ عِظَةٌ للمُغتمِّينَ بكَثرةِ الأولادِ خَشيةَ العَجْزِ عن القِيامِ بنَفَقاتهم ومُؤْناتهم؛ ففي ضَمانِه -تبارك وتعالى- لنَفَقتِهم أمانٌ للمَضمونِ له ما يتَّقيه مِنَ العَجزِ، ويَحذَرُه مِن دُخولِ الفَقرِ عليه بسبَبِ أولادِه، وبِشارةٌ يَسكُنُ إليها المُؤمِنُ، ويَزولُ اضطرابُ قَلبِه بما لا يُخلِفُ ضامِنُه مِن وَعدِه، وإذا كان في حياتِه مَضمونًا له رِزقُ أولادِه وهو قَيِّمُهم، فبعدَ وفاتِه أحْرَى أن تَحسُنَ خِلافةُ ضامِنِه عليهم! وفي ذلك تطييبُ أنفُسِ مَن يتركُ بعده صِغارًا، وسكونُ قلوبِهم إلى من لا يُخلِفُ ميعادًا، ولا يُضَيِّعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٢٨).

لهالكٍ أولادًا[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تحديدَ النَّسْلِ خوفًا مِن ضِيقِ الرِّزْقِ؛ سُوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى! فاللهُ سُبحانَه وتعالى إذا خَلَقَ خَلْقًا، فلا بُدَّ أنْ يرزُقَه[2].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّه كلما كَثُرَ الأولادُ انفتحتْ أبوابُ الرزقِ، إلَّا أنَّ كثرةَ الرزقِ بكثرة الأولادِ لها شرطٌ مهمٌّ؛ وهو تقوى اللهِ وصحةُ التوكلِ عليه؛ لقوله سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[3] [الطلاق: ٢، ٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ابتدأ بحَقِّ القريبِ تأكيدًا لحَقِّه، ولأنَّه هو مقتضى طبيعةِ التَّرتيبِ، ولأنَّه إذا سَخَت النفوسُ بإيتاءِ حَقِّ القريبِ ومَرَنت عليه، اعتادت الإيتاءَ وصار مِن مَلَكاتِها، فسهُلَ عليها إيتاءُ كُلِّ حَقٍّ ولو كان لأبعدِ النَّاسِ، إلى غير ذلك[4].

- قولُه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ فيه ذِكْرُ المفعولِ المُطلَقِ ﴿تَبْذِيرًا﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾؛ لتأكيدِ النَّهيِ، كأنَّه قيلَ: لا تُبذِّرْ، لا تُبذِّرْ، مع ما في المصدرِ من

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((الزواج)) لابن عثيمين (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٩/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٩).

استحضارِ جِنْسِ المَنْهيِّ عنه استحضارًا لِما تُتَصَوَّرُ عليه تلك الحقيقةُ بما فيها من المفاسِدِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تَعليلٌ؛ للمُبالغةِ في النَّهيِ عن التَّبذيرِ ببيانِ أنَّه يجعَلُ صاحِبَه مَلْزوزًا[٢] في قَرَنِ[٣] الشَّياطينِ[٤]، وقد زِيدَ تأكيدُ ذلك بلفْظِ ﴿كَانُوٓاْ﴾ المُفيدِ أنَّ تلك الأُخوَّةَ صِفَةٌ راسخةٌ فيهم، وكَفى بحقيقةِ الشَّيطانِ كراهةً في النُّفوسِ واستقباحًا[٥].

- وفي الكلامِ إيجازُ حذْفٍ، تقديرُه: ولا تُبذِّرْ تَبذيرًا، فتصيرَ من المُبذِّرينَ؛ إنَّ المُبذِّرينَ كانوا إخوانَ الشَّياطينِ، ثمَّ أكَّدَ التَّحذيرَ بجُملةِ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[٦].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ فيه التَّعرُّضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ؛ للإشعارِ بكمالِ عُتُوِّه؛ فإنَّ كُفرانَ نعمةِ الرَّبِّ -مع كونِ الرُّبوبيَّةِ مِن أقوى الدَّواعي إلى شُكْرِها- غايةُ الكُفْرانِ، ونهايةُ الضَّلالِ والطُّغيانِ[٧].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٧٦).
(٢) ملزوزًا: أي: مقَيَّدًا مَشدودًا. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٢).
(٣) القَرَنُ: الحبلُ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٨١).
(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ علَّلَ الإعراضَ بطلَبِ الرَّحمةِ، وهي كِنايةٌ عن الرِّزقِ والتَّوسعةِ، وطلَبُ ذلك ناشِئٌ عن فُقدانِ ما يجودُ به ويُؤْتيه مَن سألَه، وسمَّى الرِّزقَ رحمةً، فرَدَّهم ردًّا جميلًا، فوضَعَ الابتغاءَ موضِعَ الفقدِ؛ لأنَّ فاقِدَ الرِّزقِ مُبتَغٍ له، فكان الفقدُ سبَبَ الابتغاءِ، والابتغاءُ مُسبَّبًا عنه؛ فوضَعَ المُسبَّبَ مَوضعَ السَّببِ، وكأنَّ المعنى: وإنْ تُعْرِضْ عنهم لإعسارِك، فوضَعَ المُسبَّبَ -وهو ابتغاءُ الرَّحمةِ- موضِعَ السَّببِ، وهو الإعسارُ[1].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ الإعراضُ هنا كِنايةٌ عن عدَمِ الإيتاءِ؛ لأنَّ الإمساكَ يُلازِمُه الإعراضُ[2].

- قولُه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ الرَّحمةُ هنا هي الرِّزقُ الَّذي يتأتَّى منه العطاءُ بقرينةِ السِّياقِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرِّزقَ سبَبٌ للرَّحمةِ؛ لأنَّه إذا أعطاهُ مُستحِقَّه أُثيبَ عليه، وهذا إدماجٌ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٨٣).

والإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غَرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أتَتْ هذه الآيةُ تَعليمًا بمعرفةِ حقيقةٍ من الحقائقِ الدَّقيقةِ؛ فكانت من الحكمةِ، وجاء نظْمُها على سبيلِ التَّمثيلِ، فصِيغَتِ الحِكمةُ في قالبِ البلاغةِ، وأمَّا البلاغةُ فبتَمْثيلِ الشُّحِّ والإمساكِ بغلِّ اليدِ إلى العُنقِ، وهو تَمثيلٌ لمنْعِ الشَّحيحِ وإعطاءِ المُسرِفِ، وهو مَبنيٌّ على تخيُّلِ اليدِ مصدرًا للبذْلِ والعطاءِ، وتخيُّلِ بسْطِها كذلك، وغلُّها شُحًّا، ومِن ثمَّ قالوا: له يدٌ على فُلانٍ، أي: نعمةٌ وفضْلٌ؛ فجاء التَّمثيلُ في الآيةِ مَبنيًّا على التَّصرُّفِ في ذلك المعنى بتَمثيلِ الَّذي يشُحُّ بالمالِ بالَّذي غُلَّتْ يدُه إلى عُنقِه، أي: شُدَّتْ بالغُلِّ، وهو القيدُ من السَّيرِ يُشَدُّ به يدُ الأسيرِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

- مَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ موقعُ اعتراضٍ بالتَّعليلِ لِمَا تقدَّمَ من الأمْرِ بإيتاءِ ذي القُربى والمساكينِ، والنَّهيِ عن التَّبذيرِ، وعن الإمساكِ المُفيدِ الأمْرَ بالقصدِ، بأنَّ هذا واجبُ النَّاسِ في أموالِهم وواجِبُهم نحوَ قَرابتِهم وضُعفاءِ عشائرِهم، فعليهم أنْ يَمْتثلوا ما أمَرَهم اللهُ من ذلك. وليس الشُّحُّ بمُبْقٍ مالَ الشَّحيحِ لنفْسِه، ولا التَّبذيرُ بمُغْنٍ مَن يُبذِّرُ فيهم المالَ؛ فإنَّ اللهَ قدَّرَ لكلِّ نفْسٍ رِزْقَها[2].

ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٤-٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٦).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ، وهو جُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: هو يفعَلُ ذلك؛ لأنَّه عليمٌ بأحوالِ عِبادِه وما يَليقُ بكلٍّ منهم بحسَبِ ما جُبِلَت عليه نُفوسُهم؛ فلأنَّه يعلَمُ سِرَّهم وعلَنَهم، يعلَمُ مِن مصالِحهم ما يَخْفَى عليهم[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فيه مناسبةٌ حسنةٌ، حيث قال في سورةِ (الأنعام): ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فاختَلفَ ترتيبُ ذِكْرِ الآباءِ والأبناء في الآية هنا مع ترتيبها في سورةِ (الأنعام)، ووجهُ ذلك: أنَّ هذا التعبيرَ مبنيٌّ على اختلافِ الحالين، ففي آيةِ سورةِ (الأنعامِ) يقول اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ -أي: مِن فقرٍ- يعني: إذا كنتم فقراءَ؛ فلا تقتلوا أولادَكم، ثم قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فبدأَ بالآباء لأنهم فقراءُ؛ وجَعَلَ رزقَهم قبلَ ذِكرِ رِزْقِ الأولادِ المقتولين، أمَّا في آيةِ سورةِ (الإسراءِ): ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فلأنَّ الآباءَ القاتلين هنا ليسوا فقراءَ -بل هم أغنياءُ- لكنهم يخشون الفقرَ! فكان الأنسبُ أنْ يُبْدَأَ بذِكْرِ رِزْقِ الأولادِ قبلَ ذِكْرِ رِزْقِ الآباءِ؛ لأنَّ الآباءَ رزقُهم موجودٌ، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[2]، وقيل: تَقديمُ ضميرِ الأولادِ على المُخاطبينَ على

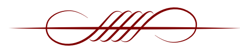
(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٦٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٧).

عكْسِ ما وقَعَ في سُورةِ (الأنعامِ)؛ للإشعارِ بأصالتِهم في إفاضةِ الرِّزقِ، أو لأنَّ الباعثَ على القتْلِ هناك الإملاقُ النَّاجِزُ؛ ولذلك قيل هناك: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهاهنا الإملاقُ المُتوقَّعُ؛ ولذلك قيل هنا: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾؛ فكأنَّه قيل: نرزُقُهم -من غيرِ أنْ يَنتقِصَ من رزْقِكم شَيءٌ، فيَعْتريكم ما تَخْشونَه- وإيَّاكم أيضًا رِزقًا إلى رزقِكم[1].

- قولُه: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ بإبطالِ مُوجِبِه في زعْمِهم[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ، وتحذيرٌ من الوُقوعِ في المَنهيِّ. وفعْلُ ﴿كَانَ﴾ تأكيدٌ للجُملةِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٨-٨٩).

الآيات (٣٢-٣٥)

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰحِشَةً﴾: أي: فِعلةً مُتناهِيةً في القُبحِ، وأصلُ (فحش): يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾: أي: مَن يَلي أمرَه مِنْ وَرَثَتِه إنْ كانُوا مَوْجودينَ، أو مِمَّنْ له سلطانٌ إنْ لم يَكُونوا مَوجودينَ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصْلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء من حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ[٢].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: تَسَلُّطًا على القاتِل، أو حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[٣].

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: يتناهَى في الثَّبَاتِ إلى حدِّ الرِّجالِ، أو يبلُغ مُنْتَهى شَبابِه

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١ / ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٦).

وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: جمعٌ لا واحدَ له، وقيل: مفردُه شَدٌّ، وأَصْلُ (شدد): يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي: المِيزانِ العَدلِ السَّوِيِّ، وأصلُ (قسط) هنا: يدلُّ على العَدلِ[2].

﴿تَأْوِيلًا﴾: أي: عاقِبةً، والعاقِبةُ تُسَمَّى تأويلًا؛ لأنَّها مآلٌ، مِن آلَ يَؤولُ أَوْلًا: إذا رجَعَ، وأصلُ (أول): ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤُه[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ النواهي، فيقولُ: ولا تَقربوا -أيُّها النَّاسُ- الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعِيه؛ كي لا تَقَعوا فيه؛ إنَّه كان فِعلًا شديدَ القُبحِ، وبِئسَ الطَّريقُ طَريقُه، ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حَرَّم اللهُ قَتْلَها إلَّا بحَقِّها، كالقِصاصِ أو رَجمِ الزَّاني المُحصَنِ، أو قَتلِ المُرتَدِّ. ومن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّه سلطةً في طلَبِ قَتْلِ قاتِلِه، أو الدِّيةِ، أو العَفوِ، وليسَ لوليِّ المَقتولِ أن يتجاوزَ حَدَّ اللهِ في القِصاصِ، كأن يقتُلَ بالواحِدِ اثنينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّلَ بالقاتِلِ، أو يقتُلَ غيرَ القاتِلِ؛ إنَّ اللهَ مُعِينٌ وليَّ المَقتولِ على القاتِلِ حتى يأخُذَ منه حَقَّه.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولا تقرَبوا أموالَ اليتامى إلَّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ لهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥، ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٥).

بالمحافظةِ عليها وتثميرِها وتنميتِها، حتى يبلُغَ اليَتيمُ سِنَّ البُلوغِ والرشدِ، ويتمكَّنَ مِن التصَرُّفِ في المالِ، فيُدفَعَ إليه مالُه.

ثم يأمرُ الله تعالى بالوفاءِ بالعهدِ، فيقول: وأتِمُّوا الوفاءَ بالعُهودِ التي التَزَمتُم بها؛ لأنَّ العُهودَ مسؤولٌ عنها يومَ القيامةِ. وأتِمُّوا الكيلَ ولا تَنقُصوه إذا كِلْتم لِغَيرِكم، وزِنوا للنَّاسِ بالمِيزانِ السَّويِّ الذي لا غِشَّ فيه، إنَّ العَدلَ في الكَيلِ والميزانِ خَيرٌ لكم، وأحسَنُ عاقِبةً في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، نهى عن التسَبُّبِ في إيجادِه مِن الطَّريقِ غَيرِ المَشروعةِ، فنهى عن قِربانِ الزِّنا، واستلزَمَ ذلك النَّهيَ عن الزِّنا[١].

﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ ﴾.

أي: ولا تَدنُوا -أيُّها النَّاسُ- مِن فِعلِ الزِّنا، وابتَعِدوا عن مُقَدِّماتِه ودواعيه[٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾.

أي: إنَّه كان ذنبًا عَظيمًا غايةً في القُبحِ؛ في الشَّرعِ، والعَقلِ، والفِطرةِ، وبِئسَ طريقًا طَريقُ الزِّنا؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى أنواعٍ مِن المفاسِدِ في الدُّنيا[٣]، وإلى العذابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) قال الخازن: (الزِّنا يشتَمِلُ على أنواعٍ من المفاسِدِ، منها المعصيةُ، وإيجابُ الحدِّ على نفسِه، ومنها اختِلاطُ الأنسابِ، فلا يعرِفُ الرجلُ وَلَدُ مَن هو؟ ولا يقومُ أحدٌ بتربيته، وذلك يوجِبُ

والخِزيِ في الآخرةِ، فما أسوأه مِن طَريقٍ[(١)]!

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا نهى اللهُ تعالى عن قَتلِ الأولادِ، وعن إيجادِهم مِن الطَّريقِ غيرِ المَشروعةِ، نهى عن قَتلِ النَّفسِ، فانتقَلَ مِن الخاصِّ إلى العامِّ[(٢)].

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حرَّم اللهُ قتلَها إلَّا إذا استَحقَّتِ القَتلَ شَرعًا[(٣)].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللَّهُ

ضياع الأولاد، وانقطاعَ النَّسلِ، وذلك يوجِبُ خراب العالم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٩).
ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٨-٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).

قال ابنُ القيم: (أخبَر عن غايتِه [أي: الزنا] بأنَّه «سَاءَ سَبِيلًا» فإنَّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدُّنيا، وعذابٍ وخزيٍ ونكالٍ في الآخرةِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: حَقُّها الذي تُقتَلُ به: كُفرٌ بعدَ إسلامٍ، أو زِنًا بعد إحصانٍ، أو قَتلُ نَفسٍ بتعَمُّدٍ). ((البسيط)) (١٣/ ٣٢٣، ٣٢٤).

قال ابنُ جُزيٍّ: (وتتَّصِلُ بهذه الأشياءِ [أي الثلاثةِ السابقةِ] أشياءُ أُخَرُ؛ لأنَّها في معناها، كالحِرابةِ، وتَركِ الصَّلاةِ، ومَنعِ الزَّكاةِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٥).

عليه وسلَّم: ((لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ يَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رَسولُ اللهِ، إلَّا بإحدى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّارِكُ لِدِينِه المُفارِقُ للجَماعةِ))[١].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾.

أي: ومَن قُتِل ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ، فقد جعَلْنا لوليِّ[٢] المَقتولِ سُلطةً وتسَلُّطًا على القاتِلِ؛ فهو بالخِيارِ: إن شاء قتَلَه قِصاصًا، وإن شاء أخَذَ الدِّيَةَ، وإن شاء عَفا عنه[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((ومَن قُتِلَ له قَتيلٌ، فهو بخَيرِ النَّظَرينِ؛ إما أن يُفدَى، وإمَّا أن يُقِيدَ[٤]))[٥].

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾.

أي: فلا يَتَجاوَزْ وَلِيُّ المَقتولِ ما حُدَّ له، فيتعدَّى بقَتلِ غَيرِ القاتِلِ، أو يَقتُل

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

(٢) قال السَّعدي: (هو أقرَبُ عَصَباتِه ووَرَثتِه إليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وقال الألوسي: (﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لمن يلي أمرَه مِن الوارثِ أو السلطانِ عندَ عدمِ الوارثِ، واقتصارُ البعضِ على الأوَّل رعايةً للأغلبِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٨).

قال ابن عاشور: (والجعلُ مِنْ قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾ هو الجعلُ التَّشريعيُّ، أي: شَرَعْنا... كما في قولِه تعالَى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٣٣).

وقال السعدي: (﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً ظاهِرةً على القِصاصِ مِن القاتِلِ، وجعَلْنا له أيضًا تسلُّطًا قدَريًّا على ذلك، وذلك حين تجتمِعُ الشروطُ الموجِبةُ للقِصاصِ، كالعَمدِ العدوانِ، والمكافأةِ [أي: في الدينِ، والحريةِ، والرقِّ]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٤) يُفْدَى: أي: يُعطَى الدِّيَةَ. يُقِيدَ: أي: يَقتَصَّ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٤٨).

(٥) رواه البخاري (٢٤٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٥).

بالواحِدِ اثنَينِ أو أكثَرَ، أو يُمَثِّل بالقاتِلِ؛ إنَّ وَلِيَّ المَقتولِ[١] كان مُعانًا على القاتِلِ بتَسليطِه عليه بالقِصاصِ، أو بأخْذِ الدِّيةِ، أو بالعَفوِ[٢].

(١) ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عائدٌ إلى وليِّ المقتول: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

وممن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣).

قال ابن جرير: (وهي [أي: الهاءُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾] إلى ذِكرِه أقرَبُ مِن ذكرِ المقتولِ، وهو المنصورُ أيضًا؛ لأنَّ الله جلَّ ثناؤه قضى في كتابِه المنَزَّل أنْ سلَّطه على قاتِلِ وليِّه وحَكَّمَه فيه بأنْ جعلَ إليه قتْلَه إن شاء، واستبقاءَه على الديةِ إن أحَبَّ، والعفوَ عنه إن رأى، وكفى بذلك نُصرةً له من الله جلَّ ثناؤه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩).

وقال القُرطبيُّ: (فإن قيل: وكم مِن وليٍّ مَخذولٍ لا يَصِلُ إلى حَقِّه. قُلنا: المَعونةُ تكونُ بظُهورِ الحُجَّةِ تارةً، وباستيفائِها أُخرى، وبمَجموعِهما ثالثةً، فأيُّها كان فهو نَصرٌ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٦).

وقيل: هو عائدٌ إلى المقتولِ ظلمًا بغيرِ حقٍّ. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاج، ورجَّحه ابنُ عطيَّة، واختاره البقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٣)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٤١٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٣).

قال الزجاج: (فهو منصورٌ في الدنيا والآخرة، فأمَّا نُصرتُه في الدنيا فقَتلُ قاتِلِه، وأما في الآخرة فإجزالُ الثوابِ له، ويُخلَّدُ قاتِلُه في النارِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٣٨).

وقال البقاعي: (﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القتيلَ ﴿كَانَ مَنصُورًا﴾ في الدُّنيا بما جَبَل الله في الطباعِ مِن فُحشِ القتل، وكراهةِ كُلِّ أحدٍ له، وبُغضِ القاتِلِ والنُّفرةِ منه، والأخذِ على يَدِه، وفي الآخرة بأخذِ حَقِّه منه من غيرِ ظلمٍ ولا غفلةٍ، فمن وثِق بذلك ترك الإسرافَ، فإنَّه لخوفِ الفوتِ أو للتخويفِ مِن العودِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤١٠-٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٨٥، ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٣، ٧٤)،

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّهيَ عن إتلافِ النُّفوسِ؛ أتبَعَه بالنَّهيِ عن إتلافِ الأموالِ؛ لأنَّ أعَزَّ الأشياءِ بعدَ النُّفوسِ الأموالُ، وأحَقُّ النَّاسِ بالنَّهيِ عن إتلافِ أموالِهم هو اليَتيمُ؛ لأنَّه لِصِغَرِه وضَعفِه وكَمالِ عَجزِه يَعظُمُ ضَررُه بإتلافِ مالِه؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّهم اللهُ تعالى بالنَّهيِ عن إتلافِ أموالِهم[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نهى عن الإغارةِ على الأرواحِ، والأبضاعِ التي هي سَبَبُها؛ أتبَعَه النَّهيَ عن نَهبِ ما هو عَديلُها؛ لأنَّ به قِوامَها -وهو الأموالُ- وبدأ بأحَقِّ ذلك بالنَّهيِ؛ لشِدَّةِ الطَّمعِ فيه، لضَعفِ مالِكِه، فقال تعالى[2]:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

أي: ولا تَقْربوا مالَ اليتيمِ إلَّا بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ وأفضَلُ؛ وذلك بإصلاحِه والمُحافظةِ عليه، وتَثميرِه وتَنميتِه[3].

((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٨٧، ٨٨).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: أنَّ الوليَّ منصورٌ على القاتلِ شَرعًا، وغالبًا قَدَرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا مِن أهَمِّ الوَصايا التي أوصى اللهُ بها في هذه الآياتِ؛ لأنَّ العَرَبَ في الجاهليَّةِ كانوا يَستَحِلُّونَ أموالَ اليتامى؛ لضَعفِهم عن التفَطُّنِ لِمَن يأكُلُ أموالَهم، وقِلَّةِ نَصيرِهم لإيصالِ حُقوقِهم، فحَذَّرَ اللهُ المُسلِمينَ مِن ذلك؛ لإزالةِ ما عسى أن يبقى في نُفوسِهم من أثَرٍ

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قال: ((يا أبا ذرٍّ، إنِّي أراك ضعيفًا، وإنِّي أُحِبُّ لك ما أُحبُّ لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيمٍ[(١)]))[(٢)].

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

أي: لا تَقرَبوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتَّى يبلُغَ الحُلُمَ والرُّشدَ، بحيث يَكمُلُ عَقلُه ويتمَكَّنُ مِن تَدبيرِ مالِه، فإذا بلغَ ذلك زالتْ عنه الوِلايةُ، وصار وليَّ نَفسِه، ودُفِعَ إليه مالُه[(٣)].

مِن تلك الجاهليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٦).

(١) قال ابن عثيمين: (نهاه الرَّسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ أن يتولَّى على مالِ اليتيمِ؛ لأنَّ مالَ اليتيم يحتاجُ إلى عنايةٍ، ويحتاجُ إلى رعايةٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وأبو ذر ضعيفٌ لا يستطيع أن يرعى هذا المالَ حَقَّ رعايتِه؛ فلهذا قال: «ولا تولَّيَنَّ مالَ يتيم» يعني: لا تكنْ وليًّا عليه، دَعْه لغيرك). ((شرح رياض الصالحين)) (١/ ٧٢٥).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

كما قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾.

أي: وأوفُوا[(١)] -أيُّها النَّاسُ- بالعُهودِ التي عاهَدْتُم اللهَ عليها، وبالعُقودِ التي بينكم[(٢)].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

أي: أوفُوا بالعهودِ؛ لأنَّ اللهَ سيَسألُكم عنها يومَ القيامةِ، ويُجازيكم على الوَفاءِ بها وعَدَمِه؛ فلا تَنقُضوها[(٣)].

قال ابنُ جُزَي: (هو البلوغُ مع الرُّشدِ، وليس المقصودُ هنا السِّنَّ وَحدَه، وإنَّما المقصودُ مَعرفتُه بمصالِحِه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨١).

(١) قال أبو السعود: (الإيفاءُ بالعَهدِ والوَفاءُ به: هو القيامُ بمُقتضاه والمحافظةُ عليه، ولا يكادُ يُستعمَلُ إلَّا بالباءِ؛ فَرقًا بينه وبين الإيفاءِ الحِسِّي، كإيفاءِ الكَيلِ والوَزنِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

وقال الشَّوكاني: (الوفاءُ بالعَهدِ: هو القيامُ بحِفظِه على الوَجهِ الشَّرعيِّ والقانونِ المَرضيِّ، إلَّا إذا دلَّ دَليلٌ خاصٌّ على جوازِ النَّقضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٧).

قال ابن جُزَيٍّ: (﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ يحتَمِلُ وجهينِ: أحدُهما: أن يكونَ بمعنى الطَّلَبِ: أي يُطلَبُ الوَفاءُ به، والثاني: أن يكونَ المعنى: يُسألُ عنه يومَ القيامةِ، هل وفَى به أم لا؟).

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان التَّقديرُ بالكَيلِ أو الوَزنِ مِن جُملةِ الأماناتِ الخَفيَّةِ، كالتصَرُّفِ لليَتيمِ، وكان الائتِمانُ عليه كالمَعهودِ فيه؛ أتبَعَه بقَولِه[1]:

﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ ﴾.

أي: وأوفُوا النَّاسَ الكَيلَ إذا كِلْتُم لهم، وأوفُوهم حُقوقَهم -بالعَدلِ- تامَّةً مِن غَيرِ نَقصٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾.

أي: وزِنوا للنَّاسِ بالمِيزانِ السَّويِّ الذي لا انحِرافَ فيه ولا اعوِجاجَ، ولا غِشَّ ولا خديعةَ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾.

أي: ذلك الوَفاءُ في الكَيلِ والمِيزانِ خَيرٌ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن التَّطفيفِ،

((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤).

وأحسَنُ عاقِبةً لكم في دُنياكم: بالبَرَكة وانشِراحِ النَّفسِ وغيرِ ذلك، وفي أُخراكم: بالثَّوابِ مِنَ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ * بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: ٨٥- ٨٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ في إسنادِ التَّحريمِ إلى اللهِ بَعثٌ للنُّفوسِ على الخَشيةِ مِن الإقدامِ على المُخالَفةِ، وتنبيهٌ لها على ما يَكُفُّها عن الإقدامِ، وهو استِشعارُ عَظَمةِ اللهِ تعالى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ هذا أمرٌ بالعَدلِ، وإيفاءِ المكاييلِ والموازينِ بالقِسطِ مِن غَيرِ بَخسٍ ولا نَقصٍ. ويُؤخَذُ مِن عُمومِ المعنى النَّهيُ عن كُلِّ غِشٍّ في ثَمَنٍ أو مُثْمَنٍ أو مَعقودٍ عليه، والأمرُ بالنُّصحِ والصِّدقِ في المُعاملةِ(٣).

٣- ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ فإيفاءُ الكَيلِ والوَزنِ ﴿خَيۡرٞ﴾ من التطفيفِ فيهما، تفضيلًا لخيرِ الآخرةِ الحاصِلِ مِن ثوابِ الامتِثالِ، على خيرِ الدُّنيا الحاصِلِ مِن الاستِفضالِ الذي يطفِّفُه المطَفِّفُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

وهو أيضًا أفضَلُ منه في الدُّنيا؛ لأنَّ انشراحَ النَّفسِ الحاصِلَ للمَرءِ مِن الإنصافِ في الحَقِّ أفضَلُ مِن الارتباحِ الحاصِلِ له باستِفضالِ شَيءٍ مِن المال، وهو ﴿أَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فالتَّطفيفُ يعودُ على المطَفِّفِ باقتناءِ جزءٍ قليلٍ مِن المالِ، ويُكسِبُه الكراهيةَ والذَّمَّ عند النَّاسِ، وغَضَبَ اللهِ والسُّحتَ في مالِه، مع احتِقارِ نَفسِه في نفسِه؛ والإيفاءُ بعَكسِ ذلك يُكسِبُه مَيلَ النَّاسِ إليه ورِضا اللهِ عنه ورضاه عن نَفسِه والبركةَ في مالِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ إنَّما أتى تعالى بالقِربانِ تَعظيمًا له؛ لِما فيه مِن المفاسِدِ الجارَّةِ إلى الفِتَنِ؛ بالقَتلِ، وتَضييعِ النَّسَبِ، والتسَبُّبِ في إيجادِ نَفسٍ بالباطِلِ[٢]، وأيضًا فالنَّهيُ عن قِربانِه أبلَغُ مِن النَّهيِ عن مُجَرَّدِ فِعلِه؛ لأنَّ ذلك يَشمَلُ النَّهيَ عن جَميعِ مُقَدِّماتِه ودواعيه؛ فإنَّ مَن حامَ حولَ الحِمى يُوشِكُ أن يقَعَ فيه، خصوصًا هذا الأمرَ الذي في كثيرٍ من النُّفوسِ أقوى داعٍ إليه[٣]. فالنَّهيُ عن قِربانِ الزِّنا نَهيٌ عن جَميعِ الأسبابِ المُوصلةِ إليه، كاللَّمْسِ والنَّظَرِ، فلا يَحِلُّ للمُؤمِنِ أنْ يتمَتَّعَ تمتُّعًا نَفسيًّا أو جِنسيًّا، يعني: سواءٌ كان تَمَتُّعُه بالنَّظَرِ ونَحوِه مُجَرَّدَ راحةٍ نفسيَّةٍ، أو لأجلِ التمَتُّعِ الجنسيِّ والشَّهوةِ، فكلُّ ذلك حَرامٌ، ولا يجوزُ في غيرِ الزَّوجةِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ التَّعبيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠١).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).
(٤) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٧/ ٥٢٥).

عن الزِّنا بالسَّبيلِ يدُلُّ على كَثرةِ مُتعاطيه بالدَّلالةِ على سَعةِ مَنهَجِه، فالسبيلُ هي الطريقُ الواسعةُ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ ردٌّ على الخوارجِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الذُّنوبَ كُلَّها كفرٌ؛ فالله سُبحانَه وتعالى حين أمَرَ بالقَتلِ في انتهاكِ مَحارِمِه جعَلَه حَدًّا لا كُفرًا، فحَرَّمَ القَتلَ بقَولِه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ فجعَلَ السُّلطانَ للوَليِّ لا لِنَفسِه -جلَّ جلالُه- ولو كان كَفَرَ بالقَتلِ؛ لأمَرَ بالقَتلِ، وإنْ لم يُرِدِ الوليُّ قَتْلَه[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يَتجاوَزُ الحَدَّ المَشروعَ له: فلا يَقتُلْ غيرَ قاتِلِه، ولا يُمَثِّل به حيثُ لمْ يُمَثِّلْ، ولا يَقتُلْه بأسوأَ مِمَّا قَتَل، حتى لو قَتَل بالتَّغريقِ في ماءٍ عَذبٍ لم يُغرِقْه في ماءٍ ملحٍ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الحَقَّ في القَتلِ للوَليِّ، فلا يُقتَصُّ إلَّا بإذنِه، وإنْ عفا سقَطَ القِصاصُ[4].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ وَلِيَّ المَقتولِ يُعينُه اللهُ على القاتِلِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٠) و(٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

ومَن أعانَه، حتَّى يتمكَّنَ مِن قَتلِه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ مِن نُكَتِ القرآنِ وبلاغتِه وإعجازِه الخَفيِّ الإتيانُ بلَفظِ (سلطان) هنا، والظَّاهِرُ أنه في معنى المصدَرِ، أي: السُّلطةُ والحَقُّ والصَّالحُ لإرادةِ إقامةِ السُّلطانِ، وهو الإمامُ الذي يأخُذُ الحقوقَ مِن المُعتَدين إلى المعتدى عليهم حين تنتَظِمُ جامعةُ المسلمين بعد الهِجرةِ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ الله سيجعَلُ للمُسلِمين دولةً دائِمةً، ولم يكن للمُسلِمين يومَ نُزولِ الآيةِ سُلطانٌ[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ إشارةٌ إلى إبطالِ تولِّي وليِّ المقتولِ قَتلَ القاتِلِ دونَ حُكمٍ مِن السلطانِ؛ لأنَّ ذلك مَظِنَّةٌ للخطأِ في تحقيقِ القاتِلِ، وذريعةٌ لحدوثِ قَتلٍ آخَرَ بالتدافُعِ بين أولياءِ المقتولِ وأهلِ القاتِلِ، ويجرُّ إلى الإسرافِ في القَتلِ الذي ما حدَثَ في زمانِ الجاهليَّةِ إلَّا بمِثلِ هذه الذَّريعةِ[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ قَولُه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ أي: فَضْلًا عن أنْ تأكُلوا مالَ اليَتيمِ، فعبَّرَ بالقِربانِ الذي هو قبلَ الأخذِ؛ تَعظيمًا للمقامِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ دَليلٌ على جوازِ تَصَرُّفِ الوليِّ في مالِ اليَتيمِ بما عادَ صلاحُه على اليَتيمِ[٥].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ هذا حِمايةٌ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٣٦).

لأموالِ اليتامى وألَّا تُقْرَبَ إلَّا بالخَصلةِ التي هي أحسَنُ؛ فلا تُقْرَبُ بأيِّ تَصَرُّفٍ إلَّا بما يُرى أنَّه أحسَنُ، فإذا لاحَ للوليِّ تصَرُّفانِ أحدُهما أكثَرُ رِبحًا، فالواجِبُ عليه أنْ يَأخُذَ بما هو أكثَرُ رِبحًا؛ لأنَّه أحسَنُ، والحُسنُ هنا يَشمَلُ: الحُسنَ الدُّنيويَّ، والحُسنَ الدِّينيَّ؛ فإذا لاح تصَرُّفانِ أحدُهما أكثَرُ رِبحًا وفيه رِبًا، والآخرُ أقَلُّ رِبحًا وهو أسلَمُ مِن الرِّبَا؛ فلا بُدَّ مِن تقديمِ الأخيرِ؛ لأنَّ الحُسْنَ الشَّرعيَّ مُقَدَّمٌ على الحُسْنِ الدُّنيويِّ المادِّيِّ(١).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ مُقتَضاه أنَّ كُلَّ عَقدٍ وعَهدٍ جرَى بينَ إنسانَينِ؛ فإنَّه يجِبُ عليهما الوَفاءُ بمقتضى ذلك العَقدِ والعَهدِ، إلَّا إذا دلَّ دَليلٌ مُنفَصِلٌ على أنَّه لا يجِبُ الوفاءُ به، فمُقتَضاه الحُكمُ بصِحَّةِ كُلِّ بَيعٍ وقعَ التَّراضي به، وبصِحَّةِ كلِّ شَرِكةٍ وقع التَّراضي بها، إلَّا إذا دلَّ الدليلُ على خلافِ ذلك، ويُؤكِّدُ هذا النَّصُّ بسائِرِ الآياتِ الدالَّةِ على الوَفاءِ بالعُهودِ والعُقودِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، وقولِه: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقولِه: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، إلى غيرِ ذلك، وبهذا الطريقِ تصيرُ أبوابُ المعاملاتِ على طولِها وإطنابِها مضبوطةً معلومةً بهذه الآيةِ الواحدةِ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٧).

- عُطفَ هذا النَّهيُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ على النَّهيِ عن وأدِ البناتِ؛ إيماءً إلى أنَّهم كانوا يَعُدُّونَ مِن أعذارِهم في وأدِ البناتِ الخَشيةَ مِن العارِ الذي قد يلحَقُ مِن جرَّاءِ إهمالِ البناتِ الناشئِ عن الفَقرِ الرَّامي بهنَّ في مَهاوي العُهرِ، ولأنَّ في الزِّنا إضاعةَ نَسَبِ النَّسلِ، بحيثُ لا يُعرَفُ للنَّسلِ مَرجِعٌ يأوي إليه، وهو يشبِهُ الوأدَ في الإضاعةِ[(١)].

- وقيل: تَوسيطُ النَّهيِ عن الزنا بينَ النَّهيِ عن قتْلِ الأولادِ، والنَّهيِ عن قتْلِ النَّفسِ المُحرَّمةِ على الإطلاقِ باعتبارِ أنَّه قتْلٌ للأولادِ؛ لِما أنَّه تَضييعٌ للأنسابِ؛ فإنَّ مَن لم يثبُتْ نسَبُه ميِّتٌ حُكمًا، وهذا من التَّرتيبِ الحسَنِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ القُربُ المَنهيُّ عنه كِنايةٌ عن شِدَّةِ النَّهيِ عن مُلابَسةِ الزِّنا، وقريبٌ من هذا المعنى قولُهم: ما كاد يفعَلُ[(٣)]، وإنَّما نهَى عن قِربانِه على خلافِ ما سبَقَ ولحِقَ من القتْلِ؛ للمُبالغةِ في النَّهيِ عن نفْسِه، ولأنَّ قِربانَه داعٍ إلى مُباشرتِه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن مُلابَستِه تَعليلًا مُبالَغًا فيه من جِهاتٍ؛ بوَصْفِه بالفاحشةِ الدَّالِّ على فِعلةٍ بالغةٍ الحدَّ الأقصَى في القُبحِ، وبتَأكيدِ ذلك بحرفِ التَّوكيدِ، وأُتْبِعَ ذلك بفعْلِ الذَّمِّ، وهو ﴿سَآءَ سَبِيلًا﴾[(٥)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٨٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٠).

جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ عطْفَ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ؛ اهتمامًا بهذا الحُكمِ بحيث جُعِلَ مُستقِلًّا؛ فعُطِفَ على حُكمٍ آخرَ، وإلَّا فمُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ تكونَ مفصولةً؛ إمَّا استئنافًا لبيانِ حُكمِ حالةٍ تكثُرُ، وإمَّا بدلَ بَعضٍ من جُملةِ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[(١)].

- قولُه: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ هو في المعنى مُقدِّمةٌ للخبَرِ بتَعجيلِ ما يُطَمْئِنُ نفْسَ وَليِّ المقتولِ، والمقصودُ من الخبرِ التَّفريعُ بقولِه تَعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾؛ فكان تَقديمُ قولِه تَعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تَمهيدًا لقَبولِ النَّهيِ عن السَّرَفِ في القتْلِ؛ لأنَّه إذا كان قد جُعِلَ له سُلطانٌ، فقد صار الحُكْمُ بيدِه، وكفَاهُ ذلك شِفاءً لغَليلِه[(٢)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ استئنافٌ، وقد أُكِّدَ ذلك بحرفِ التَّوكيدِ، وبإقحامِ (كان) الدَّالِّ على أنَّ الخبرَ مُستقِرُّ الثُّبوتِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، ووجْهُ التَّعليلِ ظاهِرٌ[(٤)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نَهيٌ عن قِربانِه؛ للمُبالَغةِ في النَّهيِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥ / ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥ / ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخَصَّ اليتيمَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه إلى ذلك أحوَجُ، والطَّمعَ في مالِه أكثَرُ[(١)].

- قولُه: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولٗا﴾ فيه إظهارُ العهدِ في مقامِ الإضمارِ؛ إظهارًا لكَمالِ العِنايةِ بشأْنِه، أو لأنَّ المُرادَ مُطلَقُ العهدِ المُنتظِمِ للعهدِ المعهودِ[(٢)]، وللاهتمامِ به، ولتكونَ هذه الجُملةُ مُستقلَّةً، فتَسْرى مَسْرى المثَلِ[(٣)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولٗا﴾ تَعليلٌ للأمرِ، أي: للإيجابِ الَّذي اقتضاهُ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مَسْـُٔولٗا﴾ لظُهورِه، أي: مَسؤولًا عنه، أي: يسأَلُكم اللهُ عنه يومَ القيامةِ[(٤)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾، أي: وقتَ كَيْلِكم على سبيلِ التَّأكيدِ[(٥)].

- قولُه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث زِيدَ الظَّرفُ في هذه الآيةِ -وهو ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾- دونَ ذكْرِ نَظيرِه في آيةِ (الأنعامِ) في قولِه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ لِما في (إذا) مِن مَعنى الشَّرطيَّةِ، فتَقْتضي تجدُّدَ ما تضمَّنَه الأمْرُ في جميعِ أزمنةِ حُصولِ مَضمونِ شَرطِ (إذا) الظَّرفيَّةِ الشَّرطيَّةِ؛ للتَّنبيهِ على عدَمِ التَّسامُحِ في شَيءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٧).

من نقْصِ الكيلِ عند كلِّ مُباشَرةٍ له؛ ذلك أنَّ هذا خِطابٌ للمُسلمينَ بخلافِ آيةِ (الأنعامِ)؛ فإنَّ مَضمونَها تَعريضٌ بالمُشركينَ في سُوءِ شَرائعِهم، وكانت هنا أجدَرَ بالمُبالَغةِ في التَّشريعِ(١).

- قولُه: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ القِسطاسُ: المعتدلُ مِن الموازينِ، وهو بناءُ مُبالغةٍ مِن القِسْطِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ القِسطاسَ اسمٌ للميزانِ -أي: آلةِ الوزنِ- واسمٌ للعدْلِ، ومعنى العدْلِ والميزانِ صالحانِ هنا، لكنَّ الَّتي في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿وَأَوۡفُوا۟ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، جاء فيها بالقِسْطِ؛ فهو العدْلُ؛ لأنَّها سِيقَتْ مساقَ التَّذكيرِ للمُشركينَ بما همْ عليه من المفاسِدِ؛ فناسَبَ أنْ يُذكَّروا بالعدْلِ؛ ليَعْلموا أنَّ ما يَفْعلونه ظُلمٌ. والباءُ هنالِك للمُلابَسةِ، وهذه الآيةُ جاءت خِطابًا للمُسلمينَ؛ فكانت أجدَرَ باللَّفظِ الصَّالحِ لمعنى آلةِ الوزنِ؛ لأنَّ شأْنَ التَّشريعِ بيانُ تَحديدِ العمَلِ مع كونِه يُومئُ إلى معنى العدْلِ على استعمالِ المُشترَكِ في مَعنيَيه؛ فالباءُ هنا ظاهِرةٌ في معنى الاستعانةِ والآلةِ، ومُفيدةٌ للمُلابَسةِ أيضًا(٣).

- وقولُه أيضًا: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ لعلَّ الاكتفاءَ باستقامةِ القِسطاسِ عن الأمْرِ بإيفاءِ الوزنِ؛ لِما أنَّ عند استقامتِه لا يُتَصوَّرُ الجَوْرُ غالبًا، بخلافِ الكيلِ؛ فإنَّه كثيرًا ما يقَعُ التَّطفيفُ مع استقامةِ الآلةِ، كما أنَّ الاكتفاءَ بإيفاءِ الكيلِ عن الأمْرِ بتعديلِه؛ لِما أنَّ إيفاءَه لا يُتصوَّرُ بدونِ تَعديلِ المكيالِ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥ / ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥ / ١٧١).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَقْفُ﴾: أي: تَتَبَعْ، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿مَرَحًا﴾: أي: مُختالًا مُستَكبِرًا، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا[٢].

﴿تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: أي: تَنقُبَها، وتثقبَها إلى الجانبِ الآخرِ. وقيل: تَقْطَعَها وتَبلُغَ أطرافَها، وأصلُ (خرق): يدُلُّ على مَزْقِ الشَّيءِ وقَطعِه[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولا تَتبَعْ ما لا علمَ لك به بمجَرَّدِ الظَّنِّ، بل تأكَّدْ وتثبَّتْ؛ إنَّ السَّمْعَ والبصَرَ والفُؤادَ مسؤولٌ عنها الإنسانُ يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٢)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٨).

ثم ينهَى الله عن التفاخرِ والتكبرِ والإعجابِ بالنفسِ، فيقولُ: ولا تمشِ في الأرضِ مُختالًا مُتكبِّرًا؛ فإنَّك لن تُؤَثِّرَ في الأرضِ فتَخرِقَها بشِدَّةِ وطءِ قدَميك عليها، ولن تَبلُغَ الجِبالَ طُولًا باختيالِك وتكَبُّرِك.

ثمَّ ختَم الله تعالى تلك النَّواهي بقولِه: جميعُ ما تقدَّم ذِكْرُه مِن أوامِرَ ونواهٍ كان سيِّئُه مُبغَضًا عند الله، لا يَرضاه لعِبادِه، ذلك الذي تضمَّنَته الآياتُ السَّابقةُ مِن الأحكامِ؛ مِمَّا أوحاه الله إليك -يا مُحَمَّدُ- مِنَ الحِكمةِ، ولا تجعَلْ مع اللهِ تعالى شَريكًا له في عبادتِه، فتُرمى في نارِ جهنَّمَ مَلُومًا مَطرودًا مُبعَدًا مِن كُلِّ خَيرٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾.

أي: ولا تَقُلْ أو تفعَلْ شيئًا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، فتَتْبَعْ ما لا عِلمَ لك به، ولا دليلَ على صِحَّته، ومِن ذلك: رَميُ النَّاسِ وقَذفُهم بالباطِلِ، والشَّهادةُ عليهم بغَيرِ الحَقِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٠، ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤٥).

قال أبو السعود: (المرادُ بالعِلمِ هو الاعتِقادُ الرَّاجِحُ المُستفادُ مِن سَنَدٍ قطعيًّا كان أو ظَنِّيًّا). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧١).

وقال النحاس: (دخل في هذا النَّهيُ عن قَذفِ المُحصَناتِ، وعن القَولِ في النَّاسِ بما لا يعلَمُ، وعن الكَلامِ في الفِقهِ والدِّينِ بالظَّنِّ، وألَّا يقولَ أحَدٌ ما لا يَحُقُّه). ((إعراب القرآن)) (٢/ ٢٧٢).

قال الشنقيطي: (نهى جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمةِ عن اتِّباعِ الإنسانِ ما ليس له به علمٌ، ويشمَلُ ذلك قولَه: «رأيتُ» ولم يَرَ. و«سمعتُ» ولم يسمَعْ. و«علمتُ» ولم يعلَمْ. ويدخل فيه كلُّ قولٍ بلا علم، وأن يعمَلَ الإنسانُ بما لا يعلمُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٤٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أي: إنَّ سَمْعَ الإنسانِ وبَصَرَه وقَلْبَه، كُلُّ هذه الأعضاءِ العَظيمةِ، العاليةِ المنافِعِ، البَديعةِ التَّكوينِ، سيَسأَلُ اللهُ الإنسانَ عنها يومَ القيامةِ فيما استعمَلَها، وتُسأَلُ هي عمَّا عَمِلَ فيها صاحِبُها، فتَشهَدُ عليه بما قال وفَعَل مِن خَيرٍ وشَرٍّ[(١)].

قال الرازي عن تأويل هذه الآية: (فيه وجوهٌ:

الوجه الأول: المرادُ: نهيُ المشركين عن المذاهبِ التي كانوا يعتقدونَها في الإلهيَّاتِ والنبوَّاتِ بسَبَبِ تقليدِ أسلافِهم.

والقول الثاني: أنَّ المرادَ منه: شهادةُ الزور.

والقول الثالث: المرادُ منه: النهيُ عن القذفِ ورميِ المحصَنين والمحصَنات بالأكاذيبِ.

والقول الرابع: المرادُ منه: النهيُ عن الكَذِب.

والقول الخامس: أنَّ القَفْوَ هو البَهتُ، وأصلُه من القَفا، كأنَّه قولٌ يقالُ خَلفَه، وهو في معنى الغِيبةِ، وهو ذِكرُ الرجُلِ في غيبتِه بما يَسوؤُه.

واعلم أنَّ اللفظَ عامٌّ يتناولُ الكُلَّ فلا معنى للتقييدِ، والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٣٩) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي

كما قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعن شكَلِ بن حُمَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني دُعاءً، قال: قل: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن شَرِّ سَمعي، ومِن شَرِّ بَصَري، ومِن شَرِّ لِساني، ومِن شَرِّ قَلبي، ومِن شَرِّ مَنِيِّي))[1].

(١١/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: أنَّ الله سائلٌ هذه الأعضاءَ عما فعَل بها صاحبُها.. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزجاج، وابنُ العربي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٣٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عكرمةُ، وعمرُو بنُ قيسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ بذلك: أنَّ الله يسألُ العبادَ فيم استعملوا هذه الحواسَّ. وممن قال بذلك: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، والسعدي، والشنقيطي، ونسَبه للجمهورِ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٤)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٥).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٤).

قال الشنقيطي: (المعنى: انتهِ عمَّا لا يحِلُّ لك؛ لأنَّ الله أنعم عليك بالسَّمعِ والبصَرِ والعَقلِ لتشكُرَه، وهو مختَبِرُك بذلك وسائِلُك عنه، فلا تستعمِلْ نِعَمَه في معصية). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٥).

وممَّن جمع بين المعنيين: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥١) واللفظ له، والترمذي (٣٤٩٢)، والنسائي (٥٤٤٤)، وأحمد (١٥٥٤١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

أي: ولا تَمْشِ في الأرضِ مُختالًا مُتبَختِرًا مُتمايلًا مُتكبِّرًا، كمِشيةِ الجبَّارينَ[1].

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

أي: إنَّك -أيُّها المُتكَبِّرُ المُتعاظِمُ في مَشْيِه- لن تَثقُبَ الأرضَ بشِدَّة وطْءِ قَدَميك عند اختيالِك في مَشْيِك، ولن يَبلُغَ طُولُك -بتطاوُلِ بَدَنِك للأعلى في مِشيَتِك- طُولَ الجِبالِ؛ فما الذي يُغريك بهذه المِشيةِ، وقُدرتُك لا تَبلُغُ بك هذا المَبلغَ؟! فتواضَعْ ولا تتكَبَّرْ، واعرِفْ قَدْرَ ضَعْفِك وعَجْزِك؛ فأنت مَحصورٌ بين جمادَينِ لا

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وحَسَّنه ابنُ حَجَرٍ في ((الإمتاع)) (١/ ١٨٧)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٧).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نهيٌ عن الخيلاء وأمرٌ بالتواضُعِ. والمرَحُ: شدَّةُ الفرحِ. وقيل: التكبُّرُ في المشي. وقيل: تجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه. وقال قتادة: هو الخُيلاءُ في المشيِ. وقيل: هو البطَرُ والأشَرُ. وقيل: هو النشاطُ. وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنها منقسمةٌ قسمين: أحدُهما مذمومٌ، والآخر محمود، فالتكبُّرُ والبطَرُ والخيلاء وتجاوزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرَحُ والنشاط محمود). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٠).

وقال ابن عاشور: (تأويلُه [أي: لفظ ﴿مَرَحًا﴾] باسمِ الفاعل، أي: لا تمشِ مارِحًا، أي: مِشيةَ المارح، وهي المشيةُ الدالَّةُ على كبرياء الماشي بتمايُلٍ وتبختُرٍ. ويجوز أن يكون ﴿مَرَحًا﴾ مفعولًا مُطلقًا مبيِّنًا لفعل ﴿تَمْشِ﴾؛ لأنَّ للمشيِ أنواعًا، منها: ما يدلُّ على أنَّ صاحِبَه ذو مرح... والمشي مرحًا: أن يكون في المشيِ شِدَّةُ وطءٍ على الأرضِ وتطاولٌ في بدَنِ الماشي). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٣).

وقال الشنقيطي: (أصلُ المرحِ في اللغة: شِدَّةُ الفرَحِ والنشاط، وإطلاقُه على مشيِ الإنسان متبخترًا مشْيَ المتكَبِّرين؛ لأنَّ ذلك من لوازمِ شِدَّةِ الفرح والنشاط عادةً). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٦).

تَقدِرُ على التَّأثيرِ فيهما؛ الأرضِ التي تحتَك، والجِبالِ الشَّامِخةِ مِن فَوقِك[١]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بينما رجُلٌ يَتبختَرُ[٢]، يَمشي في بُرْدَيه[٣]، قد أعجَبَتْه نَفسُه، فخَسَفَ اللهُ به الأرضَ، فهو يتجلجَلُ[٤] فيها إلى يومِ القيامةِ))[٥].

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى جميعِ ما سَبَق ذِكرُه مِن المأموراتِ والمَنهيَّاتِ التي تقَدَّمَ ذِكرُها في الآياتِ السَّابقةِ، والسَّيئُ منه: هو المنهيَّاتُ فقط[٦].

٢- قِراءةُ ﴿سَيِّئَةً﴾ على أنَّ المرادَ جَميعُ ما نهى اللهُ عنه مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكرُه في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٣، ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يَتبختَرُ: أي: يَمشي خُيَلاءَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٨).

(٣) بُرْدَيه: واحِدُه بُرْدٌ: وهو كِساءٌ مُخَطَّطٌ أو مُوشًّى يُلتحَفُ به. يُنظر: ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ١٨٥).

(٤) يتجلجَلُ: أي: يغوصُ ويَذهَبُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٨).

(٥) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨) واللفظ له.

(٦) قرأ بها الكوفيون وابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٠٣)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٤٧).

الآياتِ السَّابِقةِ[١].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾.

أي: جميعُ ما ذُكِرَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، كان سَيِّئُه -وهو ما نهى اللهُ عنه- قَبيحًا مُبغَضًا عندَ رَبِّك الذي أحسَنَ إليك إحسانًا لا ينبغي أن يُقابَل عليه إلَّا بالشُّكرِ -يا مُحَمَّدُ[٢].

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ في هذا التَّذييلِ تَنبيهًا على أنَّ ما اشتَمَلَت عليه الآياتُ السَّابِقةُ، هو مِن الحِكمةِ؛ تحريضًا على اتِّباعِ ما فيها، وأنَّه خَيرٌ كَثيرٌ[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا تَمَّت هذه الأوامِرُ والزَّواجِرُ على هذا الوجهِ الأحكَمِ، والنِّظامِ الأقوَمِ؛ أشار إلى عَظيمِ شأنِه، ومُحكَمِ إتقانِه، بقَولِه تعالى[٤]:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

أي: هذه الأحكامُ والأوامِرُ والنَّواهي التي تَضَمَّنَتْها الآياتُ السَّابقةُ، مِمَّا

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٠٣)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٧).

أوحَى إليك ربُّك -يا مُحَمَّدُ- مِنَ الحِكمةِ[1]؛ لِتَعمَلَ بها، وتدعُوَ النَّاسَ إليها[2].

كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) قال ابن عطية: (الإشارةُ بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الآدابِ التي تضمَّنَتْها هذه الآياتُ المتقدِّمةُ، أي: هذه من الأفعالِ المحكَمةِ التي تقتضيها حِكمةُ الله في عبادِه، وخَلْقِه لهم محاسِنَ الأخلاق. و﴿الْحِكْمَةِ﴾ قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨).
وقال الزمخشري: (وسَمَّاه حِكمةً؛ لأنَّه كَلامٌ مُحكَمٌ لا مَدخَلَ فيه للفَسادِ بوَجهٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٢).
وقال ابنُ الجوزيِّ: (قَولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يُشيرُ إلى ما تقَدَّمَ مِن الفرائِضِ والسُّنَنِ. ﴿مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، أي: مِن الأُمورِ المُحْكَمةِ والأدَبِ الجامِعِ لِكُلِّ خيرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥).
وقال الرازي: (قولُه: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كلِّ ما تقدَّمَ ذِكرُه من التكاليفِ، وسمَّاها حِكمةً، وإنما سمَّاها بهذا الاسم لوجوهٍ: أحدُها: أنَّ حاصِلَها يرجِعُ إلى الأمر بالتوحيد وأنواعِ الطاعاتِ والخيراتِ، والإعراضِ عن الدنيا والإقبالِ على الآخرة، والعقولُ تدُلُّ على صحَّتِها، فالآتي بمثلِ هذه الشريعةِ لا يكونُ داعيًا إلى دينِ الشيطان، بل الفطرةُ الأصلية تشهَدُ بأنَّه يكون داعيًا إلى دين الرحمنِ ...
وثانيها: أنَّ الأحكامَ المذكورةَ في هذه الآياتِ شرائِعُ واجِبةُ الرعايةِ في جميع الأديانِ والمِلَلِ، ولا تقبَلُ النَّسخَ والإبطالَ، فكانت محكَمةً وحِكمةً من هذا الاعتبارِ.
وثالثها: أنَّ الحِكمةَ عِبارةٌ عن معرفةِ الحَقِّ لذاتِه، والخيرِ لأجلِ العمَلِ به، فالأمرُ بالتوحيدِ عِبارةٌ عن القِسمِ الأوَّلِ، وسائرُ التكاليف عبارةٌ عن تعليم الخيراتِ حتى يواظِبَ الإنسانُ عليها ولا ينحَرِفَ عنها؛ فثبت أنَّ هذه الأشياءَ المذكورة في هذه الآياتِ عينُ الحكمة). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤).
وقال ابن عاشور: (والحِكمةُ: معرفةُ الحقائقِ على ما هي عليه دون غلطٍ ولا اشتباهٍ، وتطلَقُ على الكلامِ الدالِّ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٥).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ))[1].

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

أي: ولا تجعَلْ مع اللهِ مَعبودًا غيرَه، فتُرمَى في جهنَّمَ مَلومًا؛ تلومُك نَفسُك، ويَلومُك الخَلقُ، مُبعَدًا مَطرودًا مِن رَحمتِه سُبحانَه[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فيه أدَبٌ خُلُقيٌّ عَظيمٌ، وهو أيضًا إصلاحٌ عَقليٌّ جَليلٌ يُعَلِّمُ الأمَّةَ التَّفرِقةَ بين مراتِبِ الخواطِرِ العَقليَّةِ، بحيث لا يختَلِطُ عِندَها المَعلومُ والمَظنونُ والمَوهومُ، ثمَّ هو أيضًا إصلاحٌ اجتماعيٌّ جَليلٌ يُجَنِّبُ الأُمَّةَ مِن الوُقوعِ والإيقاعِ في الأضرارِ والمهالِكِ؛ مِن جَرَّاءِ الاستِنادِ إلى أدِلَّةٍ مَوهومةٍ[3].

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٧٣)، والحاكم (٤٢٢١).
صحَّحه ابنُ عبد البَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ١٩١): (رجالُه رِجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٥٢)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).
قال ابنُ عطية: (الخطاب للنبي عليه السلام، والمرادُ كلُّ مَن سمِع الآيةَ مِن البشرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٨).
وقال ابنُ كثير: (والمرادُ مِن هذا الخِطابِ الأُمَّةُ بواسِطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه -صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه- مَعصومٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ فيه زَجرٌ عن النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، والاستِماعِ إلى ما يَحرُمُ، وإرادةِ ما لا يَجوزُ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ حُجَّةٌ في تَرْكِ قَبُولِ الطَّعْنِ في المُسلمينَ بِغَيرِ ثَبَتٍ، ولا ثَبَتَ إلَّا بيقينِ المُعايَنةِ، أو السَّمعِ مِن المَطعونِ عليه لا مِنَ الطَّاعِنِ، أو قيامِ بيِّنَةٍ عادِلةٍ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ نهيٌ عن التكَلُّمِ بلا عِلْمٍ، وهو عامٌّ في جميعِ أنواعِ الأخبارِ، وقد يتناوَلُ ما أخبَرَ به الإنسانُ، وما قد يعتَقِدُه بغَيرِ الأخبارِ مِن الدَّلائِلِ والآياتِ والعلاماتِ؛ فليس له أنْ يتكَلَّمَ بلا عِلْمٍ، فلا ينفي شيئًا إلَّا بعِلْمٍ، ولا يُثْبِتُه إلَّا بعِلْمٍ(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ المرادُ مِن الآيةِ النَّهيُ عن أن يمشيَ الإنسانُ مَشيًا يدُلُّ على الكِبرياءِ والعَظَمةِ(٤).

٦- بدأ اللهُ تعالى هذه التَّكاليفَ المذكورةَ في هذه الآياتِ بالأمرِ بالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، فقال: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختَمَها بعَينِ هذا المعنى؛ حيث قال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ والمقصودُ مِن ذلك

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤١).

التَّنبيهُ على أنَّ أوَّلَ كُلِّ عَمَلٍ وقَولٍ، وفِكرٍ وذِكرٍ، يجِبُ أن يكونَ ذِكْرَ التَّوحيدِ، وآخِرَه يجِبُ أن يكونَ ذِكْرَ التوحيدِ؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ مِن جَميعِ التَّكاليفِ هو مَعرِفةُ التَّوحيدِ، والاستغراقُ فيه، فهذا التَّكريرُ حَسَنٌ مَوقِعُه؛ لهذه الفائِدةِ العَظيمةِ[١]. فالتوحيدُ هو رأسُ كلِّ حكمةٍ وملاكُها، ومَن عدِمه لم تنفَعْه حِكَمُه وعلومُه[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِ﴾ الحِكمةُ هي الأمرُ بمحاسِنِ الأعمالِ ومكارمِ الأخلاقِ، والنَّهيُ عن أراذِلِ الأخلاقِ وأسْوَأ الأعمالِ، وهذه الأعمالُ المذكورةُ في هذه الآياتِ مِن الحِكمةِ العاليةِ التي أوحاها ربُّ العالَمينَ لسَيِّدِ المرسَلينَ في أشرَفِ الكتُبِ؛ ليأمُرَ بها أفضَلَ الأُمَمِ، فهي من الحِكمةِ التي مَن أوتيَها فقد أوتِيَ خيرًا كثيرًا[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ حُجَّةٌ في تَحريمِ الحُكْمِ والفَتوى بغَيرِ عِلْمٍ[٤].

٢- اللهُ سُبحانَه قد ذَمَّ في كتابِه الكلامَ الباطِلَ، والكلامَ بغَيرِ عِلمٍ، والأوَّلُ كَثيرٌ، وأمَّا الثَّاني فقد قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٤٤).

﴿تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وهذانِ النَّوعانِ مَذمومانِ في القَضاءِ والفُتيا والتَّفسيرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ حُجَّةٌ في التَّحَفُّظِ في الشَّهادةِ على الحُقوقِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَسألُ عن الإضماراتِ والطَّواياتِ المذمومةِ، وإنْ لم تساعِدْها الجوارِحُ بالحَركاتِ؛ لأنَّ الأفئدةَ مَحَلُّ الضَّمائرِ والنيَّاتِ، وبها تَصِحُّ جَميعُ أعمالِ الجوارِحِ والحَركاتِ، وليس في قَولِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم إخباراً عن ربِّه تبارك وتعالى: ((أنَّه يقولُ لملائكتِه: إذا هَمَّ عَبدِي بسيِّئةٍ فلا تكتُبوها حتى يعمَلَها))[٣] ما يدفَعُ ذلك؛ لأنَّ ذلك هو في الاهتمامِ بسَيِّئةٍ لا تُعمَلُ إلَّا بالجوارِحِ، مثلُ: القَتلِ والزِّنا وأشباهِه مِمَّا لا يُستطاعُ فِعلُها إلَّا بالجوارِحِ، فتجاوَزَ اللهُ رِفقًا بعبادِه ورَحمةً لهم عن الاهتِمامِ بها دونَ الفِعلِ؛ إذ الاهتِمامُ يُضاهي الخاطِرَ والشَّهوةَ، وهما غيرُ مملوكَينِ، فأمَّا ما كان سُلطانُه فيه للقَلبِ مِن الطويَّةِ على الكُفرِ، وحِفظِ المُنكَرِ وأباطيلِ السِّحرِ وأشباهِه، فالإضمارُ عليه والقَبولُ له عَمَلٌ يكتُبُه الحافِظُ، ويَسألُ عنه الربُّ جَلَّ وتعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٠).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ استِدلالُ بَعضِ الظَّاهِريَّةِ كابنِ حَزمٍ ومَن تَبِعَه بهذه الآيةِ وأمثالِها مِن الآياتِ على مَنعِ الاجتِهادِ في الشَّرعِ مُطلَقًا، وتَضليلِ القائِلِ به، ومَنْعِ التَّقليدِ مِن أصلِه- هو مِن وَضعِ القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعِه، وتفسيرِه بغيرِ مَعناه، كما هو كثيرٌ في الظَّاهريَّةِ؛ لأنَّ مَشروعيَّةَ سُؤالِ الجاهِلِ للعالِمِ وعَمَلَه بفُتياه أمرٌ مَعلومٌ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ، ومعلومٌ أنَّه كان العامِّيُّ يَسألُ بَعضَ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيُفتِيه فيَعمَلُ بفُتياه، ولم يُنكِرْ ذلك أحَدٌ مِن المُسلِمينَ، كما أنَّه مِن المعلومِ أنَّ المسألةَ إنْ لم يُوجَدْ فيها نَصٌّ مِن كِتابِ اللهِ أو سُنَّةِ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاجتِهادُ العالِمِ حِينئذٍ بقَدْرِ طاقَتِه في تَفَهُّمِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعرِفَ حُكمَ المَسكوتِ عنه مِن المَنطوقِ به- لا وَجْهَ لِمَنعِه، وكان جاريًا بين أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُنكِرْه أحَدٌ مِن المُسلِمينَ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ العُلومَ مُستَفادةٌ مِن الحواسِّ ومِنَ العُقولِ، وجاء هذا على التَّرتيبِ القُرآنيِّ في البُداءةِ: بالسَّمعِ، ثمَّ يليه البَصَرُ، ثمَّ يليه الفُؤادُ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ لَمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثةُ هي أشرَفَ الأعضاءِ ومُلوكَها، والمُتصَرِّفةَ فيها، والحاكِمةَ عليها؛ خَصَّها سُبحانَه وتعالى بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها. قال ابنُ عبَّاسٍ: (يَسألُ اللهُ العِبادَ فيما

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٤٦-١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨).

استعمَلوا هذه الثَّلاثةَ: السَّمعَ، والبَصَرَ، والفُؤادَ)، واللهُ تعالى أعطَى العبدَ السَّمعَ لِيَسمَعَ به أوامِرَ ربِّه ونواهيَه وعُهودَه، والقَلبَ لِيَعقِلَها ويَفقَهَها، والبَصَرَ لِيَرى آياتِه فيَستَدِلَّ بها على وحدانيَّتِه ورُبوبيَّتِه؛ فالمقصودُ بإعطائِه هذه الآلاتِ العِلمُ وثَمَرتُه ومُقتَضاه[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا﴾ في الآيةِ هنا إثباتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَكرَهُ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾

- صِيغَتْ جُملةُ: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ على هذا النَّظمِ بتَقديمِ ﴿كُلُّ﴾ الدَّالَّةِ على الإحاطةِ من أوَّلِ الأمْرِ، وأُتِيَ باسمِ الإشارةِ دونَ الضَّميرِ، بأنْ يُقالَ: كلُّها كان عنه مَسؤولًا؛ لِما في الإشارةِ من زيادةِ التَّمييزِ. وجاءَ بفعْلِ (كان)؛ لدَلالتِه على رُسوخِ الخبَرِ[٣].

- قولُه: ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ عُبِّرَ عن السَّمعِ والبصرِ والفُؤادِ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّها حواسُّ لها إدراكٌ، وجعَلَها في هذه الآيةِ مَسؤولةً، فهي حالةُ مَن يعقِلُ، ولذلك عُبِّرَ عنها بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٤]؛ فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعودُ إلى السَّمعِ والبصرِ والفُؤادِ، وهو من استعمالِ اسمِ الإشارةِ الغالبِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨).

استعمالُه للعاقِلِ في غيرِ العاقِلِ، تَنزيلًا لتلك الحواسِّ مَنزلةَ العُقلاءِ؛ لأنَّها جَديرةٌ بذلك؛ إذ هي طريقُ العقلِ، والعقْلُ نفْسُه، على أنَّ استعمالَ (أولئك) لغيرِ العُقلاءِ استعمالٌ مَشهورٌ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ فيه التَّقييدُ بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بأنَّ المشيَ عليها ممَّا لا يَليقُ بالمَرحِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، أي: بتطاوُلِك، وهو تهكُّمٌ بالمُختالِ، وتَعليلٌ للنَّهيِ بأنَّ الاختيالَ حَماقةٌ مُجرَّدةٌ، لا تعودُ بجَدْوى[(٣)].

- قولُه: ﴿طُولًا﴾ فيه تَعريضٌ بما عليه المُختالُ من رفْعِ رأْسِه، ومشْيِه على صُدورِ قدمَيْه[(٤)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

- قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مَكْرُوهًا﴾، وتَقديمُ هذا الظَّرفِ على مُتعلَّقِه للاهتمامِ بالظَّرفِ؛ إذ هو مُضافٌ لاسمِ الجلالةِ، فزِيادةُ ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ لتَشنيعِ الحالةِ، أي: مَكروهًا فعْلُه من فاعِلِه. وفيه تَعريضٌ بأنَّ فاعِلَه مَكروهٌ عند اللهِ. وإضافةُ (سَيِّئ) إلى ضَميرِه إضافةً بَيانيَّةً تفيدُ قُوَّةَ صِفَةِ السَّيِّئِ، حتَّى كأنَّه شيئانِ يُضافُ أحدُهما إلى الآخرِ. وهذه نُكتةُ الإضافةِ البَيانيَّةِ كلَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٢- ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

وقعَتْ[١].

- في قولِه: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ تتِمَّةٌ لتَعليلِ الأُمورِ المَنهيِّ عنها جميعًا، ووصْفُ ذلك بمُطلَقِ الكراهةِ مع أنَّ البعضَ من الكبائرِ؛ للإيذانِ بأنَّ مُجرَّدَ الكراهةِ عنده تَعالى كافيةٌ في وُجوبِ الانتهاءِ عن ذلك. وتَوجيهُ الإشارةِ إلى الكلِّ، ثمَّ تعيينُ البعضِ دونَ تَوجيهِها إليه ابتداءً؛ لِما أنَّ البعضَ المذكورَ ليس بمَذكورٍ جُملةً، بل على وجْهِ الاختلاطِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى هذه الغايةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ عَطْفٌ على جُمَلِ النَّهيِ المُتقدِّمةِ، وهذا تأكيدٌ لمَضمونِ جُملةِ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[٤] [الإسراء: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ كُرِّرَ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّوحيدَ مبدَأُ الأمْرِ ومُنْتهاهُ، وقد رُتِّبَ عليه ما هو عائِدَةُ الإشراكِ أوَّلًا، حيث قيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، ورُتِّبَ عليه هاهنا نَتيجتُه في العُقبى، فقيل: ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٦).

- وكرَّرَ تَعالى النَّهيَ عن الشِّركِ؛ ففي النَّهيِ الأوَّلِ: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾، وفي الثَّاني: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا﴾، والفرْقُ بين مَذمومٍ ومَلومٍ: أنَّ كونَه مَذمومًا: أنْ يذكُرَ أنَّ الفعلَ الَّذي أقدَمَ عليه قَبيحٌ مُنكَرٌ، وكونَه مَلومًا: أنْ يُقالَ له بعدَ الفعلِ وذَمِّه: لِمَ فعلْتَ كذا؟ وما حمَلَك عليه؟ وما استفدْتَ منه إلَّا إلحاقَ الضَّررِ بنفْسِك؛ فأوَّلُ الأمْرِ الذَّمُّ، وآخِرُه اللَّومُ. والفرقُ بين مَخذولٍ ومَدْحورٍ: أنَّ المَخذولَ هو المَتروكُ إعانتُه ونصْرُه، والمُفوَّضُ إلى نفْسِه، والمَدْحورَ: المَطرودُ المُبْعَدُ على سبيلِ الإهانةِ له والاستخفافِ به؛ فأوَّلُ الأمْرِ الخِذلانُ، وآخِرُه الطَّردُ مُهانًا. وكأنَّ وصْفَ الذَّمِّ والخِذلانِ يكونُ في الدُّنيا، ووصْفَ اللَّومِ والدُّحورِ يكونُ في الآخرةِ؛ ولذلك جاء ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾[1].

- ومن المُناسبةِ الحَسنةِ: أنَّه لمَّا أمَرَ تَعالى بثلاثةِ أشياءَ: الإيفاءِ بالعَهدِ، والإيفاءِ بالكيلِ، والوزنِ بالقِسطاسِ المُستقيمِ، أتبَعَ ذلك بثلاثةِ نَواهٍ: ولا تقْفُ، ولا تمْشِ، ولا تجعَلْ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٤٧).

الآيات (٤٠-٤٤)

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾: أي: أَخْتَصَّكم، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ، وتَناوُلِ صَفْوِ الشَّيءِ[١].

﴿صَرَّفْنَا﴾: أَيْ: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيرِه[٢].

﴿تَفْقَهُونَ﴾: أي: تَفْهمون، ويُقالُ: فَقِهْتُ الكلامَ؛ إذا فهمتَه حقَّ فهمِه، والفقهُ: هو التوصلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، وأصلُ (فقه): يدلُّ على إدراكِ الشيءِ، والعلمِ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠).

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى بعضَ الأدلةِ على استحالةِ أن يكونَ له شريكٌ أو ولدٌ، فيقول: أفخَصَّكم ربُّكم -أيُّها المُشرِكونَ- بإعطائِكم البَنينَ، واتَّخذ لنَفسِه الملائِكةَ بَناتٍ؟! إنَّكم لتقولونَ قولًا مُنكَرًا عظيمًا. ولقد وضَّحْنا ونوَّعْنا في هذا القُرآنِ الأحكامَ والمواعِظَ والأمثالَ ليتَّعِظوا ويتَذكَّروا، وما يزيدُهم هذا إلَّا نُفورًا عن الحَقِّ، وغَفْلةً عن النَّظَرِ والاعتِبارِ.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لو أنَّ مع اللهِ آلهةً أُخرى إذَنْ لطَلَبَتْ تلك الآلِهةُ المزعومةُ طَريقًا إلى اللهِ بعِبادتِه والتقَرُّبِ وابتغاءِ الوَسيلةِ إليه، تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ عَمَّا يقولُه المُشرِكونَ وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا. تُسَبِّحُ له -سُبحانَه- السَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضونَ ومَن فيهنَّ مِن جَميعِ المَخلوقاتِ، وكُلُّ شَيءٍ من المخلوقات يُسَبِّحُ اللهَ تعالى تسبيحًا مَقرونًا بالثَّناءِ والحَمدِ له سُبحانَه، ولكِنْ لا تعلَمونَ -أيُّها النَّاسُ- تَسبيحَهم؛ إنَّه سُبحانَه كان حَليمًا بعِبادِه، لا يُعاجِلُ مَن عصاه بالعُقوبةِ، غَفورًا لِمَن تابَ منهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ نِسبةَ البناتِ إلى اللهِ تعالى ادِّعاءُ آلهةٍ تَنتَسِبُ إلى الله بالبُنوَّةِ؛ إذ عَبَد فريقٌ مِن العَرَبِ الملائكةَ كما عبدوا الأصنامَ، واعتلُّوا لعبادتِهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، فلمَّا نُهوا عن أن يجعَلوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ خَصَّصَ بالتحذيرِ عبادةَ

الملائكةِ؛ لئلَّا يتوهَّموا أنَّ عبادةَ الملائكةِ ليست كعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، ليتوهَّموا أنَّ الله يرضى بأن يعبُدوا أبناءَه، وقد جاء إبطالُ عبادةِ الملائكةِ بإبطالِ أصلِها في معتَقَدِهم، وهو أنَّهم بناتُ الله، فإذا تبيَّن بطلانُ ذلك عَلِموا أنَّ جَعْلَهم الملائكةَ آلهةً يُساوي جَعْلَهم الأصنامَ آلهةً[١].

وأيضًا لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على فَسادِ طَريقةِ مَن أثبَتَ لله شَريكًا ونَظيرًا؛ نَبَّهَ على طريقةِ مَن أثبَتَ له الوَلَدَ -سُبحانَه-، وعلى كَمالِ جَهلِ هذه الفِرقةِ[٢].

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ﴾.

أي: أفخَصَّكم ربُّكم -أيُّها المُشرِكونَ- بالذُّكورِ مِن الأولادِ، فلم يجعَلْ لِنَفسِه نَصيبًا منهم، وجعَلَ الملائِكةَ بَناتٍ له كما تَزعُمونَ، والحالُ أنَّكم لا تَرضَونَ البناتِ لأنفُسِكم؟! فهذا خِلافُ المَعقولِ والمَعهودِ المُتعارَفِ عليه؛ فإنَّ السَّادةَ لا يُؤثِرونَ عَبيدَهم بأفضَلِ الأشياءِ، ويتَّخِذونَ لأنفُسِهم أدْوَنَها[٣]!

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٤-٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١٩-٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٧).

قال ابنُ كثير: (فجَعلوا الملائكةَ الذين هم عِبادُ الرَّحمنِ إناثًا، ثمَّ ادَّعَوا أنَّهم بناتُ الله، ثمَّ عَبَدوهم، فأخطؤوا في كُلٍّ مِن المقاماتِ الثلاثِ خطأً عَظيمًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧).

لَكَٰذِبُونَ ۞ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ۞ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۞ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ [الطور: ٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾.

أي: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَتقولونَ على اللهِ قَولًا عَظيمًا، بافتِرائِكم أنَّ المَلائِكةَ بَناتُه[1].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فظاعةَ قَولِ الكافِرينَ بأنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ؛ أعقَبَ ذلك بأنَّ في القُرآنِ هَدْيًا كافيًا، ولكِنَّهم يَزدادونَ نُفورًا مِن تدَبُّرِه[2].

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١﴾.

أي: ولقد بَيَّنَّا ونوَّعْنا وأكثَرْنا في هذا القُرآنِ العِبَرَ والمواعِظَ، والحِكَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

قال ابن كثير: (ثمَّ شدَّد الإنكارَ عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي: في زعمِكم لله ولدًا، ثمَّ جعْلِكم ولَدَه الإناثَ التي تأنفون أن يكنَّ لكم، وربَّما قتلتُموهنَّ بالوأْدِ، فتلك إذًا قِسمةٌ ضِيزى). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٩).

والأمثالَ، والحُجَجَ والأدِلَّةَ؛ ليتَذَكَّروا ويتَّعِظوا، وما يزيدُ الظَّالِمينَ هذا التَّصريفُ والتَّذكيرُ بآياتِ القُرآنِ إلَّا ذَهابًا وهربًا من الحَقِّ، وتَباعُدًا عن الإيمانِ، وغفلةً عنِ النَّظَرِ والاعتبارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه عَودٌ إلى إبطالِ تعدُّدِ الآلهةِ؛ زيادةً في استِئصالِ عَقائِدِ المُشرِكينَ مِن عُروقِها(٢).

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: قل -يا مُحمَّدُ- لو كان مع اللهِ مَعبوداتٌ سِواه -كما يَزعُمُ المُشرِكونَ-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٠).

إذَنْ لَطَلَبَتْ تلك المَعبوداتُ المَزعومةُ التقرُّبَ إلى اللهِ، ونَيْلَ رِضاه بعبادتِه؛ لاعتِرافِهم بفَضلِه، وعِلْمِهم بقُدرتِه وعَجزِهم، فكيف تَعبُدونَهم مِن دُونِه والحالةُ هذه[1]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦).

قال ابن القيم: (قال شيخُنا رضي الله عنه [أي: ابنُ تيمية]: والصحيحُ أن المعنى: لابتغَوا إليه سبيلًا بالتقرُّبِ إليه وطاعتِه، فكيف تعبدونَهم مِن دونِه؟ وهم لو كانوا آلهةً كما يقولون لكانوا عبيدًا له، قال: ويدُلُّ على هذا وجوهٌ:

منها: قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أي: هؤلاء الذين تعبدونَهم مِن دوني هم عبادي كما أنتم عبادي، ويرجون رحمتي ويخافون عذابي، فلماذا تعبدونَهم من دوني؟

الثاني: أنَّه سبحانه لم يقُلْ: لابتغوا عليه سبيلًا، بل قال: لابتغَوا إليه سبيلًا، وهذا اللفظُ إنما يستعمَلُ في التقرُّبِ، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]. وأمَّا في المغالبةِ فإنما يُستعمَلُ بعلى، كقوله: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

والثالث: أنهم لم يقولوا إن آلهتَهم تغالبُه وتطلب العلوَّ عليه، وهو سبحانه قد قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم إنما كانوا يقولون: إن آلهتَهم تبتغي التقرُّبَ إليه وتقرِّبُهم زُلفى إليه، فقالوا: لو كان الأمرُ كما تقولون لكانت تلك الآلهةُ عبيدًا له، فلماذا تعبُدون عبيدَه من دونِه؟). ((الجواب الكافي)) (ص: ٢٠٣-٢٠٤).

وقيل: المعنى: إذًا لطَلَبت تلك الآلهةُ مُغالبةَ اللهِ، وسَعَت إلى الانفرادِ بالمُلكِ دُونَه، كما هي عادةُ الملوكِ بَعضِهم مع بعضٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحدي، والسمعاني، ورجَّحه البغوي، وأبو السعود، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّليلَ القاطِعَ على كَونِه مُنَزَّهًا عن الشُّرَكاءِ، وعلى أنَّ القَولَ بإثباتِ الآلِهةِ قولٌ باطِلٌ؛ أردَفَه بما يدُلُّ على تَنزيهِه عن هذا القَولِ الباطِلِ،

سليمان)) (٢/ ٥٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٥٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وسعيدُ بنُ جبير. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٦).

قال السعدي: (أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادتِه والإنابةِ إليه والتقرُّبِ وابتغاءِ الوسيلة... فعلى هذا المعنى تكونُ هذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. ويحتمِلُ أنَّ المعنى أي: لطَلَبوا السبيلَ وسَعَوا في مغالبةِ الله تعالى... فيكونُ هذا كقولِه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۢ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [المؤمنون: ٩١]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١١).

وقال الشنقيطي: (في معنى هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما حقٌّ، ويشهدُ له قرآنٌ). ثمَّ ذكَر القولينِ السابقينِ، ورجَّح الثاني. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٨).

فقال[1]:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣﴾.

أي: تَنزيهًا للهِ عمَّا لا يَليقُ بعَظَمتِه، وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عمَّا يقولُ المُشرِكونَ مِن الكَذِبِ عليه، كنِسبةِ الوَلَدِ والشَّريكِ إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

أي: تُسَبِّحُ لله السَّمواتُ السَّبعُ والأرضُ، ومَن فيهنَّ مِنَ المَلائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجميعِ المَخلوقاتِ، فتُنزِّهُه عمَّا لا يليقُ به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤).

قال الشنقيطي: (أسْنَد التَّسبيحَ أوَّلًا إلى السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ صراحةً بذواتِهِنَّ، وهنَّ مِنْ غيرِ العقلاءِ بما في كلٍّ منهنَّ مِنْ أفلاكٍ، وكواكِبَ، وبُروجٍ، أو جبالٍ، ووِهادٍ، وفِجاجٍ، ثُمَّ عَطَف على غيرِ العقلاءِ بصيغةِ ﴿مَنْ﴾ الخاصَّةِ بالعقلاءِ فقال: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾، وإنْ كانتْ ﴿مَنْ﴾ قد تُستعملُ لغيرِ العقلاءِ إذا نُزِّلْنَ منزلَةَ العقلاءِ... وبهذا شَمِلَ إسنادُ التَّسبيحِ لكلِّ شيءٍ في نطاقِ السَّمواتِ والأرضِ عاقلٍ، وغيرِ عاقلٍ، وقدْ أُكِّدَ هذا الشُّمولُ بصريحِ قولِه تعالَى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، وكلمةُ ﴿شَيۡءٍ﴾ أعَمُّ العُموماتِ). ((أضواء البيان)) (٨/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٠ - ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: وما مِن شَيءٍ من المَخلوقاتِ إلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ الله تعالى، فيُنَزِّهُه تنزيهًا مَقرونًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مع محَبَّتِه وتَعظيمِه عزَّ وجَلَّ[1].

وقال القرطبي: (أعاد على السمواتِ والأرضِ ضميرَ مَنْ يعقِلُ، لَمَّا أسندَ إليها فعلَ العاقلِ، وهو التسبيحُ. وقولُه: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريدُ الملائكةَ والإنسَ والجنَّ، ثُمَّ عَمَّ بعدَ ذلك الأشياءَ كُلَّها في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال الواحدي: (في هذه الآيةِ مذهبان: أحدهما: أنَّ المرادَ بالتسبيحِ هاهنا: حقيقةُ التسبيحِ، فعلى هذا السمواتُ السبعُ والأرضونَ تسبِّحُ لله تسبيحًا حقيقيًّا، ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾: مِن الملائكةِ والجنِّ والإنسِ، والمرادُ بهذا التخصيصِ؛ لأنَّ الشياطينَ وعبدةَ الأصنامِ لا يسبحونَ لله تسبيحًا

كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

حقيقيًّا... المذهبُ الثاني: أنَّ المرادَ بالتسبيحِ هاهنا: الدلالةُ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ حكيمٌ مبرَّأٌ مِن الأسواءِ، فالمخلوقون والمخلوقاتُ كلُّها تدلُّ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقُها). ((البسيط)) (١٣/ ٣٤٤ - ٣٤٦).

قال الشوكاني: (أخبَر سبحانَه عن السمواتِ والأرضِ بأنَّها تُسَبِّحُه، وكذلك مَن فيها مِنْ مخلوقاتِه الَّذين لهم عقولٌ، وهم الملائكةُ والإنسُ والجنُّ وغيرُهم مِنَ الأشياءِ الَّتي لا تعقِلُ، ثُمَّ زادَ ذلك تعميمًا وتأكيدًا فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾؛ فشملَ كلَّ ما يُسمَّى شيئًا كائنًا ما كان، وقيل: إنَّه يُحملُ قولُه: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ على الملائكةِ والثَّقَلينِ، ويُحملُ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ على ما عَدا ذلك مِنَ المخلوقاتِ.

وقد اختلَف أهلُ العلمِ فِي هذا العمومِ هل هو مخصوصٌ أم لا؟ فقالَتْ طائفةٌ: ليسَ بمخصوصٍ، وحمَلوا التَّسبيحَ على تسبيحِ الدَّلالةِ؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ يشهدُ على نفسِه ويُدِلُّ غيرَه بأنَّ اللَّهَ خالِقٌ قادرٌ. وقالَتْ طائفةٌ: هذا التَّسبيحُ على حقيقتِه، والعمومُ على ظاهرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤).

ممن اختار أنَّ الآيةَ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ عامةٌ، وأنَّ التسبيحَ مِن جميعِ المخلوقاتِ تسبيحٌ حقيقيٌّ: ابنُ جريرٍ، والقصابُ، والسمعاني، والقرطبي، وابنُ تيميةَ، والخازنُ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٥-٦٠٧)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣١-١٣٢)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١).

وممن اختار العمومَ، لكن حمَل التسبيحَ على تسبيحِ الدلالةِ، لا التسبيحِ الحقيقيِّ: ابنُ الأنباري، وابنُ حزمٍ، والزمخشري، والرازي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٢٩٥)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٤).

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وممن جمَع بينَ القولينِ فقال: تسبِّحُ جميع المخلوقات بلسانِ الحالِ، ولسانِ المقالِ: ابنُ العربي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨).

قال ابنُ عثيمين: (كلُّ ما في السمواتِ والأرضِ يسبحُ الله... بلسانِ الحالِ، وبلسانِ المقالِ، إلَّا الكافرَ، فإنَّه يسبحُ الله بلسانِ الحالِ لا بلسانِ المقالِ... وهل الحشراتُ والحيواناتُ تسبحُ الله بلسانِ المقالِ؟

الجوابُ: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...﴾ الحشراتُ كلُّها تسبحُ الله بلسانِ المقالِ، والحصَى يسبحُ الله كما كان ذلك بينَ يدي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨).

وقال أيضًا: (التسبيحُ نوعان: تسبيحٌ بلسانِ المقالِ، وتسبيحٌ بلسانِ الحالِ. أمَّا التسبيحُ بلسانِ الحالِ فهو عامٌّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. وأمَّا التسبيحُ بلسانِ المقالِ، فهو عامٌّ كذلك، لكن يخرجُ منه الكافرُ؛ فإنَّ الكافرَ لم يسبِّحِ الله بلسانِه، ولهذا يقولُ تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩] فهم لم يسبِّحوا الله تعالى؛ لأنَّهم أشركوا به، ووصفوه بما لا يليقُ به. فالتسبيحُ بلسانِ الحالِ يعني: أنَّ حالَ كلِّ شيءٍ في السمواتِ والأرضِ تدلُّ على تنزيهِ الله سبحانه وتعالى عن العبثِ وعن النقصِ، حتى الكافر إذا تأمَّلت حالَه، وجدتها تدلُّ على تنزهِ الله تعالى عن النقصِ والعيبِ. وأمَّا التسبيحُ بلسانِ المقالِ، فيعني: أن يقولَ: سبحان الله). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٦٠).

وقيل: قولُه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ عُمُومٌ، ومعناه الخصوصُ في كلِّ حيٍّ ونامٍ، وليسَ ذلك في الجماداتِ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: عكرمةُ، والحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦٦).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قَرَصَت نملةٌ نبيًّا مِنَ الأنبياءِ، فأمَرَ بقريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحى اللهُ إليه: أنْ قَرَصَتْك نَملةٌ أحرَقْتَ أمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسبِّحُ؟!))[١].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فقَلَّ الماءُ، فقال: اطلُبوا فَضْلةً مِن ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قَليلٌ، فأدخَلَ يَدَه في الإناءِ، ثمَّ قال: حَيَّ على الطَّهورِ المُبارَكِ، والبَرَكةُ مِنَ اللهِ. فلقد رأيتُ الماءَ يَنبُعُ مِن بَينِ أصابعِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولقد كُنَّا نَسمَعُ تَسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ!))[٢].

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أي: ولكن لا تَعلَمونَ -أيُّها النَّاسُ- تَسبيحَ المَخلوقاتِ؛ لأنَّها على غيرِ لُغَتِكم[٣].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا، فلا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ مَن يكفُرُ به ويَعصِيه، غفورًا لِمَن

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤١).

(٢) رواه البخاري (٣٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

تابَ مِن عِبادِه، فيَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. فالَّذي ينبغي لنا أنْ نَستَفيدَه مِنْ ذلك أنْ نذكُرَ في قُلوبِنا عندَ رؤيةِ كُلِّ شيءٍ مِنْ صُنعِ اللهِ، وسماعِ كلِّ صوتٍ مِنْ مخلوقاتِ اللهِ، أنَّه يُسَبِّحُ بحمدِ اللهِ بدَلالتِه على تنزيهِه عمَّا لا يليقُ به، وعلى قدرتِه وحكمتِه ومشيئَتِه ورحمتِه، وأنَّ لها تسبيحًا آخرَ غيبيًّا لا نفقهُه بكَسْبِنا؛ لأنَّنا لا نُدرِكُ حياتَها[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ المَخلوقاتِ -وإنْ كانت جَمادًا- تُحِسُّ بعَظَمةِ الخالِقِ؛ قال الله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢١٣).

تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ دَليلٌ على أنَّ ذا الرُّوحِ وغيرَه ممَّا لا حياةَ فيه ولا حَرَكةَ ظاهِرةً، مِثْلَ الحَجَرِ والمَدَرِ والخَشَبِ- أنَّها تُسَبِّحُ، لا أنَّه مَخصوصٌ به الرُّوحانيُّونَ دُونَ غَيرِهم[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تَرْكَ قَتْلِ الدَّوابِّ والحَشَراتِ التي سَكَتَ الشَّرعُ عنها -كالصَّراصيرِ والجِعْلانِ، والخُنْفُساءِ وما أشبَهَها- أَولى؛ فإنَّه وإنْ كان قَتْلُها مُباحًا، فتَرْكُها تُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ أَولى مِن قَتْلِها[(٣)].

٤- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لَمَّا كان الغالِبُ على أحوالِ البَشَرِ أنَّ حَليمَهم إذا غَضِبَ لا يَغفِرُ، وإنْ عفا كان عَفوُه مُكَدَّرًا؛ قال تعالى: ﴿ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ مُشيرًا بصِيغةِ المُبالغةِ إلى أنَّه على غيرِ ذلك؛ ترغيبًا في التَّوبةِ[(٤)].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ ﴾ استفهامٌ معناه الإنكارُ والتَّوبيخُ[(٥)]. وقيل: الاستفهامُ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (٢١٨/ ٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢).

إنكارٌ وتهكُّمٌ[(١)].

- قولُه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم﴾ قصَدَ هاهنا بالتَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ تَشديدَ النَّكيرِ وتأكيدَه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ مُتفرِّعةٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ تَفريعًا على النَّهيِ باعتبارِ أنَّ المنهيَّ عنه مُشتمِلٌ عمومُه على هذا النَّوعِ الخاصِّ الجديرِ بتَخصيصِه بالإنكارِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه تأكيدُ فعْلِ (تقولون) بمَصدرِه ﴿قَوْلًا﴾؛ تأكيدًا لمعنى الإنكارِ. وجعَلَه مُجرَّدَ قولٍ؛ لأنَّه لا يَعْدو أنْ يكونَ كلامًا صدَرَ عن غيرِ رَويَّةٍ؛ لأنَّه لو تأمَّلَه قائلُه أدنى تأمُّلٍ، لوجَدَه غيرَ داخلٍ تحت قضايا المقبولِ عقلًا. والعظيمُ: القويُّ، والمُرادُ هنا أنَّه عظيمٌ في الفسادِ والبُطلانِ؛ بقَرينةِ سياقِ الإنكارِ، ولا أبلَغَ في تَقبيحِ قولِهم مِن وصْفِه بالعظيمِ[(٤)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ التَّصريفُ كِنايةٌ عن التَّبيينِ بمُختلِفِ البيانِ ومُتنوِّعِه. وضَميرُ ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ عائدٌ إلى معلومٍ من المقامِ دَلَّ عليه قولُه: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾، أي: ليذَّكَّرَ الَّذين خُوطِبوا بالتَّوبيخِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٠٨).

في قولِه: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾؛ فهو التِفاتٌ من الخطابِ إلى الغَيبةِ، أو من خطابِ المُشركينَ إلى خطابِ المُؤمنينَ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في مَوضعِ الحالِ، وهو حالٌ مقصودٌ منه التَّعجُّبُ من حالِ ضَلالتِهم؛ إذ كانوا يَزْدادون نُفورًا من كلامٍ فُصِّلَ وبُيِّنَ لتَذكيرِهم، وشأْنُ التَّفصيلِ أنْ يُفيدَ الطُّمأنينةَ للمقصودِ[2].

- وقال عزَّ وجَلَّ هنا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، وقال بعدُ في هذه السُّورةِ أيضًا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وإنَّما لم يُذكرْ فى أَوَّل سورةِ (الإسراء) ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ لتقدُّمِ ذكرِهم فى السُّورةِ، وذكَرهم فى سورةِ (الكهفِ) إذ لم يَجْرِ ذكرُهم، وذكَر (النَّاس) فى آخرِ سورة (الإسراءِ)، وإنْ جرَى ذكرُهم؛ لأَنَّ ذكرَ الإنْسِ والجنِّ جرَى معًا، فذكَر ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ كراهةَ الالتباسِ، وقدَّمه على ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ كما قدَّمه فى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، وأَمَّا فى سورةِ (الكهفِ) فقدَّم ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾؛ لأَنَّ ذكرَه أجلُّ الغرضِ؛ وذلك أَنَّ اليهودَ سألَتْه عن قصَّةِ أَصحابِ الكهفِ، وقصَّةِ ذى القَرْنينِ، فأَوحَى الله إليه فى القرآنِ؛ وكان تقديمُه فى هذا الموضعِ أَجدرَ، والعنايةُ بذكرِه أَحرَى وأَخلقَ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي

- وقُدِّمَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ على ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ هنا في الآيةِ الثَّانيةِ؛ اهتمامًا بالتَّمييزِ المذكورِ، وبالنَّاسِ لأنَّهم الأصلُ في التَّكليفِ؛ ولهذا اقتصَرَ عليهم في غالبِ الآياتِ؛ كقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقولِه: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وعكَسَ في (الكهفِ) لمُناسبةِ قولِه قبْلُ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً﴾[1] [الكهف: ٤٩].

- ومن المناسبةِ الحَسنةِ كذلك: خِتامُ آيةِ (الإسراءِ) الأُولَى بقولِه: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾؛ لأنَّ الضميرَ للمَذكورينَ ممَّن خُصَّ بمقصودِ الخِطاب المُكْنَى عنهم بقولِه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، وختامُ الآيةِ الثانية بقولِه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ لتُعطِيَ إعادةَ الظاهرِ من التعنيفِ والتقريعِ ما لا يُعطيه المُضمَرُ، ولأنَّ أوَّلَ الخِطابِ وصَدْرَ الآيةِ لَمَّا قُدِّمَ فيه ذِكرُ النَّاس لشرفِ الجِنسِ الإنسانيِّ على الجِنِّ، ثمَّ لم يَكُن ممَّن لم يُؤمِنْ إلَّا العِنادُ، قيل: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾؛ ليُعطيَ بفحواه أنَّه كأنَّه قيل: فأبَى أكثرُ النَّاسِ على تَشريفِهم وتَفضيلِنا إيَّاهم إلَّا الكُفرَ؛ فأحرزَ الظاهرُ ما لم يكُنْ ليحرِزَه إضمارُهم. وختَم آية (الكهفِ) بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]؛ تَمهيدًا لِمَا سيأتي بعدَه من قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، فلمَّا بُنِيَ هذا على الآيةِ، واتَّصلَ الكلامُ والْتَحَم، نُوسِب بينهما، وليس في الآيتَينِ في سُورةِ (الإسراءِ) قبلُ ولا فيما تقدَّم كلَّ واحدةٍ منهما وفيما بُني عليهما ما يَستدعي ذِكرَ الجدلِ

جعفر الغرناطي (٢/ ٣١١-٣١٢).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٥).

ولا الوصفَ به؛ فلذلك خُتِمتْ كلٌّ واحدةٍ منهما بما تَقدَّم؛ فأُعقِبَتِ الأُولى بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١]، وأُعقِبَتِ الثانيةُ بقولِه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾، وأُعقِبتْ آيةُ (الكهفِ) بما يُناسِبُ ما ورَد عليه بَعدَه، وجاء كلٌّ على ما يُناسبُ[1].

- قولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ الحالِ أنْ يُعْرِضَ عنهم، ويَحْكي للسَّامعينَ هَنَاتِهم[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ تعدُّدَ الآلهةِ لا تحقُّقَ له، وإنَّما هو مُجرَّدُ قولٍ عارٍ عن المُطابقةِ لِمَا في نفْسِ الأمرِ. و﴿إِذًا﴾ دالَّةٌ على الجوابِ والجزاءِ؛ فهي مُؤكِّدةٌ لمعنى الجوابِ الَّذي تدُلُّ عليه اللَّامُ المُقترِنةُ بجوابِ (لو) الامتناعيَّةِ الدَّالةِ على امتناعِ حُصولٍ[3].

- قولُه: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فيه استحضارُ الذَّاتِ العلِيَّةِ بوصْفِ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ دونَ اسمِه العَلَمِ (الله)؛ لِمَا تتضمَّنَه الإضافةُ إلى العرشِ من الشَّأنِ الجليلِ[4]، ولأنَّ في التصريحِ بالعرشِ تَصويرًا لعَظَمتِه سبحانَه[5].

٤- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فيه وصْفُ العُلوِّ بالكِبَرِ؛ مُبالغةً في معنى البراءةِ والبُعدِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٢٢).

ممَّا وَصَفوه به(١).

٥- قَولُه تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالتَّنكيتِ، وهو قصْدُ المُتكلِّمِ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يسُدُّ مَسدَّه لنُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه على سِواه؛ فقد خصَّ سُبحانَه هنا ﴿تَفۡقَهُونَ﴾ دونَ (تعلمون)؛ لِمَا في الفقهِ من الزِّيادةِ على العلْمِ؛ لأنَّه التَّصرُّفُ في المعلومِ بعدَ عِلْمِه، واستنباطِ الأحكامِ منه، والمُرادُ الَّذي يَقْتضيه معنى الكلامِ التَّفقُّهُ في معرفةِ التَّسبيحِ من الحيوانِ البهيمِ والنَّباتِ والجَمادِ، وكلِّ ما يَدخُلُ تحتَ لفظةِ (شَيءٍ) ممَّا لا يعقِلُ ولا ينطِقُ؛ إذ تَسبيحُ ذلك بمُجرَّدِ وُجودِه الدَّالِّ على قُدرةِ مُوجِدِه وحِكمتِه(٢)، وذلك على أحدِ القولينِ في المرادِ بالتسبيحِ.

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فيه الختْمُ بالحِلْمِ والمغفرةِ عقِبَ تَسابيحِ الأشياءِ، وهو غيرُ ظاهرٍ في بادي الرَّأيِ؛ ووجْهُ ذلك الخِتامِ وحِكمتُه: أنَّه لمَّا كانتِ الأشياءُ كلُّها تُسبِّحُ ولا عِصيانَ في حقِّها وأنتم تَعْصون، ختَمَ بالحلمِ والغُفرانِ؛ مُراعاةً للمُقدَّرِ في الآيةِ وهو العِصيانُ. وقيل: التَّقديرُ: حليمًا عن تَفريطِ المُسبِّحينَ، غفورًا لذُنوبِهم. وقيل: حليمًا عن المُخاطبينَ الَّذين لا يَفْقهون التَّسبيحَ بإهمالِهم النَّظرَ في الآياتِ والعِبَرِ؛ ليَعْرِفوا حقَّه بالتَّأمُّلِ فيما أودَعَ في مَخلوقاتِه ممَّا يُوجِبُ تَنزيهَه(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٥/ ١٨١٥- ١٨١٦). ويُنظر أيضًا: ((البرهان)) للزركشي (١/ ٩٢- ٩٣).

الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِجَابًا﴾: أي: سِتْرًا، أو طَبْعًا، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ[1].

﴿أَكِنَّةً﴾: أي: أغطِيَةً، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

﴿وَقْرًا﴾: أي: ثِقَلًا وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[3].

﴿نَجْوَىٰٓ﴾: أي: مُتناجُونَ، يُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنَّحاس (٤/ ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢).

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أحوالِ المشركينَ عندَ سماعِهم للقرآنِ: وإذا قَرَأْتَ القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- فسَمِعه هؤلاء المُشرِكونَ، الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، جَعَلْنا بينَك وبينَهم حِجابًا مَستورًا عن الأعينِ، يحجُبُهم عن فَهْمِ القُرآنِ والانتفاعِ به؛ عِقابًا لهم على كُفرِهم وإنكارِهم، وجعَلْنا على قُلوبِ المُشرِكينَ أغطِيةً لئلَّا يَفهَموا القُرآنَ، وجَعَلْنا في آذانِهم صَمَمًا لئلَّا يَسمَعوه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القُرآنِ داعيًا لتَوحيدِه ناهيًا عن الشِّركِ به، أعرَضوا عنك نافرينَ مِن قَولِك؛ استِكبارًا واستِعظامًا.

ثمَّ ذكَر سبحانَه ما يدلُّ على كمالِ علمِه، وأنَّه سيُجازيهم بما يستحقُّونَ، فقال: نحن أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآن وَقتَ استِماعِهم إلى تلاوَتِك له؛ إذ يَستَمِعونَ إليك يُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا قائلينَ: ما تَتَّبِعونَ إلَّا رجُلًا أصابَه السِّحرُ فاختَلَط عَقلُه!

ثمَّ قال تعالى مسليًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: تفكَّرْ -يا مُحمَّدُ- مُتعَجِّبًا مِن ضَربِهم الأمثالَ الباطِلةَ في حَقِّك حين قالوا: ساحِرٌ، شاعِرٌ، مَجنونٌ!! فجارُوا وانحرَفوا بضَربِ الأمثالِ الباطِلةِ، ولم يَهتَدوا إلى طريقِ الحَقِّ والصَّوابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تكلَّم اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ في المسائِلِ الإلهيَّةِ؛ تكلَّمَ في هذه الآيةِ فيما يتعَلَّقُ بتقريرِ النبُوَّةِ(١)، وذكرِ شيءٍ مِن أحوالِ الكفرةِ في إنكارِها، وإنكارِ المعادِ(٢).

وأيضًا لَمَّا نوَّه بالقُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ثمَّ أعقَبَ بما اقتَضاه السِّياقُ مِن الإشارةِ إلى ما جاء به القُرآنُ مِن أُصولِ العَقيدةِ، وجوامِعِ الأعمالِ، وما تخَلَّلَ ذلك مِنَ المواعِظِ والعِبَرِ؛ عاد هنا إلى التَّنبيهِ على عدَمِ انتِفاعِ المُشرِكينَ بهَدْيِ القُرآنِ؛ لِمُناسبةِ الإخبارِ عن عدَمِ فِقْهِهم تسبيحَ الكائناتِ بحمدِ الله(٣).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: وإذا شَرَعْتَ -يا محمَّدُ- في قراءةِ القُرآنِ(٤)، فسَمِعَه مُشرِكو قَومِك، الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ، ولا يُقِرُّون بالثَّوابِ والعِقابِ؛ جَعَلْنا بينك وبينَهم حجابًا مَستورًا عن الأعينِ، لا يُرَى، يَمنَعُهم مِن فَهمِ القُرآنِ وتدَبُّرِه والانتفاعِ به،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٥).

(٤) قال أبو حيان: (والمعنى: وإذا شرعتَ في القراءةِ، وليس المعنى على الفراغِ مِن القراءةِ، بل المعنى على أنَّك إذا التبستَ بقراءةِ القرآنِ، ولا يُرادُ بالقرآنِ جميعُه، بل ما ينطلقُ عليه الاسمُ، فإنَّك تقولُ لمن يقرأُ شيئًا مِن القرآنِ: هذا يقرأُ القرآنَ، والظاهرُ أنَّ القرآنَ هنا هو ما قُرئَ مِن القرآنِ أيِّ شيءٍ كان منه). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥).

ويحولُ بينَهم وبينَ الإيمانِ به[(١)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

وممَّن قال بالمعنى المذكور في كلمة ﴿حِجَابًا﴾: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والبغوي، والبيضاوي، وابنُ جزي، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيم: (المعنى: جعلْنا بينَ القرآنِ إذا قرأتَه وبينهم حجابًا يحولُ بينَهم وبينَ فهمِه وتدبرِه والإيمانِ به، ويبينُه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦] وهذه الثلاثةُ هي الثلاثةُ المذكورةُ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، فأخبر سبحانَه أنَّ ذلك جعلُه، فالحجابُ يمنعُ رؤيةَ الحقِّ، والأكنةُ تمنعُ مِن فهمِه، والوقرُ يمنعُ مِن سماعِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٤).

وقيل: معنى الآيةِ: أن الله حجَب النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن أعينِهم عندَ قراءةِ القرآنِ، فكانوا يمرُّون به ولا يرونَه. وممَّن قال به: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ تيمية، وأبو حيان. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦).

قال ابنُ عطية: (هذه الآيةُ تحتملُ معنيينِ: أحدهما: أنَّ الله تعالى أخبَر نبيَّه أنَّه يحميه مِن الكفرةِ أهلِ مكةَ، الذين كانوا يؤذونَه في وقتِ قراءتِه القرآنَ، وصلاتِه في المسجدِ، ويريدونَ مدَّ اليدِ إليه، وأحوالُهم في هذا المعنى مشهورةٌ مرويةٌ، والمعنى الآخرُ: أنَّه أعلَمه أنَّه يجعلُ بينَ الكفرةِ وبينَ فهمِ ما يقرأُه محمدٌ عليه السلامُ حجابًا، فالآيةُ على هذا التأويلِ في معنى التي بعدَها، وعلى التأويلِ الأوَّلِ هما آيتانِ لمعنيينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٠).

وممن قال بالمعنى المذكورِ في كلمةِ: ﴿مَّسْتُورًا﴾: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

قال ابنُ القيم: (ووصَفه بكونِه ﴿مَّسْتُورًا﴾، فقيل: بمعنَى ساترٍ. وقيل: على النسبِ، أي: ذو سترٍ. والصحيحُ أنَّه على بابِه، أي: مستورًا عن الأبصارِ، فلا يُرَى). ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

كما قال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

أي: وجَعَلْنا على قُلوبِ هؤلاءِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ أغشِيةً وأغطِيةً تَحجُبُها؛ كراهةَ أنْ يَفهَموا معانيَ القُرآنِ فَهمًا ينتَفِعونَ به(١).

ومِمن اختار أنَّ ﴿مَّسْتُورًا﴾ بمعنى ساتر: الأخفشُ -وتابعه على هذا كثيرٌ مِن أهلِ اللغةِ- والبغَويُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال ابن تيمية: (قولُه: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يتناولُ مَن لم يفهَمْ منه تفسيرَ اللفظِ كما يُفهَمُ بمجرَّدِ العربيةِ، ومن فَهِمَ ذلك لكن لم يعلَمْ نفسَ المرادِ في الخارجِ، وهو: «الأعيان» و«الأفعال» و«الصفات» المقصودةُ بالأمرِ والخبرِ؛ بحيثُ يراها ولا يعلمُ أنَّها مدلولُ الخطابِ، مثلُ مَن يعلمُ وصفًا مذمومًا ويكونُ هو متَّصفًا به أو بعضًا من جنسِه، ولا يعلم أنَّه داخلٌ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٩).

وقال السَّعدي: (﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً وأغشِيةً لا يَفقَهونَ معها القُرآنَ، بل يَسمَعونَه سَماعًا تَقومُ به عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

وقال الشِّنقيطي: (بيَّنَ في مواضِعَ أُخَرَ سَبَبَ الحَيلولةِ بينَ القُلوبِ وبينَ الانتفاعِ به، وأنَّه هو كُفرُهم، فجازاهم اللهُ على كُفرِهم بطَمسِ البصائِرِ، وإزاغةِ القُلوبِ، والطَّبعِ والخَتمِ، والأكِنَّةِ

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

أي: وجَعَلْنا في آذانِ المُشرِكينَ صَمَمًا وثِقَلًا يَمنَعُهم مِن سَماعِ القُرآنِ سَماعَ قَبولٍ له، وانتِفاعٍ به(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

أي: وإذا وحَّدْتَ ربَّك -يا مُحمَّدُ- في تِلاوَتِك للقرآنِ، فقُلتَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنت تَتلوه؛ أعرَضَ المُشرِكونَ عنك، نافرينَ مُستَكبرينَ عن توحيدِ اللهِ؛ مِن

المانعةِ مِن وُصولِ الخَيرِ إليها؛ كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقَولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ. ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٠).

قال ابن القيم: (هذه الأكنَّةُ والوَقرُ هي شدَّةُ البُغضِ والنُّفرةِ والإعراض التي لا يستطيعون معها سمعًا ولا عقلًا، والتحقيقُ أنَّ هذا ناشئ عن الأكنَّةِ والوقرِ، فهو موجِبُ ذلك ومقتضاه، فمن فسَّر الأكنَّةَ والوَقرَ به فقد فسَّرهما بموجِبِهما ومُقتضاهما، وبكلِّ حالٍ فتلك النُّفرةُ والإعراضُ والبُغضُ مِن أفعالهم وهي مجعولةٌ لله سبحانه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

شِدَّةِ كَراهِيَتِهم لهذا الحَقِّ، ومَحَبَّتِهم لِما هم عليه مِنَ الباطِلِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٤٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانوا رُبَّما ادَّعَوا السَّمعَ والفَهمَ، فشَكَّكوا بعضَ مَن لم يَرسَخْ إيمانُه؛ أتبَعَه اللهُ تعالى ما يؤكِّدُ ما مضَى، ويُثَبِّتُ السَّامِعينَ فيه، فقال تعالى[(٢)]:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾.

أي: نحن أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم به وَقتَ استِماعِهم إليك وأنت تَتلوه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٦).

كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾.

أي: ونحنُ أعلَمُ -يا مُحمَّدُ- بما يتناجَى به مُشرِكو قَومِك في أمْرِك، ويُسَارُّ بَعضُهم بَعضًا بشأنِك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣ - ٥].

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قال السعدي: (أي: إنَّما مَنَعناهم مِن الانتفاعِ عندَ سَماعِ القُرآنِ؛ لأنَّنا نعلَمُ أنَّ مَقاصِدَهم سَيِّئةٌ، يريدونَ أن يَعثُروا على أقلِّ شَيءٍ لِيَقدحوا به، وليس استِماعُهم لأجلِ الاستِرشادِ وقَبولِ الحَقِّ، وإنَّما هم مُعتَمِدونَ على عَدَمِ اتِّباعِه، ومَن كان بهذه الحالةِ لم يُفِدْه الاستماعُ شَيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ﴾ قيل: للملابسةِ، أي: نحنُ أعلمُ بالشَّيءِ الَّذي يلابِسُهم حينَ يستَمِعونَ إليك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

وقِيل: إنَّها زائدةٌ، أي: يَسْتَمِعونَه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

قال ابنُ عطية: (وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ اجتِماعُهم في دارِ النَّدْوة، ثمَّ انتَشَرت عنهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١، ٦١٢).

أي: حينَ يقولُ المُشرِكونَ وهم يَتناجَونَ فيما بينَهم: ما تتَّبِعونَ -إنِ اتَّبَعتُم مُحَمَّدًا- إلَّا رَجُلًا مَغلوبًا على عَقلِه بالسِّحرِ، يَهذِي بكَلامٍ، ولا يَدري ما يَقولُ[1]!!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾.

أي: انظُرْ -يا مُحَمَّدُ- مُتعَجِّبًا كيف مثَّلَ لك المُشرِكونَ الأمثالَ الباطِلةَ، وشبَّهوا لك الأشباهَ، فشَبَّهوك بالمسحورِ، وقالوا عنك: شاعِرٌ، مَجنونٌ، ساحِرٌ، كذَّابٌ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٦، ١٥٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩).

قال ابن عاشور: (أي: ضَرَبوا الأمثالَ لأجلِك، أي: لأجلِ تمثيلِك، أي: مَثَّلوك. يقال: ضرَبتُ لك مثلًا بكذا. وأصلُه: مثَّلتُك بكذا، أي: أجِدُ كذا مثلًا لك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣] أي: اجعلْهم مثلًا لحالهم. وجَمَع الأمثالَ هنا، وإن كان المحكيُّ عنهم أنَّهم مثَّلوه بالمسحورِ، وهو مَثَلٌ واحد؛ لأنَّ المقصودَ التعجيبُ مِن هذا المَثَل ومن غيرِه فيما يصدُرُ عنهم من قولِهم: هو شاعرٌ، هو كاهنٌ، هو مجنونٌ، هو ساحرٌ، هو مسحورٌ. وسمِّيَت أمثالًا باعتبار حالِهم؛ لأنَّهم تحيَّروا فيما يصفونه به للنَّاسِ؛ لئلَّا يعتقدوه نبيًّا، فجعلوا يتطلبون أشبهَ الأحوالِ بحالِه في خيالِهم فيُلحِقونَه به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢١).

كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤-٥].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

أي: فَضَلَّ المُشرِكونَ عن طريقِ الحقِّ بضَربِ الأمثالِ الباطِلةِ المُتناقِضةِ لك -يا مُحَمَّدُ- وتَحيَّروا فلم يَقدِروا أن يَسلُكوا طَريقًا يُخرِجُهم مِن هذا الضَّلالِ، ويُوصِلُهم إلى الحَقِّ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فيه الحَثُّ على فِقهِ القُرآنِ، وأنَّه ينبغي للإنسانِ أن يقرأَ القُرآنَ ويتعَلَّمَ معناه[2]؛ فقَولُه تعالى: ﴿أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٠٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٤).

يَفۡقَهُوهُ ﴾ يعودُ إلى القُرآنِ كُلِّه، فعُلِمَ أنَّ اللهَ يحِبُّ أن يُفقَهَ؛ ولهذا قال الحسَنُ البصريُّ: (ما أنزل اللهُ آيةً إلَّا وهو يحِبُّ أن يُعلَمَ في ماذا أُنزِلَت وماذا عنى بها)، وما استثنى من ذلك لا مُتشابِهًا ولا غيرَه[١].

٢- في قولِه تعالى: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ ﴾ دَليلٌ على الإنصاتِ للمَوعِظةِ والإقبالِ على الواعِظِ، وأنَّ الكلامَ عندَ الموعظةِ، أو مُحادثةَ بَعضِهم بَعضًا في مَجْمَعٍ يَعِظُ فيه واعِظٌ؛ تَهاوُنٌ بالمَوعِظةِ، ولَهوٌ عنها، وفي ذلك زَوالُ مَنفَعتِها، وفَهْمِ ما أُودِعَ فيها[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِمَّا يَدخُلُ في غَيرةِ اللهِ قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴾؛ قال السَّرِيُّ لأصحابِه: (أتَدْرُونَ ما هذا الحِجابُ؟ حِجابُ الغَيرةِ، ولا أحَدَ أغيَرُ مِن اللهِ؛ إنَّ الله تعالى لم يجعَلِ الكُفَّارَ أهلًا لفَهمِ كَلامِه، ولا أهلًا لمَعرِفتِه وتوحيدِه ومَحَبَّتِه، فجعَلَ بينهم وبين رَسولِه وكلامِه وتوحيدِه حجابًا مَستورًا عن العُيونِ؛ غيرةً عليه أن ينالَه مَن ليس أهلًا له)[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا ﴾ في هذه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٤).
وأثر الحسن أخرجه أبو عبيد في ((فضائل القرآن)) (ص: ٩٧).
(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٣).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤).

الآيةِ الكريمةِ الرَّدُّ الواضِحُ على القَدَريَّةِ في قَولِهم: إنَّ الشَّرَّ لا يَقَعُ بمَشيئةِ الله، بل بمَشيئةِ العَبدِ- سُبحانَ اللهِ وتعالى عُلُوًّا كبيرًا عن أنْ يقعَ في مُلكِه شَيءٌ ليس بمَشيئَتِه! ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه مَنَعَهم فِقهَ كَلامِه، وهو الإدراكُ الذي ينتَفِعُ به مَن فَقِهَه، ولم يَكُنْ ذلك مانِعًا لهم مِنَ الإدراكِ الذي تقومُ به الحُجَّةُ عليهم؛ فإنَّهم لو لم يَفهَموه جُملةً ما وَلَّوا على أدبارِهم نُفُورًا عند ذِكرِ تَوحيدِ اللهِ، فلمَّا وَلَّوا عند ذِكرِ التَّوحيدِ دَلَّ على أنَّهم كانوا يَفهَمونَ الخِطابَ(٢).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾

- في قولِه: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أُوثِرَ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على الضَّميرِ (بينهم)؛ ذَمًّا لهم بما في حَيِّزِ الصِّلةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وإنَّما خَصَّ بالذِّكرِ كُفْرَهم بالآخرةِ مِن بينِ سائرِ ما كَفَروا به مِن التَّوحيدِ ونحوِه؛ دَلالةً على أنَّها مُعظَمُ ما أُمِرُوا بالإيمانِ به في القُرآنِ، وتَمهيدًا لِما سيُنْقَلُ عنهم من إنكارِ البعثِ واستعجالِه، ونحوِ ذلك(٣). وقيل: لمَّا كان إنكارُهم

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠١-١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٥).

البعثَ هو الأصْلَ الَّذي استَبْعَدوا به دَعوةَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى زَعَموا أنَّه يقولُ مُحالًا؛ إذ يُخْبِرُ بإعادةِ الخلْقِ بعدَ الموتِ- استُحْضِروا في هذا الكلامِ بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لِمَا في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى عِلَّةِ جعْلِ ذلك الحِجابِ بينَه وبينَهم؛ فلذلك قال: ﴿وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾(١).

- قولُه: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فيه وصْفُ الحِجابِ بالمستورِ؛ مُبالغةً في حقيقةِ جِنْسِه، أي: حِجابًا بالغًا الغايةَ في حجْبِ ما يحجُبُه هو حتَّى كأنَّه مَستورٌ بساترٍ آخرَ، فذلك في قُوَّةِ أنْ يُقالَ: جعَلْنا حِجابًا فوقَ حِجابٍ. وفي الجمْعِ بين ﴿حِجَابًا﴾ و﴿مَّسْتُورًا﴾ من البديعِ: الطِّباقُ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ فيه تَخصيصُ الذِّكرِ بالكونِ في القُرآنِ؛ لمُناسبتِه الكلامَ على أحوالِ المُشركينَ في استماعِ القُرآنِ، أو لأنَّ القُرآنَ مَقصودٌ منه التَّعليمُ والدَّعوةُ إلى الدِّينِ؛ فخُلوُّ آياتِه عن ذكْرِ آلهتِهم مع ذكْرِ اسمِ اللهِ يُفْهَمُ منه التَّعريضُ بأنَّها ليست بآلهةٍ، فمِن ثَمَّ يَغْضبون كلَّما ورَدَ ذكْرُ اللهِ، ولم تُذْكَرْ آلهتُهم؛ فكونُه في القُرآنِ هو القَرينةَ على أنَّه أراد إنكارَ آلهتِهم(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١١٩).

ﵟٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﵞ هذه الآيةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الإخبارَ عنهم بأنَّهم جُعِلَت في قُلوبِهم أكِنَّةٌ أنْ يَفْقهوه، وفي آذانِهم وقْرٌ، وأنَّهم يُولُّون على أدبارِهم نُفورًا إذا ذُكِرَ اللهُ وحدَه: يُثِيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عن سبَبِ تجمُّعِهم لاستماعِ قِراءةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكانت هذه الآيةُ جوابًا عن ذلك السُّؤالِ[(١)].

- قولُه: ﵟنَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓﵞ فيه افتتاحُ الجُملةِ بضميرِ الجَلالةِ ﵟنَّحۡنُﵞ؛ لإظهارِ العنايةِ بمَضمونِها[(٢)].

- قولُه: ﵟيَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَﵞ لم يقُلْ: يَسْتمِعونه ولا يَستمِعونك؛ لمَّا كان الغرَضُ ليس الإخبارَ عن الاستماعِ فقطْ، وكان مُضمَّنًا أنَّ الاستماعَ كان على طريقِ الهُزْءِ بأنْ يقولوا: مجنونٌ أو مَسحورٌ، جاء الاستماعُ بـ(الباءِ) و(إلى)؛ ليُعْلَمَ أنَّ الاستماعَ ليس المُرادُ به تفهُّمَ المسموعِ دونَ هذا المَقصدِ؛ لأنَّ المعنى: نحن أعلَمُ بالَّذي يَستمِعون به إليك وإلى قراءتِك وكلامِك، إنَّما يَستمِعون لسقَطِك وتتبُّعِ عيبِك، والتِماسِ ما يَطعُنون به عليك[(٣)].

- قولُه: ﵟوَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓﵞ فيه الإخبارُ عنهم بالمصدرِ ﵟنَجۡوَىٰٓﵞ؛ للمُبالغةِ في كثرةِ تَناجيهم عند استماعِ القُرآنِ تَشاغُلًا عنه[(٤)].

- قولُه: ﵟإِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﵞ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (إذ يقولون)؛ للدَّلالةِ على أنَّ باعِثَ قولِهم ذلك

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٠).

هو الظُّلمُ، أي: الشِّركُ؛ فإنَّ الشِّركَ ظُلمٌ(١).

- وتَخصيصُ هذا القولِ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أشدُّ غَرابةً من بقيَّةِ آفاكِهم؛ للبونِ الواضحِ بين حالِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبين حالِ المسحورِ(٢).

٤- قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فيه الاستفهامُ بـ (كيف)؛ للتَّعجُّبِ من حالةِ تَمثيلِهم للنَّبيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّمَ بالمسحورِ ونحوِه(٣).

- قولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ فرَّع ضلالَهم على ضَربِ أمثالِهم؛ لأنَّ ما ضرَبوه من الأمثالِ كُلُّه باطِلٌ وضَلالٌ وقوَّةٌ في الكُفرِ، فالمرادُ تفريعُ ضَلالِهم الخاصِّ ببُطلانِ تلك الأمثالِ، أي: فظهَرَ ضلالُهم في ذلك. ويجوزُ أن يرادَ بالضَّلالِ هنا أصلُ معناه، وهو الحَيرةُ في الطريقِ وعَدَمُ الاهتداءِ، أي: ضَرَبوا لك أشباهًا كَثيرةً؛ لأنَّهم تحيَّروا فيما يَعتَذِرون به عن شأنِك العَظيمِ. وتفريعُ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ على ﴿فَضَلُّواْ﴾ تفريعٌ لتوغُّلِهم في الحَيرةِ على ضلالِهم في ضَربِ تلك الأمثالِ(٤).



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٢).

الآيات (٤٩-٥٢)

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ۝٥١ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٥٢﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرُفَٰتًا﴾: أي: تُرابًا وفُتاتًا، وأصلُ (رفت): يدُلُّ على فَتٍّ[١].

﴿يَكۡبُرُ﴾: أي: يَعْظُمُ، يقال: كَبُرَ الأمرُ والشيءُ: إذا عظُم، وأصلُ (كبر): يدلُّ على خلافِ الصغرِ[٢].

﴿فَسَيُنۡغِضُونَ﴾: أي: يُحَرِّكونَ رُؤوسَهم تكذيبًا واستِهزاءً، والإنغاضُ: تحريكُ الرَّأسِ نحوَ الغيرِ كالمتعجِّبِ منه، وأصلُ (نغض): يدُلُّ على هَزٍّ وتَحريكٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى بعضَ أقوالَ المشركينَ المنكرينَ للبعثِ والحسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٤).

القيامةِ، ثم يردُّ عليها، ومِن ذلك قولُهم: أئِذا بَلِيَت أجسادُنا، وصِرْنا عِظامًا وتُرابًا نُبعَثُ مِن جديدٍ؟! قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ- على جِهةِ التَّعجيزِ: كونوا حِجارةً أو حديدًا، فإنَّ اللهَ يَبعثُكم أيضًا، أو كونوا خَلقًا يَعظُمُ ويُستَبعَدُ في عُقولِكم قَبولُه للبَعثِ، فاللهُ تعالى يبعَثُكم، فسيَقولونَ مُنكِرينَ: مَن يرُدُّنا إلى الحياةِ بعد الموتِ؟ قل لهم: يُعيدُكم ويَرجِعُكم اللهُ الذي خلقَكم من العَدَمِ أوَّلَ مَرَّةٍ. وعند سَماعِهم هذا الرَّدَّ فسيُحرِّكون رُؤوسَهم ساخِرينَ، ويَقولونَ مُستبعدينَ: متى يقَعُ هذا البَعثُ؟ قل: هو قَريبٌ، سيأتيكم -لا مَحالةَ- يومَ يُناديكم ربُّكم للخُروجِ مِن قُبورِكم للحِسابِ، فتَستَجيبونَ، وتَنقادونَ لِدَعوتِه بحَمدِه، وتظُنُّونَ أنَّكم لم تمكثوا في الدنيا إلَّا زَمَنًا قليلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما استأصَل الله تعالى ضلالتَهم بادِّعاءِ آلهةٍ معَ الله بالحجةِ القاطعةِ بقولِه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ ...﴾ الآية [الإسراء: ٤٢]؛ قصَد استئصالَ ضلالةٍ أُخرَى من ضلالاتِهم بالحجةِ الدامغةِ، وعلى ذلك تكونُ جملةُ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ...﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ باعتبارِ ما تشتملُ عليه مِن قولِه: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾، ويكونُ ما بينَ الآيتين بمنزلةِ الاعتراضِ. ويجوزُ أن تكونَ هذه الآيةُ عطفًا على جملةِ: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، فيكون هذا القولُ مما تناجَوا به بينَهم، ثم يجهرون بإعلانِه ويعُدُّونَه حجَّتَهم

على التكذيبِ[١]، فالقَومُ وَصَفوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكَونِه مَسحورًا فاسِدَ العَقلِ، فذَكَروا مِن جُملةِ ما يستدلُّون به على ذلك أنَّه يدَّعي أنَّ الإنسانَ بعد ما يصيرُ عِظامًا ورُفاتًا، فإنَّه يعودُ حَيًّا كما كان[٢].

وأيضًا لَمَّا جَرَت عادةُ القُرآنِ بإثباتِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والمعادِ، وقدَّمَ الدَّلالةَ على الأوَّلَينِ، وختَمَ بإثباتِ جَهلِهم في النُّبُوَّةِ مع ظُهورِها؛ أتبَعَ ذلك أمرًا جَليًّا في ضَلالِهم عن السَّبيلِ في أمرِ المَعادِ، وقَرَّرَه غايةَ التَّقريرِ، وحَرَّره أتمَّ تحريرٍ، فقال تعالى مُعَجِّبًا منهم[٣]:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾.

أي: وقال هؤلاءِ المُشرِكونَ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا عِظامًا وتُرابًا، وقد بَلِيَت أجسادُنا في قُبورِنا، فهل يَبعَثُنا اللهُ أحياءً مِن جديدٍ كما كنَّا قبل مَوتِنا؟! هذا أمرٌ مُحالٌ لا يُمكِنُ وُقوعُه[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ [النازعات: ١٠، ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨- ٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥،٦١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٤،١٢٣).

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾.

أي: قلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ بعد المَوتِ: إنْ كُنتُم تَعجَبونَ مِن قُدرةِ اللهِ على إحيائِكم، فكُونوا -إن استطعتُم- حِجارةً أو حديدًا؛ فسيَبعَثُكم أيضًا[١].

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

أي: أو كُونوا -أيُّها المُنكِرونَ للبَعثِ- خَلْقًا مِمَّا يَعظُمُ في نُفوسِكم -إنِ استَطعتُم- مِمَّا تَستبعِدونَ معه قُدرةَ اللهِ على إحيائِكم؛ فاعلَمُوا أنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِكم على أيِّ خِلقةٍ كنتُم، مهما بلَغَت مِنَ القوَّةِ والشدَّةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٧٨).

وذهب بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ المعنى: استشْعِرُوا وتوهَّموا وقدِّروا في أنفُسِكم أنَّكم حِجارةٌ أو حديدٌ، فلا بدَّ مِن بَعثِكم كما خُلِقتُم أوَّلَ مرَّة. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاج، واستحسنه النَّحاسُ، وقال به ابنُ عطية، وابنُ جُزَيٍّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨).

قال ابنُ القَيِّم: (وبينَ المَعنَيينِ فرقٌ لطيفٌ؛ فإنَّ المعنى الأوَّلَ يقتَضي أنَّكم لو قَدرتُم على نَقلِ خِلقتِكم مِن حالةٍ إلى حالةٍ هي أشَدُّ منها وأقوى، لنَفَذَت مَشيئتُنا وقُدرتُنا فيكم ولم تُعجِزونا، فكيف وأنتم عاجِزون عن ذلك؟! والمعنى الثاني يقتضي أنَّكم صوِّروا أنفُسَكم وأنزِلوها هذه المَنزِلةَ، ثمَّ انظُروا أتفوتُوننا وتُعجِزوننا، أم قُدرتُنا ومَشيئتُنا مُحيطةٌ بكم، ولو كنتم كذلك؟). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٤)، ((إعلام الموقعين))

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ القَومُ صِحَّةَ هذا البُرهانِ وأنَّه ضروريٌّ، انتَقَلوا إلى المُطالَبةِ بمَن يُعيدُهم، فقالوا[1]:

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾.

أي: فسيَقولُ المُنكِرونَ للبَعثِ: مَن يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا إنْ كُنَّا حِجارةً أو حديدًا أو خَلقًا مِمَّا يَكبُرُ في صُدورِنا[2]؟!

﴿ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: سيُعيدُكم اللهُ الذي ابتدأَ خَلقَكم أوَّلَ مرَّةٍ مِن العَدَمِ على غيرِ مِثالٍ سبَقَ؛ فالذي قدَرَ على البُداءةِ قادِرٌ على الإعادةِ[3].

لابن القيم (١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال ابنُ جرير: (جائِزٌ أن يكونَ عنى به الموتَ؛ لأنَّه عَظيمٌ في صدورِ بني آدمَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به السَّماءَ والأرضَ، وجائِزٌ أن يكونَ أراد به غيرَ ذلك، ولا بيانَ في ذلك أبيَنُ ممَّا بيَّنَ جَلَّ ثناؤه، وهو كُلُّ ما كَبُرَ في صُدورِ بني آدَمَ مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يَخْصُصْ منه شيئًا دونَ شَيءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥).

قال ابنُ القَيِّم: (سواءٌ كان سؤالًا منهم عن تَعيينِ المُعيدِ، أو إنكارًا منهم له؛ فهو مِن أقبَحِ التعَنُّتِ وأبيَنِه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

كما قال تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾.

أي: فإذا أجبتَهم بذلك -يا مُحمَّدُ- فسيُحَرِّكونَ إليك رُؤوسَهم برَفعٍ وخَفضٍ؛ استهزاءً منهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٢، ٣].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا عَلِمَ القَومُ أنَّ هذا جوابٌ قاطِعٌ، انتَقَلوا إلى بابٍ آخَرَ مِن التعنُّتِ[2]:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ﴾.

أي: ويقولُ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ تعنُّتًا واستِبعادًا منهم لوُقوعِه: متى يقَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١١).

هذا البَعثُ الذي تَزعُمُه[1]؟

كما قال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۞ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٣ - ٢٦].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

أي: قل لهم -يا مُحمَّدُ-: هو قريبٌ، سيأتيكم لا مَحالةَ؛ فاحذَروا ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۞ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٧- ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: وذلك البَعثُ الذي تُنكِرونَه -أيُّها المُشرِكونَ- واقِعٌ يومَ يَدعوكم ربُّكم[3] للحِسابِ والجَزاءِ يومَ القيامةِ، فتَستَجيبونَ كُلُّكم لله بالخُروجِ فورًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦).

(٣) قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدُّعاءُ: النِّداءُ إلى المَحشَرِ

قُبورِكم أحياءً، وتَنقادونَ لِدَعوتِه بحَمدِه[1].

بكلامٍ تَسمَعُه الخلائِقُ، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخُروجِ. وقيل: بالصَّيحةِ التي يَسمَعونَها، فتَكونُ داعيةً لهم إلى الاجتِماعِ في أرضِ القيامةِ. ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥).

وذكر غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرين أنَّ النَّاس يُدْعَون يوم القيامةِ بالنفخِ في الصُّورِ، ومنهم: ابنُ عطيةَ، وابنُ الجوزي، وأبو حيان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢١، ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أربعةُ أقوالٍ: أحدُها: بأمْرِه، قاله ابنُ عباسٍ، وابنُ جريج، وابن زيد. والثاني: يَخرُجون مِن القُبورِ وهم يقولون: سُبحانَك وبحَمدِك، قاله سعيدُ بنُ جُبير. والثالث: أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: بمَعرفتِه وطاعته، قاله قتادة. قال الزجَّاج: تستجيبون مُقرِّين أنَّه خالِقُكم. والرابع: تُجيبون بحَمدِ الله لا بحَمدِ أنفُسِكم، ذكره الماوَردي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

ممن اختار أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: بأمرِه: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، وأبو القاسم النيسابوري، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣١٥)، ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ١٠٧).

وممن اختار أنَّ معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: حامدين: السمعاني، والزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٩).

قال الزمخشري: (وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم، أي حامدين، وهي مبالغةٌ في انقيادِهم للبَعثِ، كقولك لِمن تأمرُه بركوب ما يشقُّ عليه فيتأبَّى ويتمنَّع: ستركبُه وأنت حامِدٌ شاكِرٌ!). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢).

وقال الرسعني: (وهو تقريرٌ لمعنى انقيادِهم، كأنهم ألجأهم القَهرُ والقسرُ إلى الحمدِ والثَّناءِ على الله؛ إظهارًا للرغبة في إجابته حيث لا ينفَعُهم ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ

وقال ابن عاشور: (والباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للملابَسة، فهي في معنى الحال، أي حامدين، فهم إذا بُعِثوا خُلق فيهم إدراكُ الحقائقِ، فعلموا أنَّ الحق لله!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

وقيل: معنى الآيةِ: تستجيبونَ مقرِّينَ بأنَّه خالِقُكم. واختاره الزجاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾، حكى الطبري عن ابن عباس أنَّه قال: معناه: بأمرِه، وكذلك قال ابن جريج. وقال قتادة معناه: بطاعتِه ومعرفته. وهذا كلُّه تفسيرٌ لا يعطيه اللفظُ، ولا شكَّ أنَّ جميع ذلك بأمرِ الله تعالى، وإنما معنى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾: إمَّا أن جميع العالمين -كما قال ابن جبير- يقومون وهم يَحمَدون الله؛ ويحمدونه لِما يظهر لهم من قدرتِه. وإمَّا أن قولَه ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ هو كما تقولُ لرجل خصَمْتَه وحاوَرْتَه في علمٍ: قد أخطأتَ بحمد الله. فكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقول لهم في هذه الآيات: عسى أنَّ الساعةَ قريبةٌ يوم تدعون فتقومون بخلافِ ما تعتقدون الآن، وذلك بحَمدِ الله على صِدقِ خبري؛ نحا هذا المنحى الطبري ولم يخلِّصْه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣).

قال ابن جرير: (وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ أن يقال: معناه: فتستجيبون لله من قبوركم بقدرته، ودعائِه إياكم. ولله الحمدُ في كل حال، كما يقول القائل: فعلتُ ذلك الفِعلَ بحمد الله، يعني: لله الحمدُ عن كلِّ ما فعلْتُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٢-٦٢٣).

وقال ابن عاشور: (ويجوز أن يكونَ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ متعلقًا بمحذوف على أنَّه من كلام النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والتقدير: انطِقْ بحمدِه، كما يقال: باسم الله، أي: أبتدئُ، وكما يقال للمعرِّس: باليُمن والبركة. أي: احمَدِ الله على ظهور صدقِ ما أنبأْتُكم به، ويكون اعتراضًا بين المتعاطفات. وقيل: إنَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ استئنافُ كلامٍ خطابٌ للمؤمنين؛ فيكونُ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ متعلِّقًا بفعل محذوف، أي: اذكروا يوم يدعوكم. والحمدُ على هذا الوجهِ محمولٌ على حقيقتِه، أي: تستجيبون حامدينَ الله على ما منحكم من الإيمان، وعلى ما أعدَّ لكم مما تشاهدون حين انبعاثِكم من دلائل الكرامةِ والإقبال). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١ - ٤٤].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: وتَظُنُّونَ[(١)] -أيُّها النَّاسُ- حين تُبعَثونَ يومَ القيامةِ أنَّكم لم تَمكُثوا في الدنيا[(٢)] ....

---

(١) قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدُهما: أنه أخبر أنَّهم لما رجَعوا إلى حالة الحياة، وتصَرُّف الأجساد، وقع لهم ظنٌّ أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلَّا قليلًا لمغيبِ علمِ مقدار الزمنِ عنهم؛ إذ مَن في الآخرةِ لا يقَدِّرُ زمن الدنيا؛ إذ هم لا محالة أشَدُّ مفارقةً لها من النائمين، وعلى هذا التأويلِ عَوَّل الطبري، واحتج بقولِه تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]. والآخر: أن يكون الظنُّ بمعنى اليقين، فكأنَّه قال لهم: يوم تُدعَون فتستجيبون بحمدِ الله، وتتيقَّنون أنَّكم إنَّما لَبِثتُم قليلًا، من حيث هو مُنقَضٍ منحَسِرٌ، وهذا كما يقال في الدنيا بأسرِها: متاعٌ قليل، فكأنَّه قِلَّة قَدرٍ، على أن الظنَّ بمعنى اليقين يقلق هاهنا؛ لأنَّه في شيء قد وقع، وإنما يجيءُ الظن بمعنى اليقين فيما لم يخرُجْ بعدُ إلى الكون والوجود). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

(٢) ممَّن قال بأنَّ المرادَ لُبثُهم في الدنيا: ابنُ أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، وابنُ كثير، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٢).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يقول: وتحسَبون عند موافاتِكم القيامةَ مِن هولِ ما تعاينون فيها ما لَبِثتُم في الأرض إلا قليلًا؛ كما قال جل ثناؤه: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل... عن قتادة، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في الدنيا، تحاقَرت الدنيا في أنفُسِهم وقَلَّت حين عاينوا يومَ القيامة). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣).

إلَّا وقتًا يسيرًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا * نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥ - ٥٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وقال ابن الجوزي: (أين يظنُّون أنَّهم لبثوا قليلًا؟ فيه ثلاثة أقوال: أحدُها: بين النفختينِ، ومقداره أربعون سنة، ينقَطِعُ في ذلك العذابُ عنهم، فيرون لُبثَهم في زمان الراحةِ قليلًا، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني: في الدُّنيا؛ لعِلمِهم بطول اللُّبثِ في الآخرة، قاله الحسن. والثالث: في القبورِ، قاله مقاتل). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ لبثُهم في القبورِ: مقاتل بن سليمان، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مدةُ لبثِهم بينَ النفختينِ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٠).

الفَوائِدُ العلميَّةُ واللطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ جعَلَ سُؤالَهم هنا عن المُعيدِ لا عن أصْلِ الإعادةِ؛ لأنَّ البحثَ عن المُعيدِ أدخَلُ في الاستحالةِ من البحثِ عن أصْلِ الإعادةِ، فهو بمنزلةِ الجوابِ بالتَّسليمِ الجدليِّ بعدَ الجوابِ بالمنْعِ؛ فإنَّهم نَفَوا إمكانَ إحياءِ الموتى، ثمَّ انتَقلوا إلى التَّسليمِ الجدليِّ؛ لأنَّ التَّسليمَ الجدليَّ أقوى في مُعارضةِ الدَّعوى من المنْعِ(١).

٢- قول الله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، فيه سؤالٌ: إن قالوا: كيف يكونُ قريبًا وقد انقرضَ زمنٌ طويلٌ، ولم يظهرْ؟

الجواب: إذا كان ما مضَى أكثرَ مما بقِي، كان الباقي قريبًا قليلًا(٢)، وأيضًا فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ فهو قريبٌ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ الميِّتَ بعدَ المُساءَلةِ -وما يُصيبُه معها- لا يَشعُرُ بطولِ مُكْثِه في البَرزَخِ حتى يبعَثَه اللهُ يومَ القيامةِ، فلو كانوا يَشعُرونَ لعَلِموا أنَّهم أقاموا طويلًا، ليس قليلًا(٤)، وذلك على أحدِ أوجُهِ تأويلِ الآيةِ.

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٨٤).

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهامُ تعجُّبٍ وإنكارٍ مُفيدٌ لكَمالِ الاستبعادِ والاستنكارِ للبعثِ بعدما آلَ الحالُ إلى هذا المآلِ؛ لِمَا بين غَضاضةِ الحيِّ ويُبوسةِ الرَّميمِ من التَّنافي، كأنَّ استحالةَ الأمْرِ من الظُّهورِ بحيث لا يقدِرُ المُخاطَبُ على التَّكلُّمِ به[١].

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفِ ﴿أَءِذَا﴾ للاهتمامِ به؛ لأنَّ مضمونَه هو دليلُ الاستحالةِ في ظَنِّهم؛ فالإنكارُ مُتسلِّطٌ على جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾. وقُوَّةُ إنكارِ ذلك مُقيَّدٌ بحالةِ الكونِ عِظامًا ورُفاتًا، وتَقديرُ الجُملةِ: أإنا لمَبْعوثونَ إذا كنَّا عِظامًا ورُفاتًا؟! وليس المقصودُ من الظَّرفِ التَّقييدَ؛ لأنَّ الكونَ عِظامًا ورُفاتًا ثابتٌ لكلِّ من يَموت فيُبعَثُ[٢].

- قولُه: ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ كُرِّرتِ الهمزةُ في قولِهم: ﴿أَءِنَّا﴾؛ لتأكيدِ النَّكيرِ. وتَحليةُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ حالٌ من ضَميرِ (مَبْعوثون)، وذُكِرَ الحالُ لتَصويرِ استحالةِ البعثِ بعدَ الفَناءِ؛ لأنَّ البعثَ هو الإحياءُ، فإحياءُ العِظامِ والرُّفاتِ مُحالٌ عندهم، وكونُهم خلقًا جديدًا أدخَلُ في الاستحالةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث أعاد هذه الجُملةَ بعينِها من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ آخرَ السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٤).

في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، وليس هذا تكرارًا؛ لأنَّ الأُولى من كلامِهم في الدُّنيا حين جادلوا الرَّسولَ، وأنْكَروا البعثَ، والثَّانيةَ من كلامِ اللهِ تَعالى حين جازاهم على كُفْرِهم وقولِهم وإنكارِهم البعثَ، فقال: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1] [الإسراء: ٩٧].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فيه حُسنُ ترتيبٍ؛ حيث بدَأ أوَّلًا بالصُّلبِ، ثمَّ ذكَرَ على سبيلِ التَّرقي الأصلَبَ منه، ثمَّ الأصلَبَ من الحديدِ[2].

- قولُه: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالتَّخييرِ، وهو أنْ يُؤْتَى بقطعةٍ من الكلامِ جُملةً، وقد عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بأداةِ التَّخييرِ، وأنْ يتضمَّنَ صِحَّةَ التَّقسيمِ؛ فيَستوعِبَ كلامُه أقسامَ المعنى الَّذي أخَذَ المُتكلِّمُ فيه؛ فاشتملَتْ هاتانِ الآيتانِ على التخييرِ، وصِحَّةِ التَّقسيمِ، وحُسْنِ التَّرتيبِ في الانتقالِ -على طريقِ البلاغةِ- من الأدنَى إلى الأعلَى، حتَّى بلَغَ سُبحانَه النِّهايةَ في أوجَزِ إشارةٍ، وأعذَبِ عِبارةٍ، حيث قال بعدَ الانتقالِ من الحجارةِ: ﴿أَوْ حَدِيدًا﴾؛ فانتقَلَ من الحجارةِ إلى ما هو أصلَبُ منها وأقوى، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ غيرَ حاصرٍ لهم في صِنْفٍ من الأصنافِ[3]، فلم يُعيِّنْه؛ بل ترَك ذلك إلى

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٣).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٥٧).

أفكارِهم وجولانِها فيما هو أصلبُ مِن الحديدِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

- قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ الاستفهامُ في ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ تَهكميٌّ. ولمَّا كان قولُهم: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ مُحقَّقَ الوُقوعِ في المُستقبلِ أمَرَ النَّبيَّ بأنْ يُجيبَهم عندما يقولونَه -جوابَ تَعيينٍ لمَن يُعيدُهم؛ إبطالًا للازمِ التَّهكُّمِ، وهو الاستحالةُ في نظَرِهم- بقولِه: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ إجراءً لظاهرِ استفهامِهم على أصْلِه، بحمْلِه على خِلافِ مُرادِهم؛ لأنَّ ذلك أجدَرُ على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ لزيادةِ المُحاجَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ إليه موصولًا ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾؛ لقصْدِ ما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى تَعليلِ الحُكمِ بأنَّ الَّذي فطَرَهم أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ على إعادةِ خلْقِهم[٣].

- وارتباطُ رَدِّ مقالتِهم بقولِه: ﴿قُل كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ...﴾ غامِضٌ؛ لأنَّهم إنَّما استَبْعَدوا أو أحالوا إرجاعَ الحياةِ إلى أجسامٍ تفرَّقَت أجزاؤها، وانخرَمَ هيكَلُها، ولم يُعلِّلوا الإحالةَ بأنَّها صارت أجسامًا ضعيفةً، فيُرَدُّ عليهم بأنَّها لو كانت مِن أقوى الأجسامِ لأُعِيدَت لها الحياةُ، وفي بيانِ وجْهِ هذا الارتباطِ في ذلك ثلاثةُ وُجوهٍ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٢-٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٨).

أحدُها: أنْ تكونَ صِيغَةُ الأمرِ في قولِه: ﴿كُونُوا﴾ مُستعملةً في معنى التَّسويةِ، ويكون دليلًا على جوابٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: إنَّكم مَبْعوثون، سَواء كنتُم عِظامًا ورُفاتًا، أو كنتُم حِجارةً أو حديدًا؛ تَنبيهًا على أنَّ قُدرةَ اللهِ تعالى لا يَتعاصى عليها شَيءٌ. وذلك إدماجٌ يجعَلُ الجُملةَ في معنى التَّذييلِ.

الوجْهُ الثَّاني: أنْ تكونَ صِيغَةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿كُونُوا﴾ مُستعملةً في الفرضِ، أي: لو فُرِضَ أنْ يكونَ الأجسادُ من الأجسامِ الصُّلبةِ، وقيل لكم: إنَّكم مَبْعوثون بعدَ الموتِ لأَحَلْتُم ذلك واستبْعَدْتم إعادةَ الحياةِ فيها. وعلى كِلا الوجهينِ يكونُ قولُه: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ نِهايةَ الكلامِ، ويكونُ قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُفرَّعًا على جُملةِ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا ...﴾ تَفريعًا على الاستئنافِ.

الوجْهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ قولُه: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ كلامًا مُستأنفًا ليس جوابًا على قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ...﴾، وتكون صِيغَةُ الأمْرِ مُستعملةً في التَّسويةِ. وفي هذا الوجْهِ يكونُ قولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مُتَّصلًا بقولِه: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ...﴾، ومُفرَّعًا على كلامٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً﴾[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٢٥ - ١٢٦).

الآيات (٥٢-٥٧)

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنزَغُ﴾: أي: يُفسِدُ ويُهيِّجُ، وأصلُ (نزغ): يدلُّ على إفسادٍ بينَ اثنينِ[1].

﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾: أي: المَنزِلةَ والقُربةَ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وأصلُ (وسل): يدُلُّ على التَّوصُّلِ إلى الشَّيءِ برَغبةٍ[2].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾

قَولُه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ مُبتدأٌ في محَلِّ رَفعٍ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدَلٌ منه، و﴿يَدْعُونَ﴾ صلةُ المَوصولِ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبَرُ المُبتدأِ في محَلِّ رَفعٍ. ﴿أَيُّهُمْ﴾ فيها وجهانِ: أحدُهما: أنَّها اسمُ موصولٍ مَبنيٌّ على الضَّمِّ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٠).

محلِّ رَفعٍ بدَلُ بَعضٍ مِن كُلٍّ مِن الواوِ في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، ﴿أَقۡرَبُ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه (هو)، وجملةُ: (هو أقرَبُ) لا محلَّ لها صِلةُ الموصولِ (أيُّ)، والمعنى: أولئك المَعبودونَ يبتغي مَن هو أقرَبُ منهم الوَسيلةَ إلى اللهِ تعالى بطاعتِه، فكيف بالأبعَدِ؟! والثاني: ﴿أَيُّهُمۡ﴾ استِفهاميَّةٌ مرفوعةٌ على الابتداءِ، و﴿أَقۡرَبُ﴾ خَبَرُها، والجملةُ الاسميَّةُ في محَلِّ نَصبٍ على إسقاطِ الخافِضِ بـ ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ المُضَمَّنِ معنى (يَحرِصونَ)، فكأنَّه قيل: يَحرِصونَ أيُّهم يكونُ أقرَبَ إلى اللهِ تعالى، وذلك بالطَّاعةِ وازديادِ الخَيرِ والصَّلاحِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- لعِبادي المُؤمِنينَ يقولُوا في تَحاوُرِهم وتَخاطُبِهم الكلامَ الأحسنَ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يفسِدُ بينهم، ويُهيِّجُ العَداوةَ والخِصامَ بينهم؛ إنَّ الشَّيطانَ كان للإنسانِ عدُوًّا مُظهِرًا لشدَّةِ عَداوتِه. ربُّكم أعلَمُ بكم، إنْ يَشَأْ يَرحَمْكم بتوفيقِكم لأسبابِ الرَّحمةِ، أو إن يَشأْ يعذِّبْكم بخِذلانِكم عن أسبابِ الرَّحمةِ، وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- عليهم وكيلًا تُجازيهم على أفعالِهم، ورَبُّك أعلَمُ بمَن في السَّمَواتِ والأرضِ، ولقد فَضَّلْنا بعضَ النبيِّينَ على بَعضٍ، كتفضيلِهم بالمُعجِزاتِ، والكُتُبِ، وكَثرةِ الأتباعِ، وغَيرِ ذلك، وأعطَينا داودَ الزَّبورَ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه أن يقولَ لِلمُشركين: ادعُوا الذين زعَمتُموهم آلِهةً مِن دُونِ اللهِ لكَشْفِ الضُّرِّ عنكم؛ فإنَّهم لا يستطيعون ذلك، ولا أن يُحوِّلوا الضرَّ عنكم إلى غَيرِكم، ولا أن يُغيِّروا صفتَه أو قدرَه؛ فالقادِرُ على ذلك اللهُ وَحدَه. أولئك الذين يَزعمونَ أنَّهم آلهةٌ مِن دونِ الله، مِن الأنبياءِ والملائكةِ والصَّالحينَ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٧٢).

يُسارِعون في القُربِ مِن رَبِّهم بما يستطيعونَه مِن طاعةِ اللهِ، ويرجونَ رَحمتَه ويخافونَ عَذابَه؛ إنَّ عذابَ ربِّك كان مَخُوفًا ينبغي الحذَرُ منه؛ فكيف يَعبُدُهم المُشرِكونَ، وتلك هي حالُهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن أقام سُبحانَه الحُجَجَ على إبطالِ الشِّركِ، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وذكَرَ الأدِلَّةَ على صِحَّةِ البَعثِ والجزاءِ، فقال: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١]؛ أمرَ رَسولَه أن يأمُرَ عِبادَه المؤمنين بأن يحاجُّوا مُخالِفيهم، ويجادِلوهم باللِّينِ، ولا يُغلِظوا لهم في القَولِ، ولا يَشتُموهم ولا يسبُّوهم؛ فإنَّ الكَلِمةَ الطَّيِّبةَ تجذِبُ النفوسَ، وتَميلُ بها إلى الاقتِناعِ(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أعقَبَ ما أُمِرَ النبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بتبليغِه إلى المُشرِكين من أقوالٍ تَعِظُهم وتزجُرُهم، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقَولِه: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ [الإسراء: ٥٠]، وقولِه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]- ثَنَى العِنانَ إلى الأمرِ بإبلاغِ المؤمنين تأديبًا ينفَعُهم في هذا المقامِ، على عادةِ القُرآنِ في تلوينِ الأغراضِ، وتعقيبِ بَعضِها ببعضِ أضدادِها؛ استِقصاءً لأصنافِ الهُدى ومختَلِفِ أساليبِه، ونَفْعِ مُختَلِفِ النَّاسِ، ولَمَّا كان ما سبَقَ مِن حكايةِ أقوالِ المُشرِكين ينبئُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٥/ ٥٨).

ضلالِ اعتقادٍ، نقلَ الكلامَ إلى أمرِ المُؤمِنين بأن يقولوا أقوالًا تُعرِبُ عن حُسنِ النيَّةِ، وعن نُفوسٍ زكيَّةٍ، وأوتوا في ذلك كَلِمةً جامِعةً، وهي: ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه بإبلاغِ الكافِرينَ هذا الكَلامَ ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ...﴾، وفيه من التهَكُّمِ بهم والتَّبكيتِ لهم والاستِخفافِ بعُقولِهم ما لا يعلَمُ مِقدارَه إلَّا مِثلُهم مِنَ البُلَغاءِ والعَرَبِ العَرْباءِ، وكان -لكَونِه كلامَ العَليمِ بالعواقِبِ، الخَبيرِ بما تَجُنُّ الضَّمائِرُ- رُبَّما استَنَّ به المُؤمِنونَ فخاطبوهم بنَحوِه مِن عندِ أنفُسِهم؛ نهاهم عن ذلك لئلَّا يقولوا ما يُهَيِّجُ شَرًّا أو يُثيرُ ضُرًّا، فقال تعالى[2]:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ- آمِرًا عبادي المُؤمِنينَ بأن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ في مُحاوراتِهم ومُخاطباتِهم الكَلامَ الأحسَنَ؛ مِن الكَلِماتِ الطَّيِّبةِ اللَّيِّنةِ اللَّطيفةِ، التي هي أحسَنُ مِمَّا سِواها[3].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٦، ٨٧).

((الكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ))[١].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

أي: قُلْ لهم يَقولوا التي هي أحسَنُ؛ لأنَّ الشَّيطانَ البَعيدَ مِن الرَّحمةِ وكُلِّ خَيرٍ يقومُ بالإفسادِ بينهم، وتَهييجِ العَداواتِ والشُّرورِ، مِن المُخاصَمةِ والمُقاتَلةِ وغَيرِ ذلك[٢].

عن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الشَّيطانَ قد أَيِسَ أن يَعبُدَه المصَلُّونَ في جزيرةِ العَرَبِ، ولكِنْ في التَّحريشِ بينهم))[٣].

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بينهم؛ لأنَّه كان لآدَمَ وذُرِّيَّتِه عَدُوًّا مُظهِرًا لشدَّةِ عَداوتِه، مِن حينِ امتِناعِه مِن السُّجودِ لآدَمَ وحَسَدِه له حتى أخرَجَه مِن الجنَّةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

(١) رواه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤١-٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧).

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما تركْتُه حتى فَرَّقتُ بينه وبين امرأتِه، قال: فيُدنيه منه ويَقولُ: نِعْمَ أنتَ!!))[1].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا الكَلامَ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٧-٤٨]؛ فإنَّ ذلك يَنطوي على ما هو شَأنُ نَجواهم من التَّصميمِ على العِنادِ، والإصرارِ على الكُفرِ، وذلك يَسُوءُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ويَحزُنُه أن لا يَهتَدوا، فوَجَّه هذا الكلامَ إليه تسليةً له، ويدُلُّ لذلك تَعقيبُه بقَولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[2].

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾.

أي: ربُّكم[3] أعلَمُ بمَن يَستَحِقُّ منكم الرَّحمةَ والهِدايةَ، ومَن لا يَستَحِقُّها، إنْ يَشَأْ رَحْمَتَكم بأنْ يُوَفِّقَكم لأسبابِها، تَهْتَدوا، أو إنْ يَشَأْ تعذيبَكم بأنْ يَخذُلَكم عن

(١) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).

(٣) قيل: الخِطابُ لِمُشركي قُرَيشٍ الذين قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤).
وممن قال به مِن السلفِ: عبدُ الملك بنُ جريج، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١).
وقيل: الخِطابُ للنَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧).

أسبابِ الرَّحمةِ، تَضِلُّوا[١].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

أي: وما أرسلناك -يا محمدُ- على مَن أرسلناك إليه؛ حافظًا وكفيلًا، فما وُكِل إليك إيمانُهم ولا مجازاتُهم، إنَّما أرْسَلناك إليهم؛ لتُبلِّغَهم رسالاتِنا، واللهُ تعالى إن شاء هداهم ورحِمهم، وإن شاء خَذَلهم وعذَّبهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بأن يَنسُبوا الأعلميَّةَ بهم إليه سُبحانَه، أخبَرَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال تعالى عاطِفًا على ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ إعلامًا بأنَّ عِلمَه ليس مَقصورًا عليهم بل هو مُحيطٌ، قاصِرًا الخِطابَ على أعلَمِ الخَلقِ به سُبحانَه؛ إشارةً إلى أنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٥).

يعلَمُ هذا حَقَّ عِلمِه غَيرُه[1]، فقال تعالى:

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحَمَّدُ- أعلَمُ بمَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ مِن خَلْقِه، فيَعلَمُ نِيَّاتِهم، وأحوالَهم وأعمالَهم، وآجالَهم، وما يُصلِحُهم، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ الرَّحمةَ منهم فيَهديه، ومَن يَستَحِقُّ منهم العَذابَ فيُضِلُّه ويُشقِيه، وذلك بحسَبِ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه[2].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٧].

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

أي: ولقد فضَّلْنا بعضَ الأنبياءِ على بَعضٍ، كتَفضيلِهم بالعِلمِ والكُتُبِ، والشَّرائِعِ والمُعجِزاتِ والخَصائِصِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال الواحدي: (كلامُ المفسِّرين في هذا يدُلُّ على أنَّ المعنى فيه: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم خُصَّ بفضيلة؛ فقال قتادة: نعم، فضَّل الله بعض النبيين على بعضٍ، فاتخذ إبراهيمَ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، وجعل عيسى كلمتَه ورُوحَه، وآتى سليمانَ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وآتى داود زبورًا، وغفر لمحمدٍ ما تقدمَ من ذنبِه وما تأخَّر). ((البسيط)) (١٣/ ٣٦٧).

وقال ابن عطية: (تفضيلُ بعض الرسل هو إمَّا بهذا الإخبار المجمَلِ دون أن يسمَّى المفضول، وعلى هذا يتَّجِه لنا أن نقولَ: محمد أفضلُ البشر، وقد نهى عليه السلامُ عن تعيين أحدٍ منهم في قصَّةِ موسى ويونس، وإمَّا أن يكون التفضيلُ مقسَّمًا فيهم: أُعطيَ هذا التكليمَ، وأُعطي هذا



كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

أي: وأعطَيْنا نَبيَّنا داوُدَ كِتابَ الزَّبورِ[١] وفضَّلْناه به؛ فليس للمُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُنكِروا تَفضِيلَنا له بالنبُوَّةِ والقُرآنِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ

الخُلَّة، ومحمَّدٌ الخُمُسَ، وعيسى الإحياءَ، فكلُّهم مفضولٌ على وجه فاضِلٌ على الإطلاق). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٤-٤٦٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (معلومٌ أنَّ المُرسَلينَ يتفاضَلونَ، تارةً في الكتُبِ المُنَزَّلةِ عليهم، وتارةً في الآياتِ والمُعجِزاتِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، وتارةً في الشَّرائِعِ وما جاؤوا به مِن العِلمِ والعَمَلِ، وتارةً في أُمَمِهم). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ١٣٣).

وقال ابنُ كثير: (هذا لا ينافي ما ثَبَت في الصَّحيحَينِ عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «لا تُفَضِّلوا بينَ الأنبياءِ»؛ فإنَّ المرادَ مِن ذلك هو التَّفضيلُ بمُجَرَّدِ التشَهِّي والعَصَبيَّة، لا بمُقتَضى الدَّليلِ؛ فإنَّه إذا دَلَّ الدَّليلُ على شيءٍ وَجَب اتِّباعُه... ولا خِلافَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُهم، ثمَّ بَعدَه إبراهيمُ، ثمَّ موسى، على المَشهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٧-٨٨). ويُنظر أيضًا: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٣٧)، فقد ذكَر في الجوابِ عن هذا الحديثِ خمسةَ أوجهٍ أُخرَى.

(١) قال القرطبي: (الزَّبورُ: كِتابٌ ليس فيه حَلالٌ ولا حَرامٌ، ولا فرائِضُ ولا حُدودٌ، وإنَّما هو دُعاءٌ وتحميدٌ وتَمجيدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨).

وقال ابن عاشور: (الزبورُ:... وهو المعروفُ اليومَ بكتابِ المزاميرِ مِن كُتبِ العهدِ القديمِ [على ما دخَلها مِن تحريفٍ]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

قال القرطبيُّ: (أيْ: كما آتَيْنا داودَ الزَّبورَ فلا تُنْكِروا أنْ يُؤْتَى مُحَمَّدٌ القرآنَ. وهو في مُحاجَّةِ اليَهودِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٨).

ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧-٢٠].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا جَرى ذِكْرُ الأفضَلِينَ من الأنبياءِ في أثناءِ آيةِ الرَّدِّ على المُشركينَ مقالتَهم في اصطفاءِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للرِّسالةِ، واصطفاءِ أتباعِه لولايتِه ودِينِه، وهي آيةُ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ إلى آخرِها [الإسراء: ٥٥]- جاءتِ المُناسَبةُ لرَدِّ مقالةٍ أُخرى من مقالاتِهم الباطلةِ، وهي اعتذارُهم عن عِبادةِ الأصنامِ بأنَّهم ما يَعْبدونَهم إلَّا ليُقرِّبوهم إلى اللهِ زُلْفى، فجَعلوهم عِبادًا مُقرَّبينَ ووسائِلَ لهم إلى اللهِ، فلمَّا جَرى ذِكرُ المُقرَّبينَ حقًّا؛ انتُهِزَت مُناسَبةُ ذِكرِهم؛ لِتَكونَ مَخلَصًا إلى إبطالِ ما ادَّعَوه من وسيلةِ أصنامِهم، فهذه الآيةُ متَّصِلةُ المعنى بآيةِ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] فبعد أن أبطَلَ أن يكونَ مع اللهِ آلهةٌ ببُرهانِ العَقلِ، عاد إلى إبطالِ إلهيَّتِهم المزعومةِ ببُرهانِ الحِسِّ، وهو مُشاهَدةُ أنَّها لا تُغني عنهم كَشفَ الضُّرِّ؛ فأصلُ ارتباطِ الكلامِ هكذا: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ ...﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية. فبمُناسبةِ الثَّناءِ عليهم بابتهالِهم إلى ربِّهم ذكَرَ ضِدَّ ذلك مِن دُعاءِ المُشرِكين آلهتَهم، وقَدَّم ذلك على الكلامِ الذي أثارَ المُناسَبةَ؛ اهتمامًا بإبطالِ فِعلِهم؛

ليكونَ إبطالُه كالغَرَضِ المقصودِ، ويكونَ ذِكرُ مُقابِلِه كالاستدلالِ على ذلك الغَرَضِ[1].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُشرِكينَ: ادعُوا الذينَ زَعَمتُم أنَّهم آلهةٌ مِن دُونِ اللهِ عندَ حُلولِ الشَّدائِدِ بكم، فانظُروا هل يَقدِرونَ على أن يُزيلُوا الضُّرَّ عنكم بالكُلِّيَّةِ، أو يُحَوِّلوه مِن حالٍ إلى حالٍ، فيُغيِّروا صفتَه أو قدرَه، أو يُحَوِّلوه إلى غَيرِكم[2]؛ فإنَّهم لا يَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحدَه، فإذا كانوا بهذه الصِّفةِ فلأيِّ شَيءٍ تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) وممَّن فسَّر قولَه تعالى: ﴿تَحْوِيلًا﴾: بأنَّه تحويلُ الضرِّ مِن شخصٍ إلى آخرَ: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨).

وممَّن فسَّره بأنَّه تحويلُ حالِ الشخصِ إلى حالٍ أُخرَى، كتحويلِ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفقرِ إلى الغنَى: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧٩).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: ابنُ تيميةَ، والشنقيطي.

قال ابنُ تيميَّةَ: (بيَّنَ أنَّهم لا يَملِكونَ كَشْفَ الضُّرِّ عن الدَّاعِينَ ولا تَحويلَه؛ لا يَرفَعونَه بالكُلِّيَّةِ، ولا يُحَوِّلونَه مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ، أو مِن حالٍ إلى حالٍ، كتَغييرِ صِفتِه أو قَدْرِه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذُكِرَ نَكِرةً تَعُمُّ أنواعَ التَّحويلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، أي: تحويلَه من إنسانٍ إلى آخرَ، أو تحويلَ المرضِ إلى الصحَّةِ، والفَقرِ إلى الغنى، والقحطِ إلى الجدبِ، ونحو ذلك). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾.

أي: أولئك الذين يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّهم آلِهةٌ مِن دُونِ اللهِ، مِن المَلائِكةِ والأنبياءِ، والصَّالحينَ مِن الإنسِ والجِنِّ، هم أنفُسُهم يَطلُبُونَ التقرُّبَ إلى اللهِ بطاعَتِه مِن الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، ويَدْعونَه ويَستَعيذونَ به وَحْدَه؛ فلماذا يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ[1]؟!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ قال: (كان نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ أسلَمُوا، وكانوا يُعبَدونَ، فبَقِيَ الذين كانوا يَعْبُدونَ على عِبادتِهم، وقد أسلَمَ النَّفَرُ مِن الجِنِّ)[2].

﴿ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾.

أي: يَتنافَسونَ في عبادةِ اللهِ والاجتهادِ في طاعتِه مُنافَسةَ مَن يَطلُبُ أن يكونَ إليه أقرَبَ مِن الآخَرينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال ابنُ عطيةَ: (والضَّميرُ في ﴿رَبِّهِمُ﴾ للمتَّبَعينَ أو للجَميعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٥-٤٦٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٥)، ومسلم (٣٠٣٠) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٠)، ((تفسير

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾.

أي: ويَرجُونَ بعِبادتِهم اللهَ رَحمَتَه، فيَبذُلونَ ما يَقدِرونَ عليه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المُقَرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وإلى رَحمتِه، ويخافونَ عَذابَه، فيَجتَنِبونَ كُلَّ ما يُوصِلُ إلى عذابِه، فكيف يَعبُدُهم المُشرِكونَ، وتلك هي حالُهم[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم علَّل خوفَهم بأمرٍ عامٍّ، فقال تعالى[(٢)]:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

أي: إنَّ عذابَ ربِّك -يا مُحمَّدُ- كان مُتَّقًى مَخُوفًا، لا أمانَ لأحدٍ منه؛ فمُلازَمةُ الحَذَرِ مِن الوُقوعِ في أسبابِه تنبغي لكُلِّ أحَدٍ مِن مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ونَبيٍّ مُرسَلٍ، فضلًا عن غَيرِهم[(٣)].

السعدي)) (ص: ٤٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (و﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ خيرٍ. ﴿وَعَذَابَهُۥٓ﴾ اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ شَرٍّ. ودارُ الرَّحمةِ الخالِصةِ هي الجنَّةُ، ودارُ العذابِ الخالِصِ هي النَّارُ، وأمَّا الدُّنيا فدارُ امتزاجٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٧-٢٨].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فيه الأمرُ بحُسنِ العِشرةِ بين المُؤمِنينَ، وخَفضِ الجَناحِ ولِينِ الجانِبِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هذا أمرٌ بكُلِّ كَلامٍ يُقَرِّبُ إلى اللهِ؛ مِن قراءةٍ وذِكرٍ وعِلمٍ، وأمرٍ بمَعروفٍ ونَهيٍ عن مُنكَرٍ، وكلامٍ حَسَنٍ لطيفٍ مع الخَلقِ على اختلافِ مراتِبِهم ومَنازِلِهم(٢).

٣- إذا دار الأمرُ بينَ أمرَينِ حَسَنينِ؛ فإنَّه يُؤمَرُ بإيثارِ أحسَنِهما إن لم يُمكِنِ الجَمعُ بينهما؛ نستفيدُ ذلك مِن قَولِ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ هذا تأديبٌ عَظيمٌ في مُراقَبةِ اللِّسانِ وما يَصدُرُ منه(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ فالشَّيطانُ يَنزَغُ بينهم إذا كَلَّمَ بَعضُهم بعضًا بغيرِ التي هي أحسَنُ، فرُبَّ حَربٍ وَقُودُها جُثَثٌ وهامٌ(٥)، أهاجَها القَبيحُ مِن الكلامِ(٦).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣١).

(٥) هامٌ: جمعُ هامةٍ، وهي الرأسُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٠).

(٦) يُنظر: ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ٤١).

ﵟٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗاﵞ لَمَّا كان ضميرُ ﵟبَيۡنَهُمۡﵞ عائدًا إلى ﵟعِبَادِيﵞ، كان المعنى فيه التَّحذيرَ مِن إلقاءِ الشَّيطانِ العَداوةَ بين المُؤمِنينَ؛ تحقيقًا لمَقصِدِ الشَّريعةِ مِن بَثِّ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

٧- قَولُه تعالى: ﵟوَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُﵞ ذِكرُ الحُجَّةِ ينبغي ألَّا يكونَ مَخلوطًا بالشَّتمِ والسَّبِّ، ونظيرُ هذه الآيةِ قَولُه تعالى: ﵟٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُﵞ [النحل: ١٢٥]، وقَولُه: ﵟوَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُﵞ [العنكبوت: ٤٦]؛ وذلك لأنَّ ذِكرَ الحُجَّةِ لو اختلَطَ به شَيءٌ مِن السَّبِّ والشَّتمِ، لحصَلَت المقابلةُ بمِثلِه، كما قال: ﵟوَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖﵞ [الأنعام: ١٠٨] ويزدادُ الغَضَبُ وتتكامَلُ النُّفرةُ ويمتَنِعُ حُصولُ المقصود، أمَّا إذا وقع الاقتصارُ على ذِكرِ الحُجَّةِ بالطَّريقِ الأحسَنِ الخالي عن الشَّتمِ والإيذاءِ، أثَّرَ في القلبِ تأثيرًا شديدًا(٢).

٨- قال تعالى: ﵟأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُﵞ وعلامةُ المحبَّةِ ما ذكَرَه اللهُ: أن يجتَهِدَ العَبدُ في كُلِّ عَملٍ يقرِّبُه إلى الله، ويُنافِسَ في قُربِه بإخلاصِ الأعمالِ كُلِّها لله، والنُّصحِ فيها وإيقاعِها على أكمَلِ الوجوهِ المقدورِ عليها، فمَن زعَمَ أنَّه يحِبُّ اللهَ بغيرِ ذلك فهو كاذِبٌ(٣).

٩- الحُبُّ والخَوفُ والرَّجاءُ: هذه الثَّلاثةُ هي التي تَبعَثُ على عِمَارةِ الوَقتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٥).
(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

بما هو الأَوْلى لصاحِبِه والأنفَعُ له، وهي أساسُ السُّلوكِ والسَّيرِ إلى اللهِ، وقد جَمَعَ اللهُ سُبحانَه الثَّلاثةَ في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ فابتغاءُ الوَسيلةِ هو مَحَبَّتُه الدَّاعيةُ إلى التقرُّبِ إليه، ثمَّ ذكَرَ بَعدَها الرَّجاءَ والخَوفَ، وهذه الثَّلاثةُ هي قُطبُ رَحَى العُبوديَّةِ، وعليها دارَتْ رَحَى الأعمالِ، وهي الأصلُ والمادةُ في كلِّ خيرٍ، فمَن تمَّت له تمَّت له أمورُه، وإذا خلا القلبُ منها ترحَّلت عنه الخيراتُ، وأحاطَتْ به الشرورُ، قال بَعضُ السَّلَفِ: (مَن عَبَدَ اللهَ تعالى بالحُبِّ وَحْدَه فهو زِنديقٌ، ومَن عَبَدَه بالخَوفِ وَحْدَه فهو حَرُوريٌّ، ومَن عبَدَه بالرَّجاءِ وَحْدَه فهو مُرْجِئٌ، ومَن عبَدَه بالحُبِّ والخَوفِ والرَّجاءِ فهو مُؤمِنٌ)[1].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تَتِمُّ العِبادةُ إلَّا بالخَوفِ والرَّجاءِ؛ فبالخَوفِ يَنكَفُّ عن المناهي، وبالرَّجاءِ يَنبَعِثُ على الطَّاعاتِ[2].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، قال سَهلُ بنُ عبدِ اللهِ: (الرَّجاءُ والخَوفُ مِيزانانِ على الإنسانِ، فإذا استوَيَا استقامَت أحوالُه، وإن رجَحَ أحَدُهما بطَلَ الآخَرُ)[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ علَّقَ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠).

سُبحانَه وتعالى الرَّحمةَ بالمَشيئةِ كما عَلَّقَ التَّعذيبَ، وما تعلَّقَ بالمشيئةِ مِمَّا يتَّصِفُ به الرَّبُّ فهو مِن «الصِّفاتِ الاختياريَّةِ»(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فيه سؤالٌ: ما السَّبَبُ في تخصيصِ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا المقامِ بالذِّكرِ؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الله تعالى ذكَرَ أنَّه فضَّلَ بعضَ النبيِّينَ على بعضٍ، ثمَّ قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾، يعني: أنَّ داود كان مَلِكًا عَظيمًا، ثمَّ إنَّه تعالى لم يذكُرْ ما آتاه مِن المُلكِ وذكَرَ ما آتاه مِن الكِتابِ؛ تنبيهًا على أنَّ التَّفضيلَ الذي ذكَرَه قبل ذلك المرادُ منه التَّفضيلُ بالعِلمِ والدِّينِ لا بالمالِ.

الوجه الثاني: أنَّ السَّبَبَ في تخصيصِه بالذِّكرِ أنَّه تعالى كتَبَ في الزَّبورِ أنَّ مُحمَّدًا خاتَمُ النبيِّين، وأنَّ أمَّتَه خَيرُ الأمَمِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهم مُحمَّد وأمَّتُه.

الوجه الثالث: أنَّ السَّببَ فيه أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ ما كانوا أهلَ نظَرٍ وجَدَلٍ، بل كانوا يرجِعون إلى اليهودِ في استِخراجِ الشُّبُهاتِ، واليهودُ كانوا يقولون: إنَّه لا نبيَّ بعد موسى ولا كِتابَ بعد التَّوراةِ، فنقَضَ اللهُ تعالى عليهم كلامَهم بإنزالِ الزَّبورِ على داودَ(٢).

الوجه الرابع: أنَّه اجتمَعَ له ما لم يجتَمِعْ لِغَيرِه من الأنبياءِ، وهو الرِّسالةُ والكتابةُ والخَطابةُ، والخِلافةُ والمُلك والقَضاءُ، في زمَنٍ واحدٍ؛ قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٦).

خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾[١] [ص: ٢٦].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فيه سؤالٌ: لَمَ نَكَّر الزَّبورَ هنا، وعَرَّفه في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؟

الجوابُ مِن وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ التنكيرَ هاهنا يدُلُّ على تعظيمِ حالِه؛ لأنَّ الزَّبورَ عِبارةٌ عن المزبورِ، فكان معناه الكِتابَ، فكان معنى التنكيرِ أنَّه كامِلٌ في كونِه كِتابًا[٢].

الوجه الثاني: أنَّه يجوزُ أن يكونَ الزَّبورُ مِن الأعلامِ التي يُستعمَلُ بـ «أل» وبدونِها، كـ (العبَّاس)، و(الفضل).

الوجه الثالث: يجوزُ أن يكونَ نكَّرَه في موضِعِ تنكيرِه، بمعنى: آتيناه بعضَ الزُّبُرِ وهي الكُتُبُ، أو أراد به ما فيه ذِكرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الزَّبورِ، فسمَّى بعضَ الزَّبورِ زَبورًا، كما سَمَّى بعضَ القُرآنِ قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[٣] [الإسراء: ١٠٦].

٤- وقال: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ مع أنَّ المُشركينَ ما زَعَموا غيرَ اللهِ إلهًا دونَ اللهِ، بلْ مع اللهِ على وجْهِ الشَّركةِ؛ لأنَّ في الكلامِ تَقديمًا وتأخيرًا، تَقديرُه: (قُلِ ادْعوا الَّذين من دونِ اللهِ زَعْمتم أنَّهم شُركاءُ)[٤].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٦).
(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٧-٣٢٨).
(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

٥- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ فذِكْرُ المقاماتِ الثَّلاثةِ: الحُبُّ -وهو ابتِغاءُ القُربِ إليه، والتوسُّلُ إليه بالأعمالِ الصَّالحةِ-، والرَّجاءُ والخَوفُ؛ يدُلُّ على أنَّ ابتغاءَ الوَسيلةِ أمرٌ زائِدٌ على رجاءِ الرَّحمةِ وخَوفِ العَذابِ، ومِن المعلومِ قَطعًا أنَّك لا تتنافَسُ إلَّا في قُربِ من تحِبُّ قُربَه، وحُبُّ قُربِه تَبَعٌ لمحبَّةِ ذاتِه، بل محبَّةُ ذاتِه أوجبت محبَّةَ القُربِ منه. وعند الجهميَّةِ والمُعطِّلة: ما من ذلك كُلِّه شَيءٌ! فإنَّه عندهم لا تَقرُبُ ذاتُه مِن شَيءٍ، ولا يَقرُبُ مِن ذاتِه شيءٌ، ولا يُحَبُّ لِذاتِه، ولا يحِبُّ! فأنكروا حياةَ القلوبِ، ونعيمَ الأرواحِ، وبَهجةَ النُّفوسِ، وقُرَّةَ العيونِ، وأعلى نعيمِ الدُّنيا والآخرةِ؛ ولذلك ضُرِبَت قلوبُهم بالقَسوةِ، وضُرِبَت دونَهم ودونَ الله حُجُبٌ على معرفتِه ومحبَّتِه، فلا يَعرِفونَه ولا يحبُّونَه، ولا يذكرونَه إلَّا عند تعطيلِ أسمائِه وصفاتِه[1]!

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بقولِ الَّتي هي أحسَنُ، والمقصودُ من التَّعليلِ: ألَّا يَستَخِفُّوا بفاسدِ الأقوالِ؛ فإنَّها تُثِيرُ مفاسدَ من عمَلِ الشَّيطانِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿يَنزَغُ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٢).

بَيْنَهُمْ ﴾، وعِلَّةُ العلَّةِ علَّةٌ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ أُتِيَ بالمُسنَدِ إليه بلفْظِ الرَّبِّ ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ مُضافًا إلى ضَميرِ المُؤمنينَ الشَّاملِ للرَّسولِ؛ تَذكيرًا بأنَّ الاصطفاءَ للخيرِ شأْنٌ مِن معنى الرُّبوبيَّةِ الَّتي هي تَدبيرُ شُؤونِ المرْبوبينَ بما يَليقُ بحالِهم؛ ليكونَ لإيقاعِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه بعدَ ذلك بقولِه: ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ وقْعٌ بَديعٌ؛ لأنَّ الَّذي هو الرَّبُّ هو الَّذي يكونُ أعلَمَ بدَخائلِ النُّفوسِ وقابليَّتِها للاصطفاءِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ مُبيِّنةٌ للمقصودِ من جُملةِ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، والرَّحمةُ والتَّعذيبُ مُكنًّى بهما عن الاهتداءِ والضَّلالِ؛ بقرينةِ مُقارنتِه لقولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ الَّذي هو كالمُقدِّمةِ، وسلَكَ سبيلَ الكِنايةِ بهما لإفادةِ فائدتينِ: صَريحِهما وكِنايتِهما، ولإظهارِ أنَّه لا يُسْأَلُ عمَّا يفعَلُ؛ لأنَّه أعلَمُ بما يَليقُ بأحوالِ مَخلوقاتِه[(٣)].

- وفائدةُ ذِكْرِ شرْطِ المشيئةِ هنا ﴿إِن يَشَأْ﴾: التَّعليمُ بأنَّه تعالى لا مُكرِهَ له، فجمَعَتِ الآيةُ الإشارةَ إلى صِفَةِ العلمِ والحكمةِ، وإلى صِفَةِ الإرادةِ والاختيارِ. وإعادةُ شرْطِ المشيئةِ في الجُملةِ المعطوفةِ -﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾-؛ لتأكيدِ تَسلُّطِ المشيئةِ على الحالتينِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٥).

- وفي قولِه: ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ جِيءَ بالعطفِ بحرْفِ (أو) الدَّالَّةِ على أحَدِ الشَّيئينِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ والتَّعذيبَ لا يَجتمعانِ؛ فـ(أو) للتَّقسيم[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ زِيادةٌ لبيانِ أنَّ الهِدايةَ والضَّلالَ من جعْلِ اللهِ تَعالى، وأنَّ النَّبيَّ غيرُ مَسؤولٍ عن استمرارِ مَن استمَرَّ في الضَّلالةِ؛ إزالةً للحرَجِ عنه فيما يجِدُه من عدَمِ اهتداءِ مَن يَدْعوهم، أي: ما أرسَلْناك لتُجْبِرَهم على الإيمانِ، وإنَّما أرسلناك داعيًا، والمعنى: أرسَلْناك نَذيرًا وداعيًا لهم، وما أرسلناك عليهم وكيلًا، فيُفيدُ معنى القصْرِ؛ لأنَّ كونَه داعيًا ونذيرًا معلومٌ بالمُشاهَدةِ، فإذا نُفِيَ عنه أنْ يكونَ وكيلًا ومُلْجِئًا آلَ إلى معنى: ما أنت إلَّا نَذيرٌ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿وَكِيلٗا﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ هذا انتقالٌ من الخُصوصِ إلى العُمومِ؛ بعدما ذكَرَ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن خاطَبَهم بقولِه: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾، فقال مُخاطِبًا لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾؛ ليُبيِّنَ أنَّ علْمَه غيرُ مقصورٍ عليكم، بلْ علْمُه مُتعلِّقٌ بجميعِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ بأحوالِهم ومقاديرِهم، وما يستأهِلُ كلَّ واحدٍ منهم[(٤)]. وقولُه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٦٨).

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كالمُقدِّمةِ لقولِه: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ؛ أعاد تَذكيرَهم بأنَّ اللهَ أعلَمُ منهم بالمُستأهِلِ للرِّسالةِ بحسَبِ ما أعدَّه اللهُ فيه مِن الصِّفاتِ القابلةِ لذلك. وكان الحكمُ في هذه المُقدِّمةِ على عُمومِ الموجوداتِ؛ لتكونَ بمنزلةِ الكُليَّةِ الَّتي يُؤْخَذُ منها كلُّ حُكمٍ لجُزئيَّاتِها؛ لأنَّ المقصودَ بالإبطالِ مِن أقوالِ المُشركينَ جامعٌ لصُورٍ كثيرةٍ من أحوالِ الموجوداتِ مِن البشرِ والملائكةِ وأحوالِهم؛ لأنَّ بعضَ المُشركينَ أحالوا إرسالَ رسولٍ من البشَرِ، وبعضَهم أحالوا إرسالَ رسولٍ ليس من عُظمائِهم، وبعضَهم أحالوا إرسالَ مَن لا يأتي بمثْلِ ما جاء به مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك يثيرُ أحوالًا جمَّةً من العُصورِ والرِّجالِ والأُمَمِ أحياءً وأمواتًا؛ فلا جرَمَ كان للتَّعميمِ موقعٌ عظيمٌ في قولِه: ﴿بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو أيضًا كالمُقدِّمةِ لجُملةِ ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾، مُشيرًا إلى أنَّ تفاضُلَ الأنبياءِ ناشئٌ على ما أودَعه اللهُ فيهم من مُوجِباتِ التَّفاضُلِ، وهذا إيجازٌ تضمَّنَ إثباتَ النُّبوَّةِ وتَقرُّرَها فيما مَضى ممَّا لا قِبَلَ لهم بإنكارِه[1].

- وفي تَغييرِ أُسلوبِ الخطابِ أيضًا في قولِه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ﴾ بعدَ قولِه: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ الغرضَ من هذه الجُملةِ عائدٌ إلى شأْنٍ من شُؤونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي لها مَزيدُ اختصاصٍ به، تَقفيةً على إبطالِ أقوالِ المُشركينَ في شُؤونِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، بإبطالِ أقوالِهم في أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٣٦).

عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿مِّن دُونِهِۦ ﴾، وقال في سُورةِ (سبأٍ): ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فورَدَ اسمُ الجَلالةِ مُضمرًا في قولِه: ﴿مِّن دُونِهِۦ ﴾ في سُورةِ (الإسراءِ)، ومُظهَرًا في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ في السُّورةِ الأُخرى؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا قرُبَ مرجِعُه هنا في سُورةِ (الإسراءِ)، وهو الرَّبُّ في قولِه المُتقدِّمِ ذِكْرُه في الآيةِ الأُولى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ﴾؛ عُبِّرَ عنه مُضمَرًا مُناسبةً، ولم يكُنْ ليُناسِبَ الظَّاهِرُ هنا، ولمَّا بَعُدَ مرجِعُ الضَّميرِ في سُورةِ (سبَأٍ) لو أُتِيَ به، أُتِيَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ فآيةُ سبأٍ تقدَّمَ قبلَها قولُه تَعالى مُخبِرًا عن الكافرينَ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثمَّ قال بعدَ آيةٍ من تَمامِ الآيةِ الَّتي قبلَها: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فجِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ ليكونَ أبعَدَ على إيهامِ عودةِ الضَّميرِ ورُجوعِه إلى المُتَّبَعِ لهم في الآيةِ المُتقدِّمةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ(١).

- ومن المُناسبةِ الحَسنةِ أيضًا: وُرودُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ قبلَ قولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾، بينما ورَدَ قبلَ آيةِ (سبأٍ) قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]؛ فخُصَّت آيةُ (سبَأٍ) بعودةِ الاسمِ ظاهرًا دونَ آيةِ (الإسراءِ)؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه ورَدَ ذِكْرُه في (الإسراءِ) مُحذَّرًا منه موصوفًا بنَزغِه وعداوتِه، مع أنَّ الآيةَ خِطابٌ بأمْرِ المُؤمنين بقولِه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢-٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

٥٣]، والإضافةُ في قولِه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ إضافةُ تَخصيصٍ، والأمْرُ أمْرٌ بما هو أوْلى، وليس يُواجَهُ ولا يُخاطَبُ بها إلَّا المُؤمنون، ثمَّ إنَّها أُتْبِعَت بما يُلائِمُ الآيةَ المُتكلَّمَ فيها أجَلَّ مُلاءمةٍ. وأمَّا وُرودُ ذكْرِ إبليسَ في سُورةِ (سبَأٍ) فمُتَّصلٌ بالآيةِ، وإبليسُ فيها موصوفٌ بأنَّه اتُّبِعَ، وأنَّه صدَّقَ ظنَّه على المذكورينَ، والآيةُ إخبارٌ عن الكُفَّارِ، والكلامُ كلُّه إعلامٌ بحالِهم إلى قولِه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ [سبأ: ٢٢]، فهذا الاعتراضُ غيرُ لازمٍ، ووُرودُ كلٍّ من الآيتينِ على أعلى تناسُبٍ وأجَلِّ مُلاءمةٍ، ولو قُدِّرَ عكْسُ الواردِ لَما صَحَّ على الجاري المُطَّردِ في نظْمِ الكتابِ العزيزِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ ذُكِرَ خوفُ العذابِ بعدَ رجاءِ الرَّحمةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في موقفِ الأدبِ مع ربِّهم، فلا يَزيدُهم القُربُ من رِضاهُ إلَّا إجلالًا له، وخوفًا من غضَبِه. وهو تَعريضٌ بالمُشركين الَّذين رَكِبوا رُؤوسَهم، وتوغَّلوا في الغُرورِ، فزَعموا أنَّ شُركاءَهم شُفعاؤُهم عند اللهِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ تَذييلٌ[3].



(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) (٢/ ٣١٢-٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٤١).

الآيات (٥٨-٦٠)

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسْطُورًا﴾: أي: مَكتوبًا مَحفوظًا، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[1].

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا وابتِلاءً، مِن الفَتنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[2].

﴿طُغْيَانًا﴾: أي: تماديًا وغَيًّا، والطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يتوعَّدُ اللهُ الكفَّارَ بأنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ مُكَذِّبةٍ للرُّسُلِ إلَّا وسيُنزِلُ بها عقابَه بالهلاكِ في الدُّنيا قبلَ يومِ القيامةِ، أو بالعذابِ الشَّديدِ لأهلِها، كتابٌ كتبَه اللهُ وقَضاءٌ أبرَمَه لا بُدَّ مِن وقوعِه، وهو مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

ثم يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على هذه الأُمةِ، فيقولُ: وما منعَنا مِن إنزالِ المُعجِزاتِ التي سألها المُشرِكون إلَّا تكذيبُ مَن سبقَهم من الأُمَم، فقد أجابهم اللهُ إلى ما طَلَبوا فكذَّبوا وهَلَكوا.

ثمَّ ذكَر الله تعالى مثالًا على ذلك؛ قومَ صالحٍ، فقال: وأعطَينا ثمودَ -وهم قَومُ صالحٍ- النَّاقةَ مُعجِزةً واضِحةً لهم، فكَفَروا بها فأهلَكْناهم. وما نرسِلُ بالآياتِ إلَّا تخويفًا للعبادِ؛ لِيَعتَبِروا ويتذَكَّروا.

ثمَّ ذكَر تعالى ما يزيدُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثباتًا، ويقينًا، فقال: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قُلْنا لك: إنَّ رَبَّك أحاط بالنَّاسِ عِلمًا وقُدرةً، وما جعَلْنا الرُّؤيا التي أريناكها عِيانًا ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ إلَّا اختِبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتمَيَّزَ كافِرُهم مِن مُؤمِنِهم، وما جعَلْنا شَجَرةَ الزقُّومِ الملعونةَ التي ذُكِرَت في القرآنِ إلَّا ابتلاءً للنَّاسِ، ونخوِّفُ المُشرِكين بأنواعِ العذابِ والآياتِ، ولا يزيدُهم التَّخويفُ إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ [الإسراء: ٥٧]، بيَّن أنَّ كُلَّ قريةٍ من قرى الكفارِ مع أهلِها فلا بدَّ أن يرجِعَ حالُها إلى أحَدِ أمرَينِ: إمَّا الإهلاكِ، وإمَّا التَّعذيبِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨).

وأيضًا لما عَرَّض بالتَّهديدِ للمشركينَ في قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، وتحدَّاهم بقولِه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٦] جاء بصريحِ التَّهديدِ على مَسْمَعٍ منهم[1]، فقال:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: وما مِن قَريةٍ مِن القُرَى إلَّا سنُهلِكُ أهلَها بعذابِ الاستِئصالِ قبلَ وُقوعِ يومِ القيامةِ، أو نعَذِّبُهم عذابًا شَديدًا بتَسليطِ عَدُوٍّ عليهم، أو بإصابتِهم بالجُوعِ أو بالخَوفِ أو بالأمراضِ وغَيرِها؛ وذلك بسَببِ كُفرِهم أو عِصيانِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

ممن اختار أنَّ المرادَ بالقرَى هنا: القُرى الكافرةُ الظالمةُ: القصَّاب، والخازن، وابنُ كثير، والبقاعي، وأبو السعودِ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العلمِ: في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفُ الصِّفةِ، أي: وإنْ مِنْ قريةٍ ظالمةٍ إلَّا نحنُ مُهْلِكوها. وهذا النعتُ المحذوفُ دَلَّتْ عليه آياتٌ مِنْ كتابِ الله تعالَى؛ كقولِه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، أي: بل لا بُدَّ أنْ تُنذِرَهم الرُّسلُ فيكفُروا بهم وبربِّهم، وقولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وقولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وممن اختار أنَّ المرادَ عمومُ القرى: ابن جرير، والزجاج، والسمعاني، وابن عطية، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وأبو حيان، والثعالبي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧١)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٩٦).

قال مقاتلُ بنُ سليمان، والسمعاني، وابنُ الجوزي: القريةُ الصالحةُ هلاكُها بالموت، والعاصيةُ بالعذابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣).

وقال ابنُ عطية: (وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ ...﴾ الآية: أخبَر الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه ليس مدينةٌ مِن المدنِ إلا هي هالكةٌ قبلَ يوم القيامةِ بالموتِ والفناءِ، هذا مع السلامةِ وأخذِها جزءًا جزءًا، أو هي معذبةٌ مأخوذةٌ مرةً واحدةً، فهذا عمومٌ في كلِّ مدينةٍ. و﴿مِّن﴾ لبيان الجنس). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٦).

وقال ابنُ جزي: (يحتمِلُ هذا الهلاكُ وجهين:

أحدهما: أن يكونَ بالموتِ والفناءِ الذي لا بدَّ منه، والآخرُ أن يكونَ بأمرٍ مِن الله، يأخذُ المدينةَ دفعةً فيهلكُها، وهذا أظهرُ؛ لأن الأولَ معلومٌ لا يفتقرُ إلى الإخبارِ به، والهلاكُ والتعذيبُ المذكورانِ في الآيةِ هما في الحقيقةِ لأهلِ القرى، أي: مهلكو أهلِها أو معذِّبوهم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٤٩).

وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۞ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾.

أي: إنَّ هَلاكَ كُلِّ قَريةٍ أو تعذيبَها بعذابٍ شَديدٍ قبلَ يومِ القيامةِ أمرٌ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا محالةَ[1].

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّليلَ على فسادِ قَولِ المُشرِكين، وأتبَعَه بالوَعيدِ؛ أتبَعَه بذِكرِ مَسألةِ النبُوَّةِ[2].

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.

سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((سأل أهلُ مكَّةَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَجعلَ لهم الصَّفا ذهبًا، وأن يُنَحِّيَ الجبالَ عنهم فيَزدَرِعوا، فقيل له: إنْ شِئتَ أن تَستأنِيَ بهم، وإن شِئتَ أن تُؤتيَهم الذي سألوا، فإن كفَروا أُهلِكوا كما أهلكْتُ مَن قبلَهم، قال: لا، بل أستأني بهم، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾))[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٣٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٢٩٠).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾.

أي: وما منَعَنا أن نأتيَ بالآياتِ التي يقترِحُها كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- إلَّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكَذَّبوا فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك -يا محمَّدُ- استحَقُّوا ما استحَقَّه أولئك مِن الهلاكِ والعذابِ؛ فليس لهم مَصلحةٌ في الإرسالِ بها، بل حِكمتُه سُبحانَه تأبى ذلك[1].

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بأنَّ الأوَّلينَ كذَّبوا بالآياتِ المُقترَحةِ؛ عيَّنَ منها ناقةَ صالحٍ؛ لأنَّ آثارَ ديارِهم الهالكةِ باقيةٌ في بلادِ العربِ، قَريبةٌ من حُدودِهم، يُبْصِرُها صادِرُهم ووارِدُهم[2].

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾.

أي: وآتَينا ثمودَ النَّاقةَ آيةً وحُجَّةً واضِحةً مُوجِبةً للتبصُّرِ واليقينِ، ودالَّةً على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه، وصِدقِ رَسولِه صالحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكَفَروا باللهِ، ووقَعوا في الظُّلمِ بقَتلِها، فلمَّا لم يُؤمِنوا كان في إجابتِهم إلى ما سألوا من الآياتِ هلاكُهم واستِئصالُهم[3]!

صحَّحه الذهبي في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٣)، وجوَّد إسنادَه ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/ ٤٩)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ٩٦)، وقال الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٧/ ١١٥٩): (رجالُه ثقاتٌ رِجالُ الشيخين، فهو على شرطِهما).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٣، ١٤].

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾.

أي: وما نُرسِلُ بالآياتِ الموجبةِ للعِبَرِ والعِظاتِ إلَّا تَخويفًا للعبادِ؛ ليُؤمِنوا، ويرتَدِعوا عمَّا هم عليه(١).

ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٣، ١٤٤).
قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: وقد سأل الآياتِ -يا محمَّدُ- مِن قَبلِ قَومِك ثمودُ، فآتيناها ما سألَتْ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٧).
وقال السمعاني: (﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ أي: آيةً نيِّرةً مُضيئةً، أو: آية يُبصَرُ بها الحقُّ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٩١)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).
واختُلِف في المرادِ بالآياتِ هنا؛ فقيل: هي معجزاتُ الرسلِ. وقيل: هي آياتٌ معها إمهالٌ لا معاجلةٌ، فمِن ذلك الكسوفُ والرعدُ والزلزلةُ. وقيل: هي الموتُ الذريعُ. وقيل: هي تقلُّبُ أحوالِ الإنسانِ مِن الصغرِ إلى المشيبِ. وذلك على اعتبارِ أن هذه الآياتِ غيرُ الآياتِ المقترحةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٦٧).
قال ابنُ القيم: (هذا يعمُّ آياتِه التي تكونُ مع الرسُلِ، والتي تقع بعدَهم في كلِّ زمان؛ فإنَّه سبحانه لا يزالُ يُحدِثُ لعبادِه من الآياتِ ما يخوِّفُهم بها ويذكِّرُهم بها، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]). ((شفاء العليل)) (ص: ١٩٧).

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ فقام النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَزِعًا، يخشَى أن تكونَ السَّاعةُ! فأتَى المسجِدَ فصَلَّى بأطوَلِ قيامٍ ورُكوعٍ وسُجودٍ رأيتُه قطُّ يفعَلُه، وقال: هذه الآياتُ التي يُرسِلُ اللهُ لا تكونُ لِموتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ يخَوِّفُ اللهُ به عِبادَه، فإذا رأيتُم شيئًا مِن ذلك فافزَعوا إلى ذِكرِه، ودُعائِه، واستِغفارِه))[١].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا طالبوا الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ المقترحةِ، وأخبَر الله بالمصلحةِ في عدمِ المجيءِ بها طعَن الكفارُ فيه، وقالوا: لو كان رسولًا حقًّا لأتَى بالآياتِ المقترحةِ؛ فبيَّن الله أنَّه ينصرُه ويؤيِّدُه، وأنَّه أحاطَ بالناسِ[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾.

أي: وإذْ قُلْنا لك[٣]- يا محمَّدُ: إنَّ رَبَّك مُحيطٌ بالنَّاسِ بقُدرتِه وعِلمِه؛ فهم في

وقيل: المرادُ بالآياتِ هنا: الآياتُ المقترحةُ، أي: لا نرسلُ الآياتِ المقترحةَ إلَّا تخويفًا مِن نزولِ العذابِ، فإن لم يخافوا وقَع عليهم.

وممَّن اختار هذا القولَ: الخازنُ، والشوكاني، والقاسمي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشورٍ. ينظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤).

وقيل: المرادُ: الآياتُ المقترحاتُ وغيرُها، وممن اختاره البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٦).

(١) رواه البخاري (١٠٥٩) واللفظ له، ومسلم (٩١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٣).

(٣) قال الشوكاني: (الظَّرفُ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: اذكُرْ إذ قُلْنا لك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٨٣).

قَبضتِه، وتحتَ مَشيئتِه، واللهُ يعصِمُك منهم حتى تبَلِّغَ رِسالتَه؛ فلا تَخشَ منهم أحدًا، وامضِ لِما أمَرْناك به مِن تبليغِ رِسالتِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

أي: وما جعَلْنا رُؤيا عَينيك -يا محمَّدُ- التي أريناكَ ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن الغَرائبِ والعَجائِبِ إلَّا اختبارًا وبلاءً للنَّاسِ؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُك ومَن يُكَذِّبُك(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ - ١٨].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: (هي رُؤيا عينٍ، أُريَها رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةَ أُسرِيَ به إلى بيتِ المقدِسِ)(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩١، ٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٤٦، ٦٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).

قال البقاعي: (ليتبيَّنَ بذلك في عالَمِ الشهادة المتَّقي المحسِنُ، والجاهِلُ المسيءُ، كما هو عندنا في عالَمِ الغيبِ، فنقيمَ بها عليهم الحُجَّةَ، لا ليؤمِنَ أحدُ مَن حَقَّت عليهم الكَلِمةُ، ولا لنزدادَ نحن علمًا بسرائِرِهم). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٨).

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾.

أي: وما جعَلْنا الشَّجَرةَ الملعونةَ[١] في القُرآنِ -وهي شَجرةُ الزقُّومِ النابتةُ في الجَحيمِ- إلَّا فِتنةً للنَّاسِ أيضًا؛ ليتبيَّنَ مَن يُصَدِّقُ بها، ومَن يكَذِّبُ ويَستهزِئُ بها؛ إذ قال المُشرِكون: يخبِرُنا مُحمَّدٌ أنَّ في النَّارِ شَجرةً نابتةً، والنَّارُ تأكُلُ الشَّجَرَ، فكيف تَنبُتُ فيها[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا

---

(١) قال البقاعي: (﴿الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ بكونِها ضارَّةً، والعرَبُ تسَمِّي كُلَّ ضارٍّ مَلعونًا، وبكونِها في دارِ اللَّعنةِ، وكُلُّ مَن له عَقلٌ يريدُ بُعْدَها عنه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٥٩).
وقال ابن عاشور: (والملعونة، أي: المذمومة في القرآنِ، في قَولِه: ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٤]، وقَولِه: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، وقولِه: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٥- ٤٦]. وقيل: معنى الملعونة: أنَّها موضوعةٌ في مكانِ اللعنةِ، وهي الإبعادُ مِن الرحمة؛ لأنَّها مخلوقةٌ في موضِعِ العذابِ. وفي «الكشاف»: قيل: تقولُ العرَبُ لكُلِّ طعامٍ ضارٍّ: ملعونٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٧، ١٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٥).
قال البقاعي: (ولم يقولوا ما هم أعلَمُ النَّاسِ به من أنَّ الذي جعل لهم من الشَّجَرِ الأخضَرِ نارًا قادِرٌ على أن يجعَلَ في النَّارِ شجرًا!!). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٦٠).

ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: (هي شَجرةُ الزقُّومِ)[١].

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

أي: ونُخوِّفُ المُشرِكين بما نتوعَّدُهم به مِن العَذابِ، فما يَزيدُهم تخويفُنا لهم إلَّا تماديًا في الكُفرِ والضَّلالِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾، أي: ما مِن قَريةٍ مِن القُرى المكَذِّبةِ للرُّسُلِ إلَّا لا بُدَّ أن يُصيبَهم هلاكٌ قَبلَ يومِ القيامةِ، أو عَذابٌ شَديدٌ، كِتابٌ كَتَبه اللهُ وقَضاءٌ أبرَمَه لا بدَّ مِن وُقوعِه؛ فلْيُبادِرِ المكَذِّبون بالإنابةِ إلى اللهِ، وتَصديقِ رُسُلِه قبل أن تَتِمَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ، ويحِقَّ عليهم القَولُ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(١) رواه البخاري (٣٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

دَليلٌ على تشريفِ هذه الأمَّةِ، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ -صلواتُ الله عليه وعليهم-؛ وذلك أنَّه جلَّ جلالُه كان مِن حُكْمِه في الأممِ السالفةِ أنْ نَزَّلَ العذابَ بكلِّ مَن كَفَر بآياتِه، فصرفَه عن هذه الأُمَّةِ بتركِ إرسالِ الآياتِ المُوجِبةِ للعذابِ على مَن كَفَر بها(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ إن قال قَائِلٌ: كَيفَ يجوزُ ألا يُرْسِلَ الله الآياتِ لأنَّ الأوَّلينَ كذَّبوا بها؟ وما وَجهُ الامتناعِ عن إرسالِ الآياتِ بتكذيبِ الأوَّلينَ؟

والجوابُ مِن وَجهينِ:

أحدهما: -وهو المعروفُ- وما منعَنا أن نرسلَ بالآياتِ التي اقترَحها الكفَّارُ.

والجوابُ الثَّاني: أنَّ «إلَّا» محذوفٌ، ومَعْناهُ: وما منعَنا من إرسالِ الآياتِ، وإن كذَّب بها الأولونَ، يعني: أنَّ تكذيبَ الأوَّلينَ لا يمنعُنا مِن إرسالِ الآياتِ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ فيه سُؤالٌ: المقصودُ الأعظَمُ مِن إظهارِ الآياتِ أن يُستَدَلَّ بها على صِدقِ المدَّعي، فكيف حصَرَ المقصودَ مِن إظهارِها في التَّخويفِ؟

الجوابُ: المقصودُ أنَّ مُدَّعي النبُوَّةِ إذا أظهر الآيَةَ فإذا سَمِع الخَلقُ أنَّه أظهَرَ آيةً فهم لا يَعلَمون أنَّ تلك الآيةَ مُعجِزةٌ أو مَخُوفةٌ، إلَّا أنَّهم يجوِّزون كَونَها معجزةً، وبتقديرِ أن تكونَ مُعجِزةً فلو لم يتفكَّروا فيها، ولم يستَدِلُّوا بها على الصِّدقِ، لاستحَقُّوا العِقابَ الشَّديدَ، فهذا هو الخَوفُ الذي يحمِلُهم على التفكُّرِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٥٣).

والتأمُّلِ في تلك المُعجِزاتِ[١].

٤- قولُه: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إنْ قيل: ليس في القُرآنِ لعْنُ شجرةٍ؟

قيل: فيه إضمارٌ تَقديرُه: والشَّجرةَ الملعونةَ المذكورةَ في القُرآنِ، أو معناه: المَلْعونُ آكِلُوها وهم الكفَرةُ. أو ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ بمعنى المذمومةِ، وهي مَذمومةٌ في القُرآنِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وبقولِه تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]. أو ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ بمعنى المُبْعَدةِ؛ لأنَّ اللَّعنَ لُغَةً: الطَّردُ والإبعادُ، وهذه الشَّجرةُ مُبعَدةٌ عن مكانِ رحمةِ اللهِ تَعالى وهو الجنَّةُ؛ لأنَّها في قَعْرِ جهنَّمَ، وهذا الإبعادُ مذكورٌ في القُرآنِ بقولِه تَعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[٢] [الصافات: ٦٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ والمعنى: إذا كان هذان الأمران قد صارا فتنةً للناسِ حتى استلجَّ الكفارُ بكفرِهم، وازداد شرُّهم، وبعضُ مَن كان إيمانُه ضعيفًا رجَع عنه بسببِ أنَّ ما أخبرهم به مِن الأمورِ التي كانت ليلةَ الإسراءِ ومِن الإسراءِ مِن المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصَى كان خارقًا للعادةِ، والإخبارُ بوجودِ شجرةٍ تنبتُ في أصلِ الجحيمِ أيضًا مِن الخوارقِ، فهذا الذي أوجَب لهم التكذيبَ، فكيفَ لو شاهدوا الآياتِ العظيمةَ، والخوارقَ الجسيمةَ، أليس ذلك أولَى أن يزدادَ بسببِه شرُّهم؟! فلذلك رحِمهم الله وصرَفها عنهم، ومِن هنا تعلمُ أنَّ عدمَ التصريحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٠ - ٣٣١).

في الكتابِ والسنةِ بذكرِ الأمورِ العظيمةِ التي حدثَتْ في الأزمنةِ المتأخرةِ أولَى وأحسنُ؛ لأنَّ الأمورَ التي لم يشاهدِ الناسُ لها نظيرًا ربما لا تقبلُها عقولُهم، لو أُخبِروا بها قبلَ وقوعِها، فيكونُ ذلك ريبًا في قلوبِ بعضِ المؤمنينَ، ومانعًا يمنعُ مَن لم يدخُلِ الإسلامَ ومنفرًا عنه، بل ذكَر الله ألفاظًا عامةً تتناولُ جميعَ ما يكونُ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾

- قولُه: ﴿مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فيه التَّقييدُ بكونِه قبلَ يومِ القيامةِ؛ زيادةً في الإنذارِ والوعيدِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

- قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ خُصَّت ثمودُ مِن ذلك الهُدى والبصيرةِ بمزيدٍ؛ ولهذا لَمَّا قرَنَهم بقومِ عادٍ قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾؛ ولهذا أمكن عادًا المكابرةُ وأن يقولوا لنبيِّهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ولم يمكِنْ ذلك ثمودَ، وقد رأوا البيِّنةَ عِيانًا، وصارت لهم بمنزلةِ رُؤيةِ الشَّمسِ والقَمَرِ، فردُّوا الهدى بعدَ تيقُّنِه والبصيرةِ التَّامَّةِ، فكان في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤١).

تخصيصِهم بالذِّكرِ تحذيرٌ لكُلِّ من عرف الحَقَّ ولم يتَّبِعْه، وهذا داءُ أكثَرِ الهالكين، وهو أعَمُّ الأدواءِ وأغلَبُها على أهلِ الأرضِ، والله أعلَمُ(١).

وأيضًا: خَصَّ آيةَ ثمودَ بالذِّكرِ؛ تحذيرًا بسبَبِ أنَّهم عربٌ اقترَحوا ما كان سَببًا لاستِئصالِهم، ولشُهرةِ أمرِهم بين العَرَبِ؛ لأنَّ لهم مِن عِلمِها وعِلمِ مَساكنِهم بقُربها إليهم وكَونِها في بلادِهم ما ليس لهم مِن عِلمِ غَيرِها(٢).

- في قولِه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه قصْرُ الإرسالِ بالآياتِ على علَّةِ التَّخويفِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: لا مُباراةً بين الرُّسلِ وأقوامِهم، أو لا طمعًا في إيمانِ الأقوامِ؛ فقد علِمْنا أنَّهم لا يُؤمِنون(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ﴾ ﴿أَحَاطَ﴾ بمعنى يُحيطُ، عُبِّرَ عن المُستقبلِ بالماضي؛ لأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ﴾ فيه مجيءُ المُسنَدِ إليه بلفظِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضميرِ الرَّسولِ؛ إشارةً إلى أنَّ هذا القولَ مَسوقٌ مَساقَ التَّكرِمَةِ للنَّبيِّ وتَصبيرِه، وأنَّه بمَحَلِّ عِنايةِ اللهِ به؛ إذ هو ربُّه وهو ناصرُه(٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٥).

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ لعلَّه إنَّما سمَّاه رؤيا -وهي للمنامِ- على وجهِ التشبيهِ، لما فيه مِن الخوارقِ التي هي بالمنامِ أليقُ في مجاري العاداتِ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أُوثِرَ صِيغَةُ المُضارعةِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ[(٢)]. وفي قولِه: ﴿يَزِيدُهُمْ﴾ أنَّه كلَّما تجدَّدَ التَّخويفُ تجدَّدَ طُغيانُهم وعظُمَ[(٣)].



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

الآيات (٦١-٦٥)

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أخبِرْني، وهي كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الاستِخبارِ[١].

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي: لَأستَولِيَنَّ عليهم بالإغواءِ، ولَأستأصِلَنَّهم؛ مَأْخوذٌ مِن قولِهم: احتَنَكَ الجرادُ الأرضَ: إذا أتى على نَبْتِها، وجرَد ما عليها أكلًا. وقيل: هو مِن قَولِهم: حَنَكَ الدَّابَّةَ يَحنُكُها: إذا ربطَ حَبلًا في حَنَكِها الأسفَلِ، يَقودُها به حيثُ يشاءُ، وأصلُ الحَنَكِ: حَنَكُ الإنسانِ، أقصَى فَمِه[٢].

﴿مَّوْفُورًا﴾: أي: متمَّمًا، أو تامًّا وافيًا، وأصلُ (وفر): يدُلُّ على كَثرةٍ وتمامٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٦٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٦/ ٢٠١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾: أي: أزعِجْ واستَخِفَّ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها[١].

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾: أي: اجْمَعْ عليهم ما قَدَرْتَ عليه، وأصلُ (جلب): يدُلُّ على سَوقِ الشَّيءِ[٢].

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾: أي: بأعوانِك مِن راكبٍ وماشٍ، والرَّجِلُ والراجِلُ: الماشي، مشتقَّةٌ مِن الرِّجْلِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ آدمَ وإبليسَ، مسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسَجَدوا جميعًا إلَّا إبليسَ، عصى وامتنَعَ عن السُّجودِ قائِلًا باستِكبارٍ: أأسجُدُ له وهو مخلوقٌ مِن طينٍ؟ وقال جُرأةً وكُفرًا: أخبِرْني عن هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ، لِمَ كَرَّمْتَه عَليَّ، وقد خلقْتَني من نارٍ وخلَقْتَه من طينٍ؟! لئِنْ أخَّرْتني حَيًّا إلى يومِ القيامةِ لأستولِيَنَّ على ذُرِّيَّتِه بالإضلالِ والإغواءِ إلَّا المُخلَصِينَ منهم.

قال اللهُ تعالى لإبليسَ: اذهَبْ، فمَن أطاعك مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكم جميعًا جزاءً مُتمَّمًا لا نَقصَ فيه، واستَخْفِفْ مَن تَستطيعُ استِخفافَه منهم بدَعوتِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٩)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

إلى مَعصِيتي، واجمَعْ عليهم جُنودَك مِن كُلِّ راكبٍ وماشٍ، ولْيكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ أو ولَدٍ تعَلَّقَت به مَعصيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعِدْهم بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما تَعِدُهم إلَّا وعودًا باطِلةً.

إنَّ عِبادِيَ المُخلَصِينَ الصَّالحينَ ليس لك تسلُّطٌ عليهم ولا قُدرةٌ على إغوائِهم، وكفى برَبِّك -يا مُحمَّدُ- حافِظًا وعاصِمًا للمُؤمِنينَ مِن كيدِ الشَّيطانِ ومَكْرِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في مِحنةٍ عَظيمةٍ مِن قَومِه وأهلِ زَمانِه؛ بيَّنَ أنَّ حالَ الأنبياءِ مع أهلِ زَمانِهم كذلك؛ وأوَّلُهم هو آدَمُ، ثمَّ إنَّه كان في مِحنةٍ شديدةٍ مِن إبليسَ[(١)].

وأيضًا فإنَّ القَومَ إنَّما نازَعوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعانَدوه، واقترَحوا عليه الاقتِراحاتِ الباطِلةَ لأمرَينِ: الكِبْرِ والحَسَدِ؛ أمَّا الكِبْرُ فلِأنَّ تكَبُّرَهم كان يَمنَعُهم مِن الانقيادِ، وأمَّا الحسَدُ فلِأنَّهم كانوا يَحسُدونَه على ما آتاه اللهُ مِن النُبُوَّةِ والدَّرَجةِ العاليةِ، فبيَّنَ تعالى أنَّ هذا الكِبرَ والحَسَدَ هما اللَّذانِ حَمَلا إبليسَ على الخُروجِ مِن الإيمانِ، والدُّخولِ في الكُفرِ، فهذه بَليَّةٌ قَديمةٌ، ومِحنةٌ عَظيمةٌ للخَلقِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥).

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا وصف الكافرينَ بقَولِه: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ بيَّن ما هو السَّبَبُ لحُصولِ هذا الطُّغيانِ، وهو قَولُ إبليسَ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، فلأجلِ هذا المقصودِ ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ إبليسَ وآدمَ[١].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ، فسجَدَ الملائِكةُ كُلُّهم له إلَّا إبليسَ، عصَى أمْرَ اللهِ فلم يَسجُدْ؛ حَسَدًا له وكِبْرًا، مع رُؤيتِه لآياتِ اللهِ وعَظَمتِه وقُدرتِه، فلم يَنفَعْه ما عَلِمَه ورآه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه باستِنكارٍ: أتأمُرُني أن أسجُدَ لِمَن خَلقْتَه مِن طِينٍ[٣]؟!

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

أي: قال إبليسُ مُخاطِبًا ربَّه بكُلِّ جُرأةٍ: أخبِرْني أهذا هو الذي فضَّلْتَه عليَّ؟ فلِمَ تأمُرُني بالسُّجودِ له وأنا خَيرٌ منه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: قال إبليسُ: أُقسِمُ بك لَئِنْ أخَّرْتَ إهلاكي إلى يومِ القيامةِ لأَستولِيَنَّ على ذرِّيَّةِ آدَمَ، فأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الحَقِّ، وأقودَنَّهم إلى حيثُ أشاءُ مِن طُرُقِ الباطلِ، إلَّا قليلًا منهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨- ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠-١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

قال القُرطبيُّ: (وإنَّما قال إبليسُ ذلك ظَنًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، أو عَلِمَ مِن طَبعِ البَشَرِ تركُّبَ الشَّهوةِ فيهم، أو بنى على قَولِ الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال الحسَنُ: ظَنَّ ذلك؛ لأنَّه وَسْوَس إلى آدَمَ عليه السَّلامُ فلم يَجِدْ له عَزمًا). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٧).

شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤ - ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٤٠].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٧٩ - ٨٣].

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: اذهَبْ[1] فقد أخَّرتُ إهلاكَك، فمن أطاعَك مِنْ ذُرِّيةِ آدَمَ فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُكم على أعمالِكم جزاءً مُتمَّمًا، مُكمَّلًا، لا نَقْصَ فيه[2].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

---

(١) قال ابن جزي: (﴿ٱذْهَبْ﴾ قال ابنُ عطيةَ: وما بعدَه مِن الأوامرِ: صيغةُ أمرٍ على وجهِ التهديدِ، وقال الزمخشري: ليس المرادُ الذهابَ الذي هو ضدُّ المجيءِ، وإنَّما معناه: امضِ لشأنِك الذي اخترتَه خذلانًا له وتخليةً، ويحتملُ عندي أن يكونَ معناه للطردِ والإبعادِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٠).
وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ أي قال اللهُ تعالى لإبليسَ: اذهبْ، وهذا اللَّفظُ يتضَمَّنُ معنى إنظارِه، وتأخيرَ أجلِه). ((البسيط)) (١٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).
قال القرطبي: (﴿مَّوْفُورًا﴾ أي: وافِرًا، عن مُجاهِدٍ وغيرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨).
وقال الشنقيطي: (والَّذي يظهرُ لي: أنَّ قولَ مَن قالَ: إنَّ ﴿مَّوْفُورًا﴾ بمعنَى «وافِرٍ» لا داعِيَ له. بَلْ ﴿مَّوْفُورًا﴾ اسمُ مفعولٍ على بابِه، مِن قولِهم: وَفَر الشَّيءَ يَفِرُه، فالفاعلُ وافِرٌ، والمفعولُ موفورٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٦٨).

[ص: ٨٤- ٨٥].

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لإبليسَ آمِرًا له على سَبيلِ التَّهديدِ بعاقِبتِه الوَخيمةِ[١]: واستَخِفَّ وأزعِجْ -يا إبليسُ- مَن استطَعْتَ أن تَستخِفَّه مِن بني آدَمَ بدُعائِك لهم إلى مَعصيةِ اللهِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٤١، ٦٤٢) و (١٥/ ٣١٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بصَوتِه قولان: أحدُهما: أنَّه كُلُّ داعٍ دعا إلى معصيةِ الله، قاله ابن عباس. والثاني: أنَّه الغِناءُ والمزاميرُ، قاله مجاهد). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧).

وقال ابن تيمية: (استفزازُه إيَّاهم بصوتِه يكونُ بالغناء -كما قال من قال من السلف- وبغيرِه من الأصواتِ، كالنياحة وغيرِ ذلك؛ فإن هذه الأصواتَ كُلَّها توجِبُ انزعاجَ القلبِ والنَّفسِ الخبيثةِ إلى ذلك، وتوجِبُ حركَتَها السريعةَ واضطرابَها، حتى يبقى الشيطانُ يلعب بهؤلاء أعظَمَ مِن لَعِبِ الصبيان بالكرةِ!). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٤).

وقال ابنُ جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ أن يُقالَ: إنَّ الله تبارك وتعالى قال لإبليسَ: واستفزِزْ مِن ذريَّةِ آدَمَ مَن استطَعْتَ أن تستَفِزَّه بصَوتِك، ولم يَخْصُصْ من ذلك صوتًا دونَ صَوتٍ؛ فكلُّ صوتٍ كان دعاءً إليه وإلى عملِه وطاعتِه، وخلافًا للدعاءِ إلى طاعةِ الله، فهو داخلٌ في معنَى صوتِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨).

وقال ابن القيم: (وصوتُ الشيطانِ كُلُّ صوتٍ في غيرِ طاعةِ الله، نُسِبَ إلى الشيطانِ لأمرِه به ورضاه به، وإلَّا فليس هو الصوتَ نَفسَه). ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

أي: واجمَعْ -يا إبليسُ- على بني آدَمَ جُنودَك -الركبانَ منهم والمشاةَ- الذين يَدعُونَهم إلى مَعصيةِ اللهِ، فيَحمِلوا عليهم بكُلِّ ما يَقدِرونَ عليه مِن وَسائِلِ الفِتنةِ والكَيدِ لإضلالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ إبليسَ يَضَعُ عَرشَه على الماءِ، ثمَّ يَبعَثُ سَراياه، فأدْناهم منه مَنزِلةً أعظَمُهم فِتنةً، يجيءُ أحَدُهم فيَقولُ: فعَلْتُ كذا وكذا، فيقولُ: ما صنعْتَ شَيئًا! قال: ثم يجيءُ أحَدُهم فيقولُ: ما ترَكْتُه حتى فَرَّقتُ بينَه وبينَ امرأتِه، قال: فيُدنيه منه، ويَقولُ:

وقال ابن تيمية: (وصوتُ الشيطان ما يُحِبُّه ويأمرُ به وإن كان قائمًا بإنسانٍ أو جمادٍ كأصواتِ الملاهي وغيرها). ((جامع المسائل)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٣، ١٥٤).

قال القرطبي: (وقال أكثَرُ المفَسِّرينَ: يريدُ كُلَّ راكبٍ وماشٍ في معصيةِ الله تعالى. وقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وقَتادةُ: «إنَّ له خيلًا ورَجِلًا مِن الجِنِّ والإنسِ، فما كان من راكبٍ وماشٍ يُقاتِلُ في معصيةِ اللهِ، فهو من خَيلِ إبليسَ ورَجَّالتِه». وروى سعيدُ بنُ جُبَير ومجاهدٌ عن ابنِ عَبَّاس قال: «كلُّ خيلٍ سارت في معصيةِ الله، وكلُّ رِجْلٍ مَشَتْ في معصيةِ الله»). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (كلُّ ساعٍ في معصيةِ الله على قَدَميه فهو مِن رَجِلِه، وكلُّ راكبٍ في معصيةِ اللهِ فهو مِن خَيَّالتِه، كذلك قال السَّلَفُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٥٦).

وقال ابنُ كثير: (معناه: تسلَّطْ عليهم بكُلِّ ما تقدِرُ عليه، وهذا أمرٌ قَدَريٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٤).

نِعْمَ أنتَ!!))[١].

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

أي: ولْيكُنْ لك نَصيبٌ معهم في كُلِّ مالٍ أو ولَدٍ تعَلَّقَت به مَعصيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٨١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٣، ٦٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٩، ١٧٠).

قال ابنُ جرير: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عنى بذلك كلَّ مالٍ عُصِيَ اللهُ فيه؛ بإنفاقٍ في حرامٍ، أو اكتِسابٍ مِن حرامٍ، أو ذَبْحٍ للآلهةِ، أو تَسْييبٍ، أو بَحْرٍ للشَّيطانِ، وغيرِ ذلك ممَّا كان مَعصِيًّا به أو فيه؛ وذلك أنَّ اللهَ قال: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾؛ فكلُّ ما أُطيعَ الشَّيطانُ فيه مِن مالٍ وعُصِيَ اللهُ فيه، فقد شارك فاعِلُ ذلك فيه إبليسَ، فلا وجهَ لخُصوصِ بَعضِ ذلك دُونَ بَعضٍ... وأولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يقال: كلُّ وَلَدٍ ولدَتْه أنثى عُصِيَ اللهُ بتَسمِيَتِه ما يَكرَهُه الله، أو بإدخالِه في غيرِ الدِّينِ الذي ارتضاه الله، أو بالزِّنا بأمِّه، أو قَتْلِه ووَأْدِه، أو غيرِ ذلك من الأمورِ التي يُعصى اللهُ بها أو فيها؛ فقد دخلَ في مُشاركةِ إبليسَ فيه مَن وُلِدَ ذلك المولودُ له أو منه؛ لأنَّ اللهَ لم يَخْصُصْ بقولِه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ معنى الشَّركةِ فيه بمعنًى دونَ معنًى، فكلُّ ما عُصِيَ اللهُ فيه أو به، وأُطيعَ به الشَّيطانُ أو فيه؛ فهو مُشاركةُ مَن عُصِيَ اللهُ فيه أو به إبليسَ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٣-٦٦٦).

وقال ابنُ كثير: (وهذا الذي قاله مُتَّجِهٌ، وكلٌّ مِن السَّلَفِ -رَحِمَهم اللهُ- فسَّرَ بعضَ المُشاركةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥).

وقال السعدي: (ذلك شامِلٌ لكُلِّ مَعصيةٍ تعَلَّقَت بأموالِهم وأولادِهم؛ مِن مَنْعِ الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، والحُقوقِ الواجبةِ، وعَدَمِ تأديبِ الأولادِ وتَربيتِهم على الخَيرِ، وتَرْكِ الشَّرِّ، وأخذِ الأموالِ بغَيرِ حَقِّها أو وَضْعِها بغَيرِ حَقِّها، أو استعمالِ المكاسِبِ الرَّدِيَّة، بل ذَكَر كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ أنَّه يدخُلُ في مُشاركةِ الشَّيطانِ في الأموالِ والأولادِ تَركُ التَّسميةِ عند الطَّعامِ والشَّرابِ والجِماعِ، وأنَّه إذا لم يُسَمِّ اللهَ في ذلك شارك فيه الشَّيطانُ كما ورد فيه الحَديثُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۞ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۞ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦ - ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أن أعَلِّمَكم ما جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَني يومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[٣] عبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[٤] عن دِينِهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن

(٣) نَحَلْتُه: أي: أعطيتُه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٦).

(٤) فاجتالَتْهم: أي: استخفُّوهم فذَهَبوا بهم وأزالوهم عمَّا كانوا عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٧).

يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلطانًا))[١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو أنَّ أحَدَكم إذا أتى أهْلَه قال: جَنِّبْني الشَّيطانَ وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَني؛ فإنْ كان بينهما ولَدٌ لم يَضُرَّه الشَّيطانُ، ولم يُسلَّطْ عليه))[٢].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا دخَلَ الرَّجُلُ بَيتَه فذكَرَ اللهَ عند دُخولِه وعندَ طعامِه، قال الشَّيطانُ: لا مَبيتَ لكم ولا عَشاءَ، وإذا دخَلَ فلم يَذكُرِ اللهَ عند دُخولِه، قال الشَّيطانُ: أدرَكْتُم المَبيتَ، وإذا لم يَذكُرِ اللهَ عند طَعامِه، قال: أدرَكْتُم المَبيتَ والعَشاءَ))[٣].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كنَّا إذا حَضَرْنا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طعامًا، لم نضَعْ أيدِيَنا حتى يبدأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَضَعَ يَدَه، وإنَّا حَضَرْنا معه مرَّةً طعامًا، فجاءَتْ جاريةٌ كأنَّها تُدفَعُ، فذهَبَت لِتَضَعَ يَدَها في الطَّعامِ، فأخَذ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيَدِها، ثمَّ جاء أعرابيٌّ كأنَّما يُدفَعُ، فأخَذَ بِيَدِه، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الشَّيطانَ يَستَحِلُّ الطَّعامَ أنْ لا يُذكَرَ اسمُ اللهِ عليه، وإنَّه جاء بهذه الجاريةِ لِيَستَحِلَّ بها، فأخَذْتُ بيَدِها، فجاء بهذا الأعرابيِّ لِيَستَحِلَّ به فأخذْتُ بيَدِه، والذي نفسي بيَدِه إنَّ يَدَه في يَدِي مع يَدِها))[٤].

﴿وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٨٣) واللفظ له، ومسلم (١٤٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠١٨).

(٤) رواه مسلم (٢٠١٧).

أي: وعِدْهم[١] -يا إبليسُ- بالوُعودِ الكاذِبةِ، وما يَعِدُهم الشَّيطانُ البَعيدُ عن الرَّحمةِ وكُلِّ خيرٍ إلَّا أمانيَّ باطلةً في الحَقيقةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) قال القُرطبيُّ: (وهذا الأمرُ للشَّيطانِ تهَدُّدٌ ووَعيدٌ له. وقيل: استِخفافٌ به وبمن اتَّبَعه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤، ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١).

قال ابن عاشور: (ومعنى ﴿عِدْهُمْ﴾ أعطِهم المواعيدَ بحصولِ ما يرغبونَه، كما يسَوِّل لهم بأنَّهم إن جعلوا أولادَهم للأصنامِ سَلِم الآباءُ مِن الثُّكلِ والأولادُ مِن الأمراض، ويسَوِّلُ لهم أنَّ الأصنام تشفعُ لهم عند الله في الدنيا، وتضمنُ لهم النصرَ على الأعداء، كما قال أبو سفيان يوم أحد: «اعلُ هُبَلُ». ومنه وعدُهم بأنَّهم لا يخشون عذابًا بعد الموت لإنكار البعث، ووعْد العصاة بحصول اللذَّاتِ المطلوبة من المعاصي، مثل الزنا والسرقة والخمر والمقامرة... والمعنى: أن ما سوَّله لهم الشيطانُ في حصول المرغوب إما باطلٌ لا يقع، مثل ما يسَوِّلُه للناس من العقائدِ الفاسدة؛ وكونُه غرورًا لأنَّه إظهار لِما لا يقع في صورة الواقعِ، فهو تلبيسٌ، وإما حاصِلٌ لكنَّه مكروه غيرُ محمود بالعاقبة، مثل ما يسَوِّلُه للناس من قضاء دواعي الغضَبِ والشهوة ومحبَّة العاجل دون تفكيرٍ في الآجل، وكلُّ ذلك لا يخلو عن مقارنةِ الأمر المكروهِ، أو كونه آيلًا إليه بالإضرارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٤-١٥٥).

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عَمَّا يريدُ الشَّيطانُ أن يَفعَلَ بالعبادِ، ذكَرَ ما يُعتَصَمُ به مِن فِتنَتِه، وهو عُبوديَّةُ اللهِ، والقيامُ بالإيمانِ، والتوكُّلُ[1]، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾.

أي: إنَّ عبادي الصَّالحينَ الذين يَعبُدونَني وَحدي مُخلِصينَ لي الدِّينَ، ليس لك عليهم -يا إبليسُ- تَسَلُّطٌ ولا حُجَّةٌ، ولا تَستطيعُ إغواءَهم أو إضلالَهم؛ فاللهُ يَحفَظُهم ويَحرُسُهم ويُؤَيِّدُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا مُحمَّدُ- حافِظًا مِن كيدِ الشَّياطينِ ومَكْرِهم، وناصِرًا ومُؤَيِّدًا للمُتوكِّلينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى للشَّيطانِ: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ ﴾ فالصَّوتُ الشَّيطانيُّ يَستفِزُّ بني آدَمَ، وصَوتُ الشَّيطانِ كُلُّ صَوتٍ في غيرِ طاعة الله؛ فصَوتُ الغناءِ، وصَوتُ النَّوحِ، وصَوتُ المعازِفِ: كُلُّها من أصواتِ الشَّيطانِ، التي يَستفِزُّ بها بني آدمَ فيَستخِفُّهم ويُزعِجُهم؛ ولهذا قال السَّلَفُ في هذه الآية: (إنَّه الغِناءُ). ولا ريبَ أنَّه مِن أعظَمِ أصواتِ الشَّيطانِ التي يَستفِزُّ بها النُّفوسَ ويُزعِجُها ويُقلِقُها، وهو ضدُّ القرآنِ الذي تطمَئِنُّ به القلوبُ وتَسكُنُ وتُخبِتُ إلى ربِّها؛ فصَوتُ القرآنِ يُسكِّنُ النفوسَ ويُطَمئِنُها ويُوقِرُها، وصوتُ الغناءِ يَستفِزُّها ويُزعِجُها ويُهيِّجُها، وكذلك صوتُه الذي يَستفِزُّ به النفوسَ عند المصيبةِ، وهو النَّوحُ، فيستفِزُّها بهذا الصَّوتِ إلى الحُزنِ والأسَفِ والسَّخَطِ بما قضى الله، ويستفِزُّها بذلك الصَّوتِ إلى الشَّهوةِ والإرادةِ والرَّغبةِ فيما يُبغِضُه الله، فينهاها بصَوتِ النَّوحِ عَمَّا أمرَها الله به، ويأمُرُها بصَوتِ الغِناءِ بما نهاها اللهُ عنه، وهذا الصَّوتُ هو أحدُ الأسبابِ الخَمسةِ التي أقسم الشَّيطانُ أن يَحتنِكَ بها ذرية آدَمَ ويستأصِلَهم إلَّا قليلًا، وهي استِفزازُهم بصَوتِه[1]؛ فصوتُ الشيطانِ يَستفِزُّ الناسَ، أي: يُحرِّكهم ويُزعِجُهم ويُثيرُهم، وهذا أثرُ الصَّوتِ، وهو التَّحريكُ، كما أنَّه صادِرٌ عن الحَركةِ، فسبَبُه الحركةُ، وغايتُه الحَركةُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] فكُلُّ راكبٍ في مَعصيةِ اللهِ فهو خَيَّالةُ الشَّيطانِ، وكُلُّ ماشٍ في معصيةِ اللهِ فمِن رَجَّالتِه، وكلُّ مالٍ أُخِذ من غيرِ حِلِّه وأُخرِجَ في غيرِ حَقِّه، فهو

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٨٣).

شَريكُ صاحِبِه فيه، وكُلُّ ولدٍ مِن نطفةِ زِنًا، فهو شريكُ أبيه فيه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ المعصومَ مَن عَصَمَه اللهُ تعالى، وأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُه أن يَحترِزَ بنَفسِه عن مواقِعِ الضَّلالةِ؛ لأنَّه لو كان الإقدامُ على الحَقِّ والإحجامُ عن الباطِلِ إنَّما يَحصُلُ للإنسانِ مِن نَفسِه، لوجَبَ أن يُقالَ: وكفى الإنسانَ نَفسُه في الاحترازِ عن الشَّيطانِ، فلمَّا لم يَقُلْ ذلك بل قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ ﴾، عَلِمْنا أنَّ الكُلَّ مِنَ اللهِ؛ ولهذا قال المُحَقِّقونَ: لا حَولَ عن مَعصيةِ اللهِ إلَّا بعِصمةِ اللهِ، ولا قُوَّةَ على طاعةِ اللهِ إلَّا بتَوفيقِ اللهِ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ، وبَراءةٌ لإبليسَ اللَّعينِ ممَّا يَنسُبونَه إليه مِن القُدرةِ على تَضليلِ الخَلقِ؛ ألَا تَراه كيف ألقى اللهُ الاستِثناءَ على لِسانِه حتى استَثنى القليلَ؟! عِلْمًا منه بأنَّ المعصومَ ومَن سبَقَ له الخَيرُ مِن رَبِّه لا سبيلَ له عليه، إنَّما سبيلُه على مَن حَقَّت عليه كَلِمةُ رَبِّه، فتَبِعَه وتوَلَّاه، وسبَقَ القَضاءُ عليه أن يكونَ معه في دارِ الهوانِ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ وهذا السُّلطانُ منه على مُتولِّيه المُشرِكينَ برَبِّهم، سُلطانُ تَسليطٍ لا اقتدارٍ بقُوَّتِه، ألا ترى أنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٠).

الكُفَّارِ مَن قد سبَقَ له في عِلمِ اللهِ إيمانٌ، وانتِقالٌ مِن الكُفرِ إليه، فيَذهَبُ سُلطانُه حينَئذٍ عنه؟! فلو كان سُلطانًا بغَيرِ تَسليطٍ، لدام له عليه، أو كان على الجَميعِ، ولا يُستثنى القَليلُ، فهذا واضِحٌ لا بُعْدَ فيه، ومِمَّا يُؤَيِّدُ به أنَّه يُسَلَّطُ: قَولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾، وليس يخلو قَولُه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ مِن أنْ يكونَ واقِعًا على الجَميعِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، أو على المؤمِنِ دُونَ الكافِرِ؛ فإنْ كان واقِعًا على مُؤمِنِهم خاصَّةً فهم المُستَثنَونَ بالقَليلِ، وسُلطانُه زائِلٌ عنهم بكُلِّ حالٍ، وإن كان واقِعًا على جَميعِهم فقد صَحَّ أنَّ سُلطانَه على الكافِرِ سُلطانُ تَسليطٍ، وعِدَتَه عِدَةُ غُرورٍ(١).

٢- إنَّ المولودَ مِن حينِ يخرُجُ إلى الدُّنيا يبتَدِرُه الشَّيطانُ، ويضمُّه إليه ويحرِصُ على أن يَجعَلَه في قَبضتِه وتحت أسْرِه، ومن جُملةِ أوليائِه وحِزبِه؛ فهو أحرصُ شَيءٍ على هذا، وأكثَرُ المولودينَ مِن أقطاعِه وجُندِه، كما قال تعالى: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾، وقَالَ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] فكان المولودُ بصَدَدِ هذا الارتِهانِ، فشرعَ اللهُ سُبحانَه للوالدينِ أن يفكَّا رِهانَه بذِبحٍ يكونُ فِداه، فإذا لم يُذبَحْ عنه بقِيَ مُرتَهَنًا به؛ فلهذا قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مع الغلامِ عَقيقةٌ، فأهريقُوا عنه دمًا، وأميطوا عنه الأذى))(٢)،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم (٥٤٧٢)، وأخرجه موصولًا: أبو داود (٢٨٣٩)، والترمذي (١٥١٥)، وابن ماجه (٣١٦٤)، والنسائي (٤٢١٤)، وأحمد (١٦٢٣٨).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيح)، وذكر ابن عبد البَرِّ في ((التمهيد)) (٤/ ٣٠٦)، وابن العربي في ((القبس)) (٢/ ٦٤٩) أنَّه حديث ثابت. وصحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (٦/ ٥٣)،

فأمرَ بإراقةِ الدَّمِ عنه، الذي يخلُصُ به مِن الارتهانِ[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ[٢]. وبينَ قولِه: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وما قبلَه كلامٌ محذوفٌ، وكأنَّ تَقديرَه: قال: لِمَ لمْ تسجُدْ لآدمَ؟[٣]

- وجُملةُ ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ استثناءَ إبليسَ مِن حُكْمِ السُّجودِ لم يُفِدْ أكثَرَ من عدَمِ السُّجودِ، وهذا يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ أنْ يسأَلَ عن سببِ التَّخلُّفِ عن هذا الحُكمِ منه. وقولُه: ﴿طِينًا﴾ إنَّما جعَلَ جنْسَ الطِّينِ حالًا منه؛ للإشارةِ إلى غَلبةِ العُنصرِ التُّرابيِّ عليه؛ لأنَّ ذلك أشدُّ في تَحقيرِه في نظَرِ إبليسَ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ فيه التَّعبيرُ عن آدمَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالموصولِ (مَن)؛ لتَعليلِ إنكارِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ

وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣١٦٤).

(١) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٣).

ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أُعيدَ إنكارُ التَّفضيلِ بقولِه: ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ المُفيدِ الإنكارَ، وعلَّلَ الإنكارَ بإضمارِ المكْرِ لذُرِّيَّتِه؛ ولذلك فُصِلَت جُملةُ ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾ عن جُملةِ ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ في الكلامِ حذْفٌ، والمعنى: أخبِرني عن هذا الَّذي كرَّمْتَه عليَّ، لِمَ كرَّمْتَه عليَّ، وقد خلَقْتَني من نارٍ وخلقْتَه من طينٍ؟ وحُذِفَ هذا؛ لِمَا في الكلامِ من الدَّليلِ عليه[2].

- اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستعملٌ في التَّحقيرِ[3].

- قولُه: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه الاقتصارُ على إغواءِ ذُرِّيَّةِ آدمَ، ولم يذكُرْ إغواءَ آدمَ وهو أوْلى بالذِّكرِ -إذ آدمُ هو أصْلُ عَداوةِ الشَّيطانِ النَّاشئةِ عن الحسَدِ من تَفضيلِه عليه-؛ لأنَّ هذا الكلامَ قاله بعدَ أنْ أَغوى آدمَ، وأُخْرِجَ من الجنَّةِ، فقد شَفى غليلَه منه، وبقِيَت العداوةُ مُسْترسِلةً في ذُرِّيَّةِ آدمَ[4].

- قولُه: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ ...﴾ الكافُ في ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ لتأكيدِ الخِطابِ، ومُبالغةً في التَّنبيهِ[5]، وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قاله هنا بتكريرِ الخطابِ، كنظيرِه في ﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ في (الأنعامِ)؛ لدَلالتِه على أنَّ المُخاطَبَ به أمْرٌ عظيمٌ، وهو هنا كذلك؛ لأنَّ إبليسَ -لعنَهُ اللهُ- ضمِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٧-٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٨).

بقولِه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إغواءَ أكثرِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾

- قولُه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ من حَقِّ الضَّميرِ في الجزاءِ ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾ أنْ يكونَ على لفْظِ الغَيبةِ (جزاؤهم)؛ ليرجِعَ إلى ﴿مَنْ تَبِعَكَ﴾، ولكنَّ التَّقديرَ: فإنَّ جهنَّمَ جزاؤُهم وجزاؤُك، ثمَّ غُلِّبَ المُخاطَبُ على الغائبِ، فقيل: ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾، فجُعِلَ الغائبُ تَبَعًا للمخاطبِ، كما كان تَبَعًا له في المَعصيةِ والعُقوبةِ؛ فحَسُنَ أنْ يُجعَلَ تَبَعًا له في اللَّفظِ، وهذا مِن حُسْنِ ارتباطِ اللَّفظِ بالمَعنى واتِّصالِه به. ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّابعينَ على طريقِ الالتِفاتِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أُعيدَ ﴿جَزَآءً﴾ للتَّأكيدِ؛ اهتمامًا وفصاحةً، ولأنَّه أحسنُ في جريانِ وصْفِ الموفورِ على موصوفٍ مُتَّصلٍ به دونَ فصْلٍ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ السِّينُ والتَّاءُ فيه للجَعلِ النَّاشئِ عن شِدَّةِ الطَّلبِ والحَثِّ[٤]. والأمْرُ في قولِه: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾، وقولِه: ﴿وَأَجْلِبْ﴾، وقولِه: ﴿

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣١-٣٣٢). ويُنظر أيضًا: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥٣).

وَشَارِكۡهُمۡ ﴾، وقولِه: ﴿وَعِدۡهُمۡ﴾؛ كلُّها بمعنى التَّهديدِ، كقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[1] [فصلت: ٤٠].

- وفي قولِه: ﴿وَعِدۡهُمۡ﴾ حُذِفَ المفعولُ؛ للتَّعميمِ في الموعودِ به، والمقامُ دالٌّ على أنَّ المقصودَ أنْ يعِدَهم بما يَرْغبون؛ لأنَّ العِدَةَ هي التزامُ إعطاءِ المرغوبِ. وسمَّاهُ وعْدًا؛ لأنَّه يُوهِمُهم حُصولَه فيما يُسْتقبَلُ، فلا يَزالون يَنْتظِرونَه، كشأْنِ الكذَّابِ أنْ يَحترِزَ عن الإخبارِ بالعاجلِ لقُربِ افتضاحِه، فيجعَلَ مواعيدَه كلَّها للمُستقبَلِ؛ ولذلك اعترَضَ بجُملةِ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراضٌ لبَيانِ شأْنِ مواعيدِه الباطلةِ[3]، وفيه التِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ لتَقويةِ معنى الاعتراضِ، مع ما فيه من صرْفِ الكلامِ عن خطابِه، وبيانِ شأْنِه للنَّاسِ، ومن الإشعارِ بعِلِّيَّةِ شَيطنتِه للغُرورِ، وهو تَزيينُ الخطأِ بما يُوهِمُ أنَّه صوابٌ[4]. وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (وما تَعِدُهم إلَّا غُرورًا)، ولكنَّه عُدِلَ عن ذلك؛ تَهوينًا لأمْرِه واستصغارًا لأمْرِ الغُرورِ الَّذي يعِدُهم به من جِهَةٍ، وليتولَّى الكلام على طريقِ الغَيبةِ، مُتحدِّثًا إلى النَّاسِ جميعًا؛ ليعلَمَ الجاهلُ، ويخلُدَ المُبْطِلُ إلى الصَّوابِ[5].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فيه إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ دونُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٥/ ٤٨٠).

يُؤْتَى بضَميرِه المُستترِ؛ لأنَّ هذا الاعتراضَ جُملةٌ مُستقِلَّةٌ؛ فلو كان فيها ضَميرٌ عائدٌ إلى ما في جُملةٍ أُخرى، لكان في النَّثرِ شِبْهُ عيبِ التَّضمينِ في الشِّعرِ، ولأنَّ هذه الجُملةَ جاريةٌ مَجْرى المثَلِ، فلا يحسُنُ اشتمالُها على ضَميرٍ ليس من أجزائِها(١).

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾؛ فإنَّ مفهومَ ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ و﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ ذُرِّيَّةٌ، من قَبيلِ مفهومِ الصِّفةِ، فيُفيدُ أنَّ فريقًا من ذُرِّيَّةِ آدمَ لا يتبَعُ إبليسَ، فلا يَحْتنِكُه. وهذا المفهومُ يُفيدُ أنَّ اللهَ قد عصَمَ أو حفِظَ هذا الفريقَ من الشَّيطانِ، وذلك يثيرُ سُؤالًا في خاطرِ إبليسَ؛ ليعلَمَ الحائلَ بينَه وبينَ ذلك الفريقِ بعدَ أنْ علِمَ في نفْسِه عِلْمًا إجماليًّا أنَّ فريقًا لا يحتنِكُه؛ لقولِه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فوقعَتِ الإشارةُ إلى تَعيينِ هذا الفريقِ بالوصفِ وبالسَّببِ؛ فأمَّا الوصفُ ففي قولِه: ﴿عِبَادِى﴾، وأمَّا السَّببُ ففي قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(٢).

- والإضافةُ إليه تَعالى في قولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ إضافةُ تَشريفٍ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ تَكمِلةً لتَوبيخِ الشَّيطانِ؛ فيكونُ كافُ الخطابِ ضَميرَ الشَّيطانِ تَسجيلًا عليه بأنَّه عبدُ اللهِ، ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً في آخرِ الكلامِ؛ فتكونُ كافُ الخطابِ ضَميرَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨١).

عليه وسلَّمَ تَقريبًا للنَّبيِّ بالإضافةِ إلى ضَميرِ اللهِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٧).

الآيات (٦٦-٦٩)

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُزۡجِى﴾: أي: يَسوقُ ويُسَيِّرُ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ مِن غَيرِ حَبسٍ[1].

﴿حَاصِبًا﴾: أي: حِجارةً، أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[2].

﴿قَاصِفًا﴾: ريحًا شَديدةً، تكسِرُ كُلَّ شَيءٍ، وتُحَطِّمُه، وأصلُ (قصف): يدُلُّ على كَسرٍ لِشَيءٍ[3].

﴿تَبِيعًا﴾: تابعًا مُطالِبًا بالثَّأرِ لكم، وأصلُ (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)،

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن بيَّن الله تعالى لبنى آدمَ عداوةَ إبليسَ لهم، أتبَع ذلك ببيانِ جانبٍ مِن نِعَمِه تعالى عليهم، فقال: رَبُّكم -أيُّها النَّاسُ- هو الذي يُسَيِّرُ لكم السُّفُنَ في البَحرِ؛ لِتَطلُبوا رِزقَ اللهِ بالتِّجارةِ؛ إنَّه رَحيمٌ بعِبادِه، وإذا أصابَتْكم شِدَّةٌ في البَحرِ فخَشيتُم الغَرقَ والهَلاكَ، غاب عن عُقولِكم ما تَعبُدونَه مِن الآلهةِ، سوى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ودعوتُموه وَحدَه ليكشِفَ عنكم ما نزلَ بكم من سوءٍ، فلمَّا نجَّاكم إلى البَرِّ أعرَضْتُم عن شُكرِه والإخلاصِ له والتَّوحيدِ، وكان الإنسانُ جَحودًا نِعَمَ ربِّه عزَّ وجَلَّ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّ قدرتَه لا يُعجِزُها شيءٌ، لا في البحرِ ولا في البرِّ ولا في غيرِ ذلك، فقال: أفأَمِنتُم أن تَنهارَ بكم الأرضُ في جانبِ البرِّ، أو يُرسِلَ اللهُ عليكم حِجارةً مِن السَّماءِ فتُهلِكَكم، ثمَّ لا تَجِدوا ناصرًا يُنقِذُكم مِن عَذابِه؟ أم أَمِنتُم أن يُعيدَكم في البَحرِ مَرَّةً أخرى، فيُرسِلَ عليكم ريحًا شَديدةً، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم، ثمَّ لا تَجِدوا لكم علينا مَن يَتبَعُنا بثأرِكم؛ بسبَبِ إهلاكِنا لكم؟

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وَصْفَ المُشرِكينَ في اعتِقادِهم في آلهَتِهم، وأنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، وأتبَعَ ذلك بقِصَّةِ إبليسَ مع آدَمَ، وتَمكينِه مِن وَسْوسةِ ذُرِّيَّتِه، وتَسويلِه؛ ذكَر سبحانَه ما يدُلُّ مِن أفعالِه على وحدانيَّتِه، وأنَّه هو النَّافِعُ الضَّارُّ المتصَرِّفُ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٤٧).

في خَلقِه بما يشاءُ، فذكَرَ إحسانَه إليهم بحرًا وبَرًّا، وأنَّه تعالى مُتمَكِّنٌ بقُدرتِه مِمَّا يُريدُه(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه الوكيلُ الذي لا كافيَ غَيرُه في حِفظِه؛ لاختِصاصِه بشُمولِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه؛ أتبَعَه بعضَ أفعالِه الدَّالَّةِ على ذلك، فقال تعالى عَوْدًا إلى دلائِلِ التَّوحيدِ الذي هو المقصودُ الأعظَمُ بأحوالِ البَحرِ الذي يُخلِصونَ فيه، في أُسلوبِ الخِطابِ؛ استِعطافًا لهم إلى المتابِ(٢):

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾.

أي: ربُّكم هو وَحْدَه الذي يَسوقُ لكم السُّفُنَ في البَحرِ؛ لِتَطلُبوا برُكوبِها الرِّزقَ مِن اللهِ بالتِّجارةِ، وطَلَبِ المَعاشِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾.

أي: سهَّل اللهُ لكم سَيرَ السُّفُنِ في البِحارِ لِنَفْعِكم؛ لأنَّه رَحيمٌ بكم(٤).

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعد أن ألزَمَ اللهُ الكافِرينَ الحُجَّةَ على حَقِّ إلهيَّةِ اللهِ تعالى بما هو مِن خَصائِصِ صُنعِه باعترافِهم؛ أعقَبَه بدَليلٍ آخَرَ مِن أحوالِهم المتضَمِّنةِ إقرارَهم بانفِرادِه بالتصَرُّفِ، ثمَّ بالتَّعجيبِ مِن مُناقَضةِ أنفُسِهم عند زَوالِ اضطِرارِهم[(١)].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

أي: وإذا أصابَتْكم الشِّدَّةُ في البَحرِ -كما لو أمسَكَت السَّفينةُ عن الجَريِ، أو اشتَدَّت عليكم الرِّيحُ، وهاجَت بكم الأمواجُ واضطَرَبت، وخَشِيتُم الغَرَقَ- غاب عن قُلوبِكم كلُّ مَن تَدعونَهم مِن دُونِ اللهِ، ولم تَستغيثوا إلَّا باللهِ وَحدَه؛ لعِلْمِكم بأنَّه لا يُنَجِّيكم أحدٌ سِواه[(٢)].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ﴾.

أي: فلمَّا نجَّاكم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَكم إلى البَرِّ؛ أعرَضْتُم عن شُكرِه وتَوحيدِه، والإخلاصِ له سُبحانَه[(٣)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧١، ١٧٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (كما اتَّفَق لعِكرِمةَ بنِ أبي جهلٍ لَمَّا ذَهبَ فارًّا مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين فَتَحَ مكَّة، فذهب هاربًا، فركب في البَحرِ لِيَدخُلَ الحَبشةَ، فجاءتْهم ريحٌ عاصِفٌ، فقال القومُ بعضُهم لبعضٍ: إنَّه لا يُغني عنكم إلَّا أن تدعو اللهَ وحده. فقال عِكرِمةُ في نفسِه: واللهِ لَئِن كان لا ينفَعُ في البحرِ غَيرُه، فإنَّه لا ينفَعُ في البَرِّ غيرُه، اللهُمَّ لك عليَّ عَهدٌ: لَئِنْ أخرَجْتَني منه لأذهَبَنَّ فأضَعَنَّ يدي في يدَيه، فلأَجِدَنَّه رَؤوفًا رَحيمًا، فخَرَجوا من البَحرِ، فرجع إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه- رَضِيَ اللهُ عنه وأرضاه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

أي: وكان الإنسانُ مَطبوعًا على الجُحودِ لنِعَمِ اللهِ عليه؛ فهذه سَجِيَّتُه إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩، ١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦].

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾.

أي: أفأمِنتُم أن يجعَلَ اللهُ الأرضَ تَنهارُ بكم في جانِبِ البَرِّ(٢) إنْ خَرَجتُم من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

(٢) قيل: المرادُ بجانِبِ البَرِّ: ناحيةُ الأرضِ، وسَمَّاه جانبًا؛ لأنَّه يصيرُ بعد الخَسفِ جانِبًا. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢).

البَحرِ سالِمينَ؟ فهو قادِرٌ على إهلاكِكم سواءٌ في البَحرِ أو في البَرِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾.

أي: أوْ أمِنْتُم أن يُرسِلَ اللهُ عليكم حِجارةً مِن السَّماءِ فيُمطِرَكم بها، فيُهلِكَكم[(٢)]؟

وقيل: هو الشَّاطئُ الذي يَرسُونَ عليه؛ إشارةً إلى إمكانِ حُصولِ الخَوفِ لهم بمُجَرَّدِ حُلولِهم بالبَرِّ، بحيث يُخسَفُ بهم ذلك الشَّاطئُ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

قال البقاعي: (دَلَّ على شِدَّةِ إسراعِهم بالكُفرِ عند وُصولِهم إلى أوَّلِ السَّاحِلِ بقَولِه تعالى: ﴿جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٧٣).

قال الماوَردي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ يحتمِلُ وجهين: أحدُهما: يريدُ بعضَ البَرِّ، وهو موضِعُ حلولِهم منه، فسمَّاه جانبَه؛ لأنَّه يصير بعد الخسفِ جانبًا. الثاني: أنهم كانوا على ساحلِ البحر، وساحِلُه جانبُ البَرِّ، وكانوا فيه آمنين من أهوالِ البحرِ فحذَّرهم ما أمِنوه من البَرِّ، كما حذَّرهم ما خافوه من البحرِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨-٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾: يُمطِركم بحجارةٍ مِن السَّماءِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابنُ جريج، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨).

وقيل: المراد: مطَرٌ فيه بَرَدٌ يُشبِهُ الحِجارةَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

وقيل: المرادُ: ريحٌ فيها حاصِبٌ، وهو الحصى الصِّغارُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ قتيبةَ، والقرطبي.

كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم ناصِرًا يَدفَعُ عنكم العَذابَ، ويُنقِذُكم منه[١].

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْۙ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ٦٩﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: أم أَمِنْتُم -يا مَن أعرَضْتُم عن توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ الدِّينِ له، بَعدَما اعترَفْتُم بذلك في البَحرِ فأنقَذَكم- أن يَرجِعَكم اللهُ في البَحرِ مرَّةً أخرى[٢]؟

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾.

أي: فيُرسِلَ اللهُ عليكم في البَحرِ رِيحًا شَديدةً تَكسِرُ سُفُنَكم، فيُغرِقَكم بسبَبِ كُفرِكم باللهِ، وإعراضِكم عنه[٣]؟

يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٢).

قال الشِّنقيطيُّ: (هو المطَرُ أو الرِّيحُ اللذان فيهما الحِجارةُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦).

قال ابن عاشور: (أي: لا تجِدوا لأنفُسِكم من يجادِلُنا عنكم، أو يطالِبُنا بما ألحَقْناه بكم من الخَسفِ أو الإهلاكِ بالحاصِبِ، أي: لا تجِدوا من قومِكم وأوليائِكم من يثأرُ لكم كشأنِ مَن يلحَقُه ضُرٌّ في قومِه أن يدافِعَ عنه ويطالِبَ بدَمِه أولياؤُه وعصباتُه. وهذا المعنى مناسِبٌ لِما يقع في البَرِّ مِن الحدثان). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٢).

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدوا لكم تابِعًا يثأرُ لكم، ويُطالِبُنا بما فعَلْنا بكم(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۞ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ فيه إشارةٌ إلى إمكانِ حُصولِ الخَوفِ لهم بمُجَرَّدِ حُلولِهم بالبَرِّ، بحيثُ يُخسَفُ بهم ذلك الشَّاطِئُ، أي: أنَّ البَرَّ والبَحرَ في قُدرةِ الله تعالى سِيَّان؛ فعلى العاقِلِ أن يَستَويَ خَوفُه مِن اللهِ في البَرِّ والبَحرِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ دَليلٌ على أنَّ الفَزَعَ إلى اللهِ في الشِّدَّةِ -دونَ الرَّخاءِ- خُلُقٌ مِن أخلاقِ الكافِرينَ، وأنَّ المؤمِنَ مَندوبٌ إلى مُراعاةِ حقِّ اللهِ عليه، والتَّعَرُّفِ إليه في الرَّخاءِ؛ لِيُجابَ عندَ الشِّدَّةِ، فإذا أُجيبَ ازدادَ ذِكْرًا وخَشيةً واقترابًا وتَفويضًا؛ ليكونَ عَبدًا مُؤتمِرًا، لا وَجِلًا خائِفًا، مُتبَرِّئًا مِن الحَولِ والقُوَّةِ، مُستَمِدًّا المَعونةَ مِن ربِّه في كلا حالَيه مِن الرَّخاءِ والشِّدَّةِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لم يَقُلْ: (أمَسَّكم) بالإسنادِ إلى نَفسِه تعالى؛ تأديبًا لنا في مُخاطَبتِه بنِسبةِ الخَيرِ دُونَ الشَّرِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٧٨).

إليه، مع اعتِقادِ أنَّ الكُلَّ فِعْلُه، وتنبيهًا على أنَّ الشَّرَّ مِمَّا ينبغي التبَرُّؤُ منه، والبُعدُ عنه[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ السَّلامةَ في البَرِّ نِعمةٌ عَظيمةٌ تَنسَونَها، فلو حدَث لكم خَسفٌ لهَلَكتُم هَلاكًا لا نجاةَ لكم منه، بخِلافِ هَولِ البَحرِ، ولكِنْ لَمَّا كانت السَّلامةُ في البَرِّ غيرَ مُدرَكٍ قَدْرُها، قَلَّ أنْ تَشعُرَ النُّفوسُ بنِعمَتِها وتَشعُرَ بخَطَرِ هَولِ البَحرِ؛ فينبغي التدَرُّبُ على تَذكُّرِ نِعمةِ السَّلامةِ مِن الضُّرِّ، ثمَّ إنَّ محَلَّ السَّلامةِ مُعرَّضٌ إلى الأخطارِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ صَريحٌ في إباحةِ رُكوبِ البَحرِ للتِّجارةِ[3].

٢- مَن دعا اللهَ سُبحانَه مُوقِنًا أنَّه يُجيبُ دَعوةَ الدَّاعي إذا دعاه، أجابَه، وقد يكونُ مُشرِكًا وفاسقًا؛ فإنَّه سُبحانَه هو القائِلُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وهو القائِلُ سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾، وهو القائِلُ سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١]، ولكِنَّ هؤلاء الذين يُستجابُ لهم لإقرارِهم برُبوبيَّتِه، وأنَّه يُجيبُ دُعاءَ المُضطَرِّ،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨).

إذا لم يَكونوا مُخلِصينَ له الدِّينَ في عِبادتِه، ولا مُطيعينَ له ولِرَسولِه؛ كان ما يُعطيهم بدُعائهم مَتاعًا في الحياةِ الدُّنيا، وما لهم في الآخِرةِ مِن خَلاقٍ[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾

- قولُه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بالمُسنَدِ إليه مُعرَّفًا بالإضافةِ ومُستحضرًا بصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ ﴿ رَّبُّكُمُ ﴾؛ لاستدعاءِ إقبالِ السَّامعينَ على الخبرِ المُؤذِنِ بأهميَّتِه؛ حيث افتُتِحَ بما يُترَقَّبُ منه خبرٌ عظيمٌ؛ لكونِه من شُؤونِ الإلهِ الحقِّ، وخالقِ الخلْقِ، ومُدبِّرِ شُؤونِهم، تَدبيرَ اللَّطيفِ الرَّحيمِ، فيُوجِبُ إقبالَ السَّامعِ بشَراشِرِه[2]؛ إنْ مُؤمنًا مُتذكِّرًا، أو مُشركًا ناظِرًا مُتدبِّرًا. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ. وبتَعريفِ طرفيْها ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى ﴾؛ للدَّلالةِ على الانحصارِ، أي: ربُّكم هو الَّذي يُزْجي لكم الفُلكَ لا غيرُه ممَّن تَعْبدونه باطلًا، وهو الَّذي لا يَزال يفعَلُ ذلك لكم. وجِيءَ بالصِّلةِ فعلًا مُضارعًا ﴿ يُزۡجِى ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك وتجدُّدِه[3].

- وفي قولِه: ﴿ يُزۡجِى ﴾ شَبَّهَ تَسخيرَ الفُلْكِ للسَّيرِ في الماءِ بإزجاءِ الدَّابَّةِ المُثقلَةِ بالحِمْلِ[4].

- قولُه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ تَعليلٌ وتَنبيهٌ لموقعِ الامتنانِ؛ ليَرْفُضوا

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤).

(٢) بشَراشِرِه: أي: بكُلِّيَّتِه وجميعِ نَفسِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عِبادةَ غيرِه ممَّا لا أثرَ له في هذه المِنَّةِ[١]، وهو تَذييلٌ فيه تعليلٌ لِما سبَقَ من الإزجاءِ لابتغاءِ الفضْلِ، وصِيغَةُ (الرَّحيمِ) للدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ بالرَّحمةِ الرَّحمةُ الدُّنيويَّةُ، والنِّعمةُ العاجلةُ المُنقسِمةُ إلى الجليلةِ والحقيرةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ وإلزامِ الحُجَّةِ. وجُملةُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والتَّوبيخِ. والعُدولُ إلى الموصوليَّةِ -﴿مَن تَدْعُونَ﴾- لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عمَلِ اللِّسانِ؛ ليتأتَّى الإيجازُ، أي: مَن يتكرَّرُ دُعاؤكم إيَّاهم، كما يدُلُّ عليه المُضارعُ، فالمعنى: غاب وانصرَفَ ذِكْرُ الَّذين عادتُكم دُعاؤهم عن ألسنتِكم فلا تَدْعونهم، وذلك بقَرينةِ ذكْرِ الدُّعاءِ هنا الَّذي مُتعلَّقُه اللِّسانُ؛ فتعيَّنَ أنَّ ضلالَهم هو ضَلالُ ذكْرِ أسمائِهم، وهذا إيجازٌ بَديعٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تعليلٌ لِما سبَقَ من الإعراضِ[٤]، وجاءت صِفَةُ ﴿كَفُورًا﴾ دَلالةً على المُبالغةِ، ثمَّ لم يُخاطِبْهم بذلك، بل أسنَدَ ذلك إلى الإنسانِ؛ لُطفًا بهم، وإحالةً على الجنسِ؛ إذ كلُّ أحدٍ لا يكادُ يُؤدِّي شُكرَ نِعَمِ اللهِ[٥]، وأيضًا هذه الجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ اعتراضٌ وتَذييلٌ؛ لزيادةِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٢).

التَّعجُّبِ منهم ومن أمثالِهم. والتَّعريفُ في الإنسانِ تعريفُ الجنسِ، وهو مُفيدٌ للاستغراقِ؛ فهذا الاستغراقُ يجوزُ أنْ يكونَ استغراقًا عُرفيًّا بحمْلِه على غالبِ نوعِ الإنسانِ، وهم أهلُ الإشراكِ، وهم أكثرُ النَّاسِ يومئذٍ، فتكونُ صِيغَةُ المُبالَغةِ من قولِه: ﴿كَفُورًا﴾ راجعةً إلى قُوَّةِ صِفَةِ الكُفرانِ أو عدَمِ الشُّكرِ؛ فإنَّ أعلاه إشراكُ غيرِ المُنعِمِ مع المُنعِمِ في نِعمةٍ لا حظَّ له فيها. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستغراقُ حقيقيًّا، أي: كان نوعُ الإنسانِ كَفورًا، أي: غيرَ خالٍ من الكُفرانِ، فتكونُ صِيغَةُ المُبالَغةِ راجعةً إلى كثرةِ أحوالِ الكُفرانِ مع تَفاوُتِها[(١)].

- وذِكْرُ فعْلِ (كان) إشارةٌ إلى أنَّ الكُفرانَ مُستقِرٌّ في جِبلَّةِ هذا الإنسانِ؛ لأنَّ الإنسانَ قلَّما يشعُرُ بما وراء عالمِ الحسِّ؛ فإنَّ الحواسَّ تَشغَلُه بمُدركاتِها عنِ التَّفكُّرِ فيما عدا ذلك من المعاني المُستقرَّةِ في الحافظةِ، والمُستنبَطةِ بالفكرِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ...﴾ الاستفهامُ ﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ إنكاريٌّ وتَوبيخٌ[(٣)]، و﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَعۡرَضۡتُمۡ﴾، وما بينهما اعتِراضٌ، وفُرِّعَ الاستفهامُ التَّوبيخيُّ على إعراضِهم عنِ الشُّكرِ، وعَوْدِهم إلى الكُفرِ[(٤)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٠-١٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٠-١٦١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦١).

﴿ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ﴾ فيه إيثارُ كلمةِ (في) على كلمةِ (إلى) المُنبئةِ عن مُجرَّدِ الانتهاءِ؛ للدَّلالةِ على استقرارِهم فيه[١].

- قولُه: ﴿أَن يُعِيدَكُمۡ﴾ فيه إسنادُ الإعادةِ إليه تعالى، مع أنَّ العودَ إليه باختيارِهم باعتبارِ خلْقِ الدَّواعي المُلجئةِ لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كَمالِ شِدَّةِ هولِ ما لاقَوه في التارةِ الأُولى، بحيث لولا الإعادةُ لَمَا عادوا[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كشأنِها في عطْفِها الجُمَلَ، وهو ارتقاءٌ في التَّهديدِ بعدَمِ وُجودِ مُنقذٍ لهم، بعدَ تهديدِهم بالغرقِ؛ لأنَّ الغريقَ قد يجِدُ مُنقِذًا[٣].

- ووصْفُ (تَبيع) يُناسِبُ حالَ الضُّرِّ الَّذي يلحَقُهم في البحرِ؛ لأنَّ البحرَ لا يصِلُ إليه رجالُ قَبيلةِ القومِ وأولياؤهم، فلو راموا الثَّأرَ لهم لرَكِبوا البحرَ ليُتابِعوا آثارَ مَن ألحَقَ بهم ضرًّا؛ فلذلك قيل هنا: ﴿تَبِيعٗا﴾، وقيل في الَّتي قبلَها: ﴿وَكِيلًا﴾[٤].

- وعلى قِراءةِ ﴿نَخۡسِفَ﴾ و﴿نُرۡسِلَ﴾ و﴿نُعِيدَكُمۡ﴾ و﴿فَنُرۡسِلَ﴾ و﴿فَنُغۡرِقَكُمۡ﴾ خمْسَتُها بنونِ العظمةِ[٥]؛ فيكونُ فيها التِفاتٌ من ضميرِ الغَيبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٤).

(٥) وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرٍو. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٩٦، ٩٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٨).

الَّذي في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ إلى ضميرِ التَّكلُّمِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٣).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتِيلًا﴾: الفَتيلُ: الخيطُ الذي في بَطنِ النَّواةِ، ويُضرَبُ مَثَلًا للشَّيءِ الحَقيرِ التَّافِهِ، وأصلُ (فتل): يدُلُّ على لَيِّ شَيءٍ[١].

المَعنى الإجماليُّ:

ذكَر الله سبحانَه تكريمَه لبنى آدمَ، وتفضيلَهم على كثيرٍ مِن المخلوقاتِ، فقال: ولقد كَرَّمْنا بني آدَمَ بما أنعَمْنا عليهم مِنَ النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ، وسَخَّرْنا لهم ما يحمِلُهم من الدوابِّ في البَرِّ، والسُّفُنِ في البَحرِ، ورَزَقْناهم مِن طَيِّباتِ المطاعِمِ والمَشارِبِ وسَائِرِ مَا يستلِذُّونَه وينتَفِعونَ به، وفضَّلْناهم على كَثيرٍ مِن المَخلوقاتِ تَفضيلًا عَظيمًا.

ثمَّ ذكَر شيئًا مِن أحوالِهم في الآخرةِ فقال: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ القيامةِ حينَ يَدعو اللهُ -عَزَّ وجَلَّ- كُلَّ جَماعةٍ مِنَ النَّاسِ مع إمامِهم الذي كانوا يأتمُّونَ به في الدُّنيا، فمَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَمينِه، فهؤلاء يَقرَؤونَ كِتابَهم فَرِحينَ مُستَبشِرينَ، ولا يُنْقَصونَ مِن ثَوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ شَيئًا، وإن كان يسيرًا كالخَيطِ الذي يكونُ في شَقِّ النَّواةِ، ومَن كان في هذه الدُّنيا أعمى القَلبِ عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٥/ ٨٤).

طريقِ الحَقِّ، فهو في الآخرة أشدُّ عَمًى، وأضَلُّ طَريقًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما امتَنَّ به عليهم مِن إزجاءِ الفُلكِ في البَحرِ، ومِن تَنجِيَتِهم مِن الغَرَقِ؛ تَمَّمَ ذِكرَ المِنَّةِ بذِكرِ تكرِمتِهم ورِزقِهم وتَفضيلِهم[(١)].

وأيضًا لَمَّا هَدَّدَهم اللهُ تعالى بما هَدَّدَ مِن الخَسفِ والغَرَقِ، وأنَّهم كافِرو نِعمَتِه؛ ذكَرَ ما أنعَمَ به عليهم ليتَذَكَّروا فيَشكُروا نِعَمَه، ويُقلِعوا عمَّا كانوا فيه مِن الكُفرِ، ويُطيعوه تعالى، وفي ذِكرِ النِّعَمِ وتَعدادِها هَزٌّ لِشُكرِها[(٢)].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

أي: ولقد شَرَّفْنا بني آدَمَ قاطِبةً برَّهم وفاجِرَهم بأنواعِ الشَّرَفِ والمحاسِنِ الكَثيرةِ، بما أنعَمَ اللهُ تعالى عليهم مِن النِّعَمِ الظَّاهرةِ والباطِنةِ التي لا يُمكِنُ لهم حَصرُها؛ ومنها تَمييزُهم بالعَقلِ، وتَسخيرُ المخلوقاتِ لهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

قال الشوكاني: (هذه الكرامةُ يدخُلُ تحتَها خلْقُهم على هذه الهيئة الحَسَنةِ، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجهٍ لا يوجَدُ لسائر أنواع الحيوان مثلُه. وحكى ابنُ جرير عن جماعةٍ أنَّ هذا التكريمَ هو أنَّهم يأكُلون بأيديهم، وسائِرُ الحيوانات تأكُلُ

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

أي: وحَمَلْنا بني آدَمَ في البَرِّ على ظُهورِ الدوابِّ وغَيرِها مِن المَراكِبِ، وفي البَحرِ على ظُهورِ السُّفُنِ والقَوارِبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ

بالفم، وكذا حكاه النحَّاس. وقيل: ميَّزَهم بالنُّطقِ والعقل والتمييز. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساءَ بالذوائبِ. وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطِهم على سائر الخَلقِ وتسخيرِ سائرِ الخلقِ لهم. وقيل: بالكلامِ والخطِّ والفهم. ولا مانِعَ من حملِ التكريم المذكورِ في الآية على جميعِ هذه الأشياء، وأعظَمُ خصال التكريمِ العَقلُ؛ فإنَّ به تسلطوا على سائر الحيوانات، ومَيَّزوا بين الحَسَن والقبيح، وتوسَّعوا في المطاعم والمشارب، وكَسَبوا الأموالَ التي تسبَّبوا بها إلى تحصيلِ أمور لا يقدِرُ عليها الحيوان، وبه قَدَروا على تحصيل الأبنية التي تمنَعُهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تَقيهم الحرَّ والبردَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠).

وقال الألوسي: (... وقيل وقيل، والكُلُّ في الحَقيقةِ على سَبيلِ التَّمثيلِ، ومَن ادَّعى الحَصرَ في واحدٍ، كابنِ عطيَّةَ، حيث قال: إنَّما التكريمُ بالعَقلِ لا غيرُ- فقد ادَّعى غَلطًا ورام شَطَطًا، وخالف صريحَ العَقلِ، وصَحيحَ النَّقلِ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١١٢).

وقال ابن عاشور: (التكريمُ: جعْلُه كريمًا، أي نفيسًا غير مبذولٍ ولا ذليلٍ في صورتِه ولا في حركةِ مَشيِه وفي بشَرتِه؛ فإنَّ جميعَ الحيوان لا يعرِفُ النظافةَ ولا اللباسَ ولا ترفيهَ المضجَعِ والمأكَلِ، ولا حُسنَ كيفية تناوُلِ الطعام والشراب، ولا الاستعدادَ لِما ينفَعُه ودفْعَ ما يضرُّه، ولا شعورَه بما في ذاتِه وعقلِه مِن المحاسِنِ فيستزيدُ منها، والقبائحِ فيستُرُها ويدفَعُها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥).

وقال ابنُ عاشور: (معنى حَملِ اللهِ النَّاسَ في البَحرِ: إلهامُه إيَّاهم استعمالَ السُّفُنِ... فجعَلَ تيسيرَ ذلك كالحَملِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٤].

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورَزَقْنا بني آدَمَ مِن سَائِرِ مَا يستلِذُّونَه وينتَفِعونَ به، كأنواعِ المآكلِ والمشارِبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

وممَّن قصَرَ مِن المفَسِّرينَ الطَّيِّباتِ على المطعوماتِ والمَشروباتِ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٥).

قال القرطبي: (وجعَل رِزقَ غيرهم ما لا يخفى عليكم من التِّبنِ والعظامِ وغيرها). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥).

وزاد ابنُ كثيرٍ على ما سبَق المَلابسَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٧).

وممَّن قال بما هو أعمُّ ممَّا سبَق: الشوكانيُّ والسعدي، فقال الشوكاني: (﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أَيْ: لَذيذِ المطاعمِ والمشارِبِ وسائرِ ما يستلذُّونَه وينتفِعونَ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٠).

وقال السعدي: (﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من المآكِلِ والمشارِبِ والملابِسِ والمناكِحِ، فما من طيِّبٍ تتعلَّقُ به حوائِجُهم إلَّا وقد أكرمهم اللهُ به ويسَّرَه لهم غايةَ التيسيرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٤١، ١٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٦-٦٩].

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

أي: وفضَّلْنا[١] بني آدَمَ على كثيرٍ مِنَ المخلوقاتِ تفضيلًا عَظيمًا؛ وذلك بما منَحَهم اللهُ مِن النِّعَمِ والخَصائِصِ التي لم يُعطِها لِغَيرِهم مِن مَخلوقاتِه[٢].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ كَراماتِ الإنسانِ في الدُّنيا؛ ذكَرَ أحوالَ دَرَجاتِه في

(١) قال ابنُ عاشور: (الفَرقُ بين التَّفضيلِ والتَّكريمِ بالعُمومِ والخُصوصِ؛ فالتَّكريمُ مَنظورٌ فيه إلى تكريمِه في ذاتِه، والتَّفضيلُ مَنظورٌ فيه إلى تَشريفِه فوقَ غَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

الآخِرةِ في هذه الآيةِ[١].

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾.

أي: اذكُرْ يومَ القيامةِ حين نُنادي كُلَّ قومٍ بإمامِهم في الدُّنيا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

وفي معنى الإمامِ هاهنا خلافٌ بين المفَسِّرينَ:

فقيل: المرادُ: يُنادَونَ بالإمامِ الذي يأتَمُّ النَّاسُ به ويَقتَدونَ، مِن هادٍ أو ضالٍّ. وممن قال بذلك: البقاعي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

وقيل: إمامُهم: هاديهم إلى الرُّشدِ، وهم الرُّسُلُ ونوَّابُهم، فتُعرَضُ كُلُّ أمَّةٍ، ويَحضُرُها رَسولُهم الذي دعاهم. وممَّن قال بذلك: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: بنبيِّهم: أنسٌ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦).

وقيل: المرادُ: كِتابُ أعمالِهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والحسنُ، وأبو العالية، والضحاكُ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

وقيل: المراد: كِتابُهم الذي أُنزِلَ عليهم، كالقُرآنِ والتَّوراةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزجَّاج. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٢٥٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ، والضحاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠).

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: فمَن أُعطِيَ كتابَ أعمالِه بيَدِه اليمنى، فأولئك يَقرؤونَ كِتابَهم هذا بفَرَحٍ وسُرورٍ؛ لِما يَرَونَ فيه مِن أعمالِهم الصَّالحةِ التي عَمِلوها في الدُّنيا، ولا يَنقُصُهم اللهُ مِن جَزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ شَيئًا، ولو كان يَسيرًا في غايةِ القِلَّةِ والحَقارةِ، كالخَيطِ الذي في شَقِّ نَواةِ التَّمرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٦].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

أي: ومَن كان في هذه الدُّنيا أعمى القَلبِ لا يُبصِرُ الحَقَّ[(٢)]؛ فهو في الدَّارِ

قال ابن عطية: (قولُه: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ باسمِ إمامِهم، ويحتملُ أن يريدَ مع إمامِهم، فعلى التأويل الأول: يقالُ: يا أُمَّةَ محمَّدٍ، ويا أتباعَ فِرعَون، ونحو هذا، وعلى التأويل الثاني: تجيءُ كُلُّ أمة معها إمامُها من هادٍ أو مضِلٍّ. واختلف المفسِّرون في «الإمام»، فقال مجاهد وقتادة: نبيُّهم، وقال ابن زيد: كتابُهم الذي نزل عليهم، وقال ابن عباس والحسن: كتابُهم الذي فيه أعمالُهم، وقالت فرقة: مُتَّبَعُهم من هادٍ أو مضِلٍّ. ولفظة «الإمام» تعمُّ هذا كُلَّه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

(٢) قال النَّيسابوري: (لا خِلافَ أنَّ المرادَ بهذا العَمى: عَمى القَلبِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٠).
والإشارةُ بقولِه: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ تعودُ إلى الدُّنيا، واختلف أصحابُ هذا القولِ فيما يعمَى عنه القلبُ: فقيل: أعمَى القلبِ عن حُجج الله وآياتِه وبيناتِه. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عطية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١-١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠).

الآخرةِ[١] ....

قال ابن جرير: (وأولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصوابِ قولُ من قال: معنى ذلك: ومَن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجَجِ الله على أنَّه المنفرِدُ بخَلقِها وتدبيرِها، وتصريفِ ما فيها... وإنما قلنا: ذلك أولى تأويلاتِه بالصوابِ؛ لأنَّ الله تعالى ذِكرُه لم يَخصُصْ في قوله: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦ ﴾ الدُّنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عمى الكافِرِ به عن بعضِ حُجَجِه عليه فيها دونَ بعضٍ؛ فيوجَّهَ ذلك إلى عماه عن نِعَمِه بما أنعَمَ به عليه من تكريمِه بني آدم، وحَمْلِه إياهم في البَرِّ والبحر، وما عدَّد في الآيةِ التي ذكر فيها نِعَمَه عليهم، بل عَمَّ بالخبر عن عماه في الدنيا، فهم كما عمَّ تعالى ذِكرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١-١٢).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦ ﴾ أي: في الحياةِ الدُّنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حُجَجِ اللَّهِ وآياتِه وبيِّناتِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠).

وقيل: أعمَى القلبِ عن الهدَى، ضالٌّ عن الحقِّ، لا يبصرُ رشدَه. وممن قال بنحو ذلك: البيضاوي، وابن جزي، وابن القيم، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٠).

وقيل: الإشارةُ في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ تعودُ إلى النعمِ. وممن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والفراءُ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٢٢).

قال مقاتل: (﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦ ﴾ النعمِ ﴿أَعْمَىٰ﴾ يعني: الكافرَ، عمِي عنها، وهو معاينُها، فلم يعرِفْ أنَّها مِن الله عزَّ وجلَّ فيشكر ربَّها، فيعرِفه فيُوحِّده تبارك وتعالى). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الإشارةَ تعودُ إلى النعمِ: محمدُ بنُ أبي موسى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩).

(١) قال النيسابوري: (أما قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ فيحتملُ أنْ يُرادَ به عمَى البصرِ، كقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٤، ١٢٥]، وفي هذا زيادةُ العقوبةِ. ويحتملُ أن يُرادَ عمَى القلبِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٠).

وعلى أنَّ المرادَ عمَى القلبِ، قيل في معنى قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾: أي: فهو في أمرِ

أعمى[١] وأضَلُّ طريقًا[٢].

الآخرةِ الَّتي لم يَرَها، وفيما هو كائِنٌ فيها -مِن البعثِ والحسابِ والجنةِ والنارِ- أعمَى. وممن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢).

قال مقاتل: (﴿فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ يقول: فهو عمَّا غاب عنه مِن أمرِ الآخرةِ مِن البعثِ والحسابِ والجنةِ والنارِ أعمَى). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٢).

وقيل: المرادُ: أعمَى القلبِ يومَ القيامةِ، حيرانُ يائسٌ مِن الخيرِ؛ لأنَّه قد باشَر الخيبةَ، ورأى مخايلَ العذابِ. وممن اختار نحو هذا القولِ: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١).

وقيل: المرادُ: عمى البصرِ في الآخرة. قال ابن القيم: (واختُلِف في هذا العمى في الآخرة، فقيل: هو عمى البصيرةِ؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفَّارِ ما في القيامة ورؤيةِ الملائكةِ ورؤيةِ النار. وقيل: هو عمى البصر، ورجَّحَ هذا بأن الإطلاقَ ينصرِفُ إليه، وبقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وهذا عمى العينِ؛ فإن الكافِرَ لم يكن بصيرًا بحجَّتِه. وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفَّارِ في القيامة بأنَّ الله يخرِجُهم من قبورِهم إلى موقف القيامة بُصَراءَ ويُحشَرونَ مِن الموقِفِ إلى النار عُميًا، قاله الفرَّاء وغيره). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١١١-١١٢).

(١) قال الشنقيطي: (قال بعضُ أهل العلم: ليست الصيغةُ صيغةَ تفضيل، بل المعنى: فهو في الآخرةِ أعمى كذلك، لا يهتدي إلى نفعٍ؛ وبهذا جزم الزمخشري. قال مقيِّده عفا الله عنه: الذي يتبادَرُ إلى الذهن أنَّ لفظة ﴿أَعْمَىٰ﴾ الثانية صيغةُ تفضيل؛ أي هو أشدُّ عمًى في الآخرة. ويدُلُّ عليه قوله بعده: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ فإنها صيغةُ تفضيل بلا نزاعٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٧).

وممن رجَّح أنها صيغةُ تفضيلٍ أيضًا: الواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥١-٤٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥، ١١١، ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

قال الرسعني: (﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأنَّه في الآخرةِ، وضلالُ الآخرةِ لا سبيلَ إلى المخلصِ منه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١٠).

وقال القرطبي: (﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنَّه لا يَجِدُ طريقًا إلى الهدايةِ). ((تفسير القرطبي))

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ التَّأكيدُ بقَولِه: ﴿تَفْضِيلًا﴾ يدُلُّ على عِظَمِ هذا التَّفضيلِ، وأنَّه بمكانٍ مَكِينٍ؛ فعلى بني آدَمَ أن يتلَقَّوه بالشُّكرِ، ويَحذَروا مِن كُفرانِه[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ استدَلَّ به الشَّافعيُّ على عدَمِ نجَاسةِ الآدميِّ بالمَوتِ[(٢)].

٢- لا شكَّ أنَّ ذكرَ لفظِ ﴿كَثِيرٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ مُرادٌ منه التَّقييدُ والاحترازُ والتَّعليمُ الَّذي لا غُرورَ فيه،

(١٠/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨).

وهو مذهبُ الجمهورِ خلافًا للحنفيةِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٠/ ٧٨)، ((ملخص فقه العبادات)) إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية (ص: ٥١).

فيُعلَمُ منه أنَّ ثَمَّ مَخلوقاتٍ غيرَ مُفضَّلٍ عليها بنو آدمَ تكونُ مُساويةً، أو أفضَلَ إجمالًا أو تفصيلًا[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ قال بعضُ السَّلَف: (هذا أكبَرُ شَرَفٍ لأصحابِ الحَديثِ؛ لأنَّ إمامَهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[2].

وهذا المعنى على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُدعى إلى دِينِها وكِتابِها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، هل عَمِلَت به أم لا؟ وأنَّهم لا يُؤاخَذونَ بشَرعِ نَبيٍّ لم يُؤمَروا باتِّباعِه، وأنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه ومُخالفَتِه لها[3].

٥- قولُه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ فائدةُ نِدائِهم بمَتْبوعيهم -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ- التَّعجيلُ بالمَسرَّةِ لأتْباعِ الهُداةِ، وبالمَساءةِ لأتْباعِ الغُواةِ؛ لأنَّهم إذا دُعُوا بذلك رأَوا مَتبوعيهم في المقاماتِ المُناسبةِ لهم، فعَلِموا مصيرَهم[4].

٦- قال تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ وجْهُ كونِ ضَلالِه في الآخرةِ أشدَّ: أنَّ ضلالَه في الدُّنيا كان في مُكْنَتِه أنْ ينجُوَ منه بطلَبِ ما يُرشِدُه إلى السَّبيلِ المُوصِلِ من هَدْيِ الرَّسولِ والقُرآنِ، مع كونِه خليًّا عن لَحاقِ الألمِ به، وأمَّا ضَلالُه في الآخرةِ فهو ضلالٌ لا خَلاصَ منه، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٧-١٦٨).

مُقارِنٌ للعذابِ الدَّائمِ؛ فلا جرَمَ كان ضلالُه في الآخرةِ أدخَلَ في حقيقةِ الضَّلالِ وماهيَّتِه(١). وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

٧- إنَّ المَعادَ يعودُ على العَبدِ فيه ما كان حاصِلًا له في الدُّنيا؛ ولهذا يُسمَّى يومَ الجَزاءِ، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ، وقال سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾(٢) [مريم: ٧٦].

٨- الثَّوابُ والعِقابُ يَكونانِ مِن جِنسِ العَمَلِ في قَدَرِ اللهِ وفي شَرعِه؛ فإنَّ هذا مِن العَدلِ الذي تَقومُ به السَّماءُ والأرضُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾(٣)، وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ اعتراضٌ جاء بمُناسبةِ العِبْرةِ والمِنَّةِ على المُشركين، فاعترَضَ بذكْرِ نِعَمِه على جميعِ النَّاسِ، فأشبَهَ التَّذييلَ؛ لأنَّه ذكَرَ به ما يشمَلُ ما تقدَّمَ(٤).

- والإتيانُ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَفۡضِيلٗا﴾؛ لإفادةِ ما في التَّنكيرِ من التَّعظيمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٠).
(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٤).

أي: تَفضيلًا كبيرًا[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ هذا انتقالٌ من غرَضِ التَّهديدِ بعاجلِ العذابِ في الدُّنيا الَّذي في قولِه: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾، إلى ذكْرِ حالِ النَّاسِ في الآخرةِ تَبشيرًا وإنذارًا؛ فالكلامُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٢].

- قولُه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ ﴾ للتَّفريعِ؛ لأنَّ فعْلَ (اذْكُر) المُقدَّر يَقْتضي أمرًا عظيمًا مُجملًا، فوقَعَ تفصيلُه بذكْرِ الفاءِ وما بعدها؛ فإنَّ التَّفصيلَ يتفرَّعُ على الإجمالِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ خَصَّ أصحابَ اليَمينِ بقِراءةِ كتابِهم، كأنَّ أصحابَ الشِّمالِ لا يَقرؤون كِتابَهم؛ يَحتمِلُ لأنَّ أصحابَ الشِّمالِ إذا اطَّلعوا على ما في كتابِهم، أخَذَهم ما يأخُذُ المُطالبَ بالنِّداءِ على جناياتِه، والاعترافِ بمَساويه أمامَ التَّنكيلِ به، والانتقامِ منه، من الحياءِ والخجَلِ والانخزالِ، وحبْسةِ اللِّسانِ، والتَّتعتُعِ، والعجْزِ عن إقامةِ حُروفِ الكلامِ، والذَّهابِ عن تَسويةِ القولِ؛ فغشِيَهم من الخجَلِ والحيرةِ ما يحبِسُ ألسنتَهم عن القراءةِ، فكأنَّ قِراءتَهم كَلَا قِراءةٍ. وأمَّا أصحابُ اليَمينِ فأمْرُهم على عكْسِ ذلك، لا جرَمَ أنَّهم يَقْرؤونَ كِتابَهم أحسَنَ قراءةٍ وأبينَها، ولا يَقْنعون

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٦٧-١٦٨).

بقِراءتِهم وحْدَهم حتَّى يقولَ القارئُ لأهلِ المحشرِ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[١] [الحاقة: ١٩].

- قولُه: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ عائدٌ إلى كلِّ النَّاسِ لا إلى أصحابِ اليمينِ خاصَّةً، وإنَّما خصَّهم بذلك؛ لأنَّهم يَعْلمون أنَّهم لا يُظْلمون، ويعتقِدون ذلك، بخلافِ أصحابِ الشِّمالِ؛ فإنَّهم يعتقِدون أو يظنُّون أنَّهم يُظْلمون[٢].

- قولُه: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ (أولئك) بعدَ فاءِ جوابِ (أمَّا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم دون غيرِهم يَقْرؤون كِتابَهم؛ لأنَّ في اطِّلاعِهم على ما فيه من فعْلِ الخيرِ والجزاءِ عليه مَسرَّةً لهم ونَعيمًا، بتذكُّرِ ومعرفةِ ثَوابِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ لمَّا كان وجْهُ الشَّبهِ في أحوالِ الكافرِ في الآخرةِ أقوى منه في حالِه في الدُّنيا، أُشيرَ إلى شِدَّةِ تلك الحالةِ بقولِه: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ القائمِ مقامَ صِيغةِ التَّفضيلِ في العَمى، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ. وعدَلَ عن لفظِ (أشَدَّ) ونحوِه؛ ليتأتَّى ذكْرُ السَّبيلِ؛ لِمَا في الضَّلالِ عن السَّبيلِ من تَمثيلِ حالِ العَمى وإيضاحِه؛ لأنَّ ضلالَ فاقدِ البصَرِ عن الطَّريقِ في حالِ السَّيرِ أشدُّ وقْعًا في الإضرارِ منه وهو قابعٌ بمكانِه، فعدَلَ عن اللَّفظِ الوجيزِ إلى التَّركيبِ المُطنِبِ؛ لِما في الإطنابِ من تمثيلِ الحالِ وإيضاحِه وإفظاعِه، وهو إطنابٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٦٩).

بديعٌ[١].

- قولُه: ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ هذا بعينِه هو الَّذي أُوتِيَ كتابَه بشِمالِه؛ بدلالةِ حالِ ما سبَقَ من الفريقِ المُقابِلِ له، ولعلَّ العُدولَ عن ذكْرِه بذلك العُنوانِ، مع أنَّه الَّذي يَسْتدعيه حُسنُ المُقابلةِ حسْبما هو الواقعُ في سُورةِ (الحاقَّةِ) وسُورةِ (الانشقاقِ)؛ للإيذانِ بالعلَّةِ المُوجبةِ له، وللرَّمزِ إلى علَّةِ حالِ الفريقِ الأوَّلِ، وقد ذكَرَ في أحدِ الجانبينِ المُسبَّبَ وفي الآخرِ السَّببَ، ودَلَّ بالمذكورِ في كلٍّ منهما على المتروكِ في الآخرِ؛ تَعويلًا على شَهادةِ العقْلِ، كما في قولِه عَزَّ وعَلا: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾[٢] [يونس: ١٠٧].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٧).

الآيات (٧٣-٧٧)

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَرْكَنُ﴾: أي: تطمئنُّ، وتسكنُ، وركْنُ الشيءِ: جانبُه الذي يسكنُ إليه، وأصلُ (ركن): يدلُّ على قوةٍ[(١)].

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: أي: يَحمِلونَك على أن تَخرُجَ مِن مَكَّةَ، والاستِفزازُ: الحَملُ على التَّرحُّلِ، وهو استِفعالٌ مِن فَزَّ، بمعنى: بارحَ المكانَ، وأصلُ (فزز): يدُلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها[(٢)].

مشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾

قولُه: ﴿ سُنَّةَ ﴾: في نصبِه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أن ينتصِبَ على المصدرِ المؤكِّدِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، أو: سَنَنَّا ذلك سُنَّةً. الثاني: أن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٨).

ينتصبَ على المفعولِ به بفعلٍ محذوفٍ، أي: اتَّبِعْ سُنَّةَ. الثالثُ: أنَّه على إسقاطِ الخافِضِ، أي: يُعذَّبون كسُنَّةِ اللهِ فيمن قَبلَهم[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن مسالكِ المشركينَ لزحزحةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن طريقِ دعوتِه فيقول: ولقد قارَبَ المُشرِكونَ أن يَصرِفوك -يا مُحمَّدُ- عن القُرآنِ الذي أنزَلَه اللهُ إليك؛ لتَختَلِقَ علينا غيرَه، ولو فعَلْتَ ما أرادوه لاتَّخَذوك صَفِيًّا وليًّا، ولولا أنْ ثبَّتْناك على الحَقِّ، وعَصَمْناك عن مُوافَقتِهم، لَقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم مَيلًا قَليلًا؛ حِرصًا على إسلامِهم، ولو رَكَنْتَ إلى هؤلاء المُشرِكينَ رُكونًا قليلًا فيما سألوك، إذَن لأذَقْناك عَذابًا مُضاعَفًا في الدُّنيا وفي الآخرةِ، ثمَّ لا تَجِدُ أحَدًا يَنصُرُك ويَمنَعُك مِن عذابِنا.

ولقد قاربَ الكُفَّارُ أن يَحمِلوك على الخروجِ مِن «مكَّةَ» بإزعاجِهم إيَّاك، وإيذائِهم لك، ولو أخرَجوك منها لم يَمكُثوا فيها بَعدَك إلَّا زمنًا قليلًا، ثمَّ يُهلِكُهم اللهُ. سَنَّ اللهُ ما قصَّه عليك سُنَّةً، وهي أنَّنا نُهلِكُ الأمَّةَ التي تُخرِجُ رَسولَها مِن أرضِه، كما هي عادتُنا في أسلافِهم، ولا تجِدُ -يا مُحمَّدُ- لِسُنَّتِنا تَغييرًا ولا تبديلًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٢٩)، ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٢٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٩٥).

لَمَّا عَدَّدَ اللهُ تعالى في الآياتِ المُتقَدِّمةِ أقسامَ نِعَمِه على خَلْقِه، وأتبَعَها بذِكرِ دَرَجاتِ الخَلقِ في الآخرةِ، وشرَحَ أحوالَ السُّعَداءِ؛ أردَفَه بما يَجري مَجرى تَحذيرِ السُّعَداءِ مِن الاغترارِ بوَساوِسِ أربابِ الضَّلالِ، والانخداعِ بكَلامِهم المُشتَمِلِ على المَكرِ والتَّلبيسِ، فقال[1]:

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ ﴾.

أي: وقد قارَبَ كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن يُزيغُوك بحِيَلِهم عن القُرآنِ الذي أوحَيناه إليك؛ كي تختَلِقَ علينا غَيرَه، فتَجيءَ بما يُوافِقُ أهواءَهم، وتدَعَ القُرآنَ[2].

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾.

أي: ولو فعَلْتَ -يا مُحَمَّدُ- ما دعاك إليه قَومُك من مخالفةِ القُرآنِ، واتِّباعِ أهوائِهم؛ لجَعَلوك حَبيبًا ووَليًّا وصَفِيًّا لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: قارَبوا ذلك في ظَنِّهم لا فيما في نَفسِ الأمرِ. وقيل: معنى ذلك أنَّه خطَرَ في قلبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُوافِقَهم في بَعضِ ما أحَبُّوا؛ ليَجُرَّهم إلى الإسلامِ لشِدَّةِ حِرصِه على إسلامِهم. وبيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّهم طَلَبوا منه الإتيانَ بغيرِ ما أُوحيَ إليه، وأنَّه امتنَعَ أشَدَّ الامتناعِ، وقال لهم: إنَّه لا يُمكِنُه أن يأتيَ بشَيءٍ مِن تِلقاءِ نَفسِه، بل يَتَّبِعُ ما أوحى إليه رَبُّه، وذلك في قَولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس: ١٥]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٨). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما كان في ذلك مِن رُشدِه؛ أتبَعَه ببَيانِ أنَّه إنَّما كان بعِصمةِ اللهِ له؛ لِيَزدادَ شُكرًا، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ٧٤﴾.

أي: ولولا أن ثبَّتْناك -يا مُحَمَّدُ- على الحَقِّ، وعَصَمْناك مِنَ الانخداعِ بحِيَلِ قَومِك الكُفَّارِ؛ لقارَبْتَ أن تَميلَ إليهم شَيئًا قَليلًا، فتفعَلَ بعضَ الذي سألوك فِعْلَه[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال البيضاوي: (المعنى: أنَّك كنتَ على صدَدِ الركونِ إليهم؛ لقوَّةِ خَدْعِهم وشِدَّة احتيالِهم، لكن أدركَتْك عِصمتُنا فمُنِعْتَ أن تقربَ مِن الركون فضلًا أن تركَنَ إليهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لولا إفهامُنا إيَّاك وجهَ الحقِّ لخُشِي أن تقترِبَ مِن رُكونٍ ضعيفٍ قليلٍ، ولكنَّ ذلك لم يقَعْ. ودخلت (قَدْ) في حيِّزِ الامتناعِ فأصبَح تحقيقُها مَعدومًا، أي: لولا أنْ ثبَّتْناك لتحَقَّق قُربُ مَيلِك القليلِ، ولكنَّ ذلك لم يقَعْ؛ لأنَّا ثبَّتْناك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابن جُزي: (﴿لَوْلَا﴾ تدلُّ على امتناعِ شَيءٍ لوجود غيره، فدلَّت هنا على امتناع مقاربةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الركونَ إليهم؛ لأجل تثبيت الله له وعصمتِه، و﴿كِدتَّ﴾ تقتضي نفيَ الركون؛ لأنَّ معنى كاد فلان يفعل كذا، أي: أنَّه لم يفعَلْه، فانتفى الركونُ إليهم ومقاربتُه، فليس في ذلك نقصٌ من جانبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ التثبيتَ منعه من مقاربةِ الركون، ولو لم يثبِّتْه الله لكانت مقاربتُه للركون إليهم شيئًا قليلًا، وأمَّا مع التثبيتِ فلم يركَنْ قليلًا ولا كثيرًا، ولا قارَبَ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٢).

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾.

أي: لو رَكَنْتَ قليلًا إلى المُشرِكينَ -يا مُحَمَّدُ- ففَعَلْتَ بعضَ ما سألوك، لأذقْناك عَذابًا مُضاعَفًا في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدُ لك -يا مُحَمَّدُ- ناصِرًا يَنصُرُك ويَمنَعُك مِن عذابِنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٨، ١٧٩).

وممن جعَل ﴿إِذًا﴾ متعلقةً بالركونِ إلى المشركينَ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ القيِّم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: متعلقةٌ بمقاربةِ الركونِ إليهم، أي: لو قارَبْتَ الركونَ الموصوفَ إليهم ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾. قاله البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٧).

قال الشنقيطي: (﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، أي: مِثْلَي عذابِ الحياةِ في الدُّنيا، ومِثْلَي عَذابِ المَماتِ في الآخِرةِ، وبهذا جزم القُرطبيُّ في «تفسيره». وقال بعضُهم: المرادُ بضِعفِ عذابِ المَماتِ: العَذابُ المُضاعَفُ في القبرِ. والمرادُ بضِعفِ الحياةِ: العذابُ المُضاعَفُ في الآخرةِ بعدَ حياةِ البَعثِ، وبهذا جزمَ الزَّمخشريُّ وغَيرُه. والآيةُ تَشمَلُ الجَميعَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال ابنُ عاشور: (والنَّصيرُ: النَّاصِرُ المُخَلِّصُ مِن الغَلَبةِ، أو الذي يثأرُ للمَغلوبِ، أي: لا تجِدُ لنَفسِك مَن ينتَصِرُ لك فيَصُدُّنا عن إلحاقِ ذلك بك، أو يثأرُ لك مِنَّا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٧).

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ٧٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ استمالوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّفقِ، حتى كادوا -لولا العِصمةُ- أن يُميلُوه؛ دَلَّ على أنَّهم أخافوه بعدَ ذلك حتى كادوا أن يُخرِجوه مِن وَطَنِه قبلَ الإذْنِ الخاصِّ بالهِجرةِ[١].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]؛ تَعدادًا لسَيِّئاتِ أعمالِهم[٢].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

أي: ولقد قارَبَ هؤلاء المُشرِكونَ أن يُزعِجوك ويَستَخِفُّوك مِن مَكَّةَ -يا مُحَمَّدُ- بكَثرةِ إيقاعِ الأذى بك؛ لِيُخرِجوك منها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولو أخرَجَك قَومُك -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يَبْقوا فيها بَعدَك إلَّا قليلًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٤).

حتى يُهلِكَهم اللهُ بعَذابٍ عاجِلٍ(١).

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾.

أي: لو أخرجَك الكُفَّارُ -يا مُحَمَّدُ- مِن مَكَّةَ، فلن يلبثُوا فيها إلَّا قليلًا حتَّى نُهلِكَهم بعذابِنا، كما هي عادَتُنا في إهلاكِ الأُمَمِ الكافرةِ التي أرسَلْنا إليهم رُسُلًا مِن قَبلِك، فآذَوْهم، وأخرَجوهم مِن بلادِهم(٢).

﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

أي: ولا تَجِدُ -يا مُحَمَّدُ- تغييرًا عمَّا جَرَت به عادتُنا، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على تَغييرِها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

قال ابنُ عاشور: (وقد خرج رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعد ذلك مُهاجِرًا، وكانوا السَّبَبَ في خُروجِه، فكأنَّهم أخرَجوه... فلم يلبَث الذين تسَبَّبوا في إخراجِه وألَّبُوا عليه قَومَهم بعدَه إلَّا قليلًا، ثمَّ خَرَجوا إلى وَقعةِ بدرٍ فلَقُوا حَتْفَهم هنالك فلم يَرجِعوا، وحَقَّ عليهم الوَعيدُ، وأبقى اللهُ عامَّتَهم ودَهماءَهم؛ لِضَعفِ كَيدِهم، فأراد اللهُ أن يدخُلوا في الإسلامِ بعد ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٨٢).

قال البقاعي: (لكنَّهم خُصُّوا عن الأُمَمِ السَّالفةِ بأنَّهم لا يُعَذَّبونَ عذابَ الاستِئصالِ؛ تَشريفًا لهم بهذا النبيِّ الكريمِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (التَّحويلُ أن تُحَوَّلَ مِن مَحَلٍّ إلى محلٍّ، مثل استفزازِه مِن الأرضِ لِيُخرِجوه؛

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فيه أنَّه لا عِصْمةَ عنِ المعاصي إلَّا بتَوفيقِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه تعالى بَيَّنَ أنه لو لا تَثبيتُ اللهِ تعالى له لَمالَ إلى طريقةِ الكُفَّارِ، ولا شَكَّ أنَّ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أقوَى مِن غَيرِه في قُوَّةِ الدِّينِ، وصَفاءِ اليَقينِ، فلمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ بقاءَه مَعصومًا عن الكُفرِ والضَّلالِ لم يَحصُلْ إلَّا بإعانةِ اللهِ تعالى وإغاثتِه؛ كان حُصولُ هذا المعنى في حَقِّ غَيرِه أَولى[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ تضمَّنَ تحذيرَ الأمَّةِ مِن الرُّكونِ إلى الكَفَرةِ؛ لِما نِيطَ به من الوعيدِ الشَّديدِ لِمن هو أقرَبُ إلى اللهِ وَسيلةً، على تقديرِ وُجودِ ذلك منه[(٢)].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا

فإنَّهم لا يَلبَثونَ خَلْفَه إلَّا قليلًا، ولا تتحوَّلُ هذه السُّنَّةُ بأن يكونَ هو المُخرَجُ وهم اللَّابِثونَ، بل متى أخرجوه خرَجوا خَلْفَه). ((جامع الرسائل)) (١/ ٥٥-٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١١).

﴾ فيه دَليلٌ على شِدَّةِ افتِقارِ العَبدِ إلى تَثبيتِ اللهِ إيَّاه، وأنَّه ينبغي له ألَّا يَزالَ مُتمَلِّقًا لرَبِّه أن يُثبِّتَه على الإيمانِ، ساعيًا في كلِّ سَبَبٍ مُوصِلٍ إلى ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو أكمَلُ الخَلقِ قال اللهُ له: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فكيف بِغَيرِه[1]؟ فالعَبدُ لا يَستغني عن تثبيتِ اللهِ له طَرفةَ عينٍ، فإنْ لم يُثبِّتْه وإلَّا زالَت سَماءُ إيمانِه وأرضُه عن مَكانِهما[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ فيه تَذكيرُ اللهِ لِرَسولِه مِنَّتَه عليه، وعِصمَتَه مِنَ الشَّرِّ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ اللهَ يُحِبُّ مِن عِبادِه أن يتفَطَّنوا لإنعامِه عليهم -عند وجودِ أسبابِ الشَّرِّ- بالعِصمةِ منه، والثَّباتِ على الإيمانِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ أدنَى مُداهَنةٍ للغُواةِ مُضادَّةٌ للهِ، وخُروجٌ عن وَلايتِه، وسَبَبٌ مُوجِبٌ لغَضَبِه ونَكالِه؛ فعلى المؤمنِ إذا تلا هذه الآيةَ أن يَجثُوَ عندها، ويتدَبَّرَها؛ فهي جديرةٌ بالتدبُّرِ، وبأنْ يستشعِرَ النَّاظِرُ فيها الخَشيةَ، وازديادَ التصَلُّبِ في دينِ اللهِ[4].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في هذه الآيةِ بيانٌ لِكَونِ الجاهِلِ لا يزالُ يَنصُبُ للعالِمِ الحبائِلَ، ويَطلُبُ له الغَوائِلَ، فيَعودُ ذلك عليه بالوَبالِ، في الحالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٥).

والمآلِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ في ذِكرِ الكَيدودةِ وتَقليلِها -مع إتْباعِها الوَعيدَ الشَّديدَ بالعذابِ المُضاعَفِ في الدَّارَينِ- دَليلٌ بَيِّنٌ على أنَّ القَبيحَ يَعظُمُ قُبحُه بِمقدارِ عِظَمِ شَأنِ فاعِلِه، وارتِفاعِ مَنزِلتِه[٢]، فبحَسَبِ عُلُوِّ مَرتبةِ العَبدِ، وتواتُرِ النِّعَمِ عليه مِنَ اللهِ، يَعظُمُ إثمُه، ويتَضاعَفُ جُرمُه إذا فَعَل ما يُلامُ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكَّرَ رَسولَه لو فعل -وحاشاه مِن ذلك- بقَولِه: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[٣]، فكلَّما كانت الدَّرَجةُ أعلى كان العذابُ عند المُخالفةِ أعظَمَ؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠][٤]. فالسيِّئاتُ قد تُضاعَفُ بشَرفِ فاعِلِها، وقوَّةِ مَعرفتِه باللهِ، وقُربِه منه؛ فإنَّ مَن عصى السُّلطانَ على بساطِه أعظَمُ جُرمًا مِمَّن عصاه على بُعدٍ؛ ولهذا توعَّدَ الله خاصَّةَ عبادِه على المعصيةِ بمضاعَفةِ الجزاءِ، وإن كان قد عصَمَهم منها؛ ليبيِّنَ لهم فَضلَه عليهم بعِصمتِهم من ذلك[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

هذه الآيةُ مِن الأدلَّةِ الواضِحةِ على ما خُصَّ به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم مِن الفضائِلِ في شَرفِ جَوهرِه، وزكاءِ عُنصرِه، ورُجحانِ عَقلِه، وطِيبِ أصلِه؛ لأنَّها دلَّت على أنَّه صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لو وُكِلَ إلى نفسِه وما خلَقَ اللهُ في طَبعِه وجبِلَّتِه من الغرائِزِ الكاملةِ والأوصافِ الفاضلةِ، ولم يتدارَكْه بما منحَه من التثبيتِ زيادةً على ذلك حالَ النبوَّةِ؛ لم يركَنْ إليهم -وهم أشَدُّ النَّاسِ أفكارًا، وأصفاهم أفهامًا، وأعلَمُهم بالخِداعِ، مع كثرةِ عدَدِهم، وعِظَمِ صَبرِهم وجَلَدِهم- ركونًا ما أصلًا، وإنما كان قُصاراهم أن يقارِبَ الركونَ شَيئًا قليلًا[(١)].

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ إنْ قيل: النَّبيُّ كان معصومًا من الشِّركِ والكبائرِ، فكيف يجوزُ أن يقرَبَ ممَّا طلَبوه منه، والذي طلبوه منه كُفرٌ؟

الجواب من وجهين:

أحدُهما: أنَّا نعتقِدُ أنَّ الرَّسولَ مَعصومٌ مِن الشِّركِ والكبائِرِ، ونحمِلُ على أنَّ ما وُجِدَ منه كان همًّا من غيرِ عزمٍ، وقد قال النبيُّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنَّ اللَّهَ تَجاوَزَ لأُمَّتي عمَّا وسْوَسَتْ، أو حدَّثَتْ به أنفسَها ما لم تعمَلْ به، أو تكلَّمْ))[(٢)]. وفي الجملةِ: اللهُ أعلمُ برَسولِه من غيره.

والجوابُ الثاني: وهو أنَّه قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾، وقد

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثبَّته ولم يركَنْ، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد تفضَّل اللهُ ورَحِمَ، ولم يتَّبِعوا الشَّيطانَ[1].

٤- إن قيلَ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني: مَكَّةَ، والمرادُ أهلُها، فذَكَرَ أَنَّهم أخرجوه، وقال في هذه الآيةِ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] فكيف يُمكِنُ الجَمعُ بينهما؟

فالجوابُ: أنَّهم هَمُّوا وقصَدوا إخراجَه، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ثمَّ قبلَ أن يُتِمُّوا ذلك أمرَ الله تعالى نبيَّه -عليه السَّلامُ- بالخروجِ، فخرج منها بأمرِ اللهِ خائفًا منهم ومِن مَكرِهم، وكان خروجُه بأمرِ الله سببًا لسلامتِه مِمَّا كانوا يدبِّرونَه فيما بينهم، وجاز إضافةُ الإخراجِ إليهم في قَولِه: ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾؛ لأنَّهم همُّوا بذلك، وأُمرَ بالخروجِ منها لقَصدِهم إخراجَه، فلما كانوا سببًا في خروجِه أُضيف ذلك إليهم[2]؛ لأنَّهم في الحقيقةِ اضطرُّوه وألجؤوه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- إلى الخُروجِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسولَ سيَخرُجُ مِن مكَّةَ وأنَّ مُخرِجيه -أي: المُتسَبِّبينَ في خُروجِه- لا يَلبَثونَ بَعدَه بمكَّةَ إلَّا قليلًا[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٩).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ فيه أنَّ الله إذا أراد إهلاكَ أُمَّةٍ، تَضاعَفَ جُرمُها، وعَظُمَ، فيَحِقُّ عليها القَولُ مِنَ اللهِ، فيُوقِعُ بها العِقابَ، كما هي سُنَّتُه في الأُمَمِ إذا أخرَجوا رَسولَهم[1].

٧- قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾، وإنَّما سَنَّ اللهُ هذه السُّنَّةَ لرُسلِه؛ لأنَّ تآمُرَ الأقوامِ على إخراجِهم يَسْتدعي حكمةَ اللهِ تعالى لأنْ تتعلَّقَ إرادتُه بأمْرِه إيَّاهم بالهجرةِ؛ لئلَّا يَبْقوا مَرموقينَ بعَينِ الغضاضةِ بين قومِهم وأجوارِهم[2].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾، وهو انتقالٌ من وصْفِ حالِهم، وإبطالِ مَقالِهم في تكذيبِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذكْرِ حالِ طمَعِهم في أنْ يستنْزِلوا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأنْ يقولَ قولًا فيه حُسْنُ ذكْرٍ لآلهتِهم؛ ليَتنازلوا إلى مُصالحتِه ومُوافقتِه إذا وافقَهم في بعضِ ما سألوه[3].

- وفي قولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ غيَّرَ الأسلوبَ من خطابِهم في آياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧١).

﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ ﴾ إلى الإقبالِ على خطابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لتغيُّرِ المقامِ من مقامِ استدلالٍ إلى مقامِ امتنانٍ[1].

- والموصولُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ للعهدِ؛ لِمَا هو معلومٌ عند النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحسَبِ ما سأله المُشركون من مُخالفتِه؛ فهذه الآيةُ مَسوقةٌ مَساقَ المَنِّ على النَّبيِّ بعصمةِ اللهِ إيَّاه من الخطَأِ في الاجتهادِ، ومَساقَ إظهارِ مَلَلِ المُشركينَ من أمْرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ وتخوُّفِهم من عواقبِها، وفي ذلك تثبيتٌ للنَّبيِّ وللمُؤمنينَ، وتأييسٌ للمُشركين بأنَّ ذلك لن يكونَ[2].

- وجُملةُ ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾، و(إِذًا) حرفُ جَزاءٍ؛ فتكونُ جزاءً لفعلِ ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ ﴾ بما معه مِن المُتعلِّقاتِ مُقحمًا بين المُتعاطفينِ، لتصيرَ واوُ العطفِ مع (إِذًا) مُفيدةً معنى فاءِ التَّفريعِ، ووجْهُ عطْفِها بالواوِ دونَ الاقتصارِ على حرفِ الجزاءِ؛ لأنَّه باعتبارِ كونِه من أحوالِهم الَّتي حاوروا النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها، وألَحُّوا عليه؛ فناسبَ أنْ يُعطَفَ على جُملةِ أحوالِهم. والتَّقديرُ: فلو صَرَفوك عن بعضِ ما أوحينا إليك لاتَّخذوكَ خليلًا[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾

- ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴾ لم يقتصِرْ على ﴿قَلِيلًا ﴾؛ لأنَّ تَنكيرَ ﴿ شَيۡـٔٗا ﴾ مُفيدُ التَّقليلَ؛ فكان في ذكْرِه تهيئةٌ لتوكيدِ معنى التَّقليلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٣).

فإنَّ كلمةَ (شَيءٍ) لتوغُّلِها في إبهامِ جنسِ ما تُضافُ إليه أو جنسِ الموجودِ مُطلقًا، مُفيدةٌ للتَّقليلِ غالبًا[١].

- وفي هذه الآيةِ نَفى رُكونَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، وبيَّنَ أنَّه غيرُ واقعٍ ولا مُقاربُ الوقوعَ بأربعةِ أُمورٍ، وهي: (لولا) الامتناعيَّةُ، وفعْلُ المُقارَبةِ (كاد) المُقتضي أنَّه ما كان يقَعُ الرُّكونُ ولكنْ يقَعُ الاقترابُ منه، والتَّحقيرُ المُستفادُ من ﴿شَيْـًٔا﴾، والتَّقليلُ المُستفادُ من ﴿قَلِيلًا﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ﴾، وموقعُها تَحقيقُ عدَمِ الخلاصِ من تلك الإذاقةِ، و(ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ عدَمَ الخلاصِ من العذابِ أهمُّ من إذاقتِه، فرُتْبتُه في الأهميَّةِ أرقى[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- التَّعريفُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ تعريفُ العهدِ، أي: من أرضِك، وهي مكَّةُ. وقولُه: ﴿لِيُخْرِجُوكَ﴾ تَعليلٌ للاستفزازِ، أي: استفزازًا لقصْدِ الإخراجِ، والمُرادُ بالإخراجِ: مُفارقةُ المكانِ دونَ رُجوعٍ، وبهذا الاعتبارِ جُعِلَ علَّةً للاستفزازِ؛ لأنَّ الاستفزازَ أعمُّ من الإخراجِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

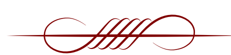
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٧٨).

٥- قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

- جُملةُ: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لبيانِ سبَبِ كونِ لُبْثِهم بعدَه قليلًا(١).

- قولُه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ اعتراضٌ لتكملةِ البيانِ، والتَّعبيرُ بـ ﴿لَا تَجِدُ﴾ مُبالغةٌ في الانتفاءِ(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٧٨-٨١)

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِدُلُوكِ﴾: أي: غُروبِ وزَوالِ، وأصلُ (دلك): يدلُّ على مَيلٍ وزَوالٍ[1].

﴿غَسَقِ﴾: أي: ظَلامٍ، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ[2].

﴿فَتَهَجَّدْ﴾: أي: اسهَرْ، وألقِ الهُجودَ، وهو النَّومُ، فمادَّةُ التفَعُّلِ فيه للإزالةِ، مثل التحَرُّجِ والتأثُّمِ، وأصلُ (هجد): يدُلُّ على رُكودٍ، كأنَّه بصَلاتِه تَرَكَ الهُجودَ عنه[3].

﴿نَافِلَةً﴾: أي: زيادةً؛ مِن النَّفلِ: وهو الزِّيادةُ على الواجِبِ، وأصلُ (نفل): يدُلُّ على عَطاءٍ وإعطاءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٠).

﴿مُدْخَلَ﴾: المدخَلُ: الإدخالُ، مِن أدخَل، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ(١).

﴿مُخْرَجَ﴾: المخرَجُ: الإخراجُ، وخرَج خُروجًا: برَز مِن مقرِّه أو حالِه، وأصلُ (خرج): النَّفاذُ عَنِ الشَّيءِ(٢).

﴿وَزَهَقَ﴾: أي: بطَلَ وهلَكَ، وأصلُ (زهق): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه ولُبثِه(٣).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أَقِمْ -يا مُحَمَّدُ- الصَّلاةَ تامَّةً مِن وَقتِ زَوالِ الشَّمسِ إلى وَقتِ ظُلمةِ اللَّيلِ -فيَدخُلُ في هذا صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ، والمَغرِبِ والعِشاءِ- وأقِمْ صَلاةَ الفَجرِ؛ إنَّ صلاةَ الفَجرِ تَحضُرُها مَلائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ. وقُمْ -يا مُحَمَّدُ- مِن نَومِك بعضَ اللَّيلِ، فصَلِّ بالقرآنِ زيادةً لك؛ عسى أن يبعَثَك اللهُ شافعًا للنَّاسِ يومَ القيامةِ، وتقومَ مَقامًا يَحمَدُك فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ.

ثمَّ أمَر الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يدعوَه فقال: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- ربِّ أدخِلْني إدخالًا حسنًا مَرضِيًّا في كُلِّ ما أدخُلُ فيه، وأخرِجْني إخراجًا حسنًا مَرضِيًّا مِن كُلِّ ما أخرجُ منه، واجعَلْ لي مِن عندِك حُجَّةً بيِّنةً، وسُلطةً وغلبةً تنصُرُني بها على مَن خالفَني، وقُوَّةً تُعينُني بها على إقامةِ دينِك، وقُلْ -يا مُحَمَّدُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦٦٣/٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (٣١٣/١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦٦٣/٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١٧٥/٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٣١٣/١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦١/١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢٥٨/١)، ((الغريبين)) للهروي (١٩١٢/٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

جاء الحَقُّ مِن عندِ اللهِ وظهَرَ على كلِّ ما يخالِفُه من شِركٍ وكُفرٍ، وذهَبَ الباطِلُ واضمَحَلَّ وزالت دولتُه، إنَّ الباطِلَ لا بقاءَ له ولا ثَباتَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ كَيدَ الكافرينَ للرَّسولِ، وما كانوا يَرومونَ به؛ أمَرَه تعالى أن يُقبِلَ على شأنِه مِن عبادةِ رَبِّه، وألَّا يَشغَلَ قَلْبَه بهم، وكان قد تقَدَّمَ القَولُ في الإلهيَّاتِ والمعادِ والنبُوَّاتِ؛ فأردَفَ ذلك بالأمرِ بأشرَفِ العِباداتِ والطَّاعاتِ بعدَ الإيمانِ، وهي الصَّلاةُ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ لمَّا امتَنَّ على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالعصمةِ وبالنَّصرِ؛ ذكَّرَه بشُكرِ النِّعمةِ بأنْ أمَرَه بأعظمِ عِبادةٍ يعبُدُه بها، وبالزِّيادةِ منها؛ طلبًا لازديادِ النِّعمةِ عليه، كما دَلَّ عليه قولُه في آخرِ الآيةِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2] [الإسراء: ٧٩].

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾.

أي: أدِّ -يا مُحَمَّدُ- الصَّلَواتِ المَكتوباتِ على وَجهِ التَّمامِ بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، في أوقاتِها؛ مِن مَيلِ الشَّمسِ للزَّوالِ -فيَدخُلُ في ذلك صَلاتا الظُّهرِ والعَصرِ- إلى إقبالِ الظَّلامِ واجتِماعِه، ويدخُلُ في ذلك صلاتا المَغرِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨١).

والعِشاءِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ [هود: ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۞ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابنُ عطية: (هذه -بإجماعٍ مِن المُفَسِّرينَ- إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ المَفروضةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٧).

وقال السمعاني: (اختلَفوا في الدُّلوك: قال ابن مسعود : هو الغروبُ، وقال ابن عباس: هو الزَّوالُ، وقد حكِيَ عنهما كلا القولين، وكذلك اختلف التابعون في هذا. وأصل الدُّلوكِ مِن الميل، والشَّمسُ تميلُ إذا زالت أو غرَبَت... وأولى القولين أن يحمَلَ على الزَّوالِ؛ لكثرة القائلين به، فإنَّ أكثر التابعين حملوه عليه، ولأنَّا إذا حمَلْناه عليه تناوَلَت الآيةُ جميعَ الصلواتِ الخمس؛ فإنَّ قوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ يتناول الظُّهرَ والعصرَ، وقولَه: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ يتناولُ المغرِبَ والعِشاءَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٦٩).

وممن قال مِن السلفِ: إنَّ الدلوكَ المرادُ به: الزوالُ: ابنُ مسعود في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عمرَ، وأبو برزةَ، وأبو هريرةَ، والحسنُ، والشعبي، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وأبو العاليةِ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وعبيدُ بنُ عُميرٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومقاتلٌ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ الدُّلوكَ يَجمَعُ ثلاثةَ أوقاتٍ: وقتَ الظهرِ والعصرِ والمغربِ، باستعمالِ المشتركِ في معانيه، وأمَّا الغَسَقُ فهو وقتُ غيبوبةِ الشَّفَقِ، وهو وقتُ صلاةِ العشاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٢- ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٧).

قال ابنُ عاشور: (اللَّامُ في ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي بمعنَى «عندَ»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٢).

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

أي: وأقِمْ -يا مُحَمَّدُ- صَلاةَ الفَجرِ[١].

عن أبي بَرزةَ الأسلميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الفَجرِ ما بين السِّتينَ إلى المائةِ آيةٍ))[٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في الفَجرِ بـ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وكان صلاتُه بعدُ تخفيفًا))[٣].

وعنه أيضًا: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في الظُّهرِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفي الصُّبحِ بأطوَلَ مِن ذلك))[٤].

وعنه أيضًا، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ في الفَجرِ «الواقِعةَ» ونَحوَها مِن السُّوَرِ))[٥].

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٩).

قال ابنُ عاشور: (ثمَّ عَطَفَ قُرآنَ الفَجرِ على الصَّلاةِ، والتقديرُ: وأقِمْ قرآنَ الفَجرِ، أي: الصَّلاةَ به. كذا قدَّرَ القُرَّاءُ وجُمهورُ المفَسِّرين؛ ليُعلَمَ أنَّ لكُلِّ صَلاةٍ مِن تلك الصَّلواتِ قُرآنًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣).

(٢) رواه البخاري (٥٤١)، ومسلم (٤٦١) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٤٥٨).

(٤) رواه مسلم (٤٥٩).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٩٩٥)، وابن خُزيمة (٥٣١)، وابن حبَّان (١٨٢٣) مطوَّلًا.

صحَّحه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٠)، والألباني في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٣٠) وقال: (على شرط مسلم).

أي: إنَّ صَلاةَ الفَجرِ مَحضورةٌ؛ تَشهَدُها مَلائِكةُ اللَّيلِ، ومَلائِكةُ النَّهارِ(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فَضلُ صَلاةِ الجَميعِ على صلاةِ الواحِدِ خَمسٌ وعِشرونَ دَرجةً، وتجتَمِعُ ملائِكةُ اللَّيلِ وملائِكةُ النَّهارِ في صلاةِ الصُّبحِ، يقولُ أبو هريرة: اقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾))(٢).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ٧٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالصَّلَواتِ الخَمسِ على سَبيلِ الرَّمزِ والإشارةِ؛ أردَفَه بالحَثِّ على صلاةِ اللَّيلِ(٣).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ للوَقتِ المَذكورِ، ولم يَدُلَّ أمرُه تعالى إيَّاه على اختِصاصِه بذلك دونَ أمَّتِه؛ ذكَرَ ما اختَصَّه به تعالى وأوجَبَه عليه مِن قِيامِ اللَّيلِ، وهو في أمَّتِه تطَوُّعٌ(٤).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

أي: ومِن بَعضِ اللَّيلِ قُمْ -يا مُحَمَّدُ- مِن نَومِك فصَلِّ بالقُرآنِ؛ زيادةً لك(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٣، ٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).
قال الواحدي: (كلُّهم قالوا: صلاةُ الفَجرِ تَشهَدُها ملائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٢١).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٧) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٨، ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۞ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۞ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ: أيُّ الصَّلاةِ أفضَلُ بعدَ المَكتوبةِ؟ فقال: أفضَلُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ المكتوبةِ الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ))[1].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ نبيَّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِن

كثير)) (٥/ ١٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

واختُلِف في وجهِ تخصيصِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّها نافلةٌ له على أقوالٍ:

فقيل: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضةً زائدةً على سائرِ الفرائضِ التي فرَضها الله عليك، فإنها كانت فريضةً عليه، وهي لغيرِه تطوعٌ. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والخازنُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابنُ عباس، وسعيدُ بنُ جُبير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧).

وقيل: لأنَّها زِيادةٌ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم وفضيلةٌ؛ لأنَّ ذنوبَه مغفورةٌ، وتكفيرٌ لذُنُوبِ غيرِه. وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٦٤).

وممن قال بنحوِ هذا القول من السلفِ: مجاهدٌ، وأبو أمامة، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧).

وقيل: خُصَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك؛ تخصيصًا له بالترغيبِ فيها، والسبقِ إلى حيازةِ فضلِها، وليقتديَ النَّاسُ به فيها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٦٤).

(١) رواه مسلم (١١٦٣).

اللَّيلِ حتى تتفَطَّرَ قَدَماه))[1].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾.

أي: افعَلْ هذا الذي أمَرْتُك به[2] -يا مُحَمَّدُ- فيَبعَثَك ربُّك يومَ القيامةِ شَفيعًا في أهلِ المَوقِفِ، فيَحمَدَك الأوَّلونَ والآخِرونَ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧).

(٢) قيل: المراد: أمْرُه بما سبقَ مِن إقامةِ الصَّلواتِ المفروضةِ في أوقاتِها والتهَجُّدِ مِن اللَّيلِ بالقُرآنِ؛ لعَلَّ اللهَ أن يَبعَثَه المقامَ المحمودَ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣).

وقيل: جاءت جملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ﴾ تعليلًا لتَخصيصِه بإيجابِ التهَجُّدِ عليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣، ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٠٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

قال الرازي: (اتَّفق المفسرونَ على أنَّ كلمةَ ﴿عَسَىٰٓ﴾ مِن الله واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَع إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، والله تعالى أكرمُ مِن أن يُطمعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٢، ٤٣).

و﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قيل: نُصِب على الظرفِ بإضمارِ فعلِه، أي: عسَى أن يبعثَك فيقيمَك مقامًا محمودًا، أو ضمَّن ﴿يَبۡعَثَكَ﴾ معنَى: يقيمَك، ويجوزُ أن يكونَ حالًا بمعنَى: أن يبعثَك ذا مقامٍ محمودٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٤).

قال الواحدي: (إجماعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ المقامَ المحمودَ هو مقامُ الشَّفاعةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٢٢).

وقال ابنُ جرير: (اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك المقامِ المحمودِ، فقال أكثرُ أهلِ العلمِ: ذلك هو المقامُ الذي هو يقومُه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٣).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ تدنو يومَ القيامةِ، حتى يبلُغَ العَرَقُ نِصفَ الأُذُنِ، فبينا هم كذلك استغاثوا بآدَمَ، ثمَّ بموسى، ثُمَّ بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَشفَعُ ليُقضَى بين الخَلقِ، فيمشي حتى يأخُذَ بحَلقةِ البابِ، فيَومَئذٍ يَبعَثُه اللهُ مَقامًا مَحمودًا، يَحمَدُه أهلُ الجَمعِ كُلُّهم))[١].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنه، في حديثِ الشفاعةِ الطويلِ، وسؤالِ الناسِ يومَ القيامةِ الأنبياءَ الشفاعةَ: آدمَ ونوحًا وإبراهيمَ وموسَى وعيسَى عليهم السلامُ إلى أن يأتوا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ويأذنَ الله له بالشفاعةِ، ويقولَ له بعدَ أن يقعَ له ساجداً: ((ارفعْ مُحَمَّدُ، وقلْ يُسمَعْ، واشفعْ تشفَّعْ، وسلْ تُعْطَ. قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربي بثناءٍ وتحميدٍ يعلِّمُنيه، ثم أشفعُ فيحدُّ لي حدًّا، فأخرجُ فأُخرجُهم مِن النارِ، وأُدخلُهم الجنة)) إلى أن يقولَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((حتى ما يبقَى في النارِ إلَّا مَن حبَسه القرآنُ)) أي: وجَب عليه الخلودُ، قال: ثم تلا هذه الآيةَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ قال: ((وهذا المقامُ المحمودُ الذي وُعِده نبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٢].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن قال حينَ يَسمَعُ النِّداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هذه الدَّعوةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ القائمةِ؛ آتِ مُحَمَّدًا الوَسيلةَ والفَضيلةَ، وابعَثْه مَقامًا محمودًا الذي وعَدْتَه؛ حَلَّت له شفاعتي يومَ القيامةِ))[٣].

(١) رواه البخاري (١٤٧٥).

(٢) رواه البخاري (٧٤٤٠).

(٣) رواه البخاري (٦١٤).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((إنَّ النَّاسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًا[١]، كُلُّ أمَّةٍ تتبَعُ نَبيَّها، يقولونَ: يا فُلانُ اشفَعْ، يا فُلانُ اشفَعْ، حتى تنتهيَ الشَّفاعةُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذلك يومَ يَبعَثُه اللهُ المقامَ المحمودَ))[٢].

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ والتهَجُّدِ، ووعَدَه بَعْثَه مقامًا محمودًا، وذلك في الآخرةِ؛ أمَرَه بأن يَدعُوَه بما يَشمَلُ أمورَه الدُّنيويَّةَ والأُخرَويَّةَ[٣].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالشُّكرِ الفِعليِّ، عطَفَ عليه الأمرَ بالشُّكرِ اللِّسانيِّ بأن يبتَهِلَ إلى اللهِ بسُؤالِ التَّوفيقِ في الخُروجِ مِن مَكانٍ والدُّخولِ إلى مكانٍ؛ كيلا يضُرَّه أن يَستَفِزَّه أعداؤه مِن الأرضِ لِيُخرِجوه منها، مع ما فيه مِن المناسبةِ لِقَولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، فلمَّا وَعَدَه بأن يُقيمَه مقامًا مَحمودًا، ناسَبَ أن يَسألَ أن يكونَ ذلك حالَه في كُلِّ مَقامٍ يَقومُه[٤].

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ- رَبِّ اجعَلْ دُخولي المدينةَ وكُلَّ ما أدخُلُ فيه، مُدخَلًا

(١) جُثًا: أي: جماعاتٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢١٠).
(٢) رواه البخاري (٤٧١٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦).

حَسَنًا، وفِّقْني فيه لِمَرضاتِك، واجعَلْ خُروجي مِن مَكَّةَ وكُلِّ ما أخرُجُ منه، مُخرَجًا حَسَنًا مَرضِيًّا تُوَفِّقُني فيه لطاعَتِك[1].

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

أي: واجعَلْ لي -يا رَبِّ- مِن عِندِك حُجَّةً بَيِّنةً، ومُلكًا وسُلطةً وغلبةً تُظهِرُ بها ديني، وتَنصُرُني بها على مَن عاداني[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).
قيل: المرادُ بمُدخَل الصِّدق: دخولُه المدينةَ، ومُخرَج الصِّدق: خروجُه مِن مكَّةَ. وممَّن رجَّحَ هذا القولَ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧- ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).
قال ابن القيم: (فُسِّرَ مُدْخَلُ الصِّدْقِ وَمُخْرَجُه: بخروجِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنْ مَكَّةَ، ودخولِه المدينةَ، ولا ريبَ أنَّ هذا على سبيلِ التَّمثيلِ؛ فإنَّ هذا المُدْخَلَ والمُخْرَجَ مِنْ أجلِّ مداخِلِه ومخارِجِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٢٦٠).
وقيل: المراد: جميعُ المداخِلِ والمخارِجِ على وَجهِ العُمومِ سواءٌ المتعَلِّقةُ بالأمكنةِ أو بغيرِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيمِ، واختيارُ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٧٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦- ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٣، ٤٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).
وفي معنى السلطان النصير أقوال:
فقيل: المرادُ به: الملكُ والرئاسةُ والقوةُ والعزةُ. وممن ذهب إلى نحوِ ذلك: ابنُ جريرٍ، وابنُ جزي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩-٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١).

ومِمن ذهب إلى نحو هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).

وقيل: المرادُ به: الحُجَّةُ البيِّنةُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

ومِمَّن قال بهذا القول من السَّلَفِ: مجاهِدٌ . يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨).

وقال ابن تيمية: (﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ فإنَّ السُّلطانَ النَّصيرَ يجمَعُ الحُجَّةَ والمنزلةَ عند اللهِ، وهو كَلِماتُه الدِّينيةُ والقَدَريَّةُ والكونيَّةُ عند الله بكَلِماتِه الكونيَّاتِ. ومُعجِزاتُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ تجمَعُ الأمرَينِ؛ فإنَّها حجَّةٌ على النبُوَّةِ مِن اللهِ، وهي قَدَريَّةٌ. وأبلغُ ذلك القرآنُ الذي جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه هو شَرعُ اللهِ وكَلِماتُه الدينياتُ، وهو حجَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على نبوَّتِه ومجيئِه مِن الخوارقِ للعاداتِ، فهو الدَّعوةُ، وهو الحُجَّةُ والمعجِزةُ). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٣٢٤).

وقال ابنُ جرير بعد ترجيحِه السلطان بمعنى المُلك والرئاسة: (وإذا أُوتيَ ذلك، فقد أوتيَ -لا شكَّ- حُجَّةً بيِّنةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقين مِن المفسرينَ: الزجاجُ، ومكي، والواحدي، والبقاعي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٥٧)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٣-٤٢٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

قال مكي: (أي: حجةً تنصرُني بها على مَن ناوأني، وعزًّا أُقيمُ به دينَك، ومُلكًا تقوَى به أُمَّتي). ((الهداية)) (٦/ ٤٢٧٣-٤٢٧٤).

وقال ابن عاشور: (السلطانُ: اسمُ مصدر يُطلَق على السُّلطة، وعلى الحُجَّةِ، وعلى المُلك. وهو في هذا المقامِ كَلمةٌ جامعة على طريقةِ استعمال المشتَرَك في معانيه، أو هو من عمومِ المُشترَك، تشمل أن يجعَلَ له الله تأييدًا وحُجَّةً وغَلَبةً ومُلكًا عظيمًا، وقد آتاه الله ذلك كلَّه، فنصره على أعدائِه، وسخَّر له من لم ينوِّهْ بنهوض الحجَّة وظهور دلائل الصدقِ، ونصَرَه بالرعب... والنصيرُ: مبالغةٌ في الناصر، أي سلطانًا ينصرني. وإذ قد كان العمَلُ القائم به النبيُّ هو الدعوةَ إلى الإسلام، كان نصره تأييدًا له فيما هو قائم به، فصار هذا الوصفُ تقييدًا للسلطان بأنه لم يسأل سلطانًا للاستعلاء على الناسِ، وإنما سأل سلطانًا لنَصرِه فيما يَطلُبُ النُّصرةَ، وهو

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لما سأل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الله النصرةَ؛ بيَّن الله له أنَّه أجاب دعاءَه، فقال(١):

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾

أي: وقُلْ -يا مُحمَّدُ: جاء الحَقُّ مِن عندِ اللهِ وثَبَت، وذهَبَ الباطِلُ المُخالِفُ لِشَرعِ اللهِ واضمَحَلَّ(٢).

التبليغ وبثُّ الإسلام في الناس). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

وقال أبو حيان: (السلطانُ هنا قال الحسن: التسليطُ على الكافرين بالسيفِ، وعلى المنافقينَ بإقامة الحدود. وقال قتادة: مُلكًا عزيزًا تنصرُني به على كلِّ من ناوأني. وقال مجاهد: حجَّةً بيِّنة. وقيل: كتابًا يحوي الحدودَ والأحكام. وقيل: فتحَ مكة. وقيل: في كل عصر سلطانًا ينصُرُ دينَك. و﴿ نَّصِيرًا ﴾ مبالغةٌ في ناصر. وقيل: فعيلٌ بمعنى مفعول، أي منصورًا، وهذه الأقوال كلُّها محتَمِلة لقولِه: ﴿ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٠).

قال ابن جرير: (لم يَخصُص اللهُ عَزَّ ذِكرُه بالخَبَرِ عن بعضِ طاعاتِه، ولا ذَهاب بعضِ معاصيه، بل عَمَّ الخبَرَ عن مجيءِ جَميعِ الحَقِّ، وذَهابِ جَميعِ الباطِلِ، وبذلك جاء القرآنُ والتنزيلُ، وعلى ذلك قاتَلَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهلَ الشِّركِ بالله، أعني: على إقامةِ جَميعِ الحَقِّ، وإبطال جميعِ الباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٥).

وقال الشنقيطي: (وقد بيَّن جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أنَّ الإسلامَ جاء ثابتًا راسخًا، وأنَّ الشِّركَ بالله زَهَقَ، أي: ذهبَ واضمحَلَّ وزال... ثم بيَّن جل وعلا أن الباطِلَ كان زهوقًا، أي:

كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٨-٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((دخَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مكَّةَ يومَ الفتحِ، وحولَ البيتِ سِتُّونَ وثلاثُمئةِ نُصُبٍ[1]، فجعَلَ يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: جاء الحَقُّ وزهَقَ الباطِلُ، جاء الحَقُّ وما يُبدِئُ الباطِلُ وما يُعيدُ))[2].

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

أي: إنَّ الباطِلَ ذاهبٌ، لا بقاءَ له عند مجيءِ الحَقِّ[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قِيامُ اللَّيلِ يُوجِبُ عُلُوَّ الدَّرجاتِ في الجنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾،

مضمَحِلًّا غيرَ ثابت في كلِّ وقتٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٠).

(١) نُصُب: أي: حَجَر كانوا ينصِبونَه في الجاهليَّةِ ويتَّخِذونَه صَنَمًا يَعبُدونَه، والجَمعُ أنصابٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٢٨٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨).

فجعَلَ جَزاءَه على التهَجُّدِ بالقُرآنِ باللَّيلِ أن يَبعَثَه المقامَ المحمودَ، وهو أعلى درَجاتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ هذا وَصفُ الباطِلِ، ولكِنَّه قد يكونُ له صَولةٌ ورَوجانٌ إذا لم يُقابِلْه الحَقُّ، فعندَ مَجيءِ الحَقِّ يَضمَحِلُّ الباطِلُ، فلا يبقى له حِراكٌ؛ ولهذا لا يَرُوجُ الباطِلُ إلَّا في الأزمانِ والأمكِنةِ الخاليةِ مِن العِلمِ بآياتِ اللهِ وبيِّناتِه[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ يَشهَدُه مَلائِكةُ اللَّيلِ ومَلائِكةُ النَّهارِ، يَنزِلُ هؤلاء، ويَصعَدُ هؤلاء؛ فهو في آخِرِ دِيوانِ اللَّيلِ، وأوَّلِ دِيوانِ النَّهارِ. وفي هذه الآيةِ دَليلٌ واضِحٌ على تعَلُّقِ وُجوبِ الصَّلاةِ بأولِ الوَقتِ، واستحبابِ التَّغليسِ[(٣)] بصَلاةِ الفَجرِ[(٤)]، ولأنَّ طولَ القراءةِ في هذه الصلاةِ مطلوبٌ، ولن يتمَّ هذا المطلوبُ إلَّا إذا شرَع في أدائِه في أوَّلِ الوقتِ[(٥)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٤٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).
(٣) التَّغليس: أي: الصلاةُ بغَلَسٍ، والغلسُ اختلاطُ ضياءِ الصبحِ بظلمةِ الليلِ. يُنظر: ((معالم السنن)) للخطابي (١/ ١٣٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٢٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٦).

إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه أنَّ القِراءةَ في الصلاةِ رُكنٌ؛ لأنَّ العبادةَ إذا سُمِّيَت ببَعضِ أجزائِها، دَلَّ على فَرضيَّةِ ذلك[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه مشروعيةُ إطالةِ قراءةِ القرآنِ في صلاةِ الفجرِ؛ لأنَّه خصَّ الفجرَ بإضافةِ القراءةِ إليه، والتَّخصيصُ بالذِّكرِ يدُلُّ على كَونِه أكمَلَ مِن غَيرِه، وأيضًا لفضلِ القراءةِ فيها؛ حيثُ تشهدُها ملائكةُ الليلِ وملائكةُ والنهارِ؛ لذا بيَّنَ الفُقَهاءُ أنَّ السُّنَّةَ أن تكونَ القِراءةُ في صلاةِ الفجرِ أطوَلَ مِن القِراءةِ في سائِرِ الصَّلَواتِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه: فَضيلةُ صَلاةِ الفَجرِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه أنَّ الصَّلواتِ المُوقَعةَ في هذه الأوقاتِ فرائِضُ؛ لِتَخصيصِها بالأمرِ[4].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ فيه دلالةٌ على مواقيتِ الصلواتِ الخمسِ، ذكَر ذلك غيرُ واحدٍ مِن الأئمةِ؛ كمالكٍ والشافعيِّ، ورُوِي معناه عن طائفةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السلفِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ فيه أنَّ الوَقتَ شَرطٌ لِصِحَّةِ الصلاةِ، وأنَّه سَبَبٌ لوُجوبِها؛ لأنَّ اللهَ أمَرَ بإقامَتِها لهذه الأوقاتِ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ يأمُرُ تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإقامةِ الصَّلاةِ تامَّةً، ظاهِرًا وباطِنًا، في أوقاتِها. ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: مَيلانِها إلى الأُفُقِ الغَربيِّ بعدَ الزَّوالِ، فيَدخُلُ في ذلك صَلاةُ الظُّهرِ وصَلاةُ العَصرِ. ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: ظُلمَتِه، فدخَلَ في ذلك صَلاةُ المَغرِبِ وصَلاةُ العِشاءِ، ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: صلاةَ الفَجرِ، ونستفيدُ مِن ذلك أنَّ الظُّهرَ والعَصرَ يُجمَعانِ، والمَغرِبَ والعِشاءَ كذلك؛ للعُذرِ، لأنَّ اللهَ جمَعَ وَقتَهما جميعًا[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ اللامُ في ﴿لَّكَ﴾ متعلِّقةٌ بـ ﴿نَافِلَةٗ﴾ وهي لامُ العلَّةِ، أي: نافلةً لأجلِك، وفي هذا دَليلٌ على أنَّ الأمرَ بالتهَجُّدِ خاصٌّ بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالأمرُ للوجوبِ، وبذلك انتظَمَ في عِدادِ الصَّلواتِ الواجبةِ؛ فبَعضُها واجِبٌ عليه وعلى الأمَّةِ، وبعضُها واجِبٌ عليه خاصَّةً، ويُعلَمُ منه أنَّه مرغَّبٌ فيه، كما صرَّحَت به آيةُ سورةِ (المزمِّل): ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ رجبٍ: (وقد قيل: إنَّ الله تعالى ذكَر ثلاثةَ أوقاتٍ؛ لأنَّ أصلَ الأوقاتِ ثلاثةٌ، ولهذا تكونُ في حالةِ جوازِ الجمعِ بينَ الصلاتينِ ثلاثةً فقط). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٥).

﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى قولِه: ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾، وفي هذا الإيجابِ عليه زيادةُ تَشريفٍ له؛ ولهذا أُعقِبَ بوَعدِ أن يبعَثَه اللهُ مَقامًا محمودًا[1].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ عَبَّرَ بـ (عسى) دونَ ما يُفيدُ القَطعَ؛ لأنَّ ذلك أقعَدُ في كَلامِ المُلوكِ؛ لأنَّه أدَلُّ على العَظَمةِ[2].

١١- ما ذُكر مُضافًا إلى الصِّدقِ، كـ (مُدخَلِ الصِّدقِ)، و(مُخرَجِ الصِّدقِ) في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾، وكـ (قدَم الصِّدقِ)، في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، و(لسانِ الصِّدقِ)، في سورة (الشُّعَراء) [الآية: ٨٤]، و(مَقعَدِ الصِّدقِ)، في سورة (القمر) [الآية: ٥٥]، فحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابِتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ، وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ[3].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ فيه استِحبابُ هذا القَولِ عندَ إزالةِ المُنكَرِ[4]، وقد دَخَل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَكَّةَ وحولَ البيتِ سِتُّونَ وثلاثُمِئَةِ نُصُبٍ، فجَعَل يطعُنُها بعُودٍ في يدِه ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[5] [سبأ: ٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٨-١٦٩).

(٥) تقدَّم تخريجُه: (ص: ٣٧٨).

١٣- قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ لمَّا كانت دعوةُ الرَّسولِ هي لإقامةِ الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ؛ كان الوعدُ بظُهورِ الحقِّ وعدًا بظُهورِ أمْرِ الرَّسولِ، وفوزِه على أعدائِه، واستحفَظَه اللهُ هذه الكلمةَ الجليلةَ إلى أنْ ألقاها يومَ فتْحِ مكَّةَ على مسامِعِ مَن كانوا أعداءَه[1].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[2].

- قولُه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فيه الاكتفاءُ ببَيانِ المبدَأِ والمُنْتهى في أوقاتِ الصَّلواتِ من غيرِ فصْلٍ بينها؛ ولعلَّ ذلك لِمَا أنَّ الإنسانَ فيما بين هذه الأوقاتِ على اليقظةِ؛ فبعضُها مُتَّصلٌ ببعضٍ، بخلافِ أوَّلِ وقْتِ العشاءِ والفجْرِ، فإنَّه باشتغالِه فيما بينهما بالنَّومِ ينقطِعُ أحدُهما عن الآخرِ؛ ولذلك فصَلَ وقْتَ الفجرِ عن سائرِ الأوقاتِ[3].

- قولُه: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ جُملةُ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لوجْهِ تَخصيصِ صلاةِ الصُّبحِ باسمِ القُرآنِ بأنَّ صلاةَ الفجرِ مشهودةٌ، أي: مَحضورةٌ، أي: تَحضرُها ملائكةُ اللَّيلِ ومَلائكةُ النَّهارِ، وذلك زِيادةٌ في فَضلِها وبَركتِها. وأيضًا فهي يَحضرُها أكثرُ المُصلِّينَ؛ لأنَّ وقتَها وقتُ النَّشاطِ وبَعدَها يَنتظرُ النَّاسُ طُلوعَ الشَّمسِ؛ ليَخرجوا إلى أعمالِهم فيَكثُرَ سَماعُ القرآنِ حِينئذٍ[4]. وقيل: خَصَّ ذِكْرَ القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣- ١٨٤).

بصَلاةِ الفجرِ دونَ غيرِها؛ لأنَّها يُجْهَرُ بالقُرآنِ في جَميعِ رَكَعاتِها، ولأنَّ سُنَّتَها أنْ يُقْرَأَ بسُورٍ من طوالِ المُفصَّلِ(١).

- وقولُه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث لم يقُلْ: (إنَّه)؛ إبانةً لمزيدِ الاهتمامِ والتَّنويهِ بقُرآنِ الفَجرِ وتَعظيمِه(٢)، وللاحترازِ لئلَّا يُفهمَ أو يُتوهَّمَ أنَّ الضَّميرَ يعودُ على ﴿ٱلْفَجْرِ﴾؛ فإنَّه لو قال: (إنه) لأَوهمَ عَوْدَ الضَّميرِ إلى ﴿ٱلْفَجْرِ﴾(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ المُتعلِّقِ بـ﴿تَهَجَّدْ﴾ على مُتعلَّقِه؛ اهتمامًا به وتَحريضًا عليه. وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ في معنى الإغراءِ؛ بناءً على أنَّ نصْبَ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ على الإغراءِ؛ فيكونُ ﴿فَتَهَجَّدْ﴾ تَفريعًا على الإغراءِ تَفريعَ مُفصَّلٍ على مُجْمَلٍ(٤).

- قولُه: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، أي: فَريضةً زائِدةً على الصَّلَواتِ الخَمسِ المفروضةِ، خاصَّةً بك دونَ الأُمَّةِ، ولعَلَّه هو الوَجهُ في تَأخيرِ ذِكرِها عن ذِكرِ صَلاةِ الفَجرِ مع تقدُّمِ وَقتِها على وَقتِها(٥).

- وجُملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ﴾ تَعليلٌ لتَخصيصِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).
(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٤٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٨٩).

بإيجابِ التَّهجُّدِ عليه(١).

- والتنكيرُ في قولِه تعالى: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ يدلُّ على أنَّه يحصلُ للنبيِّ -عليه السلامُ- في ذلك المقامِ حمدٌ بالغٌ، عظيمٌ كاملٌ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ اخْتِيرَ هنا الاسمُ المُشتقُّ -﴿مُدْخَلَ﴾﴿مُخْرَجَ ﴾- من الفعلِ المُتعدِّي؛ للإشارةِ إلى أنَّ المطلوبَ دُخولٌ وخُروجٌ مُيسَّرانِ من اللهِ تعالى وواقعانِ بإذْنِه، وذلك دُعاءٌ بكلِّ دُخولٍ وخُروجٍ مباركَينِ؛ لتتِمَّ المُناسبةُ بين المسؤولِ وبين الموعودِ به، وهو المقامُ المحمودُ(٣).

- وقولُه: ﴿نَّصِيرًا ﴾ مُبالغةٌ في ناصرٍ(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

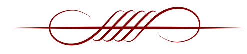
- أعقَبَ تلقينَه الدُّعاءَ بسَدادِ أعمالِه، وتأييدِه فيها، بأنْ لقَّنَه هذا الإعلانَ المُنبِئَ بحُصولِ إجابةِ الدَّعوةِ المُلْهَمةِ، بإبرازِ وعْدِه بظُهورِ أمْرِه في صُورةِ الخبَرِ عن شَيءٍ مضَى(٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ تَذييلٌ للجُملةِ الَّتي قبله، خرَجَ مخرَجَ المثَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٧).

السَّائرِ؛ لِمَا فيه من عُمومٍ يشمَلُ كلَّ باطلٍ في كلِّ زمانٍ، وإذا كان هذا شأنَ الباطلِ، كان الثَّباتُ والانتصارُ شأْنَ الحقِّ؛ لأنَّه ضِدُّ الباطلِ، فإذا انتفَى الباطِلُ ثبَتَ الحقُّ، ودَلَّ فعْلُ (كان) على أنَّ الزُّهوقَ شِنْشنةُ[١] الباطلِ، وشأْنُه في كلِّ زمانٍ أنَّه يظهَرُ ثمَّ يضْمحِلُّ[٢].

- قوله: ﴿زَهُوقًا﴾ صِفَةُ مُبالغةٍ في اضمحلالِه وعدَمِ ثُبوتِه في وقتٍ ما[٣].



(١) الشِّنْشِنةُ: الخُلُقُ والطَّبيعةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٣).

الآيات (٨٢-٨٤)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَنَـَٔا﴾: أي: تباعَد، وأصلُ النأيِ: البعدُ، وهو ضدُّ القربِ[١].

﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بنفسِه أو بناحيتِه وقربِه، وأصلُ (جنب): ناحيةٌ[٢].

﴿شَاكِلَتِهِۦ﴾: أي: ناحِيَتِه وطريقَتِه، وقيل: خَليقَتِه وطبيعتِه. والشَّاكِلةُ مِن الأُمورِ: ما وافَقَ فاعِلَه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على المُماثَلةِ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ونُنَزِّلُ مِن آياتِ القُرآنِ العَظيمِ ما يَشفِي قُلوبَ المؤمنين مِن الشَّهَواتِ والشُّبُهاتِ، وما يَشفي الأبدانَ مِن الأمراضِ، ورَحمةً لهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولا يزيدُ هذا القُرآنُ الكُفَّارَ عند سَماعِهِ إلَّا تكذيبًا وكُفرًا وضَلالًا.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢).

ثمَّ بيَّن الله تعالى أحوالَ الإنسانِ في حالتي اليسرِ والعسرِ، والرخاءِ والشِّدَّةِ، فقال: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ ما، أعرَضَ عن شُكرِ ربِّه، وتولَّى عن طاعتِه، وإذا أصابَتْه شِدَّةٌ مِن فَقرٍ أو مَرَضٍ، كان قَنُوطًا يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه. قُلْ -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ منكم يعمَلُ على ما يَليقُ به ويُناسِبُ أخلاقَه ومَذهَبَه؛ فرَبُّكم أعلَمُ بمَن هو أهدى طريقًا إلى الحَقِّ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى الإلهيَّاتِ والنبُوَّاتِ، والحَشرَ والنَّشرَ والبَعثَ، وإثباتَ القَضاءِ والقَدَر، ثمَّ أتبَعَه بالأمرِ بالصَّلاةِ، ونبَّه على ما فيها من الأسرارِ، وكان القُرآنُ هو الجامِعَ لجَميعِ ذلك- أتبَعَه ببيانِ كَونِه شِفاءً ورَحمةً[1].

وأيضًا فإنَّ الآيةَ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] على ما في تلك الجُملةِ والجُمَلِ التي سبقَتْها من معنى التأييدِ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومن الإغاظةِ للمُشرِكين، ابتداءً مِن قَولِه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٧٣]. فإنَّه بعد أن امتنَّ عليه بأن أيَّده بالعِصمةِ مِن الركونِ إليهم وتبشيرِه بالنُّصرةِ عليهم وبالخَلاصِ مِن كيدِهم، وبعد أن هدَّدهم بأنَّهم صائرون قريبًا إلى هلاكٍ، وأنَّ دينَهم صائرٌ إلى الاضمِحلالِ- أعلن له ولهم في هذه الآيةِ: أنَّ ما منه غيظُهم وحنَقُهم، وهو القرآنُ الذي طَمِعوا أن يسألوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُبدِّلَه بقرآنٍ ليس فيه ذِكرُ أصنامِهم بسُوءٍ؛ أنَّه لا يزالُ متجَدِّدًا مستمِرًّا، فيه شفاءٌ للرَّسولِ وأتباعِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣١).

وخَسارةٌ لأعدائِه الظالِمين، ولأنَّ القرآنَ مصدرُ الحَقِّ ومَدحَضُ الباطِلِ، أعقَبَ قولَه: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ بقولِه[1]:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونُنَزِّلُ مِن[2] القُرآنِ ما هو شِفاءٌ لِما في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، وشِفاءٌ لِما في أبدانِهم مِن الأمراضِ، ورحمةٌ للمؤمنينَ العاملينَ بما فيه، يكونُ سببَ نجاتِهم مِن العذابِ، ودخولِهم الجنةَ، ونيلِ السعادةِ الأبديةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣-٢٠٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) ﴿مِن﴾ هنا للجِنسِ، وليست للتَّبعيضِ، فالقرآنُ كُلُّه شِفاءٌ ورَحمةٌ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٢-٤٥٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٤-٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩، ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨١).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ من أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ، فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له، فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم))[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا اشتَكى يقرأُ على نَفسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجعُه كنت أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمُعَوِّذاتِ))[3].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: ولا يَزيدُ القُرآنُ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بالكُفرِ إلَّا هَلاكًا؛ فلا يَزيدُهم سَماعُ القُرآنِ إلَّا بُعدًا عن الحَقِّ، وتكذيبًا وكُفرًا؛ وذلك بسَبَبِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَرْكِهم العَمَلَ به؛ فلا يَنتَفِعونَ به؛ لإعراضِهم عنه[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٢٧٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تَنويعَ ما أنزَلَ مِن القُرآنِ شِفاءً ورَحمةً للمُؤمِنِ، وبزيادةِ خَسارٍ للظَّالِمِ؛ عرَّضَ بما أنعَمَ به وما حَواه مِن لَطائِفِ الشَّرائِعِ على الإنسانِ، ومع ذلك أعرَضَ عنه، وبَعُدَ بجانِبِه؛ اشمِئزازًا له وتكَبُّرًا عن قُربِ سَماعِه، وتبديلًا مكانَ شُكرِ الإنعامِ كُفْرَه[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان القُرآنُ نِعمةً عَظيمةً للنَّاسِ، وكان إعراضُ المُشرِكينَ عنه حِرمانًا عَظيمًا لهم مِن خَيراتٍ كَثيرةٍ، ولم يكُنْ مِن شَأنِ أهلِ العُقولِ السَّليمةِ أن يَرضَوا بالحِرمانِ مِن الخَيرِ؛ كان الإخبارُ عن زِيادتِه الظَّالِمينَ خَسارًا- مُستَغربًا، مِن شَأنِه أن يُثيرَ في نُفوسِ السَّامِعينَ التَّساؤُلَ عن سَبَبِ ذلك؛ فأعقَبَ ذلك ببيانِ السَّبَبِ النَّفسانيِّ الذي يُوقِعُ العُقَلاءَ في مَهواةِ هذا الحِرمانِ، وذلك بعد

البغوي)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٥).

الاشتِغالِ بما هو فيه مِن نِعمةٍ هَوِيَها وأُولِعَ بها، وهي نِعمةٌ تتقاصَرُ عن أوْجِ تلك النِّعَمِ التي حُرِمَ منها لولا الهَوى الذي عَلِقَ بها والغُرورُ الذي أراه إيَّاها قُصارى المَطلوبِ، وما هي إلَّا إلى زوالٍ قَريبٍ[١].

﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ[٢] بنِعمةٍ -كرِزقٍ أو نَصرٍ، أو صِحَّةٍ أو فَرَجٍ- أعرَضَ عن عبادةِ اللهِ وشُكرِه، وذِكرِه وتَدَبُّرِ آياتِه، وابتعَدَ عن طاعةِ رَبِّه، فلم يمتَثِلْ أمْرَه، ولم يجتَنِبْ نَهْيَه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩١).

(٢) ممَّن ذهَبَ إلى أنَّ الآيةَ تُخبِرُ عن جنسِ الإنسانِ، وسجيتِه، إلَّا مَن عَصَم الله تعالى: ابنُ جُزي، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

وقيل: المَعنيُّ بها الكافِرُ دونَ غَيرِه. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٢٢).

قال ابنُ عطية: (الإنسانُ في هذه الآية لا يرادُ به العمومُ، وإنما يُرادُ به بعضُه وهم الكَفَرةُ، وهذا كما تقولُ عند غضَبٍ: لا خيرَ في الأصدقاء ولا أمانةَ في النَّاسِ، فأنت تعمُّ مبالغةً، ومرادُك البعضُ، وهذا بحسَبِ ذِكرِ الظالمين، و«الخَسار» في الآيةِ قبلُ، فاتصل ذِكرُ الكَفَرة. ويحتمل أن يكونَ الإنسانُ في هذه الآية عامًّا للجنسِ، على معنى أنَّ هذا الخُلُق الذميم في سجيَّتِه، فالكافِرُ يبالِغُ في الإعراضِ، والعاصي يأخُذُ بحظِّه منه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٠).

قال البقاعي: (﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ أي: بما لنا من العظمةِ ﴿عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ أي: هذا النَّوعِ؛ هؤلاء وغيرهم بأيِّ نعمةٍ كانت، من إنزالِ القرآنِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤٩٨-٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٢).

كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ الضُّرُّ -كفَقرٍ أو مرضٍ أو بُؤسٍ- كان قانِطًا مِن الفَرَجِ بعدَ الشِّدَّةِ، يائِسًا مِن رَحمةِ رَبِّه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- مُخبِرًا للنَّاسِ: كُلُّ إنسانٍ يعمَلُ على وَفقِ نِيَّتِه، وبحَسَبِ طريقَتِه التي تَليقُ به، وتُناسِبُ أخلاقَه وطَبيعَتَه، ومَذهَبَه وعادَتَه التي ألِفَها؛ فالكافِرُ يعمَلُ بما يُشبِهُ طَريقَتَه مِن مُقابَلةِ النِّعَمِ بالمعاصي، والإعراضِ عن المُنعِمِ، والمؤمِنُ يعمَلُ بما يُشاكِلُه مِن شُكرِ النِّعَمِ، ومَحبَّةِ المُنعِمِ بها، والثَّناءِ عليه، والتوَدُّدِ إليه، والحياءِ منه، والمُراقبةِ له، وتَعظيمِه وإجلالِه عزَّ وجلَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۝ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١- ١٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [الزمر: ٣٩ -٤٠].

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

أي: فرَبُّكم -أيُّها النَّاسُ- أعلَمُ بالمُؤمِنِ والكافِرِ منكم، ومَن هو أهدى طريقًا

الجوزي)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٤).

قال ابنُ القيم: (﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على ما يشاكِلُه ويناسبُه ويليقُ به، كما يقولُ النَّاسُ: «كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ»). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ١٠٣).

وقال أيضًا: (فالفاجِرُ يعمَلُ على ما يليقُ به، وكذلك الكافِرُ والمنافِقُ، ومريدُ الدنيا وجيفتِها عامِلٌ على ما يناسِبُه ولا يليقُ به سواه، ومحِبُّ الصُّوَر عامِلٌ على ما يناسِبُه ويليقُ به؛ فكلُّ امرئٍ يهفو إلى ما يحِبُّه، وكلُّ امرئٍ يصبو إلى ما يناسِبُه، فالمريدُ الصادِقُ المحِبُّ لله يعمَلُ ما هو اللائِقُ به والمناسِبُ له، فهو يعمَلُ على شاكلةِ إرادتِه، وما هو الأليقُ به والأنسَبُ لها). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٣٥١).

وقال النحاس: (والمعنَى: وليس يَنبغي أن يكونَ كذلك، إنَّما يَنبغي أن يتَّبعَ الحقَّ حيثُ كان). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٨٨).

وقال ابن كثير: (وهذه الآيةُ -واللهُ أعلَمُ- تهديدٌ للمُشرِكينَ ووَعيدٌ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣).

إلى الحَقِّ مِن غَيرِه، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الشِّفاءِ والرَّحمةِ، وليس ذلك لكُلِّ أحَدٍ، وإنَّما ذلك للمُؤمِنينَ به، المُصَدِّقينَ بآياتِه، العامِلينَ به، وأمَّا الظَّالِمونَ بعَدَمِ التَّصديقِ به، أو عَدَمِ العَمَلِ به، فلا تَزيدُهم آياتُه إلَّا خَسارًا؛ إذ به تقومُ عليهم الحُجَّةُ. فالشِّفاءُ الذي تضَمَّنَه القُرآنُ عامٌّ لِشِفاءِ القُلوبِ؛ مِنَ الشُّبَه، والجَهالة، والآراءِ الفاسدةِ، والانحرافِ السَّيِّئِ، والقُصودِ السَّيِّئةِ؛ فإنَّه مُشتَمِلٌ على العِلمِ اليَقينيِّ الذي تَزولُ به كُلُّ شُبهةٍ وجَهالةٍ، والوَعظِ والتَّذكيرِ الذي يزولُ به كُلُّ شَهوةٍ تُخالِفُ أمْرَ اللهِ، ولِشِفاءِ الأبدانِ مِن آلامِها وأسقامِها. وأمَّا الرَّحمةُ، فإنَّ ما فيه من الأسبابِ والوَسائِلِ التي يُحَثُّ عليها، متى فعَلَها العبدُ فاز بالرَّحمةِ والسَّعادةِ الأبَديَّةِ، والثَّوابِ العاجِلِ والآجِلِ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ يَعُمُّ الشِّفاءَ القَلبيَّ والبدنيَّ، أي: يَعُمُّ الشِّفاءَ مِن الأمراضِ القَلبيَّةِ -كالشَّكِّ والشِّركِ، والعَداوةِ للمُؤمنينَ والبَغضاءِ لهم، وما أشبَهَ ذلك- وكذلك مِن الأمراضِ الجَسَديَّةِ -كالصُّداعِ والألَمِ وما أشبَهَ ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٥).

فالقُرآنُ كلُّه خَيرٌ، كلُّه شِفاءٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ هاهنا أمرٌ يَنبغي التفطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ التي يُستَشفى بها ويُرقَى بها، هي في نَفسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستَدعي قَبولَ المحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه، فمتى تخَلَّفَ الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المُنفَعِلِ، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكون لعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه، فإنَّ الطبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخذَ الرُّقَى والتعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفسٌ فعَّالةٌ، وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ[٢].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾

- قولُه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه اختيارُ المُضارعِ المُشتقِّ من فعلِ المُضاعفِ (نُنزِّل) للإخبارِ عن التَّنزيلِ؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ والتَّكثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تقديمُ ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ لتحصيلِ غرَضِ الاهتمامِ بذكْرِ القُرآنِ مع غرَضِ الثَّناءِ عليه بطريقِ الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ...﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ ذلك الوصفِ منه بحيثُ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٨٩).

يُعْرَفُ به[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ تعريفُ الجنسِ، وهو يفيدُ الاستغراقَ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ، أي: أكثرِ أفرادِ الإنسانِ؛ لأنَّ أكثرَ النَّاسِ يومئذٍ كُفَّارٌ، وأكثرَ العربِ مُشرِكون[٢].

- قولُه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ ﴿أَعْرَضَ ﴾ و﴿وَنَـَٔا ﴾؛ لدَلالةِ المقامِ عليه من قولِه: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾، أي: أعرَضَ عنَّا وأجفَلَ[٣] منَّا، أي: من عِبادتِنا وأمْرِنا ونَهيِنا[٤].

- قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ تأكيدٌ للإعراضِ؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيءِ أنْ يُولِّيَه عُرْضَ وجْهِه. والنَّأيُ بالجانبِ: أنْ يَلْويَ عنه عِطْفَه، ويُولِّيَه ظَهْرَه، وأراد الاستكبارَ؛ لأنَّ ذلك من عادةِ المُستكبِرينَ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ احتراسٌ من أنْ يتوهَّمَ السَّامعُ من التَّقييدِ بقولِه: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا ﴾، أنَّه إذا زالت عنه النِّعمةُ صلَحَ حالُه، فبيَّنَ أنَّ حالَه مُلازِمٌ لنُكرانِ الجميلِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فإذا زالتِ النِّعمةُ عنه لم يُقْلِعْ عن الشِّركِ والكُفرِ، ويتُبْ إلى اللهِ، ولكنَّه ييئَسُ من الخيرِ، ويَبْقى حَنِقًا

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ١٩١).

(٣) أجفَلَ: أي: هرَبَ مُسرِعًا. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩١).

ضيِّقَ الصَّدرِ، لا يعرِفُ كيف يتدارَكُ أمْرَه. ودَلَّ قولُه: ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ على قُوَّةِ يأْسِه؛ إذ صِيغَ له مثالُ المُبالَغةِ، وذُكِر معه فعْلُ (كان) الدَّالُّ على رُسوخِ الفعْلِ؛ تَعجيبًا من حالِه في وقْتِ مَسِّ الضَّرِّ إيَّاه؛ لأنَّ حالةَ الضَّرِّ أدعى إلى الفكرةِ في وسائلِ دفْعِه، بخلافِ حالةِ الإعراضِ في وقْتِ النِّعمةِ، فإنَّها حالةٌ لا يُستغرَبُ فيها الازدهاءُ؛ لِمَا هو فيه من النِّعمةِ[1].

وأتَى هنا بـ﴿إِذَا﴾ المشعِرةِ بتحقيقِ الوقوعِ المستلزِمِ لليأسِ؛ فإنَّ اليأسَ إنَّما حصل عند تحقُّقِ مسِّ الشَّرِّ له، فكان الإتيانُ بـ﴿إِذَا﴾ هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ مِن (إنْ)، بخلاف قَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فإنَّه بقلَّةِ صَبرِه وضَعفِ احتمالِه متى توقَّع الشَّرَّ أعرض وأطال في الدُّعاءِ، فإذا تحقَّق وقوعَه كان يؤوسًا[2].

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

- جُملةُ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ تذييلٌ؛ لِمَا في كلمةِ (كل) من العُمومِ، وهذا التَّذييلُ تَنهيةٌ للغرَضِ الَّذي ابتُدِئَ من قولِه: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الرَّاجعِ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللهِ تعالى على النَّاسِ، وإلى التَّحذيرِ من عواقبِ كُفرانِ النِّعمِ، وهي تَجْري مَجْرى المثَلِ، وفرَّعَ عليها قولَه: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾، وهو كلامٌ جامعٌ لتعليمِ النَّاسِ بعُمومِ علْمِ اللهِ، والتَّرغيبِ للمُؤمنين، والإنذارِ للمُشركين مع تَشكيكِهم في حقِّيَّةِ دِينِهم لعلَّهم يَنظُرون، كقولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ الآيةَ[3] [سبأ: ٢٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧-٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٣ - ١٩٤).

الآيات (٨٥-٨٧)

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

ذكر الله تعالى بعضَ الأسئلةِ التي كانت تُوجَّهُ إلى الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ويَسألُك الكُفَّارُ عن حقيقةِ الرُّوحِ، قلْ لهم: الرُّوحُ مِمَّا استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، وما أُعطِيتُم مِن العِلمِ إلَّا شَيئًا قليلًا.

ثمَّ بيَّن سبحانه مظهرًا مِن مظاهرِ قدرتِه، فقال: ولَئِنْ شِئْنا مَحْوَ القُرآنِ مِن قَلبِك لمحَوناه، ثمَّ لا تَجِدُ لنَفسِك ناصِرًا يمنَعُنا مِن فِعْلِ ذلك، أو يَرُدُّ عليك القُرآنَ بعدَ ذَهابِه عنك. لكنْ أثبَتْناه في قَلبِك رحمةً مِنَّا وتفضُّلًا؛ إنَّ فَضْلَه كان عليك عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قبلَها:

لَمَّا انجرَّ الكلامُ إلى ذِكرِ الإنسانِ وما جُبِل عليه، ذكَرَ سُبحانَه سؤالَ السَّائلين لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الرُّوحِ[١].

---

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٣٠١).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بينما أنا أمشي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حَرثٍ[١]، وهو مُتَّكِئٌ على عَسيبٍ[٢]، إذ مَرَّ بنَفَرٍ مِن اليَهودِ، فقال بَعضُهم لبَعضٍ: سَلُوه عن الرُّوحِ، فقالوا: ما رابَكم[٣] إليه، لا يَستَقبِلُكم بشَيءٍ تَكرهونَه، فقالوا: سَلُوه، فقام إليه بَعضُهم فسأله عن الرُّوحِ، قال: فأَسكَتَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يَرُدَّ عليه شيئًا، فعَلِمتُ أنَّه يُوحَى إليه، قال: فقُمتُ مكاني، فلمَّا نَزَل الوَحيُ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾))[٤].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (قالت قُرَيشٌ لليَهودِ: أعطُونا شيئًا

---

(١) الحَرثُ: الزَّرعُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٦٩).

(٢) عَسيب: أي: عصًا مِن جريدِ النَّخلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢١١).

(٣) ما رابَكم: أي: ما دعاكم إلى سُؤالِه، أو ما شكَّكَّم فيه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢١)، ومسلم (٢٧٩٤) واللفظ له.

قال ابنُ كثير: (هذا السِّياقُ يقتضي فيما يظهَرُ باديَ الرأي: أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيةٌ، وأنَّها إنَّما نزلت حين سأله اليهودُ عن ذلك بالمدينةِ، مع أنَّ السورةَ كُلَّها مكيَّةٌ. وقد يجاب عن هذا: بأنَّه قد يكون نزلَت عليه بالمدينةِ مَرَّةً ثانيةً كما نزلت عليه بمكَّةَ قبل ذلك، أو أنَّه نزل عليه الوحيُ بأنَّه يجيبهم عمَّا سألوا بالآيةِ المتقدِّمِ إنزالُها عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٤).

وقال ابن حجر: (هذا يدُلُّ على أنَّ نزولَ الآية وقعَ بالمدينة، لكنْ روى الترمذيُّ من طريق داود ابن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباسٍ قال: قالت قريشٌ لليهود: أعطونا شيئًا نسألُ هذا الرجُلَ، فقالوا: سلوه عن الرُّوحِ، فسألوه فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾، ورجالُه رجالُ مسلم، وهو عند ابنِ إسحاقَ مِن وجهٍ آخرَ عن ابنِ عباس نحوه، ويمكِنُ الجمعُ بأن يتعدَّدَ النزولُ بحَملِ سكوتِه في المرة الثانية على توقُّعِ مزيد بيانٍ في ذلك، وإن ساغ هذا، وإلَّا فما في الصَّحيحِ أصَحُّ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠١).

نسألُ عنه هذا الرَّجُلَ، فقالوا: سَلُوه عن الرُّوحِ، فسألوه، فنَزَلت: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[(١)].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾.

أي: ويسألُك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- عن ماهِيَّةِ الرُّوحِ التي بها الحياةُ؛ ما حَقيقتُها[(٢)]؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٠)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣١٤)، وأحمد (٢٣٠٩) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ غَريبٌ مِن هذا الوجه). وأخرجه ابنُ حِبَّان في ((صحيحه)) (٩٩)، وصَحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١٠٤)، وصحَّحَ إسنادَه الذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (١/ ٢١٢)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٢٥٣): (رجالُه رجال مسلم). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٦-١٩٧).

والقولُ بأنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا: الرُّوحُ التي تكونُ بها حياةُ الجَسَدِ: نَسَبه الخطَّابي، والسمعاني، والشوكاني إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ، ونسَبه أبو حيان إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٨٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠١).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠).

وقيل: المرادُ بها: مَلَكٌ عَظيمٌ.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: علي بنُ أبي طالب، وابنُ عباس في روايةٍ عنه، ومقاتلٌ، وقال قتادةُ، والحسنُ: هو جبريلُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٣٣١).

قال ابنُ القَيِّم: (في ذلك خِلافٌ بين السَّلَفِ والخَلَفِ، وأكثَرُ السَّلَفِ بل كُلُّهم على أنَّ الرُّوحَ

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: الرُّوحُ مِن شَأنِ ربِّي، استأثَرَ بعِلمِها؛ فهو الذي خَلَقها، ولا يعلَمُ حَقيقَتَها أحدٌ غيرُ الله[1].

المَسؤولَ عنها في الآيةِ ليست أرواحَ بني آدمَ، بل هو الرُّوحُ الذي أخبَرَ الله عنه في كتابِه أنَّه يقومُ يومَ القيامةِ مع الملائكةِ، وهو ملَكٌ عظيمٌ). ((الروح)) (ص: ١٥١).

وقال ابنُ حجر: (جنح ابنُ القَيِّم في كتابِ الرُّوحِ إلى ترجيحِ أنَّ المرادَ بالرُّوحِ المَسؤول عنها في الآيةِ ما وقعَ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ [النبأ: ٣٨]، قال: وأمَّا أرواحُ بني آدم فلم يقَعْ تَسميتُها في القرآنِ إلَّا نَفسًا. كذا قال، ولا دَلالةَ في ذلك لِمَا رجَّحه، بل الرَّاجِحُ الأوَّلُ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فقد قيل: إنَّ الروحَ هنا ليس هو روحَ الآدميِّ، وإنَّما هو مَلَكٌ في قَولِه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقولِه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقَولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]. وقيل: بل: هو روحُ الآدميِّ. والقولانِ مَشهورانِ، وسواءٌ كانت الآيةُ تَعُمُّهما أو تتناولُ أحدَهما، فليس فيها ما يدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ غَيرُ مخلوقةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٢٦-٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٧، ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ ليس جوابًا ببيان ما سألوا عنه، ولكِنَّه صَرفٌ عن استعلامِه، وإعلامٌ لهم بأنَّ هذا مِنَ العِلمِ الذي لم يُؤتَوه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

قال أبو حيان: (ومعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أي: فِعلِ ربِّي، كونِها بأمرِه، وفي ذلك دَلالةٌ على حدوثِها، والأمرُ بمعنى الفِعلِ واردٌ؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ أي: فِعلُه. ويحتَمِلُ أن يكونَ (أمر) واحِدَ الأمورِ، وهو اسمُ جنس لها، أي: من جملةِ أمورِ الله التي استأثر بعِلمِها... وقيل: مِن عِلمِ ربِّي). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٧).

وقال ابن القيم: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فمعلومٌ قطعًا أنَّه ليس المرادُ هاهنا بالأمرِ الطَّلَبَ الذي هو أحدُ أنواعِ الكلامِ، فيكونَ المرادُ أنَّ الرُّوحَ كَلامُه الذي يأمُرُ به،

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: وما آتاكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[1]- مِن العِلمِ إلَّا شَيئًا قليلًا ممَّا يَعلَمُه سُبحانَه[2].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في قِصَّةِ الخَضِرِ وموسى عليهما السَّلامُ: ((... فلمَّا رَكِبا في السَّفينةِ جاء عُصفورٌ، فوقعَ على حَرفِ السَّفينةِ فنقرَ في البَحرِ نَقرةً أو نَقرتَينِ، قال لهُ الخَضِرُ: يا موسى، ما نَقَصَ عِلمي وعِلمُكَ مِن علمِ اللهِ إلَّا مِثلَ ما نقَصَ هذا العُصفورُ بمِنقارِه مِن البَحرِ))[3].

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ الأولى أنَّه ما آتاهم مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا؛ بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه لو شاء أن يأخُذَ منهم ذلك القَليلَ أيضًا لقَدَر عليه، وذلك بأنْ يَمحُوَ حِفظَه من القُلوبِ وكِتابَتَه مِن الكُتُبِ، وهذا وإن كان أمرًا مُخالِفًا للعادةِ إلَّا أنَّه تعالى قادِرٌ عليه[4].

وإنما المرادُ بالأمرِ هاهنا المأمورُ، وهو عرفٌ مُستعمَلٌ في لغةِ العرَبِ، وفي القرآنِ منه كثيرٌ). ((الروح)) (ص: ١٥٠).

(١) قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يجوزُ أن تكونَ مِمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه أن يقولَه للسَّائلينَ، فيكونَ الخطابُ لقُريشٍ أو لليهودِ الذين لقَّنوهم، ويجوزُ أن يكون تذييلًا أو اعتراضًا، فيكونَ الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ للخِطابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٧، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤٠٥).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به من تنزيلِ القُرآنِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِفاءً ورَحمةً وقُدرتَه على ذلك؛ ذكَرَ قُدرَتَه على أنَّه لو شاء لذَهَب بما أوحى، ولكِنَّه تعالى لم يشأْ ذلك، والمعنى أنَّا كما نحن قادِرونَ على إنزالِه، فنحن قادِرونَ على إذهابِه(١).

وأيضًا فالآيةُ مُتَّصلةٌ بقولِه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ...﴾، أفضَتْ إليها المُناسبةُ؛ فإنَّه لَمَّا تضمَّنَ قولُه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ تلقينَ كلمةِ علْمٍ جامعةٍ، وتضمَّنَ أنَّ الأُمَّةَ أُوتِيتَ علْمًا ومُنِعَت علْمًا، وأنَّ علْمَ النُّبوَّةِ من أعظَمِ ما أُوتِيَتْه، أعقَبَ ذلك بالتَّنبيهِ إلى الشُّكرِ على نِعْمةِ العلْمِ؛ دفعًا لغُرورِ النَّفسِ؛ لأنَّ العلمَ بالأشياءِ يُكسِبُها إعجابًا بتميُّزِها عمَّن دونها فيه، فأُوقِظَت إلى أنَّ الَّذي منَحَ العلمَ قادرٌ على سلْبِه(٢).

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

أي: وأُقسِمُ -يا مُحمَّدُ- لَئِنْ أرَدْنا لنُزيلَنَّ القُرآنَ الذي أوحَيناه إليك مِن قَلْبِك، فلا يبقَى منه شَيءٌ مَحفوظٌ في الصُّدورِ ولا مَكتوبٌ في السُّطورِ؛ فكما قَدَرْنا على إنزالِه نَقدِرُ على إذهابِه(٣).

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٠- ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠١).

قال القُرطبيُّ: (ويتَّصِلُ هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو شِئتُ أن أَذهَبَ بذلك القليلِ لقدَرْتُ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥).

وسلَّم: ((يَدرُسُ[١] الإسلامُ كما يَدرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ[٢]، حتى لا يُدرَى ما صِيامٌ، ولا صَلاةٌ، ولا نُسُكٌ، ولا صَدَقةٌ، ولَيُسرَى[٣] على كتابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في ليلةٍ، فلا يبقى في الأرضِ منه آيةٌ، وتبقى طوائِفُ مِن النَّاسِ: الشَّيخُ الكَبيرُ والعَجوزُ، يقولون: أدرَكْنا آباءَنا على هذه الكَلِمةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فنحن نَقولُها!))[٤].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾.

أي: ثمَّ لا تَجِدُ لك -يا مُحمَّدُ- ناصِرًا يَنصُرُك فيَمنَعُنا مِن إزالةِ القُرآنِ مِن صَدرِك، أو يَقومُ بردِّه إليك بعدَ ذَهابِه عنك[٥].

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾.

﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: لكِنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لا يشاءُ أن يُذهِبَ القُرآنَ مِن صَدرِك رَحمةً منه بك وبِعبادِه[٦].

---

(١) يَدرُسُ: أي: يُمحى ويَخفى أثَرُه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٩٢).

(٢) وَشْيُ الثَّوبِ: أي: نَقشُه. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن ابن ماجه)) (٢/ ٤٩٨).

(٣) لَيُسرَى: أي: يُؤتَى عليه كُلِّه ليلًا. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٧٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٨٦٣٦)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٢٠٢٨).
صحَّح الحاكِمُ إسنادَه على شرطِ مُسلمٍ، ووافقه الذهبيُّ في ((التلخيص)) (٤/ ٥٨٧)، وصحَّح إسنادَه ووثَّق رجالَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٣٠٧)، وقوَّى إسنادَه ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (١٣/ ١٩)، وجوَّده ابنُ باز كما في ((الفوائد العلمية)) (٢/ ٥٦٩)، وصحَّح الحديث الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٠٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾.

أي: لا يَذهَبُ اللهُ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- لأنَّ فَضلَ اللهِ عليك كان فَضلًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخرةِ؛ بالرِّسالةِ، وإنزالِ القُرآنِ، والمَقامِ المَحمودِ يومَ القيامةِ، وغَيرِ ذلك مِن نِعَمِه عليك، فلا يَحرِمُك الفَضلَ الذي أوحاه إليك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مُتضَمِّنٌ لرَدعِ مَن يسألُ المسائِلَ التي لا يَقصِدُ بها إلَّا التعَنُّتَ والتَّعجيزَ، ويدَعُ السُّؤالَ عن المُهِمِّ، فيسألونَ عن الرُّوحِ التي هي مِن الأمورِ الخَفيَّةِ، التي لا يُتقِنُ وَصفَها وكيفيَّتَها كُلُّ أحدٍ، وهم قاصِرونَ في العِلمِ الذي يَحتاجُ إليه العِبادُ[2]!

قال الشوكاني: (الاستِثناءُ بقَولِه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إن كان متَّصِلًا فمعناه: إلَّا أن يرحَمَك ربُّك فلا نذهَبَ به، وإن كان منقَطِعًا فمعناه: لكنْ لا يشاءُ ذلك رحمةً مِن ربِّك، أو لكِنْ رَحمةً مِن رَبِّك تركَتْه غيرَ مذهوبٍ به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٥).

وممن ذهب إلى أنَّ الاستثناءَ هنا منقطعٌ بمعنى (لكن): ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ في هذه الآيةِ ما يَزجُرُ الخائِضينَ في شأنِ الرُّوحِ، المُتكَلِّفينَ لبَيانِ ماهيتِه وإيضاحِ حقيقتِه- أبلَغَ زَجرٍ، ويَردَعُهم أعظَمَ رَدعٍ، وقد أطالوا المقالَ في هذا البَحثِ بما لا يَتِمُّ له المقامُ، وغالِبُه بل كُلُّه من الفُضولِ الذي لا يأتي بنَفعٍ في دينٍ ولا دنيا. وقد حكى بعضُ المُحقِّقينَ أنَّ أقوالَ المُختَلِفينَ في الرُّوحِ بَلَغَت إلى ثمانيةَ عَشرَ ومئةِ قَولٍ، فانظُرْ إلى هذا الفُضولِ الفارِغِ، والتعَبِ العاطِلِ عن النَّفعِ! بعد أن عَلِموا أنَّ اللهَ سُبحانَه قد استأثَرَ بعِلمِه، ولم يُطلِعْ عليه أنبياءَه، ولا أذِنَ لهم بالسُّؤالِ عنه، ولا البَحثِ عن حقيقتِه، فضلًا عن أُمَمِهم المُقتَدينَ بهم، فيا لَلَّهِ العَجَب؛ حيث تَبلُغُ أقوالُ أهلِ الفُضولِ إلى هذا الحَدِّ الذي لم تَبلُغْه ولا بَعضَه في غَيرِ هذه المسألةِ مِمَّا أذِنَ الله بالكلامِ فيه، ولم يستأثِرْ بعِلمِه[(١)]!!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الرُّوحَ لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها، ولا يُمكِنُ تحديدُ ماهيَّتِها أبدًا[(٢)]. فالبَدَنُ مادَّتُه مَعلومةٌ: وهي التُّرابُ، أمَّا الرُّوحُ فمادَّتُها غيرُ مَعلومةٍ، وهذه -واللهُ أعلَمُ- من الحِكمةِ في إضافتِها إليه: أنَّها أمرٌ لا يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه عِلمُ البَشَرِ، بل هي ممَّا استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، كسائِرِ العُلومِ العَظيمةِ الكثيرةِ التي لم نُؤتَ منها إلَّا القَليلَ، ولا نُحيطُ بشَيءٍ مِن هذا القَليلِ إلَّا بما شاء

(١) يُنظر: ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٢).

اللهُ تبارك وتعالى[١]. لذا تمسَّكَ بالآية مَن قال: إنَّ الرُّوحَ لا يُعلَمُ، وأمسَكَ عن الخَوضِ فيه[٢].

٣- إنَّ إبهامَ أمرِ الرُّوحِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيه حِكمةٌ مِن جِهةِ اختبارِ الخَلقِ؛ ليُعَرِّفَهم سُبحانَه بعَجزِهم عن عِلمِ ما لا يُدرِكونَه؛ حتى يَضطرَّهم إلى رَدِّ العِلمِ إليه[٣].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، حيث قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ ولم يقُلْ: (قُلْ: إنَّها)؛ إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأْنِه[٤].

- وأضاف الروحَ إلى (الأمر) -وإن كانت مِن جملةِ خلقِه- تشريفًا لها، وإشارةً إلى أنَّه لا سببَ مِن غيرِه يتوسَّطُ بينها وبين أمرِه، بل هو يبدعُها مِن العدمِ[٥].

- وإضافةُ ضَميرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الرَّبِّ جَلَّ وعَلا بقولِه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فيها من تَشريفِ المُضافِ ما لا يَخْفى[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((شرح البخاري)) لابن بطال (١/ ٢٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ خُوطِبَ بذلك النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ علْمَه أعظَمُ علْمٍ، فإذا كان وُجودُ علْمِه خاضعًا لمشيئةِ اللهِ، فما الظَّنُّ بعلْمِ غيرِه؟! تَعريضًا لبقيَّةِ العُلماءِ؛ فالكلامُ صَريحُه تحذيرٌ، وهو كِنايةٌ عن الامتنانِ، كما دَلَّ عليه قولُه بعده: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾، وتعريضٌ بتحذيرِ أهْلِ العلْمِ[1].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ عُبِّرَ عن القُرآنِ بالموصولِ؛ تَفخيمًا لشأنِه، ووصْفًا له بما في حيِّزِ الصِّلةِ ابتداءً، وإعلامًا بحالِه مِن أوَّلِ الأمرِ، وبأنَّه ليس من قَبِيلِ كلامِ المخلوقِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ استدراكٌ على ما اقتضاهُ فعْلُ الشَّرطِ -﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ ﴾- مِن توقُّعِ ذلك، أي: لكن رحمةً من ربِّك نفَتْ مَشيئةَ الذَّهابِ بالَّذي أوحَيْنا إليك، فهو باقٍ غيرُ مَذهوبٍ به، وهذا إيماءٌ إلى بقاءِ القُرآنِ وحفْظِه[3].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لأنَّ نفيَ الطَّمعِ في استرجاعِ المسلوبِ أشدُّ على النَّفسِ من سَلْبِه؛ فذِكْرُه أدخَلُ في التَّنبيهِ على الشُّكرِ، والتَّحذيرِ من الغُرورِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٠- ٢٠١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ عُدِّيَ بـ (على)؛ لِمَا فيه من معنى الغَلبةِ، وعُدِّيَ إلى المردودِ بالباءِ؛ لِمَا فيه من معنى التَّعهُّدِ والمُطالَبةِ، أي: مُتعهِّدًا بالَّذي أوحَيْنا إليك. ومعنى التَّعهُّدِ به: التَّعهُّدُ باسترجاعِه؛ لأنَّه في مُقابَلةِ قولِه: ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولأنَّ التَّعهُّدَ لا يكونُ بذاتِ شَيءٍ، بل بحالٍ من أحوالِه؛ فجَرى الكلامُ على الإيجازِ[١].

- قولُه: ﴿وَكِيلًا﴾ ذكَرَ هنا ﴿وَكِيلًا﴾ وفي الآيةِ قبلَها ﴿نَصِيرًا﴾؛ لأنَّ معنى هذه على فرْضِ سَلْبِ نِعمةِ الاصطفاءِ، فالمُطالبةُ بإرجاعِ النِّعمةِ شفاعةٌ ووكالةٌ عنه، وأمَّا الآيةُ قبلَها فهي في فرْضِ إلحاقِ عُقوبةٍ به، فمُدافعةُ تلك العُقوبةِ أو الثَّأرُ بها نَصرٌ[٢].

- ومَوقعُ ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ موقعُ التَّعليلِ للاستثناءِ المُنقطِعِ، وزيادةُ فعْلِ (كان) فيه لتَوكيدِ الجُملةِ؛ زيادةً على تَوكيدِها بحرفِ التَّوكيدِ المُستعمَلِ في معنى التَّعليلِ والتَّفريعِ[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠١).

الآيتان (٨٨-٨٩)

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: عَونًا، وسُمِّي العَونُ ظَهيرًا؛ لاستنادِ ظَهرِه إلى ظَهرِ صاحِبِه، وأصلُ (ظهر): يدلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿صَرَّفْنَا﴾: أي: بَيَّنَّا، والصَّرْفُ: ردُّ الشيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

أمَرَ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتحدَّى المشركينَ بهذا القرآنِ، فقال: قُلْ -يا مُحمَّدُ: لو اتَّفَقَت الإنسُ والجِنُّ على الإتيانِ بمِثلِ هذا القُرآنِ المُعجِزِ، لَمَا استطاعوا ذلك ولو تعاوَنوا وتظاهَروا، ولقد بيَّنَّا ونَوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ليتَّعِظوا ويتذكَّروا، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا كُفرًا بالحَقِّ وجحودًا له.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنعامَه على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنُّبُوَّةِ بإنزالِ وَحْيِه عليه وباهِرَ قُدرتِه بأنَّه تعالى لو شاء لذَهَب بالقُرآنِ؛ ذكَرَ ما منَحَه تعالى من الدَّليلِ على نبُوَّتِه الباقي بقاءَ الدَّهرِ، وهو القرآنُ الذي عجَزَ العالَمُ عن الإتيانِ بمِثلِه، وأنَّه مِن أكبَرِ النِّعَمِ والفَضلِ الذي أبقَى له ذِكرًا إلى آخرِ الدَّهرِ، ورفَعَ له قَدرًا به في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

وأيضًا بعدَ قَولِ اللهِ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ لَمَّا كان بمَعرِضِ أن يقولوا: إنْ ذهَبَ عليك مِن شَيءٍ فائتٍ بمِثلِه مِن عندِ نَفسِك، ومِمَّا اكتسَبْتَه منه مِن الأساطيرِ؛ أمَرَه أن يُجيبَهم عن هذا بقَولِه؛ دلالةً على مَضمونِ ما قَبلَه[٢]:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ: لو اتَّفَق جميعُ الإنسِ والجِنِّ[٣] على أن يأتُوا بمِثلِ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٠٨).

(٣) قال ابن كثير: (فأخبرَ أنَّه لو اجتمعت الإنسُ والجِنُّ كُلُّهم، واتَّفَقوا على أن يأتوا بمِثلِ ما أنزَلَه على رسولِه). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧).

وقال ابن عاشور: (معنى الاجتماعِ: الاتفاقُ واتحادُ الرأيِ، أي: لو تواردت عقولُ الإنسِ والجِنِّ على أن يأتيَ كُلُّ واحدٍ منهم بمِثلِ هذا القرآنِ لَما أتَوا بمثله. فهو اجتماعُ الرأيِ لا اجتماعُ التعاون، كما تدُلُّ عليه المبالغةُ في قوله بَعدَه: ﴿وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).

القُرآنِ في بلاغَتِه وحُسنِ نَظْمِه وكَمالِ مَعانيه؛ لَما أطاقوا ذلك وما استَطاعوه[(١)].

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

أي: لا يَأتونَ بمِثلِه ولو تعاوَنَ الإنسُ والجِنُّ، وتناصَروا على ذلك، فكيف بهم إذا حاولوا ذلك مُتفرِّقينَ[(٢)]؟!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عَجزَ الإنسِ والجِنِّ عن أن يأتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ؛ نَبَّه على فَضلِه تعالى بما ردَّدَ فيه، وضَرَبَ مِن الأمثالِ والعِبَرِ التي تدُلُّ على تَوحيدِه تعالى، ومع كَثرةِ ما رَدَّدَ مِن الأمثلةِ، وأسبَغَ مِن النِّعَمِ، لم يكونوا إلَّا كافرينَ به وبنِعَمِه[(٣)].

وأيضًا لَمَّا تحَدَّى اللهُ بُلَغاءَ المُشرِكينَ بالإعجازِ؛ تطاولَ عليهم بذِكرِ فضائلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٣٣/ ٤٢-٤٣) لابن تيمية، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٧- ٤٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).
قال ابن تيمية: (هو آيةٌ بيِّنةٌ مُعجِزةٌ مِن وُجوهٍ متعَدِّدةٍ: من جهةِ اللَّفظِ، ومن جهة النَّظمِ، ومن جهةِ البلاغةِ في دَلالةِ اللَّفظِ على المعنى، ومن جهةِ معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائِه وصفاتِه وملائكتِه، وغير ذلك، ومن جهةِ معانيه التي أخبرَ بها عن الغيبِ الماضي، وعن الغيبِ المستقبَلِ، ومِن جهةِ ما أخبَرَ به عن المعاد، ومن جهةِ ما بيَّنَ فيه من الدلائلِ اليقينيَّةِ والأقيسةِ العقليَّةِ التي هي الأمثالُ المضروبةُ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٤٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١١).

القُرآنِ على ما سِواه من الكلامِ، مُدمِجًا في ذلك النَّعيَ عليهم؛ إذ حَرَموا أنفُسَهم الانتِفاعَ بما في القُرآنِ مِن كلِّ مَثَلٍ. وذُكِرَتْ هنا ناحيةٌ مِن نواحي إعجازِه، وهي ما اشتمَلَ عليه مِن أنواعِ الأمثالِ(١).

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

أي: ولقد بيَّنَّا ونوَّعْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ الحُجَجَ والبَراهينَ، والمواعِظَ والأمثالَ، والقَصَص والعِبَرَ؛ ليتذَكَّروا ويَتَّقوا(٢).

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾.

أي: فلم يَرْضَ أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ بالحَقِّ، والجُحودَ لهذه النِّعمةِ العُظمَى، فجحَدوا بما في القُرآنِ، وردُّوا الهُدى، واقتَرَحوا مِن الآياتِ ما ليس لهم(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾، وإخبارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه الآيةِ فيه آياتٌ لنُبُوَّتِه؛ منها إقدامُه على هذا الخبَرِ العَظيمِ عن جميعِ الإنسِ والجِنِّ إلى يومِ القيامةِ بأنَّهم لا يَفعلونَ هذا، بل يَعجِزون عنه، وهذا لا يُقدِمُ عليه مَن يَطلُبُ النَّاسَ أن يُصَدِّقوه إلَّا وهو واثِقٌ بأنَّ الأمرَ كذلك؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٦).

إذ لو كان عنده شَكٌّ في ذلك لجازَ أن يَظهَرَ كَذِبُه في هذا الخبَرِ، فيُفسِدَ عليه ما قَصَده. ثمَّ جَعْلُه هذا في القُرآنِ المَتلوِّ المحفوظِ إلى يومِ القيامةِ، الذي يُقرَأُ به في الصَّلَواتِ، ويَسمَعُه العامُّ والخاصُّ، والوليُّ والعَدُوُّ؛ دليلٌ على كمالِ ثِقتِه بصِدقِ هذا الخبَرِ، وإلَّا لو كان شاكًّا في ذلك لخاف أن يَظهَرَ كَذِبُه؛ فمَن يَقصِدُ أن يُصَدِّقَه النَّاسُ لا يقولُ مِثْلَ هذا، ويُظهِرُه هذا الإظهارَ، ويُشيعُه هذه الإشاعةَ، إلَّا وهو جازِمٌ عند نَفسِه بصِدقِه، ولا يُتصَوَّرُ أنَّ بشَرًا يجزِمُ بهذا الخبَرِ إلَّا أن يعلَمَ أنَّ هذا مِمَّا يَعجِزُ عنه الخَلقُ؛ إذ عِلْمُ العالِمِ بعَجزِ جَميعِ الإنسِ والجِنِّ إلى يومِ القيامةِ، هو مِن أعظَمِ دلائِلِ كَونِه مُعجِزًا، وكونِه آيةً على نبُوَّتِه، فهذا مِن دلائِلِ نبُوَّتِه في أوَّلِ الأمرِ عند مَن سَمِعَ هذا الكلامَ، وعَلِمَ أنَّه مِن القُرآنِ الذي أُمِرَ ببلاغِه إلى جميعِ الخَلقِ، وهو وَحدَه كافٍ في العِلمِ بأنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الكُفَّارَ هم أكثَرُ أهلِ الأرضِ(٢).

بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ...﴾ استئنافٌ للزِّيادةِ في الامتنانِ، وهو استئنافٌ بيانيٌّ لمضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٧]، وافتتاحُه بـ(قُل) للاهتمامِ به، وهذا تَنويهٌ بشَرفِ القُرآنِ؛ فكان هذا التَّنويهُ امتنانًا على الَّذين آمنوا به، وهم الَّذين كان لهم شِفاءً ورحمةً، وتحدِّيًا بالعجزِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (٢/ ٢٢٥).

على الإتيانِ بمثْلِه للَّذين أعْرَضوا عنه، وهم الَّذين لا يَزيدُهم إلَّا خَسارًا[(١)].

- وفي قولِه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ ذِكْرُ الجنِّ مع الإنسِ؛ لقصْدِ التَّعميمِ، كما يُقال: لو اجتمَعَ أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وأيضًا لأنَّ المُتحدَّينَ بإعجازِ القُرآنِ كانوا يَزْعمون أنَّ الجنَّ يقدِرونَ على الأعمالِ العظيمةِ[(٢)].

- وفائدةُ هذه الجُملةِ ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ التَّأكيدُ لمعنى الاجتماعِ المَدلولِ بقولِه: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ أنَّه اجتماعُ تظافُرٍ على عمَلٍ واحدٍ، ومقصَدٍ واحدٍ[(٣)].

- قولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ فيه تكرُّرُ لفْظِ (مِثْل) في قولِه: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ على سبيلِ التَّأكيدِ والتَّوضيحِ، وأنَّ المُرادَ منهم أنْ يأتوا بمثْلِه؛ إذ قد يُرادُ بمثْلِ الشَّيءِ في مَوضعِ الشَّيءُ نفْسُه؛ فبيَّنَ بتكرارِ ﴿بِمِثْلِهِۦ ﴾، ولم يكُنِ التَّركيبُ: لا يأْتون به؛ رفعًا لهذا الاحتمالِ، وأنَّ المطلوبَ منهم أنْ يأتوا بالمثْلِ لا أنْ يأتوا بالقُرآنِ[(٤)].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾؛ زيادةً في الامتنانِ والتَّعجيزِ، وتأكيدُها بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لِرَدِّ أفكارِ المُشركينَ أنَّه من عندِ اللهِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٣).

فمَوردُ التَّأكيدِ هو فعْلُ ﴿صَرَّفْنَا﴾ الدَّالُّ على أنَّه مِن عندِ اللهِ[1].

- وزِيدَ في هذه الآيةِ قيدُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ دونَ الآيةِ السَّابقةِ في السُّورةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مقامِ التَّحدي والإعجازِ؛ فكان النَّاسُ مقصودينَ به قصْدًا أصليًّا مُؤمنُهم وكافِرُهم، بخلافِ الآيةِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّها في مقامِ توبيخِ المُشركينَ خاصَّةً، فكانوا مَعْلومين[2].

- ووجْهُ تَقديمِ أحدِ المُتعلِّقَينِ -وهو ﴿لِلنَّاسِ﴾- بفعْلِ ﴿صَرَّفْنَا﴾ على الآخرِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: أنَّ ذِكْرَ النَّاسِ أهمُّ في هذا المقامِ؛ لأجْلِ كونِ الكلامِ مَسوقًا لتحدِّيهم والحُجَّةِ عليهم، وإنْ كان ذكْرُ القُرآنِ أهمَّ بالأصالةِ، إلَّا أنَّ الاعتباراتِ الطَّارئةَ تُقَدَّمُ في الكلامِ البليغِ على الاعتباراتِ الأصليَّةِ؛ لأنَّ الاعتباراتِ الأصليَّةَ لتَقرُّرِها في النُّفوسِ تَصيرُ مُتعارَفةً، فتكونُ الاعتباراتُ الطَّارئةُ أعَزَّ مَنالًا. ومن هذا بابُ تَخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقْتَضى الظَّاهرِ[3].

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مُتعلِّقَ التَّصريفِ بقولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بخلافِ الآيةِ السَّابقةِ في السُّورةِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الإسراء: ٤١]؛ لأنَّ ذِكْرَ ذلك أدْخَلُ في الإعجازِ؛ فإنَّ كثرةَ أغراضِ الكلامِ أشدُّ تعجيزًا لمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٤-٢٠٥).

يَرومُ مُعارضتَه عن أنْ يأتِيَ بمثْلِه؛ إذ قد يقدِرُ بليغٌ من البُلغاءِ على غرَضٍ من الأغراضِ، ولا يقدِرُ على غرَضٍ آخرَ، فعجْزُهم عن مُعارضةِ سُورةٍ من القُرآنِ مع كثرةِ أغراضِه عجْزٌ بيِّنٌ من جهتَينِ: لأنَّهم عَجَزوا عن الإتيانِ بمثْلِه، ولو في بعضِ الأغراضِ، كما أشار إليه قولُه تعالى في سُورةِ (البقرةِ): ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فإنَّ (مِن) للتَّبعيضِ. وتَنوينُ ﴿مَثَلٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّشريفِ، أي: من كلِّ مَثَلٍ شَريفٍ، والمُرادُ: شرَفُه في المقصودِ من التَّمثيلِ. و﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ للتَّبعيضِ، و﴿كُلِّ﴾ تُفيدُ العُمومَ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على أبعاضٍ مِن جميعِ أنواعِ المثَلِ(١).

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ للقرينةِ، أي: أبَى العمَلَ به(٢).

- وفي قولِه: ﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أُوثِرَ الإظهارُ على الإضمارِ حيث لم يقُلْ: (أكثرُهم)؛ تأكيدًا وتوضيحًا(٣).

- قولُه: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ فيه من المُبالغةِ ما ليس في (أبَوُا الإيمانَ)؛ لأنَّ فيه دلالةً على أنَّهم لم يَرْضَوا بخَصلةٍ سِوى الكُفورِ من الإيمانِ، والتَّوقُّفِ في الأمْرِ ونحوِ ذلك، وأنَّهم بالغوا في عدَمِ الرِّضا حتَّى بَلَغوا مرتبةَ الإباءِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ تأكيدُ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، أي: تأكيدٌ في صُورةِ النَّقصِ؛ لِمَا فيه من الإطماعِ بأنَّ إبايتَهم غيرُ مُطَّردةٍ، ثمَّ يأتي المُسْتثنى مُؤكِّدًا لمعنى المُسْتثنى منه؛ إذ (الكُفورُ) أخصُّ من المفعولِ الَّذي حُذِفَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للقرينةِ، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ؛ لِما في فعْلِ ﴿فَأَبَىٰٓ﴾ مِن معنَى النَّفيِ الَّذي هو شرْطُ الاستثناءِ المُفرَّغِ؛ لأنَّ المدارَ على معنى النَّفيِ، مِثْلُ الاستثناءِ مِن الاستفهامِ المُستعمَلِ في النَّفيِ، كقولِه: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾[1] [الإسراء: ٩٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٥).

الآيات (٩٠-٩٦)

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يَنۢبُوعًا﴾: أي: عَينًا تَنبُعُ منها الماءُ؛ مِن نَبَعَ الماءُ: إذا ظَهَر[1].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، جَمعُ كِسْفةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف): يَدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[2].

﴿قَبِيلًا﴾: أي: مُقابَلةً عِيانًا، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

﴿زُخۡرُفٍ﴾: أي: ذَهَبٍ، وأصلُ الزُّخرُفِ والزَّخْرفةِ: الزِّينةُ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٦٠)،

المَعنى الإجماليُّ:

ذكر الله تعالى بعضَ ما طلَبه المشركونَ مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مطالبَ مُتعنِّتةٍ، فقال: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لن نُصَدِّقَك -يا مُحمَّدُ- حتى تُفَجِّرَ لنا مِن أرضِ «مكَّةَ» عَينًا جاريةً غزيرةَ الماءِ، أو تكونَ لك حَديقةٌ مِنَ النَّخيلِ والأعنابِ، وتجعَلَ الأنهارَ تَجري في وسَطِها بغَزارةٍ، أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا كما زَعَمْتَ، أو تأتيَ لنا باللهِ ومَلائكَتِه فنُشاهِدَهم عِيانًا، أو يكونَ لك بَيتٌ مِن ذَهَبٍ، أو تصعَدَ في دَرَجٍ إلى السَّماءِ، ولن نُصَدِّقَك في صُعودِك حتى تنَزِّلَ علينا كِتابًا مِن اللهِ نَقرأُ فيه أنَّك رَسولٌ من عند اللهِ!

ثمَّ أمرَ الله نبيَّه أن يردَّ عليهم قائلًا له: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: سُبحانَ رَبِّي! هل أنا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكم مُرسَلٌ مِن عندِ الله؟! فكيف أقدِرُ على فِعْلِ ما تَطلُبونَ؟

ثمَّ ذكَر الله تعالى شبهةً أُخرَى مِن شبهاتِهم، فقال: وما منَعَ الكُفَّارَ مِن الإيمانِ باللهِ حين جاءَهم الهُدى مِن عندِ اللهِ إلَّا قَولُهم جَهلًا: أبعَثَ اللهُ رَسولًا بشرًا مِثلَنا؟!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو كان في الأرضِ مَلائِكةٌ يَمشُونَ عليها مُستَقِرِّين كالبشَرِ، لأرسَلْنا إليهم رَسولًا ملَكًا مِن جِنسِهم؛ ليتمَكَّنوا مِن مخالطتِه والتلقِّي عنه، قُلْ لهم: كفى باللهِ شَهيدًا بيني وبينَكم يعلَمُ صِدْقي وحَقيقةَ نبُوَّتي؛ إنَّه سُبحانَه خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه، بصيرٌ بأعمالِهم، وسيُجازيهم عليها.

((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تحَدَّى اللهُ تعالى الكافِرينَ بأن يأتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ، فتَبَيَّنَ عَجزُهم عن ذلك وإعجازُه، وانضَمَّت إليه مُعجِزاتٌ أُخَرُ، وبيِّناتٌ واضِحةٌ، فلَزِمَتهم الحُجَّةُ وغُلِبوا- أخَذوا يتعَلَّلونَ باقتِراحِ آياتٍ، فِعلَ الحائِرِ المَبهوتِ المَحجوجِ، فقالوا ما حكاه اللهُ عنهم[1].

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لن نُصَدِّقَك -يا مُحمَّدُ- فيما تقولُ حتى تَفجُرَ لنا مِن أرضِ مَكَّةَ المُجدِبةِ عَينًا تَنبُعُ بمِياهٍ جاريةٍ غَزيرةٍ[2].

﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ ﴾.

﴿ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ ﴾.

أي: أو يكونَ لك في مَكَّةَ -يا مُحمَّدُ- بُستانٌ مِن أشجارِ النَّخيلِ والعِنَبِ[3].

﴿ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴾.

أي: فتُجري الأنهارَ وسْطَ ذلك البستانِ بقوةٍ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير الشوكاني))

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن تحَدِّي النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخوارِقَ فيها منافِعُ لهم إلى تَحدِّيه بخوارِقَ فيها مَضَرَّتُهم، يريدون بذلك التَّوسيعَ عليه، أي: فلْيأتِهم بآيةٍ على ذلك ولو في مَضَرَّتِهم[1].

﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾.

أي: أو تُسقِطَ السَّماءَ علينا قِطَعًا كما وعَدْتَنا، فعَجِّلْ لنا هذا العذابَ حتَّى نُصدِّقَك[2]!

قال تعالى حاكيًا قولَ قَومِ شُعَيبٍ له: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ

(٣/ ٣٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

قال الألوسي: (والمرادُ إمَّا إجراءُ الأنهارِ خلالَها عندَ سقيِها، أو إدامةُ إجرائِها، كما يُنْبِئُ الفاءُ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

وقال ابن كثير: (وقولُه تعالى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ ﴾ أي: أنَّك وعَدْتَنا أنَّ يومَ القيامةِ تَنْشَقُّ فيه السَّماءُ وتَهِي، وتَدَلَّى أطرافُها، فعَجِّلْ ذلك في الدُّنيا، وأسقطْها كِسَفًا: أي: قِطَعًا، كقولِهم: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠).

وقال الشنقيطي: (أو يسقط السماء عليهم ﴿ كِسَفًا ﴾: أي: قطعًا كما زعَم، أي في قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية [سبأ: ٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٤).

أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٩].

﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾.

أي: أو تأتيَ -يا مُحمَّدُ- باللهِ والمَلائكةِ، فنُقابِلَهم ونَراهم عِيانًا[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١].

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾.

أي: أو يَكونَ لك بَيتٌ مِن ذهَبٍ، كاملُ الحُسنِ والزِّينةِ[٢].

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾.

أي: أو تَصعَدَ في السَّماءِ درجةً درجةً، ونحن ننظرُ إليك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣٦).
قال ابنُ عطية: (قال المفسِّرون: الزُّخرفُ: الذَّهَبُ في هذا الموضِعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٢).

﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾.

أي: ولن نُؤمِنَ -يا مُحمَّدُ- بأنَّك رَسولُ الله؛ بمجَرَّدِ صُعودِك في السَّماءِ حتى تُنَزِّلَ علينا كِتابًا مِن عندِ اللهِ نَقرأُ فيه أمْرَنا باتِّباعِك والإيمانِ بك(١)!

﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿قَالَ﴾ بلَفظِ الماضي على الحِكايةِ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٢- قراءةُ ﴿قُلۡ﴾ بلَفظِ الأمرِ، أي: إنَّ اللهَ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يقولَ: سُبحانَ رَبِّي(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

قال ابن جرير: (يقول: ولن نصَدِّقَك من أجلِ رُقيِّك إلى السَّماءِ ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا﴾ منشورًا ﴿نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ فيه أمْرُنا باتباعِك والإيمانِ بك). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦).

وقيل: المرادُ: كتابٌ لكلِّ واحدٍ منَّا فيه الأمرُ باتباعِك، والإيمانِ بك، كقولِه تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ [المدثر: ٥٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤).

(٢) قرأ بها ابن كثير وابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ١٢٢).

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: أُنزِّهُ ربِّي عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن النَّقصِ والعَجزِ، ومِن ذلك تَنزيهُه عن العَجزِ عن فِعلِ ما اقتَرَحتُم؛ فهو قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وتَنزيهُه عن أن تكونَ آياتُه تابعةً لأهوائِكم، وأن يتقَدَّمَ أحَدٌ بين يديه في أمرٍ مِن أمورِ سُلطانِه ومَلَكوتِه، بل هو الفعَّالُ لِما يشاءُ، إن شاء أجابَكم إلى ما سألتُم، وإن شاءَ لم يُجبْكم، فما أنا إلَّا بَشَرٌ مِثلُكم، ليس في قُدرتِي الإتيانُ بتلك الآياتِ التي تَطلُبونَها، فلا يأتي بها إلَّا اللهُ وحْدَه، وما أنا إلَّا رَسولٌ منه إليكم، وقد بلَّغتُكم رسالتَه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكَى اللهُ تعالى أشكالَ عِنادِ الكافرينَ، ومظاهِرَ تكذيبِهم، وشُبهتَهم في اقتراحِ المُعجِزاتِ الزَّائدةِ، حكَى عنهم شُبهةً أُخرَى، وهي العلةُ الأصليةُ التي تبعثُ على الجحودِ في جميعِ الأممِ، وهي أنَّ القَومَ استَبعَدوا أن يَبعَثَ اللهُ إلى الخَلقِ رَسولًا مِن البَشَرِ، بل اعتَقَدوا أنَّ اللهَ تعالى لو أرسل رَسولًا إلى الخَلقِ، لوجب أن يكونَ ذلك الرَّسولُ مِن الملائكةِ، فأجاب اللهُ تعالى عن هذه الشُّبهةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨٦، ٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١١).

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: وما مَنَعَ الكُفَّارَ أن يُؤمِنوا بالحَقِّ حين جاءَهم الهُدى مِن عِندِ اللهِ إلَّا قَولُهم -جَهْلًا منهم على وجهِ التعَجُّبِ والاستِغرابِ-: أأَرسَلَ اللهُ إلينا بما له مِن العَظَمةِ والجَلالِ بَشَرًا مِثْلَنا؟! فهلَّا بعَث إلينا ملَكًا رَسولًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [يونس: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ﴾ [التغابن: ٥، ٦].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكافرينَ الذين امتَنَعوا عن الإيمانِ بك؛ استِنكارًا منهم لِأَنْ يَبعَثَ اللهُ بَشرًا رَسولًا: لو كان في الأرضِ مَلائِكةٌ يَمشُونَ عليها كالآدَميِّينَ، ويَسكُنونَها وادِعينَ فيها ومُستَقِرِّينَ؛ لأرسَلْنا إليهم مِنَ السَّماءِ مَلَكًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٤).
قال الشوكاني: (﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ ﴾ المرادُ: النَّاسُ على العُمومِ. وقيلَ: المرادُ أهلُ مَكَّةَ علَى الخصوصِ، أي: ما منَعهم الإيمانَ بالقرآنِ ونبوَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسَلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٨).
قال القرطبي: (﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ أي: اللهُ أجَلُّ مِن أن يكونَ رَسولُه مِنَ البَشَرِ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى فَرْطَ عِنادِهم؛ لأنَّهم قالوا: أنت مِثلُنا فلا يلزَمُنا الانقيادُ، وغفَلوا عن المُعجِزةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٢).

مِن جِنسِهم ليُمكِنَهم مُخالطتُه ورُؤيتُه، ويتيسَّرَ لهم مُعاشَرتُه والتلقِّي عنه، وفَهمُ حَديثِه، كما تَقتَضيه الحِكمةُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۞وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨-٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[الأنبياء: ٧].

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا دعا النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الكافرينَ إلى الإيمانِ، وتحَدَّى على صِدقِ نُبُوَّتِه بالمُعجِزِ المُوافِقِ لدَعْواه؛ أمَرَه تعالى أن يُعْلِمَهم بأنَّه تعالى هو الشَّهيدُ بينه وبينهم على تَبليغِه وما قام به مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وعَدَمِ قَبولِهم، وكُفرِهم، وما اقتَرَحوا عليه مِن الآياتِ على سَبيلِ العِنادِ، وأردَفَ ذلك بما فيه تَهديدٌ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾[(٢)].

وأيضًا فبعدَ أنْ خصَّ اللهُ مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَلقينِ الحُجَّةِ القاطِعةِ للضَّلالةِ؛ أردَفَ ذلك بتَلقينِه أيضًا ما لقَّنَه الرُّسُلَ السَّابِقينَ مِن تفويضِ الأمرِ إلى الله تعالى، وتحكيمِه في أعدائِه[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩١، ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٤-٥١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٣).

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

أي: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: يكفيني اللهُ شاهِدًا عليَّ وعليكم، وهو يعلَمُ صِدقي ويُؤَيِّدُني بالمُعجِزاتِ، ويُنَزِّلُ عليَّ الآياتِ، ويَنصُرُني على مَن عاداني، ولو كُنتُ كاذِبًا عليه لانتَقَمَ مني(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

أي: ويكفي اللهُ شاهِدًا على ذلك؛ لأنَّه خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه وأعمالِهم ونيَّاتِهم، يَعلَمُ المُهتديَ منهم والضَّالَّ، ومَن يَستَحِقُّ منهم الهِدايةَ، ومَن يَستَحِقُّ الإضلالَ، بصيرٌ بهم، وبتَدبيرِهم كيف يشاءُ، وسيُجازيهم جميعًا على أعمالِهم خَيرِها وشَرِّها(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الرُّسُلُ صلواتُ الله وسلامُه عليهم لا يَملِكونَ أن يأتُوا بالآياتِ أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).
وقال مُقاتِلٌ: (﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ حين اختَصَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بالرِّسالةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥١).

بالوحيِ؛ فهم يتلقَّونَ مِنَ اللهِ، حتى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا طُلِبَ منه الآياتُ لا يستطيعُ أن يأتيَ بها؛ ولهذا لَمَّا اقترَح المُكَذِّبونَ عِدَّةَ آياتٍ، قال تعالى له: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، أي: فلا أملِكُ أن آتِيَ بالآياتِ(١).

٢- اقتضت حكمةُ الله ألَّا يُرسِلَ بالآياتِ التي اقترَحها الكفارُ، وإلَّا فلو جاءَتْهم ولم يُؤمِنوا أتاهم عذابُ الاستِئصالِ، وأيضًا فهي ممَّا لا يصلُحُ الإتيانُ بها؛ فإنَّ قولَهم: ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ يقتضي تفجيرَ اليَنبوعِ بأرضِ مكَّةَ فيصيرُ واديًا ذا زرعٍ، واللهُ مِن حِكمتِه جَعلُ بيتِه بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ؛ لئلَّا يكونَ عنده ما ترغَبُ النفوسُ فيه من الدُّنيا فيكونَ حَجُّهم للدُّنيا لا لله، وإذا كان له جَنَّةٌ مِن نخيلٍ وأعنابٍ يُفجِّرُ الأنهارَ خلالَها تفجيرًا، كان في هذا من التوسُّعِ في الدُّنيا ما يقتضي نَقصَ دَرجتِه وانخفاضَ منزلتِه، وكذلك إذا كان له بيتٌ مِن زُخرفٍ. وأمَّا إسقاطُ السَّماءِ كِسَفًا فهذا لا يكونُ إلا يومَ القيامةِ، وهو لم يخبِرْهم أنَّ هذا لا يكونُ إلَّا يومَ القيامةِ، فقولُهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ كَذِبٌ عليه إلَّا أن يريدوا التَّمثيلَ فيكونَ القياسُ فاسِدًا(٢).

٣- التعَنُّتُ والعنادُ العظيمُ الذي ذكَرَه جلَّ وعلا عن الكُفَّارِ هنا بيَّنَه في مواضِعَ أُخرَ، وبيَّن أنَّهم لو فعل الله ما اقترَحوا ما آمَنوا؛ لأنَّ مَن سبق عليه الشَّقاءُ لا يؤمِنُ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦-٤٣٧).

وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإقرارَ بالرَّبِّ وملائكتِه مَعروفٌ عند عامَّةِ الأُمَمِ[٢].

٥- ممَّا استشكلوه قولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]؛ فإنَّه يدُلُّ على حَصرِ المانعِ مِن الإيمانِ في أحَدِ هذين الشَّيئينِ، فظاهِرُهما التعارُضُ.

وأجيبَ عن ذلك: بأنَّ معنى آية سورة (الكهف): «وما منع النَّاسَ أن يؤمنوا إلَّا إرادةُ أن تأتيَهم سنَّةُ الأوَّلين مِن الخسفِ أو غيرِه، أو يأتيَهم العذابُ قُبلًا في الآخرةِ» فأخبر أنَّه أراد أن يصيبَهم أحدُ الأمرين، ولا شَكَّ أنَّ إرادة الله مانعةٌ مِن وقوع ما ينافي المرادَ، فهذا حصرٌ في السبَبِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ الله هو المانِعُ في

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٩).

الحقيقةِ، ومعنى آيةِ سورة (الإسراء): «وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلَّا استغرابُ بَعثِه بشَرًا رَسولًا»؛ لأنَّ قولَهم ليس مانِعًا مِن الإيمانِ؛ لأنَّه لا يصلُحُ لذلك، وهو يدُلُّ على الاستغرابِ بالالتزامِ، وهو المناسِبُ للمانعيَّةِ، واستغرابُهم ليس مانعًا حقيقيًّا، بل عاديٌّ؛ لجوازِ وجودِ الإيمانِ معه بخلافِ إرادة الله تعالى، فالحَصرُ في آية (الإسراء) حصرٌ في المانِعِ العادي، والحصرُ في آية (الكهف) في المانِعِ الحقيقيِّ، فلا تنافيَ[1]، فالمانِعُ المذكور هنا في سورة (الإسراءِ) عاديٌّ؛ لأنَّه جرت عادةُ جميعِ الأُمَمِ باستغرابِهم بَعْثَ الله رسُلًا من البشَرِ، كقَولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ الآية [إبراهيم: ١٠]، وقولِه: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ الآية [المؤمنون: ٤٧]، وقولِه: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] إلى غير ذلك مِن الآياتِ[2].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ فيه إعلامٌ مِنَ اللَّهِ سبحانَه بأنَّ الرُّسلَ ينبغي أن تكونَ مِنْ جنسِ المرسَلِ إليهم، فكأنَّه سبحانَه اعْتَبَرَ في تنزيلِ الرَّسولِ مِنْ جنسِ الملائكةِ أمرينِ:

الأوَّلُ: كونُ سُكَّانِ الأرضِ ملائكةً.

والثَّاني: كونُهم ماشينَ على الأقدامِ غيرَ قادرينَ على الطَّيرانِ بأجنِحَتِهم إلى

---

(١) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٥-١٨٦)، ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٢).

السَّماءِ، إذْ لو كانوا قادرينَ على ذلك لَطاروا إليها، وسَمِعوا من أهلِها ما يَجِبُ مَعْرِفَتُه وسماعُه، فلا يكونُ في بعثةِ الملائِكَةِ إليهم فائدَةٌ[1].

بَلاغَةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، أي: كَفَروا بالقُرآنِ، وطالَبوا بمُعجزاتٍ أُخرى. وضَميرُ الجمْعِ عائدٌ إلى أكثرِ النَّاسِ الَّذين أبَوا إلَّا كُفورًا، باعتبارِ صُدورِ هذا القولِ بينهم وهم راضونَ به، ومُتمالِئون عليه متى عَلِموه، فلا يلزَمُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهم قال هذا القولَ كلَّه، بل يكونُ بعضُهم قائلًا جميعَه، أو بعضُهم قائلًا بعضَه. ولمَّا اشتمَلَ قولُهم على ضمائرِ الخطابِ تعيَّنَ أنَّ بعضَهم خاطَبَ به النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُباشرةً؛ إمَّا في مقامٍ واحدٍ، وإمَّا في مقاماتٍ[2].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ تعريفُ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ؛ إذ المُرادُ بها أرضُ مكَّةَ، ووجْهُ تَخصيصِها: أنَّ أرضَها قليلةُ المياهِ، بعيدةٌ عن الجنَّاتِ[3].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال: ﴿تَفۡجُرَ﴾ بالتَّخفيفِ، وقال في الآيةِ الَّتي بعدها: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١]، وكذلك قال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف: ٣٣] بالتَّشديدِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ التَّفجيرَ مصدَرُ (فجَّرَ) بالتَّشديدِ؛ مُبالغةً في الفَجْرِ، وهو الشَّقُّ باتِّساعٍ؛ فالتَّفجيرُ أشدُّ من مُطلَقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٧).

الفَجْرِ، وهو تَشقيقٌ شديدٌ باعتبارِ اتِّساعِه؛ ولذلك ناسب اليَنبوعُ هنا، والنَّهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣]، وقولِه: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾

- قولُه: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ خَصُّوا هذه الجنَّةَ بأنْ تكونَ له؛ لأنَّ شأْنَ الجنَّةِ أنْ تكونَ خاصَّةً لملِكٍ واحدٍ مُعيَّنٍ، فأرَوه أنَّهم لا يَبْتغون من هذا الاقتراحِ نفْعَ أنفُسِهم، ولكنَّهم يَبْتغون حُصولَه ولو كان لفائدةِ المُقترَحِ عليه. والمُقترَحُ هو تَفجيرُ الماءِ في الأرضِ القاحلةِ، وإنَّما ذَكَروا وُجودَ الجنَّةِ؛ تَمهيدًا لتفجيرِ أنهارٍ خِلالَها، فكأنَّهم قالوا: حتَّى تفجُرَ لنا يَنبوعًا يَسْقي النَّاسَ كلَّهم، أو تُفجِّرَ أنهارًا تَسْقي جنَّةً واحدةً، تكونُ تلك الجنَّةُ وأنهارُها لك، فنحن مُقتنِعون بحُصولِ ذلك لا بُغيةَ الانتفاعِ منه[2].

- وفي قولِه: ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ ذكَرَ المفعولَ المُطلَقَ بقولِه: ﴿تَفْجِيرًا﴾ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ؛ لأنَّ ﴿تُفَجِّرَ﴾ قد كَفى في الدَّلالةِ على المُبالغةِ في الفَجْرِ، فتعيَّنَ أنْ يكونَ الإتيانُ بمفعولِه المُطلَقِ للمُبالغةِ في العدَدِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وهو المُناسِبُ لقولِه: ﴿خِلَٰلَهَا﴾؛ لأنَّ الجنَّةَ تتخلَّلُها شُعَبُ النَّهرِ لسَقْيِ الأشجارِ، فجمَعَ ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ باعتبارِ تشعُّبِ ماءِ النَّهرِ إلى شُعَبٍ عديدةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٠٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي: فليأْتِهم بآيةٍ على ذلك ولو في مَضرَّتِهم. ولعلَّهم أرادوا به الإغراقَ في التَّعجيبِ من ذلك، فجَمَعوا بين جعْلِ الإسقاطِ لنفْسِ السَّماءِ، وعزَّزوا تَعجيبَهم بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي ﴿ كَمَا زَعَمْتَ ﴾؛ إنباءً بأنَّ ذلك لا يُصدِّقُ به أحدٌ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

- قولُه: ﴿ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إنَّما عُدِّيَ الفعلُ بحرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرُّقِيَّ تدرُّجٌ في السَّمواتِ كمَن يصعَدُ في المِرقاةِ والسُّلَّمِ[2].

- قولُه: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ لمَّا كان اقتراحُهم اقتراحَ مُلاجَّةٍ[3] وعِنادٍ، أمَرَه اللهُ بأنْ يُجيبَهم بما يدُلُّ على التَّعجُّبِ من كلامِهم بكلمةِ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّى ﴾ الَّتي تُستعمَلُ في التَّعجُّبِ، ثمَّ بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وصِيغَةِ الحصرِ (هل... إلَّا) المُقتضيةِ قصْرَ نفْسِه على البشريةِ والرِّسالةِ قصرًا إضافيًّا، أي: لستُ ربًّا مُتصرِّفًا أخلُقُ ما يُطلَبُ منِّي؛ فكيف آتي باللهِ والملائكةِ، وكيف أخلُقُ في الأرضِ ما لم يُخْلَقْ فيها[4]؟!

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٠).

(٣) المُلاجَّة: التَّمادي في الخُصومةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٠-٢١١).

- قولُه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا﴾ الهمزةُ في ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾ للإنكارِ[١]. ووُرودُ هذا الكلامِ بِصيغةِ الحصْرِ (ما... إلَّا)، وأداةِ العُمومِ، جعَلَه تذييلًا لِما مَضى من حكايةِ تفنُّنِهم في أساليبِ التَّكذيبِ والتَّهكُّمِ؛ فالظَّاهرُ حمْلُ التَّعريفِ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على الاستغراقِ، أي: ما منَعَ جميعَ النَّاسِ أنْ يؤمنوا إلَّا ذلك التَّوهُّمُ الباطِلُ[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

- وقد حصَرَ المانعَ من الإيمانِ فيما ذُكِرَ مع أنَّ لهم موانعَ شَتَّى؛ لأنَّه مُعظَمُها، أو لأنَّه هو المانعُ بحسَبِ الحالِ، أي: عند سماعِ الجوابِ بقولِه تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ إذ هو الَّذي يتشبَّثونَ به حينئذٍ من غيرِ أنْ يخطُرَ ببالِهم شُبهةٌ أُخرى من شُبَهِهم الواهيةِ. وفيه إيذانٌ بكَمالِ عِنادِهم، حيث يشيرُ إلى أنَّ الجوابَ المذكورَ مع كونِه حاسمًا لموادِّ شُبَهِهم، مُلجِئًا إلى الإيمانِ، يعكِسونَ الأمْرَ، ويَجْعلونه مانِعًا منه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا﴾، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥]؛ فورَدَ في الثَّانيةِ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ ولم يَرِدْ في الأُولى؛ وفي ذلك مُناسبةٌ حَسنةٌ، وهي أنَّ المعنى هنا: ما منَعَهم عن الإيمانِ بمُحمَّدٍ إلَّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ هلَّا بَعَثَ مَلَكًا! وجَهِلوا أنَّ التَّجانسَ يُورِثُ التَّوانسَ، والتَّغايُرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٥).

يُورثُ التَّنافُرَ، والمعنى في (الكَهفِ): ما منَعَهم عن الإيمانِ والاستِغفارِ إلَّا إتيانُ سُنَّةِ الأوَّلينَ؛ فزاد فيها ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٥٥]؛ لاتِّصالِه بقولِه: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهم قومُ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، وشُعيبٍ، حيثُ أُمِروا بالاستغفارِ[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

- الباءُ الدَّاخلةُ على اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿بِٱللَّهِ﴾ لتأكيدِ لُصوقِ فعْلِ ﴿كَفَىٰ﴾ بفاعلِه، وأصْلُه: كفى اللهُ شهيدًا[٣].

- وقولُه: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وإنَّما لم يقُلْ: (بيننا)؛ تحقيقًا للمُفارقةِ، وإبانةً للمُباينةِ[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ أُريدَ بالشَّهيدِ هنا الشَّهيدُ للمُحقِّ على المُبطِلِ؛ فهو كِنايةٌ عن النَّصيرِ والحاكمِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ سببُ الحكمِ، والقرينةُ قولُه: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأنَّ ظرفَ (بين) يُناسِبُ معنى الحُكمِ. وهذا بمعنى قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وقولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾[٥] [الممتحنة: ٣].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٣).
(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تَعليلٌ للاكتفاءِ به تعالى(١)، وفيه تَسليةٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتهديدٌ للكُفَّارِ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بتقديمِ ﴿شَهِيدًۢا﴾ على ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وقال في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢] بالعكسِ؛ لأنَّ ما هنا جاء على الأصْلِ من تَقديمِ المفعولِ، وما في العنكبوتِ جاء على خلافِ الأصْلِ؛ ليتَّصِلَ وصْفُ الشَّهيدِ به، وهو قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ لأنَّه لمَّا وصَفَه بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ طال، فلم يَجُزِ الفصْلُ به(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٣٤).

الآيات (٩٧-١٠٠)

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا (١٠٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَبُكْمًا﴾: أي: لا يَنطِقونَ، جمعُ أبكَمَ، وهو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فكُلُّ أبكَمَ أخرَسُ، وليس كلُّ أخرَسَ أبكَمَ، وأصلُ (بكم): يدُلُّ على الخَرَسِ(١).

﴿وَصُمًّا﴾: أي: لا يسمعونَ، والصُّمُّ جمْعُ أصَمَّ، والصَّمَم فُقدانُ حاسَّة السَّمْع، وأصْلُه: الصَّلابةُ، وقيل: السَّدُّ، أو: تَضامُّ الشَّيءِ، وزوالُ الخَرقِ والسَّمِّ (الثقب)(٢).

﴿خَبَتْ﴾: أي: سَكَنَ لَهَبُها، وصار عليها خِباءٌ مِن رَمادٍ، أي: غِشاءٌ(٣).

﴿وَرُفَـٰتًا﴾: أي: فُتاتًا، وما تناثَر وبَلِي مِن كلِّ شيءٍ، وأصلُ (رفت): يدلُّ على

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

فتٍّ ولَيٍّ[(١)].

﴿قَتُورًا﴾: أي: بخيلًا مُمسِكًا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وهو بإزاءِ الإسرافِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومَن يَهْدِه اللهُ فهو المُهتَدي إلى الحَقِّ، ومَن يُضلِلْه فيَخذُلْه ويَكِلْه إلى نَفسِه فلن تجدَ لهم -يا محمدُ- ناصرينَ ينصرونَهم، ويهدونَهم إلى طريقِ الحقِّ مِن دُونِ اللهِ، ونَحشُرُ هؤلاء الضَّالين على وُجوهِهم عُمْيًا لا يَرَونَ، وبُكْمًا لا يَنطِقونَ، وَصُمًّا لا يَسمَعونَ، مَصيرُهم جهنَّمُ، كُلَّما سَكَن لَهيبُها في أجسادِهم زِدْناهم نارًا مُلتَهِبةً مُتأجِّجةً، ذلك العذابُ بسَبَبِ كُفرِهم بآياتِنا وحُجَجِنا، وقَولِهم إنكارًا للبَعثِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا عِظامًا باليةً نُبعَثُ بعد ذلك خَلْقًا جديدًا؟! أَولَم يَعلَمْ هؤلاء المُشرِكونَ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّمَواتِ والأرضَ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ، قادِرٌ على أن يُعيدَ خَلقَهم بعد فَنائِهم؟ وقد جعل اللهُ لهؤلاء المُشرِكينَ وَقتًا مُحَدَّدًا لِمَوتِهم وبَعثِهم لا شَكَّ في مَجيئِه، فأبى الكافِرونَ إلَّا جُحودًا وإنكارًا لبَعْثِهم!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو كُنتُم تَملِكونَ خزائِنَ الرِّزقِ، إذَن لبَخِلتُم بها، فلم تُعطُوا أحدًا شيئًا؛ خَوفًا مِن أن تنفَدَ فتُصبِحوا فُقَراءَ، وكان الإنسانُ مفطورًا على البُخلِ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أجاب اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ القَومِ الكافرينَ في إنكارِ النُّبوَّةِ، وأردَفَها بالوَعيدِ الإجماليِّ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦]؛ ذكَرَ بَعْدَه الوعيدَ الشَّديدَ على سبيلِ التَّفصيلِ[(١)].

وأيضًا لمَّا تقدَّمَ دعوةُ الرَّسولِ إلى الإيمانِ، وتحدَّى بالمُعجِزِ الَّذي آتاهُ اللهُ، ولجُّوا في كُفْرِهم وعِنادِهم، ولم يُجْدِ فيهم ما جاء به من الهُدى؛ أخبَرَ بأنَّ ذلك كلَّه راجعٌ إلى مَشيئتِه تعالى، وأنَّه هو الهادي وهو المُفضِّلُ، فسلَّاه الله بذلك، وأخبَرَ تعالى على سَبيلِ التَّهديدِ لهم، والوعيدِ الصِّدْقِ لحالِهم وقْتَ حشْرِهم يومَ القيامةِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ أنَّ الله تعالى أعلَمُ بالمُهتَدي والضَّالِّ، وكان خَتمُ الآيةِ الماضيةِ مُرشِدًا إلى أنَّ المعنى: فمَن عَلِمَ منه بجوابِه قابليَّةً للخَيرِ، وفَّقَه للعَمَلِ على تلك المُشاكَلةِ، ومَن عَلِمَ منه قابليَّةً للشَّرِّ أضَلَّه- عطَفَ عليه قولَه تعالى[(٣)]:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ فيُوفِّقْه للإيمانِ به وبِرَسولِه وبما جاء به، فهو المُهتَدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٥).

حَقًّا[١].

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن الحَقِّ، فيَخذُلْه عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، فلن تَجِدَ لهم -يا مُحمَّدُ- ناصِرينَ مِن دونِ اللهِ يُنقِذونَهم مِن عذابِه، ويَهدونَهم إلى الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ * لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ [الرعد: ٣٣، ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦].

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾.

أي: ونجمَعُ الضَّالِّينَ يومَ القيامةِ وهم يَمشُونَ على وُجوهِهم عُمْيًا لا يُبصِرونَ، وبُكْمًا لا يتكلَّمونَ، وصُمًّا لا يَسمَعونَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟! قال: أليسَ الذي أمشَاه على رِجْلَيه في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وَجْهِه يومَ القيامةِ؟!)) قال قتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[١].

﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: مَقَرُّ الضَّالِّينَ ومَنزِلُهم جهنَّمُ[٢].

﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

أي: كُلَّما سكَنَ لَهيبُ نارِ جَهنَّمَ في أجسامِ الكافرينَ، وتهَيَّأت للانطِفاءِ، زِدْناهم نارًا تتلَهَّبُ وتتأجَّجُ في أجسامِهم[٣].

قال البقاعي: (﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يَمشُونَ أو مسحوبينَ عليها؛ إهانةً لهم فيها، كما لم يُذِلُّوها بالسجودِ لنا). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥١٦).

قيل: هذا الحَشرُ بهذه الصِّفةِ يكونُ عند حَشْرِهم لدُخولِ النَّارِ. وممن قال بهذا: القرطبي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥-٤٦).

وقال ابنُ جرير: (﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يقولُ: ونَجمَعُهم بمَوقِفِ القِيامةِ مِن بَعدِ تَفرُّقِهم في القُبورِ عندَ قيامِ السَّاعةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٢).

(١) رواه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٤، ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرونَ: وذلك أنَّها تأكُلُهم، فإذا لم تُبقِ منهم شيئًا وصاروا فَحمًا ولم

كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٥-٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤- ٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذكَر اللهُ ما للكافرينَ مِن العذابِ؛ بَيَّنَ بهذه الآيةِ عِلَّةَ تَعذيبِهم؛ لِيَرجِعَ منهم مَن قضَى بسَعادتِه، فقال تعالى[(١)]:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

أي: جزاءُ المُشرِكينَ بحَشرِهم على وُجوهِهم عُمْيًا وبُكمًا وصُمًّا، وإدخالِهم جهنَّمَ وزيادتِهم مِن عذابِها، هو بسَبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا بحُجَجِنا وأدِلَّتِنا، ولم يَظلِمْهم اللهُ سُبحانَه، بل جازاهم بما يستَحِقُّونَ[(٢)].

تجِدْ شَيئًا تأكُله، سكَنَت، فيُعادونَ خَلقًا جديدًا، فتعودُ لهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦).
قال القرطبي: (وسكونُ التهابِها مِنْ غيرِ نقصانٍ في آلامِهم، ولا تخفيفٍ عنهم مِنْ عَذابِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي))

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾.

أي: وبسَبَبِ قَولِهم إنكارًا لوُقوعِ بَعْثِهم يومَ القيامةِ: أئِذا صِرْنا في قُبورِنا عِظامًا باليةً وتُرابًا، هل سيَبعَثُنا اللهُ بعدَ مَوتِنا خلقًا جديدًا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أجابَ اللهُ تعالى عن شُبُهاتِ مُنكِري النبُوَّةِ، عاد إلى حِكايةِ شُبهةِ مُنكِري الحَشرِ والنَّشرِ؛ لِيُجيبَ عنها، وتلك الشُّبهةُ هي أنَّ الإنسانَ بعدَ أن يَصيرَ رُفاتًا ورَميمًا يَبعُدُ أن يَعودَ هو بعَينِه، وأجاب اللهُ عن ذلك[2]، فقال تعالى:

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء المُنكِرونَ للبَعثِ فيَعلَموا أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّمواتِ

(ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٢).

والأرضَ، وابتَدَعَها من العَدَمِ بقُدرتِه، على غيرِ مِثالٍ سابقٍ -وهي أعظَمُ منهم- قادِرٌ أيضًا على إعادةِ خَلقِهم بعدَ فَناءِ أجسادِهم؟! فالقادِرُ على خَلْقِ ما هو أكبَرُ وأعظَمُ منكم أقدَرُ على خَلْقِكم بلا شَكٍّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ لِموتِ المُشرِكينَ وبَعْثِهم يومَ القيامةِ وَقتًا مُحَدَّدًا لا شَكَّ في مَجيئِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

قيل: المرادُ بالأجَلِ هنا: أجَلُ مَوتِهم في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

وقيل: المراد: أجَلُ وُقوعِ البَعثِ يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣).

وممَّن جمع بين هذين المعنَيَينِ: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ٦٤٩).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فأبى المُشرِكونَ إلَّا جُحودًا وتكذيبًا بوُقوعِ بَعثِهم يومَ القيامةِ، وجُحودًا لنِعمَتِه عليهم، وتَماديًا في عبادةِ غَيرِه؛ ظلمًا منهم، بعدَ قيامِ الحجَّةِ عليهم[1].

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ طَلَبوا إجراءَ الأنهارِ والعُيونِ في بلدَتِهم؛ لِتَكثُرَ أموالُهم، وتتَّسِعَ عليهم مَعيشَتُهم، فبَيَّنَ

قال ابن عطية: (الأجَلُ هنا يحتَمِلُ أن يريدَ به القيامةَ، ويحتَمِلُ أن يريدَ أجَلَ الموتِ... ومقصِدُ هذا الكلام: بيانُ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ ومِلكِه لخَلقِه، وبتقريرِ ذلك يَقوى جوازُ بعثِه لهم حين يشاءُ لا إلهَ إلَّا هو). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٧).

قال ابن عاشور: (... ويجوزُ أن يكونَ الأجلُ أجَلَ الحياةِ، أي: وجعَلَ لحياتِهم أجلًا، فيكونُ استدلالًا ثانيًا على البعثِ، أي: ألم يرَوا أنَّه جعل لهم أجلًا لحياتِهم، فما أوجَدَهم وأحياهم وجعل لحياتِهم أجلًا إلَّا لأنَّه سيعيدُهم إلى حياةٍ أخرى وإلَّا لَما أفناهم بعد أن أحياهم؛ لأنَّ الحِكمةَ تقتضي أنَّ ما يوجِدُه الحكيمُ يحرِصُ على بقائِه وعدَمِ فَنائِه، فما كان هذا الفَناءُ الذي لا رَيبَ فيه إلَّا فَناءً عارضًا لاستقبال وجودٍ أعظَمَ مِن هذا الوجودِ وأبقى.

وعلى هذا الوجهِ فوَجهُ كَونِ هذا الجعلِ لهم ظاهِرٌ؛ لأنَّ الآجالَ آجالُهم. وكونُه لا ريبَ فيه أيضًا ظاهِرٌ؛ لأنَّهم لا يرتابون في أنَّ لحياتِهم آجالًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١-٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٢).

اللهُ تعالى لهم أنَّهم لو مَلَكوا خزائِنَ رَحمةِ اللهِ لَبَقُوا على بُخلِهم وشُحِّهم، ولَمَا أقدَموا على إيصالِ النَّفعِ إلى أحَدٍ، وعلى هذا التَّقديرِ فلا فائدةَ في إسعافِهم بهذا المطلوبِ الذي التمَسوه(١).

وأيضًا فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد منحه اللهُ ما لم يمنَحْه لأحدٍ مِن النبُوَّةِ والرِّسالةِ إلى الإنسِ والجِنِّ، فهو أحرَصُ النَّاسِ على إيصالِ الخيرِ وإنقاذِهم مِن الضَّلالِ، وهؤلاء أقرباؤه لا يكادُ يُجيبُ منهم أحَدٌ إلَّا الواحِدُ بعد الواحِدِ، قد لجُّوا في عنادِه وبَغضائِه، فلا يَصِلُ منهم إليه إلَّا الأذى! فنبَّه تعالى بهذه الآيةِ على سماحتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبَذلِه ما آتاه الله، وعلى امتِناعِ هؤلاء أن يصِلَ منهم شيءٌ مِن الخيرِ إليه، فقال: لو مَلَكوا التصَرُّفَ في خزائنِ رَحمةِ الله الَّتي هي وَسِعَت كلَّ شَيءٍ كانوا أبخَلَ مِن كلِّ أحدٍ بما أُوتوه من ذلك، بحيث لا يصِلُ منهم لأحدٍ شَيءٌ مِن النَّفعِ؛ إذ طبيعتُهم الإقتارُ، وهو الإمساكُ عن التوسُّعِ في النَّفَقةِ، هذا مع ما أُوتوه مِن الخزائِنِ، فهذه الآيةُ جاءت مُبيِّنةً تبيِّنُ ما بينهم وبينه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن حِرصِه على نَفعِهم، وعدَمِ إيصالِ شَيءٍ مِن الخيرِ منهم إليه(٢).

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: لو أنَّكم تَملِكونَ ما يَملِكُه اللهُ مِن خزائِنِ الرِّزقِ، إذَنْ لأمسَكْتُم عن أن تُعطُوا منها لأحَدٍ شَيئًا؛ خَشيةً مِن الإنفاقِ لشِدَّةِ بُخلِكم، وخَوفِكم مِن الفَقرِ لنَفادِ الخَزائِنِ، مع أنَّها لا تَنفَدُ أبدًا(٣)!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

أي: وكان الإنسانُ بخيلًا مُمسِكًا مُضيِّقًا، قد طُبِع على البخلِ والشُّحِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

يجِبُ على الإنسانِ أن يعتَمِدَ على اللهِ سُبحانَه وتعالى في أدَبِ أولادِه وهِدايتِهم؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الهادي سُبحانَه وبحَمدِه ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، وعلى هذا فالذي يُنَظِّمُ نَسْلَه أو يُحَدِّدُه خَوفًا مِن عَدَمِ القُدرةِ على تأديبِهم، هو أيضًا مُسيءُ الظَّنِّ بِرَبِّه تبارك وتعالى، وإلَّا فاللهُ سُبحانَه وتعالى بيَدِه الأمورُ(٢).

كثير)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (يريدُ أنَّ في طَبعِه ومُنتهى نَظَرِه أنَّ الأشياءَ تَتناهى وتفنى، فهو لو مَلَك خزائِنَ رَحمةِ الله لأمسَكَ خَشيةَ الفَقرِ، وكذلك يظُنُّ أنَّ قُدرةَ اللهِ تعالى تَقِفُ دون البَعثِ، والأمرُ ليس كذلك، بل قُدرتُه تعالى لا تتناهى؛ فهو مُختَرِعٌ مِنَ الخَلقِ ما يشاء، ويختَرِعُ مِن الرَّحمةِ الأرزاقَ، فلا يخافُ نَفادَ خَزائِنِ رَحمتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

وقال البقاعي: (فلا تراه إلا مضيقًا في النفقةِ على نفسِه، ومَن تلزمُه نفقتُه، شديدًا في ذلك، وإن اتسعَتْ أحوالُه، وزادتْ على الحدِّ أموالُه). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٢٠-٥٢١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيه أنَّ المُنفَرِدَ بالهِدايةِ والإضلالِ هو اللهُ وَحْدَه؛ فمَن يَهْدِه فيُيَسِّرْه لليُسرى ويُجَنِّبْه العُسرى، فهو المُهتَدي على الحقيقةِ، ومن يُضلِلْه فيَخْذُلْه ويَكِلْه إلى نَفْسِه، فلا هادِيَ له مِن دُونِ اللهِ، وليس له وليٌّ يَنصُرُه مِن عذابِ اللهِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ هذه الآيَةُ الكريمةُ يَدُلُّ ظاهِرُها علَى أَنَّ الكُفَّارَ يُبْعَثونَ يومَ القيامةِ عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا. وقدْ جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدلُّ علَى خلافِ ذلك، كقولِه تعالَى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وكقولِه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، وكقولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢].

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: كونُ المرادِ مِمَّا ذُكِر حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللَّهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيرونَ النَّارَ، ويسمعونَ زَفيرَها، وينطِقُونَ بما حَكَى اللَّهُ تعالَى عنهم في غيرِ موضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أَنَّهم لا يرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يسمعونَ كذلك، ولا يَنْطِقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٣).

بِحُجَّةٍ، كما أَنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنْطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه منزلَةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتفاعِ به.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللَّهَ إذا قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصُّمُّ والبَكَمُ مِنْ شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفرجِ، قال تعالَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥] وعلى هذا القولِ تكونُ الأحوالُ الثَّلاثةُ مُقَدَّرَةً(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ المقصودُ مِن ذلك الجمعُ بينَ التَّشويهِ والتَّعذيبِ؛ لأنَّ الوَجهَ أرَقُّ تحمُّلًا لصَلابةِ الأرضِ مِن الرِّجلِ، وهذا جزاءٌ مُناسِبٌ للجُرمِ؛ لأنَّهم رَوَّجوا الضَّلالةَ في صُورةِ الحَقِّ، ووَسَموا الحَقَّ بسِماتِ الضَّلالِ، فكان جزاؤُهم أنْ حُوِّلَت وُجوهُهم أعضاءَ مَشيٍ عِوَضًا عن الأرجُلِ، ثمَّ كانوا عُميًا جزاءَ تَعاميهم عن رؤيةِ الحقِّ، وبُكمًا جزاءَ أقوالِهم الباطلةِ على الرَّسولِ وعلى القُرآنِ، وصُمًّا جزاءَ امتِناعِهم مِن سَماعِ الحَقِّ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ الضَّالِّينَ في الدُّنيا يُحشَرونَ يومَ القيامةِ عُميًا وبُكمًا وصُمًّا؛ فإنَّ الجزاءَ أبدًا مِن جِنسِ العَمَلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٥).

٦- إنْ قيلَ: كيف نجمَعُ بينَ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾، وقولِه: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ٨٦]؟

فالجوابُ من وجوهٍ:

الوجه الأول: أنَّ ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ يقتضي سكونَ لهَبِ النَّارِ، ولا يدُلُّ هذا على أنَّه يخِفُّ العذابُ في ذلك الوقتِ(١).

الوجه الثاني: أنَّ الكَفَرةَ وَقودٌ للنَّارِ، كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] فإذا أحرقَتْهم النَّارُ زال اللهَبُ الذي كان متصاعِدًا من أجسامِهم، فلا يلبَثون أن يُعادوا كما كانوا، فيعود الالتِهابُ لهم، فالخَبْوُ وازديادُ الاشتِعالِ بالنِّسبةِ إلى أجسادِهم لا في أصلِ نارِ جهنَّمَ(٢).

الوجه الثالث: أنَّ معنى الآيةِ جارٍ على طريقِ التهَكُّمِ وبادِئِ الإطماعِ المُسفِرِ عن خيبةٍ؛ لأنَّه جعل ازديادَ السَّعيرِ مُقترِنًا بكلِّ زمانٍ مِن أزمنةِ الخَبْوِ، كما تفيدُه كَلِمةُ (كلَّما) التي هي بمعنى: كلَّ زمان، وهذا في ظاهِرِه إطماعٌ بحُصولِ خَبوٍ لورودِ لَفظِ الخَبوِ في الظَّاهِرِ، ولكنَّه يؤولُ إلى يأسٍ منه؛ إذ يدُلُّ على دوامِ سعيرِها في كُلِّ الأزمانِ؛ لاقترانِ ازديادِ سَعيرِها بكلِّ أزمانِ خَبوِها(٣).

الوجه الرابع: أنَّ المعنى: إذا أرادتْ أن تخبوَ، كقولِه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾(٤).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ العَمَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧-٢١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٤).

عِلَّةُ الجَزاءِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الشَّاهِدَ يُستدَلُّ به على الغائِبِ، ويكونُ حَقًّا(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ حُجَّةٌ في الاستِشهادِ ببَعضِ الحَقِّ على بَعضٍ(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ أحدًا لا يَلزَمُه حُجَّةٌ فيما يُخاطَبُ إلَّا مِن حيثُ يَعقِلُها ويَفهَمُها(٤).

١١- طريقةُ القُرآنِ في خِطابِ الإنسانِ مِن حَيثُ هو إنسانٌ تَتَناوَلُ الذَّمَّ له مِن حَيثُ هو إنسانٌ، كقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ونظائِرُه كثيرةٌ؛ فالإنسانُ مِن حَيثُ هو، عارٍ عن كُلِّ خَيرٍ مِن العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الذي يُكَمِّلُه بذلك، ويُعطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نَفْسِه إلَّا الجَهلُ المُضادُّ للعِلمِ، والظُّلمُ المُضادُّ للعَدلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكُلُّ عِلمٍ وعَدلٍ وخَيرٍ فيه، فمِنْ رَبِّه سُبحانَه لا مِن نَفْسِه[١]. فالله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ يَصِفُ الإنسانَ مِن حيثُ هو، إلَّا مَن وَفَّقَه اللهُ وهداه؛ فإنَّ البُخلَ والجَزَع والهَلَع صِفةٌ له[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ يدُلُّ هذا على كَرَمِه وجُودِه وإحسانِه، وقد جاء في الصَّحيحَينِ[٣]: ((يدُ اللهِ مَلأى لا يَغيضُها[٤] نفقةٌ، سَحَّاءُ[٥] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرأيتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَمينِه))[٦].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ يجوزُ أن تكون الجُملةُ معطوفةً على جُملة ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ جمعًا بين المانعِ الظاهِرِ المعتادِ مِن الهُدَى، وبينَ المانِعِ الحقيقيِّ، وهو حِرمانُ التوفيقِ مِن اللهِ تعالى؛ فمَن أصَرَّ على الكُفرِ مع وُضوحِ الدَّليل لذوي العقولِ؛ فذلك لأنَّ اللهَ تعالى لم يُوفِّقْه. ويجوزُ أن تكون الجُملةُ معطوفةً على جُملة ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾؛ ارتقاءً في التَّسليةِ، أي: لا يَحزُنك عدمُ اهتدائهم؛ فإنَّ اللهَ حرَمَهم الاهتداءَ لَمَّا أخذوا

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٩٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

(٣) البخاري (٧٤١١) واللفظ له، ومسلم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) يَغيضُها: أي: يَنقُصُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠١).

(٥) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والعطاءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

بالعِنادِ قبلَ التدبُّرِ في حقيقةِ الرِّسالةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إخبارٌ من اللهِ تَعالى، وليس مُندرِجًا تحت ﴿قُلْ﴾؛ لقولِه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾، ويحتمِلُ أنْ يكونَ مُندرِجًا؛ لمجِيءِ ﴿وَمَن﴾ بالواوِ، ويكونُ ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ إخبارًا من اللهِ تعالى. وعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ التِفاتًا؛ إذ خرَجَ من الغَيبةِ للتَّكلُّمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ تعريفُ العهْدِ الذِّهنيِّ؛ فالمُعرَّفُ مُساوٍ للنَّكرةِ، فكأنَّه قيل: فهو مُهتدٍ، وفائدةُ الإخبارِ عنه بأنَّه مُهتدٍ: التَّوطئةُ إلى ذكْرِ مُقابِلِه، وهو ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، كما يُقال: مَن عرَفَني فقد عرَفَني، ومَن لم يعْرِفني فأنا فلانٌ. ويجوزُ أنْ تجعَلَ التَّعريفَ في قولِه: ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ تعريفَ الجنْسِ؛ فيُفيدُ قصْرَ الهدايةِ على الَّذي هَداهُ اللهُ قصْرًا إضافيًّا، أي: دونَ مَن تريدُ أنت هداهُ، وأضَلَّه اللهُ. ولا يحتملُ أنْ يكونَ المعنى على القصْرِ الادِّعائيِّ الَّذي هو بمعنى الكَمالِ؛ لأنَّ الهُدى المُرادُ هنا هُدًى واحدٌ، وهو الهُدى إلى الإيمانِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حُمِلَ على لفظِ (مَن) فأُفْرِدَ؛ مُلاحظةً لسَبيلِ الهُدى وهي واحدةٌ، فناسبَ التَّوحيدُ التَّوحيدَ، وحُمِلَ على المعنى في قولِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لا على اللَّفظِ فجُمِعَ؛ مُلاحظةً لسَبيلِ الضَّلالِ؛ فإنَّها مُتشعِّبةٌ مُتعدِّدةٌ، فناسبَ التَّشعيبُ والتَّعديدُ الجمْعَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).

- وقولُه: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ إيذانًا بكَمالِ الاعتناءِ بأمْرِ الحشرِ[١].

- وقَولُه: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ لَمَّا كان المَقامُ للانتِقالِ مِن مَقامٍ إلى آخَرَ، قدَّمَ البصَرَ؛ لأنَّه العُمدةُ في ذلك، وثنَّى بالنُّطقِ؛ لأنَّه يُمكِّنُ الأعمى الاسترِشادَ، وخَتَم بالسَّمعِ؛ لأنَّه يُمكِنُ معه وَحْدَه نَوعُ رَشادٍ. وعَطْفُها بالواوِ إن كان لِتَشريكِ الكُلِّ في كُلٍّ مِن الأوصافِ، فللتَّهويلِ؛ لأنَّ المُتكَلِّمَ إذا نطَقَ بالعاطفِ ظَنَّ السَّامِعُ الانتقالَ إلى شَيءٍ آخَرَ، فإذا أتى بالوَصفِ كان أروَعَ؛ للعِلمِ بأنَّ صاحِبَه عَريقٌ فيه، وإن كان للتَّنويعِ، فلتَصويرِهم بأقبَحِ صُورةٍ مِن حيثُ إنَّه لا ينتَفِعُ فَريقٌ منهم بالآخَرِ كبيرَ نَفعٍ[٢].

- قولُه: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ السَّعيرُ: لَهَبُ النَّارِ، وهو مُشتقٌّ مِن سَعْرِ النَّارِ؛ إذا هُيِّجَ وَقودُها، وقد جَرى الوصفُ فيه على التَّذكيرِ تَبعًا لتذكيرِ اللَّهبِ، والمعنى: زِدْناهم لَهبًا فيها[٣]. والخبْوُ وازديادُ الاشتعالِ بالنِّسبةِ إلى أجسادِهم لا في أصْلِ نارِ جهنَّمَ، ولهذه النُّكتةِ سُلِّطَ فعْلُ ﴿زِدۡنَٰهُمۡ﴾ على ضَميرِ المُشركينَ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ازديادَ السَّعيرِ كان فيهم، فكأنَّه قيل: كلَّما خبَتْ فيهم زِدْناهم سعيرًا، ولم يقُلْ: زِدْناها سعيرًا[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٦).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٧).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ العقابَ الفظيعَ المَحكيَّ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ السُّؤالَ عن سبَبِ تركُّبِ هذه الهيئةِ من تلك الصُّورةِ المُفظعةِ، فالجوابُ بأنَّ ذلك بسبَبِ الكُفرِ بالآياتِ، وإنكارِ المعادِ(١).

- والاستفهامُ في حكايةِ قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ وقولِه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ إنكاريٌّ(٢)، ونَصٌّ على إنكارِ البعثِ؛ إذ هو طعنٌ في القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهذا مع اعترافِهم بأنَّه تعالى مُنشِئُ العالمِ ومُخترِعُه، ثمَّ إنَّهم يُنكرونَ الإعادةَ، فصار ذلك تَعجيزًا لقُدرتِه(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث قال عَزَّ وجَلَّ هنا: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقال في سُورةِ (الكهفِ): ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٦]؛ ففي هذه الآيةِ (جهنَّم)، ولم تَرِدْ في الأُولى مع وَحدةِ المعنى؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه في الأُولى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ إلى ما اتَّصلَ به من قولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، ثمَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾، والإشارةُ إلى ضُروبِ عِقابِهم ومأْواهم، واسمُ الإشارةِ مُتَّصلٌ بما أُشيرَ بعدُ إليه، لم يُفْصَلْ بينهما إلَّا بوصفِ جهنَّمَ الَّتي هي مأواهم؛ فجاء على ما يُناسِبُ. أمَّا قولُه في الثَّانيةِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾؛ فالإشارةُ إلى جهنَّمَ المُتقدِّمِ ذكْرُها في قولِه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ [الكهف: ١٠٠]، وقولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، لَمَّا بعُدَ ما بين اسمِ الإشارةِ والمُشارِ إليه بما فُصِلَ به بينهما؛ فلبُعدِ اسمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٦).

الإشارةِ عمَّا أُشيرَ به إليه أُعيدَ مُظهَرًا فقيلَ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف: ١٠٦][1]. وقيل: اكْتفى هنا في سُورةِ (الإسراءِ) بالإشارةِ، ولتقدُّمِ ذكْرِ جهنَّمَ، وهي -وإنْ تقدَّمَت في (الكهفِ)- لم يكتَفِ بالإشارةِ، بل جمَعَ بينها وبين العبارةِ؛ لاقترانِ الوعيدِ بالوعدِ بالجنَّاتِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]؛ ليكونَ الوعدُ والوعيدُ ظاهريْنِ للمُستمعينَ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ ...﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ لهم على ما كانوا يَسْتبعِدونه من الإعادةِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّهم قد رأَوْا قُدرةَ اللهِ على خلْقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ الَّتي بعضُ ما تَحويه البشَرُ؛ فكيف يُقِرُّون بخلْقِ هذا المخلوقِ العظيمِ، ثمَّ يُنكِرون إعادةَ بعضٍ ممَّا خُلِقَ؟! وذلك ممَّا لا يُحيلُه العقْلُ، بلْ هو ممَّا يُجوِّزُه[3]. وهذا الاستفهامُ إنكاريٌّ مَشوبٌ بتعجيبٍ من انتفاءِ علْمِهم؛ لأنَّهم لمَّا جَرَت عقائدُهم على استبعادِ البعثِ، كانوا بحالِ مَن لم تظهَرْ له دلائلُ قُدرةِ اللهِ تَعالى، فيَؤُولُ الكلامُ إلى إثباتِ أنَّهم عَلِموا ذلك في نفْسِ الأمرِ[4].

- وجُملةُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ [الإسراء: ٩٨]

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٦).
(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٠).

باعتبارِ ما تضمَّنَتْه الجُملةُ المعطوفُ عليها من الرَّدعِ عن قولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: ٩٨]؛ فبعْدَ زَجْرِهم عن إنكارِهم البعثَ بأُسلوبِ التَّهديدِ، عُطِفَ عليه إبطالُ اعتقادِهم بطريقِ الاستدلالِ بقياسِ التَّمثيلِ في الإمكانِ، وهو كافٍ في إقناعِهم هنا؛ لأنَّهم إنَّما أنْكَروا البعثَ باعتقادِ استحالتِه، كما أفصَحَ عنه حكايةُ كلامِهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وإحالتُهم ذلك مُستنِدةٌ إلى أنَّهم صاروا عِظامًا ورُفاتًا، أي: بتعذُّرِ إعادةِ خلْقِ أمثالِ تلك الأجزاءِ، ولم يَستدِلُّوا بدليلٍ آخرَ، فكان تَمثيلُ خلْقِ أجسامٍ من أجزاءٍ باليةٍ بخلْقِ أشياءَ أعظَمَ منها من عدَمٍ أوغَلَ في الفناءِ: دليلًا يقطَعُ دَعواهم[١].

- قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وصْفُ اسمِ الجلالةِ بالموصولِ؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو الإنكارُ عليهم؛ لأنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أمرٌ مُشاهَدٌ معلومٌ، وكونُه مِن فِعْلِ اللهِ لا يُنازِعونَ فيه[٢].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ على قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ لأنَّ المعنى: قد عَلِموا بدليلِ العقلِ أنَّ مَن قدَرَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فهو قادرٌ على خلْقِ أمثالِهم مِن الإنسِ؛ لأنَّهم ليسوا بأشدَّ خلْقًا منهنَّ، كما قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموتُ أو القيامةُ، فأبَوا مع وُضوحِ الدَّليلِ إلَّا جُحودًا[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ وجْهُ كونِ هذا الجَعلِ لهم: أنَّهم داخِلونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١).

ذلك الأجَلِ؛ لأنَّهم من جُملةِ مَن يُبْعَثُ حينئذٍ؛ فتَخصيصُهم بالذِّكرِ لأنَّهم الَّذين أنْكَروا البعثَ[١]. وتضمَّنَ قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلًا﴾ تعريضًا بالمِنَّة بنِعْمةِ الإمهالِ، وتَعريضًا بالتَّذكيرِ بإفاضةِ الأرزاقِ عليهم في مُدَّةِ الأجلِ؛ لأنَّ في ذكْرِ خلْقِ السَّماءِ والأرضِ تذكيرًا بما تَحْتويه السَّمواتُ والأرضُ من الأرزاقِ وأسبابِها[٢].

- وجُملةُ ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَفريعٌ على الجُملتينِ باعتبارِ ما تضمَّنتاهُ من الإنكارِ والتَّعجيبِ، أي: عَلِموا أنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على إعادةِ الأجسامِ، ومع علْمِهم أبَوا إلَّا كُفورًا؛ فالتَّفريعُ من تَمامِ الإنكارِ عليهم، والتَّعجيبِ من حالِهم[٣].

- واستثناءُ الكُفورِ من الإبايةِ تأكيدٌ للشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ الضَّميرِ، حيث لم يقُلْ: فأبَوا؛ تَسجيلًا عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ بالمرَّةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ ﴿أَنتُمۡ﴾ مَرفوعٌ بفعلٍ يُفسِّرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٧).

ما بعدَه؛ لأنَّ (لو) لا يَليها إلَّا الفعلُ ظاهرًا أو مُضمرًا، والأصلُ: لو تَملِكون، فحُذِفَ الفعلُ؛ لدلالةِ ما بعدَه عليه، فانفصَلَ الضَّميرُ، وهو الواوُ؛ إذ لا يُمكِنُ بقاؤُه مُتَّصِلًا بعدَ حَذْفِ رافِعِه، وفائدةُ هذا الحذفِ والتَّفسيرِ: المُبالغةُ مع الإيجازِ، والدَّلالةُ على الاختصاصِ[(١)].

- واختيرَ الفعلُ المُضارعُ ﴿تَمۡلِكُونَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ فرْضُ أنْ يَمْلِكوا ذلك في المُستقبلِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ اعتراضٌ ناشئٌ عن بعْضِ مُقترحاتِهم الَّتي تَوهَّموا عدَمَ حُصولِها دليلًا على انتفاءِ إرسالِ بَشيرٍ؛ فالكلامُ استئنافٌ لتَكملةِ رَدِّ شُبهاتِهم. وهذا رَدٌّ لِما تضمَّنَه قولُهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولِه: ﴿تَفۡجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩١]، وقولِهم: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] مِن تعذُّرِ حُصولِ ذلك لعظيمِ قِيمَتِه، وأُدْمِجَ في هذا الرَّدِّ بيانُ ما فيهم من البُخلِ عن الإنفاقِ في سبيلِ الخيرِ، وأُدْمِجَ في ذلك أيضًا تذكيرُهم بأنَّ اللهَ أعطاهم من خَزائنِ رحمَتِه، فكَفروا نِعْمتَه، وشَكروا الأصنامَ الَّتي لا نِعمةَ لها[(٣)].



(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٢٢٢-٢٢٣).

الآيات (١٠١-١٠٤)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: حُجَجًا، وبَراهِينَ واضِحةً تقودُ إلى العِلمِ والحَقِّ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، وظهورِه، وبيانِه[١].

﴿مَثْبُورًا﴾: أي: مُهلَكًا، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[٢].

﴿يَسْتَفِزَّهُم﴾: أي: يُزعِجَهم، أو يستخِفَّهم حتى يَخْرجوا، وأصلُ (فزز): يدلُّ على خِفَّةٍ وما قارَبَها[٣].

﴿لَفِيفًا﴾: أي: جَميعًا، وأصلُ (لفف): يَدُلُّ على تَلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٦)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تذكرة

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أنَّه قد أعطَى موسَى عليه السلامُ مِن المعجزاتِ ما يشهدُ بصدقِه، ولكنَّ فرعونَ وأتباعَه لم تزِدْهم تلك المعجزاتُ إلا كفرًا وعنادًا، فيقولُ تعالى: ولقد آتَينا موسى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحاتٍ تُبيِّنُ صِدْقَ نُبُوَّتِه، فاسألْ -يا مُحَمَّدُ- اليَهودَ حين جاءهم مُوسى بمُعجِزاتِه الواضِحاتِ، فقال له فِرعونُ: إنِّي لأظُنُّك -يا موسى- قد سُحِرتَ وغُلِبتَ على عَقلِك، فأنت تهذي بكَلامٍ مختَلٍّ.

فقال له موسى: لقد تيقَّنتَ -يا فِرعونُ- أنَّه ما أنزَلَ تلك المُعجِزاتِ التِّسعَ إلَّا رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لِتَكونَ حُجَجًا واضِحةً على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وإنِّي لأظُنُّك -يا فِرعونُ- هالِكًا مَغلوبًا، فأراد فِرعونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ مِن الأرض، فأغرَقْناه وجنودَه أجمعينَ، وقُلْنا لبني إسرائيلَ مِن بَعدِ هلاكِ فِرعونَ وجُندِه: اسكُنوا الأرضَ، فإذا جاء يومُ القيامةِ جِئْنا بكم جَميعًا مِن قُبورِكم إلى مَوقِفِ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

وجهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبلَها أنَّ المعجزاتِ المذكورةَ كأنَّها مساوِيَةٌ لتلك الأمورِ الَّتي اقْتَرَحها كفَّارُ قُرَيشٍ، بلْ أقوَى منها، فليسَ عدمُ الاستجابَةِ لما طَلَبوه

الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

مِنَ الآياتِ إلَّا لعدمِ المصلحةِ في استئصالِهم إنْ لم يُؤْمِنوا بها[(١)].

وأيضًا لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن قُرَيشٍ ما حكى مِن تعَنُّتِهم في اقتراحِهم وعِنادِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، سلَّاه تعالى بما جرى لِموسى مع فِرعَونَ ومع قَومِه، وسَكَّنَ قَلْبَه، ونبَّه على أنَّ عاقِبَتَهم الدَّمارُ والهلاكُ، كما جرى لِفرعونَ إذ أهلَكَه اللهُ ومَن معه[(٢)].

وأيضًا فإنَّه قد بَقِيَ قَولُ الكافرينَ: ﴿ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] غيرَ مَردودٍ عليهم؛ لأنَّ له مُخالفةً لبَقيَّةِ ما اقترَحوه بأنَّه اقتِراحُ آيةِ عَذابٍ ورُعبٍ، فهو مِن قَبيلِ آياتِ مُوسى -عليه السَّلامُ- التِّسعِ، فكان ذِكرُ ما آتاه اللهُ موسى مِن الآياتِ، وعَدَمِ إجداءِ ذلك في فِرعَونَ وقَومِه تَنظيرًا لِما سألَه المُشرِكونَ، ففي هذا مَثَلٌ للمُعانِدينَ وتسليةٌ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسَى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحاتٍ، ودلائِلَ قاطِعاتٍ، تُبَيِّنُ صِدْقَه، وصِحَّةَ نُبُوَّتِه؛ فلم يُؤمِنْ فرعونُ ولا قومُه برسالةِ موسى، معَ كثرةِ هذه المعجزاتِ التي أُوتِيَها، ووضُوحِها، فكذلك لو أجَبْنا هؤلاء الذين سألوك -يا مُحَمَّدُ- تلك الآياتِ المقترحةَ لما استجابوا ولا آمنوا إلَّا أن يشاءَ الله، فلَسْتَ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١١٩).

قال الواحدي: (وجهُ اتصالِ معنى هذه الآيةِ بما قبلَها: أنَّه ذكَر في هذه الآيةِ إنكارَ فرعونَ آياتِ موسى مع وضوحِها، فيكونُ في ذلك تشبيهٌ لحالِ هؤلاء المشركينَ بحالِه، وتسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (١٣/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٤).

بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه النَّاسُ، رغمَ تأييدِه بالمعجزاتِ[(١)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، واختلفوا في الأربَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

قال الشوكاني: (قال أكثرُ المفسرينَ: الآياتُ التِّسعُ: هي الطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والعصا، واليدُ، والسِّنينَ، ونقصُ الثَّمراتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

وقال ابنُ كثير: (يخبِرُ تعالى أنَّه بعَث موسى بتِسعِ آياتٍ بَيِّناتٍ، وهي الدَّلائِلُ القاطِعةُ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه وصِدقِه فيما أخبَرَ به عمَّن أرسَلَه إلى فِرعونَ، وهي: العصا، واليَدُ، والسِّنونَ، والبَحرُ، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ؛ آياتٌ مُفَصَّلاتٌ. قاله ابنُ عباس. وقال محمدُ ابنُ كعبٍ: هي اليدُ، والعصا، والخمسُ في الأعرافِ، والطمسةُ والحجرُ. وقال ابنُ عباسٍ أيضًا، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والشعبيُّ، وقتادةُ: هي يدُه، وعصاه، والسِّنين، ونقصُ الثمراتِ، والطوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضفادعُ، والدمُ. وهذا القولُ ظاهرٌ جليٌّ، حسنٌ قويٌّ. وجعَل الحسنُ البصريُّ «السنينَ ونقصَ الثمراتِ» واحدةً، وعندَه أنَّ التاسعةَ هي: تلقفُ العصا ما يَأْفِكون... فهذه الآياتُ التِّسعُ التي ذكَرَها هؤلاء الأئمَّةُ، هي المرادةُ هاهنا، وهي المَعنيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢] فذَكَرَ هاتينِ الآيتَينِ: العصا واليَدَ، وبَيَّنَ الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلَها. وقد أُوتيَ موسى عليه السَّلامُ آياتٍ أُخَرَ كثيرةً، منها: ضَرْبُه الحَجَرَ بالعصا، وخروجُ الأنهارِ منه، ومنها تظليلُهم بالغَمامِ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلوى، وغيرُ ذلك ممَّا أُوتيه بنو إسرائيلَ بعد مُفارقتِهم بلادَ مِصرَ، ولكِنْ ذَكَر هاهنا التِّسعَ الآياتِ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٠ - ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾.

أي: فاسألْ -يا مُحمَّدُ- اليَهودَ المُعاصِرينَ لك حينَ جاءهم مُوسَى بالهُدى والآياتِ البَيِّناتِ[(١)].

((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمسؤولينَ مِن اليهودِ المعاصرينَ لمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم: الذين أسلَموا منهم، كعبد اللهِ بنِ سَلامٍ رَضِيَ الله عنه: ابنُ الجوزي، وابنُ عطية، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

وذكر ابن عطية قولًا آخرَ في بيانِ المعنَى: (﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ يريدُ آباءَهم، وأدخَلهم في الضميرِ؛ إذ هم منهم. ويَحتَمِلُ أن يريدَ: فاسألْ بني إسرائيلَ الأوَّلينَ الذين جاءَهم موسى، وتكونُ إحالتُه إيَّاه على سُؤالِهم بطَلَبِ أخبارِهم، والنَّظرِ في أحوالِهم وما في كُتُبِهم، نحوُ قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨، ٤٨٩).

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾.

أي: فقال فرعَونُ لِمُوسى عليه السَّلامُ عِنادًا ومُكابَرةً: إنِّي لأظُنُّك[1] -يا موسى- قد سُحِرتَ فتأثَّرَ عقلُك وفَسَدَ، وصِرْتَ تَهذِي، وتأتي بكَلامٍ مُختَلٍّ[2].

وقال الرسعني: (المعنى: اسْألْهم عن الآياتِ؛ ليزدادوا طُمأنينةً ويقينًا، وليظهرَ لعامةِ اليهودِ بقولِ علمائِهم صدقُ ما أتيتَ به، فيكونَ حُجَّة عليهم.

وقوله: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ متعلقٌ بـ ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، أو بإضمارِ «اذكُر»، على معنى: «إذ جاءهم».

وقيل: المعنى: ولقد آتينا موسى تسعَ آياتٍ بيِّناتٍ، فقُلْنا له: اسألْ بني إسرائيل، أي: سلْهم مِن فرعَون ليرسِلَهم معك، [واسْألْهم] عن إيمانِهم وحالِ دينِهم، وهل هم على ما كان عليه آباؤُهم الكرامُ مِن دين التوحيدِ، أو غيَّرهم الأمَّةُ الباغيةُ والدولةُ الطاغيةُ. أو يكون المعنى: سَلْ بني إسرائيل المعاضَدةَ والمناصَرةَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عاشور: (وكأنَّ فِرعَونَ تعَلَّقَ ظَنُّه بحَقيقةِ ما أظهَرَ مِن الآياتِ، فرَجَحَ عنده أنَّها سِحرٌ، أو تعَلَّقَ ظَنُّه بحَقيقةِ حالِ موسى فرجَحَ عنده أنَّه أصابه سِحرٌ؛ لأنَّ الظَّنَّ دُونَ اليقينِ؛ قال تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. وقد يُستعمَلُ الظَّنُّ بمعنى العِلمِ اليَقينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٠)، ((اللباب)) لابن عادل (١٢/ ٤٠١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).

وممَّن قال بأنَّ ﴿مَسۡحُورٗا﴾ على ظاهِرِها- أي: أنَّه مُتأثِّرٌ بالسِّحرِ، فاختلط عَقلُه وصار يَهذي: مقاتِلُ بن سليمان، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابنُ عادل الحنبلي، والسيوطي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائب. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧).

وقيل: ﴿مَسۡحُورٗا﴾ هنا: اسمُ مَفعولٍ بمعنى فاعلٍ، أي: ساحِرٌ، مثلُ مَشؤوم ومَيمون. أي: فقال فِرعونُ لموسى: إنِّي لأظنُّك -يا موسى- ساحِرًا؛ ولذلك تأتي بالأفعالِ الغَريبةِ. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]. وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ

كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمْتَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿عَلِمْتُ﴾ بضَمِّ التاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن نَفسِه بأنه عالِمٌ بذلك[1].

٢- قِراءةُ ﴿عَلِمْتَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ: على معنى إخبارِ موسى عن فِرعَونَ بأنَّه عالِمٌ بذلك[2].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾.

أي: قال موسى لفِرعَونَ: لقد استيقَنْتَ -يا فِرعَونُ- أنَّ هذه الآياتِ التِّسْعَ ما أنزَلَها إلَّا اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ، الذي لا يَقدِرُ على الإتيانِ بها أحَدٌ سِواه؛ أنزَلَها حُجَجًا واضِحةً تدلُّ النَّاسَ على قُدرةِ اللهِ ووحدانيَّتِه، وصِدْقِ رِسالتي[3].

وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣- ٢٤]. وذهب إليه الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٦).

(١) قرأ بها الكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١-١٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠١-١٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٦- ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٢- ١٤].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

أي: وإنِّي لأظُنُّك -يا فِرعَونُ- هالِكًا[١].

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣)﴾.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾.

أي: فأراد فِرعَونُ أن يُخرِجَ بني إسرائيلَ مِن الأرضِ[٢] بالقَتلِ، أو بالطَّردِ والإبعادِ منها[٣].

ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) قيل: المرادُ بها أرضُ مصرَ. وممن ذهب إلى ذلك: الواحدي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

قال ابنُ عطية: (متى ذُكِرَت الأرض عمومًا فإنما يُرَاد بها ما يُناسِب القصَّة المتكلَّم فيها، وقد يحسُن عمومُها في بعض القصص). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠).

وقيل: يعني بالأرضِ: مصرَ وفلسطينَ والأردنَّ. وممن قال بهذا: الماوردي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال القاسمي: (و﴿الْأَرْضِ﴾ أرض مصرَ. أو: الأرض التي أذِن لهم بالمسيرِ إليها، وسُكناها، وهي فلسطينُ). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥١٩-٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن

﴿ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾.

أي: فأغرَقْنا فِرعَونَ في البَحرِ ومَن مَعَه مِن الجُنودِ أجمَعينَ[1].

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: وقُلْنا -لبني إسرائيلَ- مِن بَعدِ هَلاكِ فِرعَونَ[2]: اسكُنوا الأرضَ[3].

عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

(٢) ممن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠).

وذهب بعضُ المعاصرين إلى أنَّ المرادَ: من بعد موسى عليه السلام. يُنظر: ((الأساس في التفسير)) لسعيد حوى (٦/ ٣٠٤٤)، ((تفسير الشعراوي)) (١٤/ ٨٣٦٦).

قال مقاتل: (﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ يعني: مِن بعدِ فِرعَونَ ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾... ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وذلك من بعد موسى، ومن بعدِ يُوشَعَ بنِ نون). ((تفسير مقاتل)) (٢/ ٥٥٣).

(٣) قيل: المرادُ بها: أرضُ مِصرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الواحدي، والرازي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٢).

قال الألوسي: (﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يَستَفِزَّكم منها، وهي أرضُ مِصرَ، وهذا ظاهِرٌ إنْ ثَبَت أنَّهم دَخَلوها بعد أن خَرَجوا منها، واتَّبَعَهم فِرعونُ وجنودُه وأُغرِقوا، وإن لم يَثبُتْ فالمرادُ مِن بني إسرائيلَ ذريَّةُ أولئك الذين أراد فِرعَونُ استِفزازَهم). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الشَّامِ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ جزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ * وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

أي: فإذا جاء وَقتُ قِيامِ السَّاعةِ، جِئْنا بكم -يا بني إسرائيلَ- وبِعَدُوِّكم[1] مِن

ومِمن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ الشَّامِ ومِصر. وممن اختار ذلك: البغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨).

قال الماتريدي: (وقال بعضُهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ ليس في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكن اسكُنوا أيَّ أرضٍ شئتُم، مشارقَها ومغاربَها، آمنينَ لا خوفٌ عليكم... كقولِه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ ...﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٧]، وهو قولُ ابنِ عباسٍ رضِي اللَّهُ عنه). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

وذهب عَددٌ مِن المُعاصِرينَ إلى أنَّ المرادَ بالأرضِ في هذه الآيةِ مُختَلفُ بِقاعِ العالَمِ التي شتَّتَ اللهُ اليهودَ فيها. يُنظر: ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم الخطيب (٨/ ٤٥٦)، ((الأساس في التفسير)) لسعيد حوى (٦/ ٣٠٤٤)، ((القرآن ونقض مطاعن الرهبان)) لصلاح الخالدي (١/ ١٤٤)، ((مباحث في إعجاز القرآن)) لمصطفى مسلم (ص: ٢٨٤).

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: بنو إسرائيل وعَدُوُّهم: ابنُ كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسي، وابنِ

قُبورِكم إلى مَوقِفِ القيامةِ جَماعاتٍ مُختَلِطةً مِن جِهاتٍ وأصنافٍ شتَّى، فنُمَيِّزُ سُعَداءَكم مِن أشقيائِكم، ونُجازي كُلًّا بعَمَلِه(١).

عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩).

قال الماتُريدي: (وأمَّا عامَّةُ أهل التأويل فإنَّهم قالوا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: يومُ القيامةِ ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ أي: جميعًا أنتم وفِرعونُ وجنودُه حتى يَرَوا كراماتِكم التي أُكرِمْتُم بها ويَرَوا هوانَهم). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

وقيل: المراد: جميعُ الخلق؛ المُسلِمُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجرُ. وممن قال بذلك: الواحدي. يُنظر: ((البسيط)) (١٣/ ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩).

وهذا المعنى المذكورُ هو في الجملةِ قولُ عامةِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣).

قال القرطبي: (﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: القيامة. ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ أي: من قبورِكم مختلطين مِن كُلِّ موضعٍ، قد اختلط المؤمِنُ بالكافِرِ لا يتعارَفون ولا ينحازُ أحَدٌ منكم إلى قبيلتِه وحَيِّه. وقال ابن عباس وقتادة: جِئنا بكم جميعًا من جهاتٍ شتَّى. والمعنى واحِدٌ... والمعنى: أنهم يخرُجون وقتَ الحشرِ مِن القبورِ كالجرادِ المنتَشِر، مختَلِطين لا يتعارَفون). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٨).

وقال الماتريدي: (قال بعضُهم: ﴿ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ليس في أرضٍ دونَ أرضٍ، ولكِن اسكُنوا أيَّ أرضٍ شِئتُم... وعلى هذا قال في قَولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بعثُ عيسى ابنِ مريم ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ أي: جميعًا مجتَمِعين من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها على ما تفرَّقوا. وقال بعضُهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني: حياةَ عيسى، ونزولَه من السَّماءِ ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴾ أي: جميعًا بانتزاعٍ مِن القرى هاهنا وهاهنا لُفُّوا جميعًا، وهو مِثلُ الأول). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ١٢٣). وقال الماوَردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿... فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويل: أحدُها: وعدُ القيامةِ، وهي الكرَّةُ الآخرةُ، قاله مقاتل. الثاني: وعدُ الكرَّةِ الآخرةِ في تحويلِهم

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذَكَر الله في القرآنِ ستَّ عشْرةَ مُعجزةً لِموسى عليه السَّلامُ، وقال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾، وتخصيصُ التِّسعةِ بالذِّكرِ لا يقدَحُ فيه ثبوتُ الزائِدِ عليه؛ لأنَّ تخصيصَ العدَدِ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نفيِ الزائِدِ، كما هو ثابتٌ في أصولِ الفِقهِ، وهذه الآيةُ دَليلٌ على هذه المسألةِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ في الأمرِ بسُؤالِ اليَهودِ تَنبيهٌ على ضَلالِهم، ولعَلَّ منه اقتِباسَ الأئمَّةِ في المُناظَرةِ مُطالبةَ اليَهودِ والنَّصارى ونحوِهم بإثباتِ نُبُوَّةِ أنبيائِهم؛ فكُلُّ طريقٍ يَسلُكونَ يُسلَكُ مِثلُه في تقريرِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم، وكُلُّ اعتِراضٍ يُورِدونَه يُورَدُ عليهم مِثلُه، وما كان جَوابًا لهم فهو جوابٌ لنا(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ ...﴾ فيه بيانُ أنَّ فِرعَونَ عالِمٌ بأنَّ الآياتِ المذكورةَ ما أنزلَها إلَّا ربُّ السَّمواتِ والأرضِ ﴿بَصَآئِرَ﴾، أي: حُجَجًا واضِحةً، وذلك يدُلُّ على أنَّ قَولَ فِرعَونَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، وقَولَه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:

إلى أرضِ الشامِ. الثالث: نزولُ عيسى عليه السَّلامُ من السَّماء، قاله قتادة). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢٦-٥٢٧).

٢٣] كلُّ ذلك منه تجاهُلُ عارفٍ[١].

٤- كان أولًا موسى عليه السلام يتوقَّعُ مِن فرعونَ أذًى، كما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]؛ فأُمِر أن يقولَ له قولًا لينًا، فلما قال له الله: لا تخفْ؛ وثِقَ بحمايةِ الله، فصال على فرعونَ صولةَ المحميِّ، وقابَله مِن الكلامِ بما لم يكنْ ليقابلَه به قبلَ ذلك، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ هذه الآيةُ وما بَعدَها تَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ قَصَّ عليه -في إثْرِ ما ذَكَرَ مِن تكذيبِ قَومِه وهَمِّهم بإخراجِه- قِصَّةَ فِرعَونَ، وما هَمَّ به مِن استِفزازِ موسى وبني إسرائيلَ مِن أرضِ مِصرَ، حتى أهلَكَه اللهُ تعالى، وأورَثَهم أرْضَهم ودِيارَهم وأموالَهم؛ لذلك أظهَرَ نَبيَّه مُحمَّدًا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المُشرِكينَ، ورَدَّه إلى مكَّةَ ظاهِرًا عليهم، فأنجزَ وَعْدَه، ونصرَ عَبْدَه[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ اقتَضَبَت هذه الآيةُ قَصَصَ موسى معَ فِرعَونَ، وإنَّما ذَكَرَت عُظْمَ الأمرِ وخَطيرَه، وذلك طَرَفاه: أراد فِرعَونُ غلَبَتَهم وقَتْلَهم، وهذا كان بَدءَ الأمرِ، فأغرَقَه اللهُ وأغرَقَ جُنودَه، وهذا كان نهايةَ الأمرِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ في هذا بِشارةٌ لمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠).

بفَتحِ مَكَّةَ، مع أنَّ السُّورةَ نَزَلَت قبل الهِجرةِ، وكذلك وقَعَ؛ فإنَّ أهلَ مَكَّةَ هَمُّوا بإخراجِ الرَّسولِ منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦- ٧٧]؛ ولهذا أورَثَ اللهُ رَسولَه مَكَّةَ، فدخَلَها عَنوةً على أشهَرِ القَولَينِ، وقَهَرَ أهْلَها، ثمَّ أطلَقَهم حِلمًا وكَرَمًا، كما أورَثَ اللهُ القَومَ الذين كانوا يُستَضعَفونَ مِن بني إسرائيلَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، وأورَثَهم بِلادَ فِرعونَ وأموالَهم وزُروعَهم[١].

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ هذا مَثَلٌ للمُعاندينَ وتَسليةٌ للرَّسولِ، ثمَّ انتقَلَ من ذلك بطريقةِ التَّفريعِ إلى التَّسجيلِ ببني إسرائيلَ؛ استشهادًا بهم على المُشركين، وإدماجًا للتَّعريضِ بهم بأنَّهم ساوَوُا المُشركينَ في إنكارِ نُبوةِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُظاهرتِهم المُشركينَ بالدَّسِّ، وتلْقينِ الشُّبَهِ، تذكيرًا لهم بحالِ فرعونَ وقومِه مع موسى؛ إذ قال له فرعونُ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[٢].

- وخصَّ بالذكرِ هاهنا تِسْعَ آياتٍ معَ أنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد أُوتيَ آياتٍ أخرَ كَثِيرَةً؛ لأنَّها الآياتُ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا[٣].

- قولُه: ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اعتراضٌ في الكلامِ، والتَّقديرُ: ولقد آتينا مُوسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤-١٢٥).

تِسْعَ آياتٍ بيِّناتٍ، إذ جاء بني إسرائيلَ، فسَلْهم، وليس المطلوبُ من سُؤالِ بني إسرائيلَ أنْ يستفيدَ هذا العلْمَ منهم، بلِ المقصودُ أنْ يظهَرَ لعامَّةِ اليهودِ صِدْقُ ما ذكَرَه الرَّسولُ عليه السَّلامُ، فيكونُ هذا السُّؤالُ سُؤالَ استشهادٍ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ...﴾ فيه تأكيدُ كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ بلامِ القَسمِ، وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ تَحقيقًا لحُصولِ علْمِ فِرعونَ أنَّ تلك الآياتِ لا تكونُ إلَّا بتَسخيرِ اللهِ؛ إذ لا يقدِرُ عليها غيرُ اللهِ(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث حَسُنَ جدًّا ما جاء به من إسنادِ إنزالِها إلى لفْظِ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ هو لمَّا سأَلَه فرعونُ في أوَّلِ مُحاورتِه فقال له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣- ٢٤]، يُنبِّهُه على نقْصِه، وأنَّه لا تصرُّفَ له في الوُجودِ؛ فدعواه الرُّبوبيَّةَ دَعوى استحالةٍ، فبكَّتَه وأعلَمَه أنَّه يعلَمُ آياتِ اللهِ ومَن أنزَلَها، ولكنَّه مُكابِرٌ مُعانِدٌ؛ فخاطَبَه بذلك على سبيلِ التَّوبيخِ، أي: أنت بحالِ مَن يعلَمُ هذا، وهي من الوُضوحِ بحيث تعلَمُها، وليس خِطابُه على جِهَةِ إخبارِه عن علْمِه(٣).
وأيضًا عبَّرَ عن اللهِ سُبحانَه بطريقِ إضافةِ وصْفِ الرَّبِّ للسَّمواتِ والأرضِ؛ تذكيرًا بأنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو القادرُ على أنْ يخلُقَ مِثْلَ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢١).

الخوارِقِ[(١)].

- قولُه: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في ذكْرِ هذا من قِصَّةِ مُوسى إتمامٌ لتَمثيلِ حالِ مُعاندي الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ بحالِ مَن عانَدَ رسالةَ مُوسى عليه السَّلامُ[(٢)].

- قولُه: ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، هذا نِذارةٌ وتَهديدٌ لِفِرعونَ بقُرْبِ هلاكِه. وإنَّما جعَلَه مُوسى (ظنًّا)؛ تأدُّبًا مع اللهِ تعالى، أو لأنَّه علِمَ ذلك باستِقراءٍ تامٍّ أفاده هلاكُ المُعاندينَ للرُّسلِ، ولكنَّه لم يَدْرِ لعلَّ فرعونَ يُقْلِعُ عن ذلك، وكان عنده احتمالًا ضعيفًا؛ فلذلك جعَلَ توقُّعَ هلاكِ فرعونَ ظنًّا. ويجوزُ أنْ يكونَ الظَّنُّ هنا مُستعملًا بمعنى اليَقينِ والعلْمِ، وإنَّما عبَّرَ بالظَّنِّ فقال له: ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ مع أنَّه يعلَمُ أنَّه مَثبورٌ؛ ليُقابِلَ قَولَ فِرعونَ له: ﴿ لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾، كأنَّه قال: إذا ظَنَنتني مَسحورًا، فأنا أظنُّك مَثبورًا؛ فجاء في جَوابِ مُوسى عليه السَّلامُ لِفِرعونَ بمثْلِ ما شافَهَه فِرعونُ به؛ مُقارعةً له، وإظهارًا لكونِه لا يَخافُه، وأنَّه يُعامِلُه مُعاملةَ المِثْلِ[(٣)].

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ أكمَلَ قِصَّةَ المثَلِ بما فيه تَعريضٌ بتَمثيلِ الحالينِ؛ إنذارًا للمُشركينَ بأنَّ عاقِبةَ مكْرِهم وكيدِهم ومُحاولاتِهم صائرةٌ إلى ما صار إليه مكْرُ فِرعونَ وكيدُه، ففرَّعَ على تَمثيلِ حالي الرِّسالتينِ وحالي المُرسَلِ إليهما ذكْرَ عاقِبةِ الحالةِ المُمثَّلِ بها؛ نِذارةً للمُمثَّلينَ بذلك المصيرِ، والاستفزازُ: الاستخفافُ، وهو كِنايةٌ عن الإبعادِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) (١/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٨).

الآيات (١٠٥-١١١)

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُكْثٍ﴾: أي: تُؤَدَةٍ وتَرَسُّلٍ، وأصلُ (مكث): يدُلُّ على توَقُّفٍ وانتِظارٍ[١].

﴿يَخِرُّونَ﴾: أي: يَسقُطونَ بِسُرعةٍ، وخَرَّ: سقَط على وَجهِه سُقوطًا يُسمَعُ منه صوتٌ (ويسمَّى خَريرًا)، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلوٍّ إِلَى الأرضِ، وأصلُ (خرر): يدُلُّ على اضطِرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ[٢].

﴿لِلْأَذْقَانِ﴾: الأذقانُ جمعُ الذَّقَنِ، وهو مجمعُ اللَّحْيينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٧)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

﴿تُخَافِتْ﴾: أي: تُخْفِها وتُسِرَّها، وأصلُ (خفت): يَدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُنوِّهُ الله تعالى بشأنِ القرآنِ فيقولُ تعالى: وبالحَقِّ أنزَلْنا هذا القُرآنَ، وبالصِّدقِ والعَدلِ، والحِفظِ مِن الزيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ والتَّغييرِ نَزَل، وما أرسَلْناك -يا مُحَمَّدُ- إلَّا مُبَشِّرًا الطَّائِعينَ بالجَنَّةِ، ومُخَوِّفًا العاصِينَ بالنَّارِ. وقُرآنًا بيَّناه وأحْكَمْناه وفَصَّلْناه فارِقًا بينَ الحقِّ والباطِلِ والهُدى والضَّلالِ؛ لِتَقرَأَه على النَّاسِ في تُؤَدَةٍ وتَمَهُّلٍ، ونَزَّلْناه مُفَرَّقًا شَيئًا بعد شَيءٍ.

ثمَّ أمر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يخاطبَ المشركينَ بما يدلُّ على عدمِ المبالاةِ بهم، فقال: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا؛ فإنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ؛ مِن مُؤمِني أهلِ الكِتابِ، إذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ يسقُطونَ على أذقانِهم ويَسجُدونَ على وُجوهِهم لله سُبحانَه وتعالى، ويقولونَ: تَنزيهًا لرَبِّنا وتَبرِئةً له مِمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ به، إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ وإنزالِ القُرآنِ عليه: كائِنٌ وواقِعٌ، ويقَعُون على أذقانِهم يَبكُونَ تأثُّرًا بمَواعِظِ القُرآنِ، ويَزيدُهم القُرآنُ خُضوعًا لأمرِ اللهِ، ورِقَّةً ولِينًا.

قُل -يا مُحَمَّدُ: ادعُوا اللهَ، أو ادعُوا الرَّحمنَ؛ فكِلاهما اسمانِ لله الواحِدِ، فبأيِّ أسمائِه دَعَوتُموه، فإنَّكم تَدْعُونَ رَبًّا واحِدًا؛ فله أحسَنُ الأسماءِ المُتَضَمِّنةِ

واللَّحْيانِ: واحدُها (اللَّحْيُ): وهو مَنبَتُ اللِّحْيةِ مِن الإنسانِ وغَيرِه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٠).

أفضَلَ الأوصافِ، ولا تجهَرْ بالقَولِ في صَلاتِك ودُعائِك، ولا تُسِرَّ به، وكُنْ وَسَطًا بين الجَهرِ والمُخافَتةِ.

ثمَّ ختَم الله هذه السورةَ بأمرِه لنبيِّه أن يحمدَه منزهًا له عن النقائصِ، فقال: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: الحَمدُ لله الذي له الكَمالُ والثَّناءُ، المتنزِّهِ عن الوَلَدِ والشَّريكِ في مُلكِه وسُلطانِه، ولم يكُنْ له سُبحانَه وَلِيٌّ مِن خَلْقِه؛ مِن أجلِ ذُلٍّ فيه أو عَجزٍ -تعالى وتقَدَّسَ- وعَظِّمْه تَعظيمًا تامًّا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا عَودٌ إلى التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ، فهو مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ فلمَّا عُطِفَ عليه ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ...﴾ [الإسراء: ٩٠] الآياتِ إلى هنا، وسمَحَت مُناسبةُ ذكْرِ تَكذيبِ فرعونَ مُوسى عليه السَّلامُ؛ عاد الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقُرآنِ لتلك المُناسَبةِ(١).

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾.

أي: أنزَلْنا القُرآنَ وَحيًا مِن عِندِ اللهِ تعالى لِمَصلحةِ الخَلقِ، مُتَضَمِّنًا للحَقِّ، مُشتَمِلًا على الأخبارِ الصَّادِقةِ، والأحكامِ العادلةِ، ونَزَل به جِبريلُ القَويُّ الأمينُ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، مَحروسًا مِنَ الشَّيطانِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٦).

مَحفوظًا مِن الزيادةِ والنُّقصانِ، لم يَقَعْ في طريقِ إنزالِه تَبديلٌ، ولم يَحدُثْ له تغييرٌ ولا تَحويلٌ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- إلَّا لِتُبَشِّرَ الطَّائِعينَ بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا، والجَنَّةِ في الآخرةِ، وتُنذِرَ العاصِينَ بالعِقابِ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۞ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾.

أي: وقُرآنًا[1] فَصَّلْناه وبَيَّنَّاه وأحْكَمْناه، وفرَّقْنا فيه بينَ الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ[2]؛ لِتَتلُوَه -يا مُحَمَّدُ- على النَّاسِ بتَمَهُّلٍ وتُؤَدةٍ وتَرتيلٍ، ولا تَعجَلْ في

---

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا﴾ منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يفسِّرُه ما بعدَه). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٤٢٥).

(٢) وممَّن اختار هذا المعنى المذكور لـ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾: ابن جرير، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

وممن قال من السلف بأن ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بمعنى التفصيلِ والبيانِ: ابنُ عباس، وأبيُّ بنُ كعبٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٤).

وقيل: المراد بذلك: نزَّلناه مفرَّقًا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مدةَ بعثتِه الشريفةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: القاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

قال القاسمي: (﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي نزَّلناه مفرَّقًا منجمًا. وقُرئ بالتشديدِ. والقراءتانِ بمعنًى). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أمَّا قراءةُ مَن قرأ بالتخفيفِ، فمعناه: فصلناه مِن اللوحِ

تِلاوتِه؛ فإنَّ ذلك أيسَرُ للحِفظِ، وأعْوَنُ على الفَهمِ؛ ليَتَدَبَّره النَّاسُ ويتفَكَّروا في معانيه، ويَستَخرِجوا مِن عُلومِه وأسرارِه ومَرامِيه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

المحفوظِ إلى بيتِ العزةِ مِن السماءِ الدنيا، ثم نزَل مفرقًا منجَّمًا على الوقائعِ إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً. قاله عكرمةُ عن ابنِ عباسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧).

وقال السعدي: (أي: وأنزلنا هذا القرآنَ مفرَّقًا، فارقًا بينَ الهدى والضلالِ، والحقِّ والباطلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣٩-٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٨).

قال الشوكاني: (﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على تطاول في المدة شيئًا بعد شيء على القراءة الأولى، أو أنزلناه آية آية، وسورة سورة. ومعناه على القراءة الثانية [أي تشديد فرقناه] ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾، أي: على ترسل وتمهل في التلاوة). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٣).

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحَمَّدُ- مُفرَّقًا شيئًا بعد شَيءٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن أوضح لهم الدَّلائِلَ على أنَّ مِثلَ ذلك القُرآنِ لا يكونُ إلَّا مُنزَّلًا من عندِ اللهِ، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨] فعجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، ثمَّ ببيانِ فضائِلِ ما اشتمَلَ عليه بقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ [الإسراء: ٨٩]، ثمَّ بالتعرُّضِ إلى ما اقترَحوه من الإتيانِ بمعجزاتٍ أُخرَ، ثمَّ بكشفِ شُبهتِهم التي يموِّهون بها امتناعَهم من الإيمانِ برِسالةِ بَشَرٍ، وبيَّن لهم غلَطَهم أو مُغالطتَهم، ثمَّ بالأمرِ بإقامةِ الله شَهيدًا بينه وبينهم، ثمَّ بتهديدِهم بعذابِ الآخرةِ، ثمَّ بتمثيلِ حالِهم مع رسولِهم بحالِ فِرعَونَ وقَومِه مع موسى وما عجَّل لهم مِن عذابِ الدُّنيا بالاستِئصالِ، ثمَّ بكَشفِ شُبهتِهم في تنجيمِ القُرآنِ- أعقب ذلك بتفويضِ النظَرِ في ترجيحِ الإيمانِ بصِدقِ القُرآنِ وعدَمِ الإيمانِ، بقَولِه تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

ءَامِنُوٓاْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ للتَّسويةِ بين إيمانِهم وعدَمِه عندَ الله تعالى[١].

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُكَذِّبينَ المُعرِضينَ عن القُرآنِ: آمِنوا بالقُرآنِ أو لا تُؤمِنوا به؛ فسَواءٌ آمَنتُم به أم كَفَرتُم، فهو حقٌّ في نَفسِه، ولن تَنفَعوا اللهَ إن آمَنْتُم، ولن تَضُرُّوه إن كَفَرْتُم، وإنَّما ضَرَرُ ذلك واقِعٌ عليكم[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا﴾.

أي: وإنْ تَكفُروا بالقُرآنِ، فإنَّ الذينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِ نُزولِه، مِن مُؤمِني أهلِ الكِتابِ[٣] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾ الآيةُ تحقيرٌ للكُفَّارِ، وفي ضِمنِه ضَربٌ مِن التوَعُّدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩١).

وقال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ يعني القُرآنَ، وهذا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ على وَجهِ التَّبكيتِ لهم والتَّهديدِ، لا على وَجهِ التَّخييرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٠).

(٣) قال ابن عاشور: (المرادُ بالذين أوتوا العلمَ، أمثالُ: ورقةَ بنِ نوفَل، فقد تسامعَ أهلُ مكَّةَ بشهادتِه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن آمنَ بعد نزولِ هذه السورة مِن مِثلِ: عبدِ الله بن سلام، ومعيقيب، وسلمان الفارسي. ففي هذه الآية إخبارٌ بمَغيبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٣).

ومما يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ ما حكاه الله عنهم بعدَ ذلك؛ مِن قولهم: ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ أي: ببعثِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ الوعدَ ببعثتِه سَبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ إنجازَ ذلك الوعدِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٨).

إذا يُتلَى عليهم هذا القُرآنُ يَسقُطونَ سَريعًا على[1] أذقانِهم[2] ساجِدينَ لله تعالى[3].

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على الأذقانِ. كما قال تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: على الجَبينِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٥٧). ويُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٣).

(٢) قال الواحدي: (المعنى أنهم يبادِرون إلى السُّجودِ فيَسقُطون على الأذقانِ أوَّلًا إذا وقَعوا بالأرضِ إلى أن نَصَبوا جباهَهم على الأرضِ للسُّجودِ؛ لأنَّ الذَّقَنَ ليس من أعضاءِ السجودِ، ويدُلُّ على هذا قَولُه: ﴿يَخِرُّونَ﴾ ولم يقُلْ: يَسجُدون؛ لأنَّه أراد مسارعتَهم إلى ذلك حتى إنَّهم لَيسقُطون). ((البسيط)) (١٣/ ٥٠٨).

وقال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ يدُلُّ على تمامِ السُّجودِ وأنَّهم سجَدوا على الأنفِ مع الجبهةِ، حتى التصقت الأذقانُ بالأرضِ، ليسوا كمن سجدَ على الجبهةِ فقط، والسَّاجِدُ على الأنفِ قد لا يُلصِقُ الذَّقَنَ بالأرضِ إلَّا إذا زاد انخفاضُه). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٥٧-١٥٨).

وقال البقاعي: (﴿يَخِرُّونَ﴾ أي: يَسقُطون بسُرعةٍ؛ وأكَّد السُّرعةَ وأفاد الاختِصاصَ بقَولِه تعالى: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ باللامِ دون «إلى» أو «على»، دالًّا بالأذقانِ على أنَّهم من شدَّةِ ما يحصُلُ لهم من الخُشوعِ يسقُطون سقوطَ من ليس له اختيارٌ، وأوَّلُ ما يلاقي الأرضَ ممَّن يسقُطُ كذلك ذَقَنُه، وهو مجتَمَعُ اللَّحيَينِ مِن مَنبَتِ لحيتِه؛ فإنَّ الإنسانَ مجبولٌ بالطبعِ على صيانةِ وجهِه، فهو يرفَعُ رأسَه، فتصيرُ ذقَنُه وفَمُه أقرَبَ ما في وجهِه إلى الأرضِ حالَ السُّقوطِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٣٤).

وقال ابن عاشور: (ذُكِرَ الذَّقَنُ للدَّلالةِ على تمكينِهم الوجوهَ كُلَّها من الأرضِ مِن قوَّةِ الرَّغبةِ في السجودِ؛ لِما فيه من استحضارِ الخُضوعِ لله تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

(٣) قال ابن جرير: (يخرُّونَ تَعظيمًا له وتَكريمًا، وعِلمًا منهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١١٩).

وقال ابن كثير: (﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله عزَّ وجلَّ؛ شكرًا على ما أنعم به عليهم، مِن جعلِه إيَّاهم أهلًا أن أدركوا هذا الرَّسولَ الذي أُنزِل عليه هذا الكتابُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وقال ابن عطية في هذه الآية: (والمعنى أنَّكم لستُم بحُجَّةٍ، فسواءٌ علينا آمنتُم أم كفرتُم، وإنَّما

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾.

أي: ويقولونَ: تَنزيهًا لربِّنا مِمَّا يُضيفُه إليه المُشرِكونَ، وعَمَّا يَقولُه الجاهِلونَ مِمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وتَعظيمًا وتوقيرًا له على قُدرَتِه التَّامَّةِ، وأنَّه لا يُخلِفُ ما وعَدَ وبَشَّرَ به في الكُتُبِ السَّابقةِ مِن بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنزالِ القُرآنِ عليه[1].

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

أي: إنَّ وعْدَ ربِّنا بإرسالِ نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإنزالِ القُرآنِ عليه[2] ....

ضَرُّ ذلك على أنفُسِكم، وإنما الحجَّةُ أهلُ العِلمِ مِن قَبلِه، وهم بالصِّفةِ المذكورة). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) ممَّن اختار المعنى المذكورَ للوعدِ: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرسعني، وأبو حيان، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢١).

كائِنٌ وواقِعٌ[(١)].

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾.

قال ابن القيم: (﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾؛ لأنَّ الله سبحانَه وتعالى وعَد بإرسالِ نبيٍّ في آخرِ الزمانِ يملأُ الأرضَ نورًا وهدًى، فلما سمِعوا القرآنَ علِموا أنَّ الله أنجَز ذلك الوعدَ الذي وعَد به). ((مدارج السالكين)) (٣/ ١٢٣).

وقال الواحدي: (وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ الوعدَ ببعثِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم سبَق في كتابِهم، فهم كانوا ينتظرونَ ذلك الوعدَ). ((البسيط)) (١٣/ ٥٠٨).

وقيل: المرادُ به: البَعثُ والجَزاءُ على الأعمالِ ثَوابًا أو عِقابًا. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: ابن جرير، ومكي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

وممَّن جَمَعَ بين المَعنَيينِ: البقاعيُّ؛ فقال: (﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي تنزَّه الموجدُ لنا، المدبرُ لأمورِنا، المحسنُ إلينا، عن شوائبِ النقصِ؛ لأنَّه وعَد على ألسنةِ رسلِنا أن يبعثَنا بعدَ الموتِ ووعدُه الحقُّ، فلا بدَّ أن يكونَ، ووعَد أن يأتيَ بهذا الكتابِ على لسانِ هذا النبيِّ العربيِّ، وأوصَل هذا الوعدَ إلينا في الكتبِ السالفةِ فأنجَز ما سبَق به وعدُه ﴿إِن﴾ أي: إنَّه ﴿كَانَ﴾ أي: كونًا لا ينفكُّ ﴿وَعْدُ رَبِّنَا﴾ أي: المحسنِ إلينا بالإيمانِ، وما تبِعه مِن وجوهِ العرفانِ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ دونَ خُلْفٍ، ولا بدَّ أن يأتيَ جميعُ ما وعَد به مِن الثوابِ والعقابِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٥٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وممَّن اختار أنَّ ﴿إِن﴾ هنا هي المخفَّفةُ مِن الثقيلةِ: أبو حيان، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

وممَّن اختار أنَّ (إِنْ) هنا نافيةٌ، واللامُ بمعنى (إلَّا): ابنُ جرير، والزجاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٦٤).

أي: ويَسقُطونَ على أذقانِهم يَبكُونَ خاضِعينَ لِلَّهِ عند سَماعِهم القُرآنَ[١].

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

أي: ويَزيدُهم القُرآنُ[٢] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤٣٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٢ - ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

وقال ابن تيمية: (مدح هؤلاء وأثنى عليهم بخرورِهم للأذقانِ، أي: على الأذقان سجَّدًا. والثاني بخرورهم للأذقان: أي عليها يبكُون. فتبيَّن أنَّ نفسَ الخرور على الذقَنِ عبادةٌ مقصودة يحبُّها الله، وليس المرادُ بالخرور إلصاقَ الذقَنِ بالأرض كما تُلصَقُ الجبهةُ، والخرورُ على الذقَنِ هو مبدأُ الركوعِ، والسجودُ منتهاه؛ فإن الساجِدَ يسجُدُ على جبهتِه لا على ذقَنِه لكنَّه يخِرُّ على ذقنِه، والذَّقَنُ آخِرُ حَدِّ الوجهِ، وهو أسفَلُ شيء منه وأقربُه إلى الأرضِ، فالذي يخِرُّ على ذقَنِه يخرُّ وجهُه ورأسُه خضوعًا لله. ومن حينئذ قد شرع في السجود، فكما أنَّ وضْعَ الجبهة هو آخِرُ السجودِ فالخرورُ على الذَّقَنِ أوَّلُ السجودِ، وتمامُ الخرور أن يكونَ من قيام أو قعود... والذي يخِرُّ على الذَّقَنِ لا يسجُدُ على الذقَنِ؛ فليس الذقَنُ من أعضاءِ السجود... ولو سجد على ذقَنِه ارتفعت جبهتُه، والجمع بينهما متعَذِّرٌ أو متعسِّر؛ لأنَّ الأنفَ بينهما وهو ناتئ يمنع إلصاقَهما معًا بالأرض في حالٍ واحدةٍ، فالساجِدُ يخِرُّ على ذقنِه ويسجدُ على جبهتِه، فهذا خرورُ السجود. ثمَّ قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فهذا خرورُ البكاء قد يكونُ معه سجودٌ وقد لا يكون. فالأولُ كقولِه: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فهذا خرورٌ وسجودٌ وبكاءٌ. والثاني: كقولِه: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ فقد يبكي الباكي من خشيةِ الله مع خضوعِه بخرورِه وإن لم يصِلْ إلى حدِّ السجود. وهذا عبادةٌ أيضًا؛ لِما فيه من الخرورِ لله والبكاءِ له، وكلاهما عبادةٌ لله؛ فإنَّ بكاءَ الباكي لله -كالذي يبكي من خشيةِ الله- من أفضَلِ العباداتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ١٤٢-١٤٤).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطفُ صفةٍ على صفةٍ، لا عطفُ سُجودٍ على سجودٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي،

خُضوعًا لله، واستِكانةً له، ورِقَّةً ولِينًا في قُلوبِهم[١].

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ

والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٥).

وقيل: الضَّميرُ يَعودُ إلى الله تعالى، أي: يَزيدُهم اللهُ إيمانًا وتَسليمًا، كما قال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظَر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٥).

قال ابن رجب: (أصلُ الخشوعِ هو: لينُ القَلبِ ورقَّتُه، وسكونُه وخُضوعُه، وانكسارُه وحُرقتُه، فإذا خشع القلبُ تبِعَه خشوعُ جميعِ الجوارحِ والأعضاءِ؛ لأنَّها تابعة له... فإذا خشع القلبُ خشع السَّمعُ والبصر، والرأسُ والوجهُ، وسائِرُ الأعضاءِ وما ينشأ منها حتى الكلامُ؛ لهذا كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في ركوعِه في الصَّلاةِ: «خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي» وفي رواية: «وما استقلَّ به قدمي»، ورأى بعضُ السَّلَفِ رجلًا يعبثُ بيدِه في الصلاةِ فقال: لو خشع قلبُ هذا لخشَعَت جوارِحُه). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٠).

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا طالت الكَلِماتُ في المُناظَرةِ مع المشركين ومُنكِري النبوَّاتِ والجوابِ عن شُبُهاتِهم؛ أتبَعَها ببيانِ كيف يَدعُون الله ويُطيعونَه، وكيف يَذكُرونَه في وقتِ الاشتغالِ بأداء العبوديَّةِ، فقال تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ[2]: إنْ شِئْتُم فقُولوا في دُعائِكم: يا اللهُ، وإنْ شِئْتُم فقُولوا: يا رَحمنُ؛ فكِلاهما اسمٌ لله الواحِدِ الذي لا شَريكَ له[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٤٤).

(٢) قيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك المُنكِرينَ صِفةَ الرَّحمةِ لِلَّهِ، عزَّ وجلَّ، المانعينَ مِنْ تسميتِه بالرَّحمنِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية: فهذا الدُّعاءُ: المشهورُ أنَّه دُعاءُ المسألةِ، وهو سَبَبُ النُّزولِ. قالوا: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو ربَّه فيَقولُ مَرَّةً: «يا اللهُ» ومَرَّةً: «يا رحمنُ»، فظَنَّ المُشرِكونَ أنَّه يدعو إلهَينِ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٤).

وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحَمَّدُ- للمُؤمِنينَ. وممَّن قال بهذا: الواحدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١١، ٢١٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٦،

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: بأيِّ اسمٍ مِن أسماءِ اللَّهِ[1] دَعَوتُم، فإنَّما تَدعُونَ اللهَ الواحِدَ سُبحانَه؛ فله أحسَنُ الأسماءِ المُتضَمِّنةِ أفضَلَ الأوصافِ، فليس له اسمٌ غَيرُ حَسَنٍ حتى يُنهَى عن دُعائِه به[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

---

٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٩).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ادعوا هذا الاسمَ أو هذا الاسم، أي: اذكروا في دعائِكم هذا أو هذا، فالمسمَّى واحد. وعلى هذا التفسيرِ قد وقع تجوُّزٌ في فعلِ ﴿ٱدْعُوا۟﴾ مستعمَلًا في معنى: اذكروا، أو سَمُّوا في دعائِكم.

ويجوزُ أن يكون الدعاءُ مُستعمَلًا في معنى سَمُّوا، وهو حينئذٍ يتعدى إلى مفعولين. والتقدير: سَمُّوا ربَّكم اللهَ أو سمُّوه الرحمنَ، وحُذِف المفعولُ الأولُ مِن الفعلينِ وأُبقيَ الثاني لدَلالةِ المقامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٧).

(١) قال ابن القيم: (أسماؤه الدالَّةُ على صفاتِه هي أحسَنُ الأسماء وأكمَلُها، فليس في الأسماء أحسَنُ منها ولا يقومُ غيرُها مقامَها... كما أنَّ صفاتِه أكمَلُ الصفاتِ، فلا تَعدِل عمَّا سمَّى به نفسَه إلى غيرِه، كما لا تتجاوَزُ ما وصف به نفسَه ووصَفَه به رسولُه إلى ما وصَفَه به المبطِلون والمعَطِّلون). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٦٨).

وقال القرطبي: (وهي بتَوقيفٍ لا يَصِحُّ وَضعُ اسمٍ لله بِنَظَرٍ إلَّا بتوقيفٍ مِن القُرآنِ أو الحَديثِ أو الإجماعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلاَّ واحِدًا، مَن أحصاها[١] دخَلَ الجَنَّةَ))[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: ((نَزَلَت ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتوارٍ بِمكَّةَ، فكان إذا صلَّى بأصحابِه رَفَعَ صَوتَه بالقُرآنِ، فإذا سَمِعَ ذلك المُشرِكونَ سَبُّوا القُرآنَ ومَن أنزَلَه، ومَن جاء به، فقال اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيَسمَعَ المُشرِكونَ قِراءَتَك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابِك، أَسْمِعْهم القُرآنَ ولا تَجهَرْ ذلك الجَهرَ، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يقولُ: بينَ

---

(١) مَن أحصاها: أي: حَفِظَها وأحسنَ المُراعاةَ لها والمحافظةَ على ما تقتَضيه وصَدَّق بمعانيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

الجَهرِ والمُخافَتةِ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (نَزَلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدُّعاءِ)[٢].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾.

أي: ولا تَرفَعْ صَوتَك -يا مُحَمَّدُ- بقِراءةِ القُرآنِ في صَلاتِك، ودُعائِك وذِكْرِك لله فيها، ولا تُسِرَّ بذلك[٣].

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٧٥٢٦) واللفظ له، ومسلم (٤٤٧).

قال ابنُ حَجَرٍ: (هكذا أَطلَقَت عائِشةُ، وهو أعَمُّ مِن أن يكونَ ذلك داخِلَ الصَّلاةِ أو خارِجَها، وقد أخرَجَه الطَّبريُّ وابنُ خُزَيمة والعمري والحاكِمُ مِن طريق حفص بن غياث عن هشام، فزاد في الحديث: «في التشَهُّد»... ورجَّحَ الطَّبَريُّ حَديثَ ابنِ عَبَّاسٍ، قال: لأنَّه أَصَحُّ مَخرجًا، ثمَّ أسند عن عطاءٍ قال: «يقولُ قَومٌ: إنَّها في الصَّلاةِ، وقومٌ إنَّها في الدُّعاء»... ورَجَّحَ النوويُّ وغَيرُه قَولَ ابنِ عَبَّاسٍ، كما رَجَّحَه الطَّبَريُّ، لكِنْ يَحتَمِلُ الجَمعُ بينهما بأنَّها نَزَلَت في الدُّعاءِ داخِلَ الصَّلاةِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٥، ٤٠٦).

(٣) وممَّن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ قولَه: ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ يشمَلُ القِراءةَ، والدُّعاء، والذِّكرَ في الصَّلاةِ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٦). ويُنظر أيضًا : ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٦١).

وقيل: المرادُ بالصَّلاةِ هنا: القراءةُ فيها. وممَّن اختار هذا القول: الزجَّاج، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

أي: واسلُكْ -يا مُحَمَّدُ- طَريقًا وَسَطًا بينَ الجَهرِ والمُخافَتةِ[١].

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ألَّا يُذكَرَ ولا يُنادى إلَّا بأسمائِه الحُسنى؛ عَلَّمَه كيفيَّةَ التَّحميدِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان النَّهيُ عن الجَهرِ بالدُّعاءِ أو قراءةِ الصَّلاةِ سَدًّا لِذَريعةِ زيادةِ تَصميمِ الكافِرينَ على الكُفرِ؛ أعقَبَ ذلك بأمْرِه بإعلانِ التَّوحيدِ؛ لِقَطعِ دابِرِ توَهُّمِ مَن توَهَّموا أنَّ (الرَّحمنَ) اسمٌ لِمُسمًّى غَيرِ مُسمَّى اسمِ اللهِ؛ فبَعضُهم توَهَّمَه إلهًا شَريكًا، وبَعضُهم توَهَّمَه مُعِينًا وناصِرًا، فأُمِرَ النَّبيُّ بأن يقولَ ما يَقلَعُ ذلك كُلَّه، وأن يُعَظِّمَه بأنواعٍ مِن التَّعظيمِ[٣].

وأيضًا لَمَّا أثْبَتَ تعالى لنفسِه الكريمةِ الأسماءَ الحسنَى؛ نَزَّهَ نفسَه عن النَّقائصِ، فقال[٤]:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾.

أي: وقُلْ -يا مُحَمَّدُ: الثَّناءُ الجَميلُ لله المتَّصِفِ بالكَمالِ، المُنَزَّهِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠).

النَّقائِصِ، الذي لم يَجعَلْ له ولدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٢].

وقال سُبحانَه حِكايةً عن قَولِ مُؤمِني الجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

أي: ولا يُوجَدُ أحدٌ يُشارِكُه في مُلكِه وسُلطانِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾.

أي: ولا يُوجَدُ لله وليٌّ يُناصِرُه ويُدافِعُ عنه، ويتعزَّزُ به، ويُعاوِنُه مِن أجْلِ ذلٍّ فيه أو عَجزٍ أو افتقارٍ -سُبحانَه وتعالى- بل هو الغَنيُّ ذو العِزَّةِ والكِبرياءِ، وكُلُّ شَيءٍ خاضِعٌ له، وتَحتَ قَهرِه وقُدرتِه، ولا يكونُ إلهًا يُطاعُ ويُعبَدُ، مَن كان ذليلًا مَهينًا مُحتاجًا إلى وَليٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

أي: وعَظِّمْ -يا مُحَمَّدُ- ربَّك تَعظيمًا تامًّا شَديدًا، فلا تَعبُدْ غَيرَه، وأطِعْ أمْرَه، واجتَنِبْ نَهْيَه، وأخبِرْ عنه بأوصافِه الحُسنى، وأفعالِه العَظيمةِ، ونزِّهْه عن كلِّ آفةٍ ونَقصٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٩٠).

كما قال تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ دلَّ نَعتُ هؤلاء ومَدْحُهم بخُرورِهم باكينَ، على استِحبابِ البُكاءِ والتخَشُّعِ؛ فإنَّ كُلَّ ما حُمِدَ فيه مِن النُّعوتِ والصِّفاتِ التي وَصَفَ اللهُ تعالى بها مَن أحَبَّه مِن عبادِه، يلزَمُ الاتِّصافُ بها. كما أنَّ ما ذَمَّ منها مَن مَقَتَه منهم، يجِبُ اجتِنابُه[١]، فيستحبُّ البكاءُ والتَّباكي لمن لا يقدِرُ على البكاءِ؛ فإنَّ البكاءَ عندَ القراءةِ صفةُ العارفينَ، وشعارُ عِبادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ[٢].

٢- عن عبدِ الأعلى التَّيميِّ، قال: (مَن أُوتِيَ مِن العِلمِ ما لا يُبْكيه، لَخليقٌ ألَّا يكونَ أُوتيَ عِلمًا يَنفَعُه؛ لأنَّ اللهَ نَعتَ العُلَماءَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾)[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ مَدْحُ لِمَن أوجبَ له سَماعُ كتابِ اللهِ الخُشوعَ في قلْبِه[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ فيه كَمالُ غِنَى اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ أحدٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٢١-٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((سنن الدارمي)) (٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٧).

وانفرادُه بالمُلْكِ، وتَمامُ عِزَّتِهِ وسُلطانِه، فعلى العبدِ أن يُعَظِّمَ اللهَ سُبحانَه وتعالى بما يَستَحِقُّ أنْ يُعَظَّمَ به بقَدْرِ استطاعتِه. وفيه أيضًا أن الله تعالى يُحمدُ على تَنَزُّهِه عن العُيوبِ، كما يُحمَدُ على صِفاتِ الكَمالِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سلَّى الله نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإيمانِ أهلِ العلم بهذا القرآنِ، وأمَرَه ألَّا يعبأَ بالجاهلينَ شيئًا، فقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا * قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وهذا شَرفٌ عَظيمٌ لأهلِ العِلمِ(٢).

٢- قال تعالَى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ وعلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ فهما عِلَّتانِ: أنْ يُقْرَأَ على النَّاسِ، وتلك عِلَّةٌ لجعْلِه قُرآنًا -أي في تسميتِه قرآنًا-، وأنْ يُقْرَأَ على مُكْثٍ، أي: مَهَلٍ وبُطْءٍ، وهي عِلَّةٌ لتَفريقِه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ دَليلٌ على مشروعيةِ التَّسبيحِ في السُّجودِ، وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبِحَمدِك، اللَّهُمَّ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

اغفِرْ لي))[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ استَدَلَّ به الشَّافِعيُّ على استِحبابِ هذا الذِّكرِ في سُجودِ التِّلاوةِ[2].

٥- قَولُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ يقتضي تعدُّدَ المدعُوِّ، وقَولُه: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي أنَّ المدعوَّ واحِدٌ له الأسماءُ الحُسنى، وقَولُه: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ولم يقُل: ادعوا باسمِ اللهِ أو باسمِ الرَّحمنِ، يتضمَّنُ أنَّ المدعوَّ هو الربُّ الواحِدُ بذلك الاسمِ؛ فقد جعل الاسمَ تارةً مدعوًّا، وتارة مدعوًّا به في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فهو مدعوٌّ به باعتبارِ أنَّ المدعوَّ هو المسمَّى، وإنما يُدعَى باسمِه، وجُعِل الاسمُ مدعوًّا باعتبارِ أنَّ المقصودَ به هو المسمَّى وإن كان في اللَّفظِ هو المدعوَّ المنادى، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: ادعُوا هذا الاسمَ أو هذا الاسمَ، والمرادُ: إذا دعَوتَه هو المسمَّى، أيَّ الاسمينِ دعوتَ ومُرادُك هو المسمَّى ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فيه ردٌّ وتعليمٌ بأنَّ تَعَدُّدَ الأسماءِ لا يقتضي تَعَدُّدَ المسمَّى، وشتَّانَ بينَ ذلك وبينَ دعاءِ المشركينَ آلهةً مختلفةَ الأسماءِ والمسَمَّياتِ[4].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فيه استحبابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤١).

والحديث أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١١-٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٦).

التوسُّطِ في القراءةِ في الصَّلاةِ الجَهريَّةِ بين المبالغةِ في رَفعِ الصَّوتِ والإسرارِ[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قولُه: ﴿بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتِك فيها، فأُطلِقَ هنا اسمُ الكُلِّ على الجُزءِ؛ إشارةً إلى أنَّ المقصودَ الصَّلاةُ، وفي قَولِه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أُطلِقَ اسمُ الجزءِ على الكُلِّ؛ لأنَّ المقصودَ الأعظَمَ هناك القراءةُ في الفَجرِ[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ فلم ينفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مُطلَقًا، بل نفى أن يكونَ له وليٌّ من الذُّلِّ، وأثبت في موضعٍ آخَرَ أنَّ له أولياءَ، بقَولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقَولِه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذا مُوالاةُ رَحمةٍ وإحسانٍ وجَبرٍ، والموالاةُ المنفيَّةُ مُوالاةُ حاجةٍ وذُلٍّ[٣]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أَمَرَ اللهُ بحَمدِه؛ لانتفاءِ صِفاتِ النَّقصِ عنه، وهي: اتِّخاذُ الولدِ -ونَفيُه عن اللهِ يتَضَمَّنُ مع انتِفائِه كَمالَ غِناه- ونفيُ الشَّريكِ عن اللهِ يتَضَمَّنُ كَمالَ وحدانيَّتِه وقُدْرَتِه، ونَفيُ الوليِّ عنه مِن الذُّلِّ يتضَمَّنُ كَمالَ عِزِّه وقَهْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٩).

فقد روَى الشيخانِ من حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّها نزلَت في القراءةِ في الصلاةِ، وقد تقدَّم (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٣٦-١٣٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٩).

بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾

- في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ ذُكِرَ فِعْلُ النُّزولِ مرَّتينِ، وذُكِرَ له في كلِّ مرَّةٍ مُتعلَّقٌ مُتماثِلُ اللَّفظِ، لكنَّه مُختلفُ المعنى؛ فعُلِّقَ إنزالُ اللهِ إيَّاه بأنَّه بالحقِّ، فكان معنى الحقِّ: الثَّابت الَّذي لا ريبَ فيه ولا كذِبَ، وهو رَدٌّ لتَكذيبِ المُشركينَ أنْ يكونَ القُرآنُ وحيًا من عندِ اللهِ. وعُلِّقَ نُزولُ القُرآنِ -أي: بُلوغُه للنَّاسِ- بأنَّه بالحقِّ، فكان معنى الحقِّ الثَّاني مُقابِلَ الباطلِ، ولولا اختلافُ معنى الباءين في الآيةِ لكان قولُه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ مُجرَّدَ تأكيدٍ لقولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[1]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ توكيدٌ من حيث المعنى؛ لمَّا كان يُقال: أنزَلْتُه فنزَلَ، وأنزَلْتُه فلم ينزِلْ؛ إذا عرَضَ له مانعٌ من نُزولِه، جاء ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾؛ مُزيلًا لهذا الاحتمالِ ومُؤكِّدًا[2].

- وتقديمُ المجرورِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ في الموضعينِ على عامِلِه للقصْرِ؛ رَدًّا على المُنكرين الَّذين ادَّعَوا أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو سِحْرٌ مُبينٌ، أو نحوُ ذلك[3].

- قولُه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ فيه الذِّكرُ أو التَّصريحُ بقولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾، وهو إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ لنُكتةٍ بَديعةٍ؛ فإنَّه لو ترَكَ الإظهارَ، وعدَلَ عنه إلى الإضمارِ -كما يَقْتضي السِّياقُ- فقال: (وبالحقِّ أنزَلْناه وبه نَزَل)، لم يكُنْ فيه من الفخامةِ ما فيه الآنَ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٢٩- ٢٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥١٨).

- وجُملةُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ مُعترضةٌ بين جُملةِ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وجُملةِ ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾، وفيها قصْرٌ بـ(ما... إلَّا)؛ للرَّدِّ على الَّذين سأَلوه أشياءَ من تصرُّفاتِ اللهِ تعالى والَّذين ظنُّوا ألَّا يكونَ الرَّسولُ بشَرًا[١].

- وفي هذه الآياتِ السَّابقةِ من البلاغةِ ما يُعرَفُ بالاستطرادِ والخُروجِ من معنًى إلى معنًى؛ وهو أنْ يكونَ المُتكلِّمُ في غرَضٍ من الأغراضِ يُوهِمُ أنَّه مُستمِرٌّ فيه لم يخرُجْ منه إلى غيرِه لمُناسبةٍ بينهما، ثمَّ يرجِعُ إلى الأوَّلِ، ويقطَعُ الكلامَ. وهنا قدِ انتقَلَ سُبحانَه من كلامِه عن القُرآنِ، وأنَّ الإنسَ والجنَّ عاجزونَ عن الإتيانِ بمثْلِه في فصاحتِه وبَلاغتِه، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهيرًا، انتقَلَ إلى ما في مُنطوياتِه من مُثُلٍ وعِبَرٍ وبصائرَ، وانساقَ الكلامُ إلى تعنُّتِ الكافرينَ وتَمادِيهم في اللَّجاجِ، واستِمرارِهم في الغيِّ والمُكابرةِ، وطَمْسِ الحقائقِ، وإنكارِ الوقائعِ، ثمَّ أورَدَ شاهدًا على ذلك: ما لاقاهُ مُوسى من مُكابرةِ فِرعونَ وملَئِه، وضرَبَ مثَلًا في المَغبَّةِ الَّتي نالها فِرعونُ ومَن معه، ثمَّ عاد إلى الموضوعِ الَّذي شرَعَ فيه، وهو كونُ القُرآنِ نازلًا بالحقِّ، وإليه هادفًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ في التَّعبيرِ بفعْلِ ﴿نَزَّلْنَاهُ﴾ المُضاعفِ وتأكيدِه بالمفعولِ المُطلَقِ: إشارةٌ إلى تَفريقِ إنزالِه المذكورِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٢٠).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥١٨-٥١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣١).

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟...﴾ أمْرٌ يتضمَّنُ الإعراضَ عنهم، واحتقارَهم، والازدِراءَ بهم، وعدَمَ الاكتراثِ بهم وبإيمانِهم وبامتناعِهم عنه، وأنَّهم إنْ لم يَدْخُلوا في الإيمانِ ولم يُصدِّقوا بالقُرآنِ، وهم أهلُ جاهليَّةٍ وشِرْكٍ، فإنَّ خيرًا منهم وأفضَلَ -وهم العُلماءُ الَّذين قَرؤوا الكُتبَ، وعَلِموا ما الوحيُ وما الشَّرائعُ- قد آمَنوا به وصَدَّقوه. وفيه تعريضٌ بأنَّ الَّذين أعْرَضوا عن الإيمانِ بالقُرآنِ جهلةٌ وأهلُ جاهليَّةٍ؛ فالآيةُ تَحقيرٌ للكُفَّارِ، وفي ضِمْنِه ضَرْبٌ من التَّوعُّدِ، والمعنى: أنَّكم لستُمْ بحُجَّةٍ، فسواءٌ علينا آمنْتُم أمْ كفرْتُم، وإنَّما ضَررُ ذلك على أنفُسِكم، وإنَّما الحُجَّةُ أهلُ العِلْمِ. وقيل: الآية مُخلَصةٌ للوعيدِ دُونَ التَّحقيرِ، والمعنى: فسَتَرون ما تُجازونَ به[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ تَعليلٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ تعليلًا لقولِه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾، وأنْ يكونَ تعليلًا لـ ﴿قُلْ﴾، على سبيلِ التَّسليةِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَطييبِ نفْسِه، كأنَّه قيل: تسَلَّ عن إيمانِ الجهلةِ بإيمانِ العُلماءِ. وعلى الأوَّلِ: إنْ لم تُؤْمِنوا به لقد آمَنَ به مَن هو خيرٌ منكم[2].

- قولُه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ معنى الخُرورِ للذَّقَنِ: السُّقوطُ على الوجْهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٩).

وإنَّما ذُكِرَ الذَّقَنُ وهو مُجتمَعُ اللَّحيَينِ؛ لأنَّ السَّاجدَ أوَّلُ ما يَلْقى به الأرضَ من وجْهِه الذَّقَنُ، وعُبِّرَ هنا باللَّامِ دونَ حرفِ الاستعلاءِ (على)، وهو ظاهرُ المعنى إذا قلْتَ: خَرَّ على وجْهِه، وعلى ذَقَنِه، فقال: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ ولم يقُلْ: (على الأذقانِ)؛ لأنَّ المعنى: أنَّه جعَلَ ذَقَنَه ووجْهَه للخُرورِ، واختصَّه به؛ فعُبِّرَ باللَّامِ لأنَّ اللَّامَ للاختصاصِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾

- جُملةُ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عُطِفَت على ﴿يَخِرُّونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يَجْمعون بين الفعْلِ الدَّالِّ على الخُضوعِ، والقولِ الدَّالِّ على التَّنزيهِ والتَّعظيمِ. على أنَّ في قولِهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ دَلالةً على التَّعجُّبِ والبهجةِ من تَحقُّقِ وعْدِ اللهِ في التَّوراةِ والإنجيلِ بمَجيءِ الرَّسولِ الخاتمِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وجُملةُ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ مِن تَمامِ مقولِهم، وهو المقصودُ من القولِ؛ لأنَّ تَسبيحَهم قبلَه تَسبيحُ تعجُّبٍ واعتبارٍ بأنَّه الكتابُ الموعودُ به وبرسولِه في الكُتبِ السَّابقةِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

- قولُه: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ فيه تكرارُ (الأذقانِ)؛ لاختلافِ الحالَينِ، وهما: خُرورُهم في حالِ كونِهم ساجدينَ، وخُرورُهم في حالِ كونِهم باكينَ. أو الأوَّلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٩٩-٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٤).

واقعٌ في قِراءةِ القُرآنِ أو سماعِه، والثَّاني في غيرِ ذلك[(١)]. أو لاختلافِ السببِ؛ فإنَّ الأوَّلَ لتعظيمِ الله سُبحانَه وتنزيهِه، وقيل: للشُّكرِ عند إنجازِ الوعدِ، والثَّاني لِمَا أثَّرَ فيهم من مواعظِ القُرآن حالَ كونِهم باكينَ من خَشيةِ اللهِ[(٢)].

- ومن البلاغةِ: أنَّه عقَّبَ الحالينِ بحالٍ ثالثةٍ، وهي زيادتُهم خُشوعًا كلَّما قَرؤوا، وكلَّما سَجدوا؛ فاستوفى بذلك سائرَ أحوالِهم، وهم الكَمَلةُ الَّذين أُوتوا العلْمَ، وقد أُتِيَ بالحالِ الأُولى ﴿سُجَّدًا﴾ اسمًا؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ، وإشارةً إلى دوامِ ذلِّهم بالسجودِ المشروعِ، أو بمطلقِ الخضوعِ، وقيل: لأن حالةَ السُّجودِ لمَّا كانت لا تتجدَّدُ في كلِّ وقْتٍ عُبِّرَ فيها بالاسمِ. وأُتِيَ بالحالِ الثَّانيةِ ﴿يَبْكُونَ﴾ فِعلًا؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ، فكأنَّما بُكاؤهم يتجدَّدُ بتجدُّدِ الأحوالِ الطَّارئةِ والعِظاتِ المُتتاليةِ، وأيضًا لما لهم في بعضِ الأحيانِ مِن السرورِ ببعضِ ما أُبيحَ مِن الملاذِّ[(٣)].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾

- قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ اختصَّ هَذَينِ الاسمَينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما أصلُ بَقيَّةِ أسماءِ اللهِ تعالى[(٤)]، وأيضًا فهذا التَخصيصُ يدُلُّ على أنهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٥- ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٥٢١- ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٣٧٩).

أشرَفُ مِن سائِرِ الأسماءِ، وتَقديمُ اسمِ (الله) على اسمِ (الرحمن) يدُلُّ على أنَّ (الله) أعظَمُ الأسماءِ[١].

- قولُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ (ما) صِلَةٌ لتأكيدِ ما في ﴿أَيًّا﴾ من الإبهامِ[٢]، وأصْلُ الكلامِ: أيًّا ما تَدْعوا فهو حَسَنٌ، فوُضِعَ مَوضِعَه ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ للمُبالغةِ والدَّلالةِ على ما هو الدَّليلُ عليه؛ إذ حُسْنُ جميعِ أسمائِه يَسْتدعي حُسْنَ ذَيْنك الاسمينِ[٣]. وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عِلَّةُ الجوابِ، والتَّقديرُ: أيَّ اسمٍ من أسمائِه تَعالى تَدْعُون، فلا حرَجَ في دُعائه بعدَّةِ أسماءٍ؛ إذ له الأسماءُ الحُسنى، وإذ المُسمَّى واحدٌ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾

- لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه واحدٌ وإنْ تعدَّدت أسماؤُه، أمَرَ تعالى أنْ يحمَدَه على ما أنعَمَ به عليه ممَّا آتاه من شرَفِ الرِّسالةِ والاصطِفاءِ، ووصَفَ نفْسَه بأنَّه لم يتَّخِذْ ولدًا، فيُعْتَقَد فيه تَكثُّرٌ بالنَّوعِ، وكان ذلك رَدًّا على اليهودِ والنَّصارى والعربِ الَّذين عبَدوا الأصنامَ وجعَلوها شُركاءَ للهِ، والعربِ الَّذين عبَدوا الملائكةَ واعْتَقدوا أنَّهم بناتُ اللهِ. ونَفى أوَّلًا الولدَ خُصوصًا، ثمَّ نَفى

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٧).

الشَّريكَ في مُلْكِه، وهو أعمُّ من أنْ يُنْسَبَ إليه ولدٌ فيَشْركُه أو غيرُه، ولمَّا نَفى الولدَ ونَفى الشَّريكَ نَفى الوليَّ وهو النَّاصرُ، وهو أعمُّ من أنْ يكونَ ولدًا أو شريكًا أو غيرَ شريكٍ، ولمَّا كان اتِّخاذُ الوليِّ قد يكونُ للانتصارِ والاعتزازِ به والاحتماءِ من الذُّلِّ، وقد يكونُ للتَّفضُّلِ والرَّحمةِ لمَن والَى من صالحِي عِبادِه؛ كان النَّفيُ لمَن ينتصِرُ به من أجْلِ المَذلَّةِ؛ إذ كان مَوردُ الولايةِ يحتمِلُ هذينِ الوجهينِ، فنَفى الجهةَ الَّتي لأجْلِ النَّقصِ، بخلافِ الولدِ والشَّريكِ فإنَّهما نُفِيَا على الإطلاقِ. وجاء الوصفُ الأوَّلُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، والمعنى: أنَّه تعالى لم يُسَمِّ ولم يَعُدَّ أحدًا ولدًا، ولم يَنْفِه بجِهَةِ التَّوالُدِ؛ لاستحالةِ ذلك في بَدائِه العُقولِ، فلا يتعرَّضُ لنَفْيِه بالمنقولِ؛ ولذلك جاء: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾[1] [الجن: ٣].

- ونَفى عنه أنْ يكونَ له ما يُشارِكُه من جنْسِه ومن غيرِ جنْسِه، اختيارًا واضطرارًا، وما يُعاوِنُه ويُقوِّيه، ورتَّبَ الحمْدَ عليه؛ للدَّلالةِ على أنَّه الَّذي يستحِقُّ جنْسَ الحمدِ؛ لأنَّه الكاملُ الذَّاتِ، المُنفرِدُ بالإيجادِ، المُنعِمُ على الإطلاقِ، وما عَداهُ ناقصٌ مملوكٌ؛ نِعمةٌ، أو مُنْعَمٌ عليه، ولذلك عُطِفَ عليه قولُه: ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾[2].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَقْتضي تخصيصَه تعالى بالحمْدِ، أي: قصْرَ جنْسِ الحمْدِ عليه تَعالى؛ لأنَّه أعظَمُ مُستحِقٍّ لأنْ يُحمَدَ، فالتَّخصيصُ ادِّعائيٌّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٠٠).

بادِّعاءِ أنَّ دَواعِيَ حمْدِ غيرِ اللهِ تعالى في جانبِ دَواعي حمْدِ اللهِ بمنزلةِ العدَمِ(١).

- في قولِه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ وصْفٌ بنَفْيِ الولدِ والشَّريكِ والذُّلِّ بكلمةِ التَّحميدِ؛ لأنَّ مَن هذا وصْفُه هو الَّذي يقدِرُ على إيلاءِ كلِّ نِعمةٍ، فهو الَّذي يستحِقُّ جنْسَ الحمْدِ(٢).

- وفي الأمرِ بالتكبيرِ في قولِه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ -بعد ما تقدَّم- مؤكَّدًا بالمصدرِ المنكَّرِ، مِن غيرِ تعيينٍ لما يُعَظَّمُ به تعالى؛ فيه تَنبيهٌ على أنَّ العبدَ وإنْ بالغَ في التَّنزيهِ والتَّمجيدِ، واجتهَدَ في العبادةِ والتَّحميدِ، يَنْبغي أنْ يعترِفَ بالقُصورِ عن حَقِّه في ذلك(٣).

- قولُه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ والتَّكبيرُ أبلَغُ لفظةٍ للعَرَبِ في معنى التَّعظيمِ والإجلالِ، وأُكِّدَ بالمصدرِ؛ تَحقيقًا له، وإبلاغًا في معناه(٤)، ولِمَا في التَّنوينِ من التَّعظيمِ، ولأنَّ مَن هذه صِفاتُه هو الَّذي يقدِرُ على إعطاءِ النِّعمِ الَّتي يعجِزُ غيرُه عن إسدائِها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٤٠).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الرابعَ عشرَ

ويليه المجلدُ الخامسَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الكهفِ



الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠